د. صبحي عبد المنعم محمد

العلاقات بين مصر والحجاز زمن الفاطميين والايوبيين



﴿ قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم ﴾

[سورة البقرة : ٣٢]

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله

فاتحة كل خير

وتمام كل نعمة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، وسيد الخلق أجمعين ، سيدنا محمد النبى الهادى الأمين ، وبعد

فالعلاقات بين مصر والحجاز موضوع تناولته الدراسات العديدة منذ أقدم العصور إلى اليوم ، وتعددت فيه الرؤى السياسية ، نظراً للصلات الوطيدة بين البلدين والتى تضرب بجذورها فى أعماق التاريخ نتيجة القرب الجغرافى بينهما فقد كانت - وما زالت - أنظار ساكنى مصر تهفو دائماً تجاه الحرمين الشريفين وقلوبهم تمتلئ حباً لهما ، ورغبة فى القرب منهما حيث مهبط الوحى ، وموطن الرسالة والنبوة .

والفترة التى وقع اختيارى عليها لتكون موضوع الدراسة تعد محوراً جديداً فى العلاقة بين مصر والحجاز ، فقد صارت القوى السياسية التى تظهر فى مصر تسعى للإشراف على الحجاز لتحظى برعاية المقدسات الإسلامية ، ولتستكمل ركناً من أركان سيادتها فى العالم الإسلامى ، ويتضح ذلك جلياً من خلال علاقات الفاطميين بالحجاز عقب قيام الخلافة الفاطمية الشيعية فى مصر ، وتتطلعها إلى انتزاع السيادة على العالم الإسلامى من الخلافة العباسية السنية .

ومن هنا بدأت العلاقة بين مصر والحجاز فى العصر الفاطمى تأخذ بعداً سياسياً جديداً فى الفكر والتنظيم والمجهود .

وزاد فى هذا البعد السياسى الجديد ظهور خطر القرامطة الذين اقتلعوا الحجر الأسود من

الثاني : العلاقات بين مصر والحجاز قبيل الفاطميين ، وخلصت الدراسة من ذلك إلى أن الحجاز قد ارتبط بمصر منذ أقدم العصور نتيجة التقارب الجغرافي بينهما وأن العلاقات بين مصر والحجاز تضرب بجذورها في أعماق التاريخ ، كما أن الصلات بينهما بعد الفتح الإسلامي لم تنقطع أبداً حتى قيام الدولة الفاطمية .

أما ***الباب الأول :*** ، وعنوانه : « الدعوة الفاطمية في الحجاز بين القوة والضعف » فيتضمن ثلاثة فصول :

الفصل الأول : ، وعنوانه : « حالة الحجاز قبيل السيادة الفاطمية » .

وينوه بالأحداث المتلاحقة على الحجاز منذ قيام الدولة الأموية ثم العباسية ، والمحاولات المتكررة لخلفاء الدولتين في القضاء على معارضيهم بالحجاز ، وبخاصة العلويون ، وخلص إلى أن الحجاز قد ضعف في العصر العباسي الثاني نتيجة لضعف الدولة العباسية مما شجع القرامطة على غزو الحجاز دون أن تحرك الخلافة العباسية ساكناً ، وتبع ذلك قيام الأشراف العلويين في مكة والمدينة بخلع طاعة العباسيين والدعوة للفاطميين .

فصل الثاني : ، وعنوانه : « السيادة الفاطمية في الحجاز » .

ويعرض لمظاهر السيادة الفاطمية في الحجاز التي تتمثل في خضوع الحجاز للنفوذ الفاطمي المباشر ومحاولات بعض القوى الخارجية دفع الحجاز للتحرر من السيطرة الفاطمية ،ثم الجهود الفاطمية لإخضاع الحجاز لنفوذهم ، ونجاحهم في ذلك ، ويخلص هذا الفصل إلى أن أمراء مكة والمدينة من الأشراف العلويين لم يكن لديهم القوة التي تدفع عنهم الأخطار ؛ نظراً لضعف مواردهم البشرية والمادية ، لذلك رأوا أن من الخير لهم اكتساب صداقة الفاطميين والتقرب إليهم ما داموا يحافظون على حقوق الأشراف في الإمارة ، ويمدونهم بما يحتاجون إليه من الأموال والغلال ، بالإضافة إلى انتسابهم للبيت العلوي .

الفصل الثالث : ، وعنوانه : « ضعف النفوذ الفاطمي بالحجاز » .

ويدرس هذا الفصل قيام دولة الهواشم بمكة ، وعلاقات الهواشم بالفاطميين عقب الشدة

العظمى التي تعرضت لها مصر ، وأثر هذه الشدة في ضعف النفوذ الفاطمي بالحجاز وبالمقابل ازدياد النفوذ العباسي تدريجياً ، ثم التنافس بين الخلافتين العباسية والفاطمية من أجل السيطرة على الحجاز ويخلص إلى أن ضعف النفوذ الفاطمي بالحجاز كان سببه انشغال الدولة بالفتن التي انتشرت في البلاد وزعزعت الأمن والاستقرار نتيجة الصراعات المستمرة بين رجال الدولة ، بالإضافة إلى بعض سنوات القحط التي مرت بها مصر ، وأن ولاة مكة والمدينة رغم إقامتهم الدعوة للعباسيين حرصوا على إظهار ودهم للخلفاء الفاطميين ، ويرجع ذلك إلى انتماء أمراء مكة والمدينة للبيت العلوي الذي ينتسب إليه الفاطميون أيضاً .

الباب الثاني : ، « الحجاز والدولة الأيوبية » .

وينقسم إلى ثلاثة فصول :

الفصل الأول : ، وعنوانه : « الوضع السياسي بالحجاز في ظل الأيوبيين » .

ويعرض لسياسة صلاح الدين الأيوبي تجاه الحجاز التي كان يحكمها - آنذاك - أسرة الهواشم الحسنيين في مكة بالإضافة إلى بني مهنا من آل الحسين في المدينة المنورة ، وأنه لم يسع لإسقاطهما لأنه كان يعمل من أجل توحيد القوى الإسلامية لا تشتيتها ؛ بل اكتفى بعدة إجراءات تحقق الأمن والعدالة للسكان والحجاج القادمين إليها كإلغاء المكوس والقضاء على الفتن والمنازعات، والعمل على راحة الحجاج، ويخلص هذا الفصل إلى أنه كان هناك نوع من تبادل النفوذ بين العباسيين وصلاح الدين في الحجاز وصل إلى حد عزل أمراء الأشراف ، وتعيينهم .

الفصل الثاني : ، وعنوانه : « مظاهر السيادة الأيوبية في الحجاز » .

ويعرض للأحداث التي أدت إلى سيطرة الأيوبيين على مكة مما جعلها تكاد تكون تابعة لمصر إدارياً فقد كان ولاتها يعينون ويعزلون من قبل السلطان الأيوبي الذي كان له نواب أيضاً في ينبع ويخضع له أمراء المدينة من الأشراف الحسينيين ، ويخلص هذا الفصل إلى أن الحجاز آنذاك صار خاضعاً تماماً للسيادة الأيوبية .

الفصل الثالث : ، وعنوانه : « القوى الخارجية المعادية للحجاز وموقف الأيوبيين منها » .

ويعرض هذا الفصل لدور الأيوبيين في حماية الأراضي المقدسة من العدوان الصليبي من

خلال التصدي لمحاولات أرناط أمير الكرك في الهجوم على المدينة المنورة ، ثم مرحلة الصراع على فرض النفوذ بالحجاز بين الأيوبيين وبني رسول الذين اشتد عودهم ، وبدأوا يسعون للسيطرة على مكة فانتشرت الفتن والخلافات ، وتبادل الطرفان تولية نواب من قبلهم سرعان ما يسقطون عند أول هجوم عليهم من الطرف الآخر ، ويخلص إلى أن هذه الفترة كانت فترة عصيبة للحجازيين عامة ، ولأهل مكة خاصة بسبب المعارك المتتالية ، وما يحدث فيها من إزهاق للأرواح وتدمير للممتلكات ، وارتفاع للأسعار ، وقد استمرت هذه الفترة حتى سقوط الدولة الأيوبية .

الباب الثالث : ، وعنوانه : « المجتمع الحجازي في عهد الفاطميين والأيوبيين » .

وينقسم إلى ثلاثة فصول :

الفصل الأول : ، وعنوانه : « الناحية الاجتماعية » .

ويدرس العادات والتقاليد المتبادلة بين مصر والحجاز ، ويبرز التأثير والتأثر في هذه العادات في عهدي الفاطميين والأيوبيين ، ثم يبين هذا الفصل أن مصر حظيت بصنع كسوة الكعبة الشريفة منذ العهد الجاهلي ، وقبل الإسلام ، واستمرت مصر فى تأدية رسالتها ومواصلة عملها بإرسال الكسوة بعد الإسلام ، ويوضح الفصل أن الكسوة استمرت تصل من مصر إلى الحجاز طوال عهدي الفاطميين والأيوبيين ، ويبين البحث أن المؤرخين أغفلوا الحديث عن كسوة الكعبة فى عهد الأيوبيين نظراً لانشغالهم بالحديث عن الجهاد ضد الصليبيين هذا من ناحية ، ولأن الكسوة كانت ترسل باسم الخليفة العباسي الذي كان يدعى له على منابر مصر من ناحية أخرى.

الفصل الثاني : « الناحية الاقتصادية » .

وينوه هذا الفصل بما تمثله هذه الناحية من وضع مميز نظراً لما قام به حكام مصر في عهدي الفاطميين والأيوبيين من رعاية مالية واقتصادية لسكان الحجاز وأشرافه وتنقسم الناحية الاقتصادية إلى ثلاثة أقسام :

أولاً : الزراعة :

ويبين البحث أن الزراعة كانت دائماً الدعامة الأساسية للاقتصاد المصري ، فمصر منذ فجر التاريخ تعتمد بصفة أساسية على الزراعة ، وما تنتجه من غلات ومحاصيل وخضروات ، وهي تختلف عن بلاد الحجاز التي تغلب عليها الجبال والصحاري مما جعلها تعتمد اعتماداً كاملاً على ما يأتيها من الغلال والحبوب المصرية ، وعندما تتعرض مصر للشدائد والقحط نتيجة انخفاض مياه النيل ، ويتعرض اقتصادها لأزمات شديدة يظهر تأثير ذلك واضحاً في الحجاز .

ثانياً : الصناعة :

ويوضح البحث أن التقدم الصناعي في مصر أثر تأثيراً واضحاً في التقدم الاقتصادي بها ، فقد استطاعت الدولة أن تصدر ما فاض عن احتياجاتها وتستورد ما لم تستطع إنتاجه مما أحدث رواجاً كبيراً في الاقتصاد ظهر أثره واضحاً على سكان مصر ، وعلى الحجاز الذي كان يعتمد على ما تنتجه مصر من الزيت والدقيق والشمع والطيب والمنسوجات وكثير من المواد الصناعية الأخرى .

ثالثاً : التجارة والتبادل التجاري بين مصر والحجاز :

ويبرز البحث الدور الكبير الذي لعبته العلاقات السياسية الطيبة بين مصر والحجاز في تنشيط حركة التجارة بينهما ، ويعرض هذا الفصل للمعونات الاقتصادية المصرية للحجاز حيث خصص حكام مصر في العصرين ثلاثة أبواب لدخل أمراء الحجاز هي المعونات المالية ، والمعونات التجارية ، والأوقاف ، كما يعرض للأزمات الاقتصادية وأثرها على العلاقات بين البلدين .

الفصل الثالث : « الناحية الفكرية » .

ويعرض هذا الفصل للمذاهب الفقهية في كل من مصر والحجاز ، ومدى التشابه والاختلاف بينهما ، ثم يدرس العلماء وانتقالهم بين البلدين للتحصيل العلمي والتدريس ، فقد شد الرحال إلى الحرمين كثير من طلاب العلم المصريين ، والعلماء ، فأفادوا واستفادوا ، وأثروا

وتأثروا ؛ بل إن بعض العلماء المصريين طاب لهم البقاء بجوار الحرمين الشريفين يَدرُسون ويُدرِّسون كما قدم علماء من بلاد الحجاز إلى مصر وطاب لهم البقاء فيها واتخذوا منها وطناً ثانياً فحدث تأثير وتأثر واضح بين البلدين ، ولقد اهتمت مصر في العصر الأيوبي بإنشاء بعض المدارس والأربطة بالحجاز لإثراء الحركة العلمية بها .

ثم كانت الخاتمة ، وفيها يسجل البحث أهم النتائج التي توصل إليها والقضايا التي اشتمل عليها .

ولما كانت الملاحق ذات أهمية كبرى في خدمة البحث فقد خصصت لها قسماً حوى كثيراً من الملاحق المتنوعة .

ولقد كان اعتماد البحث في هذه الدراسة على المصادر الأصلية ، واستخلص منها المادة العلمية التي تدخل في تكوين البحث بعد المقارنة بينها والأخذ من الأوثق منها .

والمصادر التي أفاد منها هذا البحث كثيرة منها المخطوط ، ومنها المطبوع ، ولا يتسع المجال هنا لذكر أهمية كل منها .

ولكن سنذكر بعض المصادر التي لها أهمية خاصة .

فمن المصادر المخطوطة نجد مخطوطة « الأول في تاريخ ابن أبي الهيجاء » .

وابن أبي الهيجاء لم نعثر له على ترجمة في المصادر أو المراجع سوى أنه كان معاصراً للسلطان صلاح الدين الأيوبي ، وربما يكون من نسل الأمراء الأكراد من بني الهيجاء .

وهذا المخطوط مرتب على السنوات الهجرية فيبدأ بسيرة النبي - صلى الله عليه وسلم - ثم بمن بعده من الخلفاء ، ويلاحظ أن حديثه كان موجزاً وعاماً إلا فيما يختص بعصر صلاح الدين وحروبه مع الصليبيين فقد جاء حديثه مفصلاً وواضحاً .

وقد استفاد البحث من هذا المخطوط عند الحديث عن قيام الدولة الأيوبية بتأمين الحجاز وصد الصليبيين عنه .

ومن المصادر المخطوطة « إتحاف فضلاء الزمن بتاريخ ولاية بنى الحسن » لمحمد بن علي

ابن فضل الطبري ، وهذا المخطوط يتحدث عن تاريخ مكة في عهد أمراء بني الحسن بن علي ابن أبي طالب حتى سنة ٦٦٠هـ / ١٢٦٢م ، ويلاحظ أنه أسهب في ذكر محاسن هؤلاء الأمراء دون ذكر مساوئهم ، وتناول في حديثه الحياة السياسية في مكة وأهمل ما عداها من النواحي الحضارية .

وقد استفاد هذا البحث من المخطوط عند الحديث عن استقلال بني الحسن بن علي بن أبي طالب بإمارة مكة عن العباسيين ، ويعتبر مخطوط « الأرج المسكي في التاريخ المكي » لمحيى الدين على بن عبد القادر الطبري من المصادر التاريخية المهمة لموضوع البحث ، وإن كانت معلوماته الغزيرة تتناول النواحي السياسية لزمن البحث وتغفل كثيراً من النواحي الاجتماعية والعلمية والثقافية .

وتعتبر مؤلفات تقي الدين الفاسي المكي من أهم المصادر المطبوعة لهذا البحث .

والفاسي هو : محمد بن أحمد بن علي الفاسي المكي المالكي المذهب الملقب بتقي الدين ، ولد في مكة سنة ٧٧٥هـ / ١٣٧٧م وعاش فيها ثم نقل إلى المدينة المنورة مع والدته وأخيه نجم الدين ، وقد تعلم الفاسي على أيدي علماء أجلاء بمكة المكرمة والمدينة المنورة ، وتولى عدة مناصب بمكة حتى صار شيخ الحرم الشريف ، وقد زار القاهرة زيارات عديدة ، والتقى بعلمائها عدة مرات ، وتوفي بمكة المكرمة في سنة ٨٣٢هـ / ١٤٢٨م[١] .

ومن أهم مؤلفاته التي استفاد البحث منها كتاباه : «العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين» و« شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام » .

ويقع العقد الثمين في ثمانية أجزاء ، وقد ترجم فيه لولاة مكة وأعيانها وعلمائها وأدبائها منذ ظهور الإسلام إلى عصره ، وقد رتبه على حروف المعجم ، وبدأه بالمحمدين والأحمدين وصدره بذكر رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وفي مقدمة كتابه يقول الفاسي : «ذكرت في هذا الكتاب تراجم الأعيان من أهل مكة وغيرهم ممن سكنها مدة سنين أو مات بها ، وتراجم ولاة

---

(١) الفاسي · العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين ج١ ص٣٣١ – ٣٦٣ .

مكة وقضاتها وخطبائها ، وأئمتها ومؤذنيها من أهلها وغيرهم ، وتراجم من وسع المسجد الحرام أو عمره أو عمر شيئاً منه أو من الأماكن الشريفة التي ينبغي زيارتها بمكة وحرمها كالمدارس والربط والسقايات والبرك والآبار والعيون والمطاهر ورتبت ما ظفرت به من التراجم على ترتيب حروف المعجم »[1] .

وقد استفاد البحث استفادة طيبة من كتاب « العقد الثمين » عند دراسة النواحي العلمية والثقافية بالإضافة إلى النواحي السياسية والاجتماعية .

أما كتابه الثاني « شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام » فهو يتكون من جزأين وهو لا يقل أهمية عن كتاب العقد الثمين فهذا الكتاب يعتبر دائرة معارف شاملة لهذا البلد الحرام وما يتصل به من النواحي السياسية والعمرانية والدينية والثقافية والاجتماعية وفيه من هذه النواحي ما لا يوجد في كتاب آخر ، وقد رتبه الفاسي على أربعين باباً جمع فيها ما يتصل بتاريخ مكة منذ الجاهلية حتى عصره ، وذكر تاريخ المسجد الحرام وبنائه وعمارته في مختلف العصور متحدثاً عن الملامح الجغرافية والتاريخية والسياسية والاجتماعية للجزيرة العربية في شتى العصور مع تنويهه بفضل الكعبة والأعمال المتعلقة بها والمواضع المباركة في مكة وحرمها مع استقصاء كامل لتاريخ مكة منذ الجاهلية بالإضافة إلى حديثه عن المآثر التي أقيمت بمكة وحرمها كالمدارس والربط وغير ذلك مضيفاً إلى ذلك كله ما وصل إلى علمه من أخبار ولاة مكة في الإسلام على سبيل الإجمال جامعاً لأشتات من الفوائد والأحداث التاريخية ، وقد رتب الفاسي كتابه ترتيباً شيقاً ، وترجع أهمية هذا الكتاب إلى استقصائه واستيعابه ، وجمع صاحبه لشتى الأخبار التي تتعلق بمكة .

وقد استفاد البحث من هذا الكتاب عند الحديث عن النواحي الاجتماعية والسياسية .

وقد اعتمد البحث أيضاً على كتاب « إتحاف الورى بأخبار أم القرى » لابن فهد ويقع في ثلاثة أجزاء ، أخرجته جامعة « أم القرى » بمكة المكرمة ، وحققه الأستاذ فهيم محمد شلتوت .

---

(١) الفاسي : العقد الثمين ج١ ص٣ - ٧ .

التاريخ العام التي تميزت بعنايتها بأخبار الحجاز في شتى العصور .

ويعتبر كتاب « النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة » من المصادر التي استفاد منها البحث وقد رتب المؤرخ كتابه حسب السنين ، ويعتبر هذا الكتاب مصدراً من أهم المصادر بالنسبة للعلاقات بين مصر والحجاز فترة حكم الخلافة الفاطمية وعن التنافس بين العباسيين والفاطميين على حكم الحجاز ، وعن فترة علاقة أمراء الحجاز بالدولة الأيوبية .

كما استفاد البحث من كتب الرحلات التي لها دور واضح في معرفة الحياة الاجتماعية والعلمية لبلاد الحجاز وأهم هذه الكتب هي :

- سَفَرْ نامة : لناصر خسرو وهو من أقدم كتب الرحلات ، فقد ألفه ناصر خسرو (ولد سنة ٣٩٤هـ / ١٠٠٣م) في عهد الخليفة المستنصر الفاطمي ، وقد خلف هذا الرحالة وصفاً دقيقاً لرحلته يحمل على القول بأنه كان يدون مشاهداته أولاً بأول ، وأنه كان يهتم بالاتصال بالشعوب التي يمر بها ويتفهم مصادر الحضارة التي يشاهدها وأبلغ مثال على ذلك وصفه مدينة القاهرة وحديثه عن حضارة مصر في عهد المستنصر ، وعنايته بدراسة الأعياد والحفلات والصناعات والفنون والأسواق ، وقد وضح ناصر خسرو في كتابه كل ما قدمه الخليفة الفاطمي لأمراء مكة والمدينة من أعطيات .

- رحلة ابن جبير : وقد بدأ ابن جبير رحلته إلى الأراضي الحجازية سنة ٥٧٨هـ / ١١٨٢م فمر بمصر أولاً ، ونزل إلى الاسكندرية ، وأتيح له مشاهدة دخول الأسرى الصليبيين الذين وقعوا في يد المسلمين في الحملة الصليبية الفاشلة التي دبرها صاحب الكرك في البحر الأحمر للاستيلاء على المدن الإسلامية المقدسة ، ثم انتقل ابن جبير إلى الحديث عن القاهرة ، وأشار إلى فضل السلطان صلاح الدين الأيوبي في محو المكوس التي كانت مفروضة على الحجاج في عصر الدولة الفاطمية ، والتي كانت تجبى من ثغر عيذاب على البحر الأحمر لحساب أمراء مكة ، وكان الحجاج يضطهدون ، ويعذبون في سبيل دفعها ، وأما الذين لا يدفعون الضريبة في عيذاب ، وتصل أسماؤهم إلى جدة « غير معلم عليها علامة الأداء » فكانوا يلقون فيها أضعاف هذا التنكيل فأبطل صلاح الدين هذه المكوس ، وعوض أمراء مكة بما يرسله إليهم

من المال والطعام سنوياً ولما وصل ابن جبير إلى عيذاب نجده يصفها بأنها من أعظم الثغور شأناً لأن مراكب الهند واليمن تحط فيها وتقلع منها بالإضافة إلى مراكب الحجاج الصادرة والواردة ؛ على أن الجزء الأساسي في رحلة ابن جبير هو وصف مكة والمسجد الحرام ، ومناسك الحج ، وزيارة المدينة فقد استغرق هذا كله أكثر من ثلث الكتاب ، ووفق فيه ابن جبير إلى تدوين كثير من نواحي الحياة السياسية والاجتماعية في بلاد الحجاز في العصر الأيوبي ، والتي أفادت البحث كثيراً عند الحديث عن النواحي الحضارية .

– ومن المراجع الحديثة التي استفاد منها البحث :

– كتاب « تاريخ مكة المكرمة » لأحمد السباعي ، وقد تناول في هذا الكتاب النواحي السياسية والاجتماعية والعلمية في مكة في عهدي الفاطميين والأيوبيين وأوضح الدور السياسي لولاة مكة منذ بداية عهد الأشراف وأشار إلى علاقتهم بكل من الخلافتين العباسية والفاطمية ثم علاقتهم بالأيوبيين .

– كتاب « النفوذ الفاطمي في جزيرة العرب » للدكتور جمال سرور وقد تناول في هذا الكتاب الوسائل التي اتبعها الفاطميون لنشر سلطانهم ببلاد الحجاز ، وبين كيف ناهضوا نفوذ العباسيين في الأماكن المقدسة ، وأقاموا الدعوة لهم بهذه الأماكن .

– وكتاب « الرحلة الحجازية » لمؤلفه محمد لبيب البتانوني ، وقد قام المؤلف بهذه الرحلة سنة ١٣٢٧هـ حينما كان يؤدي فريضة الحج مع الخديوي عباس حلمي خديوي مصر في تلك الفترة ، وفي هذا الكتاب نجده يصف مكة ومشاعرها وتخطيطها وتاريخها وتاريخ حرمها ، والزيادة فيه مع تاريخ الحرم النبوي الشريف كما تكلم عن حكم الأشراف مع جدول بأسماء ولاة مكة منذ الفتح الإسلامي إلى زمن المؤلف .

ـ وكتاب العلاقات المصرية الحجازية فى العصرين الفاطمى والأيوبى للدكتور عبد المجيد أبو الفتوح بدوى وفيه يدرس مظاهر العلاقات فى العصرين الفاطمى والأيوبى مبيناً منجزات كل من الدولتين فى مجال هذه العلاقات وموقف الأيوبيين من بعض مظاهر العلاقات التى صنعها الفاطميون .

وابن فهد هو : نجم الدين عمر محمد بن محمد بن محمد بن فهد القرشي الهاشمي المكي ، ولد سنة ٨١٢هـ / ١٤٠٩م بمكة المكرمة ، وتوفي بها سنة ٨٨٥هـ / ١٤٨٠م ، وهو من بيت علم ، وقد رحل إلى كثير من بلدان العالم الإسلامي لطلب العلم والمعرفة ومنها مصر والشام ، وله مؤلفات عديدة منها : « إتحاف الورى بأخبار أم القرى » ثم « التبيين في تراجم الطربين » و« الدر الكمين في الذيل على العقد الثمين » و« نور العيون مما تفرق من الفنون » وغيرها من مؤلفات أخرى اهتمت بتاريخ مكة[١] .

ويعتبر كتاب « إتحاف الورى » من أهم المصادر التي اعتمد عليها البحث فقد اعتمد المؤلف في كتابه على كل من سبقه من المؤرخين سواء في كتب السيرة النبوية أو كتب التاريخ العام ، وقد ذكر اسم كل من نقل عنه ، وتتبع الروايات وأسندها إلى أصحابها ورتبها ضمن السياق ، وهو يؤرخ للأحداث في سنة وقوعها متنقلاً من سنة إلى أخرى لا يخرج عن أحداث مكة إلا فيما له صلة بها مع الاهتمام ببيت الله الحرام ، وكل ما يحدث بشأنه منذ واقعة الفيل حتى سنة ٨٨٥هـ / ١٤٨٠م .

وهو يقدم صورة واضحة عن مكة المكرمة وأعمالها من النواحي السياسية والاجتماعية والثقافية والعمرانية والاقتصادية في فترة زمنية كبيرة من التاريخ وهو يعتبر من أكثر المصادر التي اشتملت على معلومات قيمة بالنسبة للحجاز في عهدي الفاطميين والأيوبيين ، ورغم أنه أتى بالأحداث عن طريق الحوليات إلا أنه عرضها عرضاً مباشراً دون تحليل أو تعليق ، وقد استفاد البحث من المعلومات القيمة التي عرضها عن تاريخ الحجاز في الفترة الزمنية للبحث .

كما اعتمد البحث على كتاب « غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام » لعز الدين عبد العزيز بن عمر بن فهد ، ولد بمكة المكرمة سنة ٨٥٠هـ / ١٤٤٦م وتوفي سنة ٩٢٢هـ / ١٥١٦م، ومن مؤلفاته : « بلوغ القرى بذيل إتحاف الورى » و« تاريخ مكة على السنين » ابتدأه بسنة ٨٧٢هـ / ١٤٦٨م .

---

(١) ابن فهد : إتحاف الورى بأخبار أم القرى ج١ ص١٠ ـ ١٤ .

أما كتابه « غاية المرام » الذي اعتمد عليه البحث فهو يترجم لكثير ممن تولوا حكم مكة حتى نهاية عصره ، ويذكر الأحداث التي جرت في عصرهم ، وقد استفاد البحث منه في الحديث عن النواحي السياسية في العصرين الفاطمي والأيوبي .

أما كتاب « الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحج وطريق مكة المعظمة » فيقع في ثلاثة أجزاء ومؤلفه هو : عبد القادر بن محمد بن إبراهيم الأنصاري الجزيري ولد سنة ٩١١هـ / ١٥٠٥م وتوفي حوالي سنة ٩٧٧هـ / ١٥٧٠م .

وقد استفاد البحث منه في ذكر طرق الحج وخاصة الطريق المصري مع ذكر الحوادث التي حدثت في هذه الطرق ، وقد ذكر بعض أمراء الحج وأوضح شروط إمارة الحج وواجباتها .

أما بالنسبة لكتب التاريخ العام فقد استفاد البحث من كتاب « الكامل في التاريخ » لابن الأثير الجزري المتوفي سنة ٦٣٢هـ / ١٢٣٥م وهو من كتب الحوليات التي تعرض للأحداث التاريخية عرضاً زمنياً مرتباً حسب السنين ، يهتم في هذا العرض بالنواحي السياسية ولقد أورد كثيراً من المعلومات التاريخية التي أفادت البحث وخاصة عن تاريخ مكة المكرمة في عهدي القاطميين والأيوبيين .

ويعتبر كتاب ابن واصل (ت سنة ٦٩٧هـ / ١٢٩٨م) « مفرج الكروب في أخبار بني يوب » من ضمن المصادر المهمة التي اعتمد عليها البحث خاصة ، فقد أمدنا بمعلومات مفيدة عن بلاد الحجاز في العصر الأيوبي أثناء سرده لأخبار الدولة الأيوبية ، ويعتبر هذا الكتاب من الكتب التاريخية المفيدة لأن ابن واصل من المؤرخين الذين عاصروا الدولة الأيوبية .

وتأتي مؤلفات المقريزي (ت ٨٤٥هـ / ١٤٤٢م) ضمن المصادر التي اعتمد عليها البحث أيضاً ، ويعتبر كتابه « اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا » من أهم الكتب التي تحدثت عن بلاد الحجاز في العصر الفاطمي ، كما يعتبر كتابه «السلوك لمعرفة دول الملوك» من الكتب التي أفادت البحث في الحديث عن تاريخ بلاد الحجاز في العصر الأيوبي .

ولقد استفاد البحث من كتاب « سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي » لعبد الملك بن حسين بن عبد الملك العصامي المكي (ت ١١١١هـ / ١٦٩٩م) وهو من كتب

ولقد اعتمد البحث على كثير من كتابات المؤرخين من أمثال : الطبري (ت ٣١٠هـ / ٩٢٣م) – ابن القلانسي(ت ٥٥٥هـ / ١١٦٠م) – ابن شداد (ت ٦٣٢هـ / ١٢٣٤م) ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ – ١٤٠٦م) – القلقشندي (ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م) وغيرهم من جملة المصادر المهمة التي اعتمد عليها البحث .

أما بقية المراجع فيمكن تقسيمها إلى ثلاثة أقسام :

- القسم الأول :

يشمل المعاجم اللغوية ، ودوائر المعارف ، وكتب السير والتراجم وكتب التاريخ العام .

- القسم الثاني :

يشمل المراجع الحديثة التي تناولت الحديث عن الحجاز ومصر .

- القسم الثالث :

يشمل المقالات والرسائل العلمية المتعلقة بموضوع البحث ، وستأتي هذه المراجع مبينة في قائمة المراجع والمصادر في آخر البحث .

وإني لأرجو – من وراء هذا البحث – أن أكون قد وفقت إلى قريب من الصواب وأن لا يحرمنا الله – سبحانه وتعالى – جزاء هذا العمل في الدنيا والآخرة ، وأن يجازي من عاوننا فيه خير الجزاء ، إنه نعم المولى ونعم النصير .

التمهيد

علاقة مصر بالحجاز قبيل الفاطميين

* * *

تمهيد

يتناول التمهيد عن العلاقات بين مصر والحجاز في عهد الفاطميين والأيوبيين أمرين هما:

أولاً : البيئة الجغرافية للحجاز وأثر هذه البيئة على السكان ، ثم أشهر المدن التابعة له ، والتي سيصبح لها دور بارز في العلاقات مع مصر .

ثانياً : العلاقات بين مصر والحجاز قبيل الفاطميين .

أولاً : البيئة الجغرافية للحجاز :

أ- تعريف الحجاز وتحديده :

لقد أسهب جغرافيو العرب في الحديث حول تعريف الحجاز وتحديده، فيقول الهمداني (ت٣٣٤هـ / ٩٤٥م) : « إن جبل السَّراة ، وهو أعظم جبال العرب أقبل من قعرة اليمن حتى بلغ أطراف بوادي الشام فسمته العرب حجازاً لأنه حجز بين الغور وهو هابط وبين نجد وهو ظاهر »[١] .

ويتفق ابن الفقيه (ت ٣٤٠هـ / ٩٥١م) مع الهمداني في أن « الحجاز سمي حجازاً لأنه يحجز بين تهامة ونجد »[٢] .

ويذكر أبو الفدا (ت ٧٣٢هـ / ١٣٣١م) : « أن جزيرة العرب خمسة أقسام تهامة ونجد وحجاز وعروض ويمن ، فأما تهامة فهي الناحية الجنوبية من الحجاز ، وأما نجد فهي الناحية التي بين الحجاز والعراق ، وأما الحجاز فهو جبل يقبل من اليمن حتى يتصل بالشام ، وقد سمي

---

(١) الهمداني : صفة جزيرة العرب ص٥٨ .

(٢) ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ص٣٦ .

حجازاً لأنه يحجز بين نجد وتهامة »[١] .

ونستنتج مما سبق أن الحجاز هو جبل السراة الذي يمتد من حدود اليمن إلى بادية الشام فيحجز بين تهامة ونجد ، وأن هذه التسمية الطبيعية قد استمدت جذورها التاريخية البعيدة حين اتضحت من البداية صورة هذا الحاجز الجبلي الممتد من اليمن إلى الشام فاصلاً بين مناطق متباينة طبيعياً وأحياناً إنتاجياً ، والذي كان يمثل عقبة وعائقاً أمام حركة التجارة في العصور القديمة والوسطى[٢] .

فالحجاز تسمية مستمدة من خاصيتها كعائق طبيعي أمام تحركات الرعاة القديمة من ناحية وأمام طريق مرور التجارة من ناحية أخرى .

والحجاز جزء من شبه الجزيرة العربية، فقد اتفق جغرافيو العرب على أن شبه الجزيرة العربية تنقسم إلى: « نجد، والحجاز، وتهامة ، والعروض ، واليمن »[٣] غير أنهم اختلفوا حول هذه الأقسام فظلت على عموميتها تتسع أحياناً وتضيق في أحيان أخرى ، وبغض النظر عن الاختلافات الواسعة الخاصة بتحديد شبه الجزيرة العربية وأقسامها ذاتها فإن تحديد « الحجاز » ذاته أيضاً تعرض لمثل ما تعرضت له من اختلافات[٤] ، إلا أنه يمكن القول بأن تعريف الهمداني للحجاز بجبل السُّراة الذي يمتد من حدود اليمن إلى بادية الشام[٥] هو تحديد مبكر يعتمد تماماً على طبيعة المكان وأهم مظاهره الجغرافية[٦] .

---

(١) أبو الفدا : كتاب تقويم البلدان ص٧٨ - ٧٩ .

(٢) عمر الفاروق : الحجاز - أرضه وسكانه - ص٣٩ .

(٣) أبو الفدا : تقويم البلدان ص٧٨ ، ابن عبد الحق : مراصد الاطلاع ص٣٨٠ - ٣٨١ ، العوتبي : الأنساب ص٧٦ ، الحميري : الروض المعطار ص١٨٨ .

(٤) صالح العلي : المؤلفات العربية عن المدينة والحجاز ص١١٩ - مجلة المجمع العلمي العراقي مجلد١١ .

(٥) الهمداني : صفة جزيرة العرب ص٥٨ .

(٦) عمر الفاروق : الحجاز - أرضه وسكانه ص٤٧ .

أما تحديد المقدسي (ت ٣٧٥هـ / ٩٨٥م) للحجاز فيعطينا فكرة كاملة عن المدن التي كانت تتبع الحجاز آنذاك فيما يمكن أن يطلق عليه التقسيم الإداري للحجاز فيقول : «فأما الحجاز فقصبته مكة ، ومن مدنها يثرب ، وينبع ، وقرح ، وخيبر ، والمروة ، والحوراء ، وجدة ، والطائف ، والجار ، والسقيا ، والعونيد ، والجحفة ، والقشيرة »[١] .

ومن التحديدات المعاصرة لبلاد الحجاز أنها تمتد على طول الحدود الغربية لشبه جزيرة العرب ، وحدودها تتاخم من الغرب معظم الساحل الشرقي للبحر الأحمر، وتتصل شمالاً بالشام وجنوباً باليمن فضلاً عن اتصالها بمصر من الشمال والغرب[٢] .

وهو تحديد يتميز بالدقة الكاملة وإن اعتمد على الكتابات العربية القديمة عن الحجاز

ب- مظاهر السطح :

تعتبر سلسلة جبال السَّراة من أبرز ظاهرات السطح لبلاد الحجاز ، وقد نشأ عن التكوين الطبيعي لهذه السلسلة تقسيم الحجاز من الوجهة الطبيعية إلى المناطق الجغرافية الآتية :

أولاً : المنطقة الساحلية الغربية :

تمتد من أقصى الجنوب إلى منتهى خليج العقبة في الشمال ، وتسمى تهامة الحجاز[٣] وقد تضيق هذه المنطقة وتتسع في أماكن معروفة ، فيبلغ أقصى اتساع لها عند ميناء رابغ الواقع إلى الشمال من ميناء جدة ، وقد تضيق في أماكن أخرى عندما تلاصق سلسلة جبال الحجاز ساحل البحر الأحمر ، شمال ميناء ينبع[٤]، وأكثر هذه المنطقة رملي شديد الحرارة ، قليل الإنبات وجميع المدن الساحلية مثل جدة ، وينبع ، والجار تقع في هذه المنطقة[٥] .

(١) المقدسي : أحسن التقاسيم ص٦٩ .
(٢) أيوب صبري : : مرآة جزيرة العرب ج١ ص١٦٩ .
(٣) فؤاد حمزة : قلب حزيرة العرب ص١٨ .
(٤) محمود أبو العلا · شبه جزيرة العرب ج١ ص٣٧ .
(٥) فؤاد حمزة قلب : جزيرة العرب ص١٨ .

ثانياً : منطقة الهضاب والنجود :

تمتد هذه المنطقة بموازاة المنطقة الساحلية ، وتتصل بها مباشرة وتتميز بالهضاب التي تتألف منها ، ويبلغ معظم ارتفاع هذه الهضاب ٦٥٠ متراً ، ولا يتجاوز عرض هذه المنطقة الأربعين ميلاً ، وقد يتسع الانفراج ويضيق بالنسبة إلى الأماكن القريبة منه ، وتقع مكة المكرمة في هذه المنطقة الجبلية الأصلية[١] .

ثالثاً : المناطق الجبلية المرتفعة :

وتقع في القسم الشمالي من الحجاز ، ويقال عنها أرض مدين وحِسْمَى نسبة إلى الجبال المسماه بهذا الاسم ،ـ وهو ما يلي أيلة إلى الجنوب[٢] ومناخ هذه المنطقة في شرقيها معتدل لطيف ، وتكثر فيها الأشجار في سفوح الجبال ، وفي الأودية وفي السهول المختلفة فيها ، وتقع تيماء ، وخيبر ، والحناكية ، والطائف في هذه المنطقة[٣] .

وتمثل الحرار البركانية أهم ظاهرات السطح بالحجاز وهى عبارة عن أراض بركانية يقال لها اللابة أو اللوبة ، وقد تكونت من قِبل البراكين[٤] وتتميز بأنها أرض ذات حجارة سود نخرة كأنها أحرقت بالنار[٥] ، ومن هذه الحرار تسيل أودية الحجاز[٦] صوب الشرق والغرب إلى نجد من ناحية وإلى تهامة فبحر القلزم (البحر الأحمر) من ناحية أخرى[٧] .

---

(١) فؤاد حمزة قلب : جزيرة العرب ص١٨ .
(٢) أحمد الشريف : دور الحجاز في الحياة السياسية العامة ص٦ .
(٣) فؤاد حمزة : قلب جزيرة العرب ص١٨ .
(٤) أحمد الشريف : دور الحجاز في الحياة السياسية العامة ص٦ .
(٥) ياقوت الحموى : معجم البلدان ج٢ ص٢٤٥ .
(٦) البلاذري : فتوح البلدان ص٢٥
(٧) أحمد الشريف : دور الحجاز ص٦ .

وأهم هذه الحرار حرة « العويرض » الواقعة جهة الغرب من درب الحاج الممتد من «تبوك» إلى « العلا » ويبلغ طول هذه الحرة أكثر من مائة ميل بعرض يكاد يقرب من ذلك[١] ويمتد وادي « الجزل » متاخماً للحافة الغربية للحرة ، كما ينحدر منها نحو السهل فالبحر مجموعة كبيرة من أهم وديان الحجاز الشمالية مثل وادي « دما » الذي ينتهي جنوبي « ضبا » ووادي «السر» الذي ينتهي قرب قرية « المويلح » الساحلية[٢] .

وتعد حرة « خيبر » من أعظم الحرار وأوسعها مسافة بالرغم من أنها أقل ارتفاعاً وأقل تشققاً وانحداراً من حرة « العويرض » وتسمى بالحرة الصحراوية دلالة على طبيعة تكوين سطحها ، وهي تمتد من شرقي «خيبر» إلى الشرق والجنوب، ويبلغ طولها مرحلتين من الشرق إلى الغرب ومرحلتين من الشمال إلى الجنوب[٣] وينحدر منها وادي « إضم »[٤] ويسمى اليوم وادي « الحمض » وهو من أعظم أودية الحجاز ، وهو يسيل من الجنوب الشرقي لهذه الحرة ، ويسير نحو الجنوب حتى يقارب المدينة المنورة حيث تتصل به أودية فرعية منها وادي «العقيق» ، ويتصل به كذلك « وادي القرى »، وهو يستمد مياهه من السيول التي تنحدر إليه من العيون التي عند خيبر ، ثم يتجه غرباً حيث يصب في البحر الأحمر عند قرية «الوجه»[٥].

وحرة « رهط » من حرار الحجاز الكبيرة فهي تبدأ من شمال مكة وتمتد حتى تصل إلى المدينة المنورة التي تقع عند نهايتها الشمالية ، وهي تتخذ شكلاً أقرب للمستطيل مع امتداد أذرع منها نحو الغرب خاصة قد تصل إلى قرب خط الساحل متمشية مع مجاري الوديان

---

(١) فؤاد حمزة : قلب جزيرة العرب ص٥٨ .

(٢) عمر الفاروق : الحجاز - أرضه وسكانه ص١١٧ .

(٣) فؤاد حمزة : قلب جزيرة العرب ص٥٩

(٤) الحميري : الروض المعطار ص٤٥ .

(٥) أحمد الشريف : دور الحجاز في الحياة السياسية العامة ص٦ - ٧ .

الرئيسية المنحدرة من سلسلة جبال الحجاز نحو السهل الساحلي ، وتنتشر بها عشرات الأودية الصغيرة[١] .

جـ - المناخ :

يتأثر مناخ الحجاز بمجموعة من العوامل الطبيعية المحلية ، وتأتي تضاريس المنطقة في مقدمة هذه العوامل المؤثرة في مناخها ، حيث تتفاعل ظروف السطح بها مع مظاهر نمط مناخي عام متغير[٢] ، فبينما تتسم المناطق الساحلية في الشرق والغرب بشدة الحرارة في الصيف مع ارتفاع نسبة الرطوبة ، نجد المناطق المرتفعة عن سطح البحر والتي تقع في سلسلة جبال الحجاز معتدلة المناخ ، على حين تشتد الحرارة نهاراً وتعتدل ليلاً في المنطقة الوسطى لتعرضها للرياح المصحوبة زمن الشتاء بالأمطار ، وأما في الخريف فتهب عليها الرياح الموسمية التي تؤدي إلى سقوط كمية محدودة من الأمطار[٣] .

وعلى هذا نجد أن مناطق الحجاز تختلف من الناحية المناخية كما تختلف من الناحية الطبيعية ، فهناك مناطق جدباء شديدة الحرارة ، تحوطها الجبال مثل مكة ، ومناطق أخرى تجود فيها التربة ، وتنزل الأمطار فيها بغزارة ، مثل : الطائف ، والمدينة المنورة ، والوديان التي بين مكة وجدة[٤] .

د- أهم المدن الحجازية :

لما كانت معظم أرض الحجاز صحراوية ، فإن الحياة البدوية كانت تطبع الحياة العامة بطابعها ، ولم تقم المدن والقرى إلا في الواحات الخصبة المنتشرة هنا وهناك في أماكن متفرقة أو في المحطات التجارية التي تقوم في منازل اتخذها رجال القوافل محطات لهم فنمت وقامت فيها

---

(١) عمر الفاروق : الحجاز - أرضه وسكانه ص١١٧ .

(٢) المرجع السابق ص١٢٧ .

(٣) المرجع السابق .

(٤) أحمد الشريف : دور الحجاز في الحياة السياسية ص٨ .

المدن ، ولم تستطع مدن الحجاز وقراه أن تنفصل عن حياة البادية القائمة حولها ؛ بل تأثرت بها إلى حد كبير في حياتها ونظمها[١] ، ويمكن القول : إن حواضر الحجاز ليست إلا مدناً صغيراً امتزجت فيها حياة البادية وحياة الحضر ، وأهم مدن الحجاز هي ·

- *مكة المكرمة :*

تقع مكة في تهامة في الحجاز الجنوبي على بعد ثمانية وأربعين ميلاً من البحر الأحمر[٢] ، وهي عبارة عن قرية في واد ضيق غير ذي زرع تحيط به الجبال من شتى الجهات[٣] ، ويروى أنها سميت بذلك لأنها تمك الجبارين أي تذهب نخوتهم ، وقيل : لأنها تجذب الناس إليها من قولهم: امتك الفصيل ما في ضرع أمه إذا لم يبق فيه شيئاً ، وقيل : لقلة مـائها[٤] .

وتسمى بكة لقوله تعالى : ﴿ إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً ﴾[٥] .

واختلف في معنى تسميتها بكة بالباء ، فقيل : لأنها كانت تبك أعناق الجبابرة إذا ألحدوا فيها بظلم أي تدقها ، وقيل: لازدحام الناس بها لأن الأقدام تبك بعضها بعضاً أي تزدحم[٦] .

وخلاصة القول أنها سميت مكة ، وبكة لأن الناس يأتون إليها بكثرة ويزدحمون فيها من أجل تأدية الفريضة .

---

(١) أحمد الشريف : دور الحجاز في الحياة السياسية ص٨ .

(٢) فيليب حتى : تاريخ العرب ج١ ص١٢٤ .

(٣) جمال سرور : قيام الدولة العربية الإسلامية ص٤٠ .

(٤) الفاسي : شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ج١ ص٤٨ .

(٥) سورة آل عمران آية (٩٦)

(٦) ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ص١٦ – ١٧

وهي مدينة قديمة أزلية البناء[١] ، وطولها من المعلاة إلى المسفلة[٢] نحو ميلين من حد الجنوب إلى جهة الشمال ، ومن أسفل جبل أجياد إلى ظهر جبل قعيقعان ميل واحد[٣] ، والمدينة مبنية في وسط هذا الفضاء ، وحجارة بنيانها من جبالها ، وأسواقها قليلة ، وفي وسط مكة مسجدها الجامع المسمى بالمسجد الحرام ، والكعبة وسط الحرم[٤] .

ومكة كلها مشهد كريم ، وكفاها شرفاً ما خصها الله به من مثابة بيته العظيم ، وأنها حرم الله الآمن ، وهي منشأ النبي – صلى الله عليه وسلم – الذي آثره الله بالتشريف والتكريم، وابتعثه بالآيات والذكر الحكيم ، فهي مبدأ نزول الوحي والتنزيل، وأول مهبط الروح الأمين جبريل – عليه السلام – وكانت مثابة أنبياء الله تعالى ورسله الأكرمين[٥] .

وتقوم مكة على تجارة عريضة ساعدها على ذلك موقعها على مسافة أربعين ميلاً من ميناء جدة الواقعة على ساحل البحر الأحمر إذ كانت المراكب ما تكاد تنتهي من مصر واليمن إلى جدة حتى تسير منها المتاجر إلى مكة[٦] .

كما تقع على طريق القوافل القادمة إليها من اليمن إلى الشام الذي جعل من مكة بالنسبة لتلك القوافل محطة تجارية لوجود الماء بها ، وللحصول على المؤن اللازمة لمتابعة الرحلة فضلاً عن تبادل البضائع من تجار مكة[٧] .

ويذكر ابن حبير أن الطريق إليها ملتقى الصادر والوارد ممن بلغته الدعوة المباركة وأن

---

(١) الإدريسي : نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ج١ ص١٣٩ .
(٢) ما نزل عن المسجد الحرام يسميه أهل مكة المسفلة وما ارتفع عنه يسمى المعلاة (المقدسي:أحسن التقاسيم) ص٧١
(٣) ابن حوقل : كتاب صورة الأرض – القسم الأول ص٢٨ .
(٤) الإدريسي : نزهة المشتاق ج١ ص١٣٩ .
(٥) ابن جبير : الرحلة ص٩١ .
(٦) القلقشندي : صبح الأعشى ج٤ ص٢٥٨ .
(٧) علي السليمان : النشاط التجاري في شبه الجزيرة العربية ص٨٥

البضائع تجبى إليها من كل مكان ، وتتميز بوجود كافة أنواع السلع فيها وخاصة في موسم الحج[١] .

- *المدينة المنورة :*

تقع إلى الشمال من مكة في مستوى من الأرض[٢] ، وهي أقل من نصفها[٣] ، ويحدها من الشمال جبل أحد[٤] ، وتقوم في واحة ذات تربة خصبة ، ومياهها غزيرة بين حرتين، حرة واقم في الشرق ، وحرة الوبرة في الغرب ، وتكتنف الوديان الحرتين من الشرق والغرب فتحيط بالمدينة من جهاتها الجنوبية والشمالية والغربية حتى تتجمع في شمالها الغربي، وتسير في انحدارها مياه الأمطار التي تجعل من أرض المدينة جنة خضراء[٥] ، وكان لذلك أثره في انتشار الزراعة بها حيث يحيط بأكثرها بساتين ونخيل ، والقرى المحيطة بها تتميز بكثرة مزارعها[٦] التى تعتمد على مياه الآبار[٧] .

وكانت المدينة قبل الإسلام تسمى « يثرب »[٨] وقد ورد ذكرها فى قوله تعالى : ﴿ وإذ قالت طائفة من أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ﴾ [٩] .

وقد سميت طَيْبة وطابة[١٠] ، وسماها الله - عز وجل - المدينة فى قوله تعالى : ﴿ ومن

(١) ابن جبير : الرحلة ص٩٧ .
(٢) حمال سرور : قيام الدولة العربية الإسلامية ص٤٨ .
(٣) المقدسي : أحسن التقاسيم ص٨٠ .
(٤) الإدريسي : نزهة المشتاق ج١ ص١٤٣ .
(٥) المقدسي : أحسن التقاسيم ص٨٠ .
(٦) المصدر السابق .
(٧) ابن حوقل : كتاب صورة الأرض ق١ ص٢٨
(٨) الحميري : الروض المعطار ص٤٠١ .
(٩) سورة الأحزاب آية (١٣) -
(١٠) الحميري : الروض المعطار ص٤٠١

حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق ﴾ [١] .

وبالمدينة مسجد الرسول - صلى الله عليه وسلم - وقد بني على عهده ، ومسجد حمزة بن عبد المطلب - رضي الله عنه - ويقع في الناحية القبلية من جبل أحد ، وبقيع الغرقد شرقي المدينة[٢] ، وهو مدفن الجمهور الأعظم من الصحابة المهاجرين والأنصار -رضي الله عنهم-[٣] .

- الطائف :

مدينة صغيرة واقعة في سهل رملي ومحاطة بتلال منخفضة[٤] ، وتقع على بعد اثنى عشر فرسخاً شرقي مكة[٥] على ارتفاع يقرب من ستة آلاف قدم من سطح البحر[٦] .

وكان اسم الطائف « وج » نسبة إلى وج بن عبد الحي من العمالقة[٨] ، ثم سكنتها قبيلة ثقيف ، فبنوا عليها حائطاً مطوفاً بها فسموها الطائف[٨] .

وتمتاز بخصوبة أرضها حتى يقال : إنها بقعة من الشام انتقلت إلى الحجاز[٩] ، كما اشتهرت ببساتينها ، وحدائقها الجميلة ، ومياهها العذبة ، وهوائها المعتدل ، وأكثر فواكه مكة من الطائف[١٠] ، ولا يوجد في ديار الحجاز مكان أبرد من الطائف[١١] .

---

(١) سورة التوبة آية (١٠١) .
(٢) ابن جبير : الرحلة ص١٧٣ .
(٣) المصدر السابق ص١٧٤ .
(٤) فائق الصواف : الدولة العثمانية وإقليم الحجاز ص٣٧ .
(٥) القزويني : آثار البلاد وأخبار العباد ص٩٧ ، الإدريسي : نزهة المشتاق ج١ ص١٤٤ .
(٦) فيليب حتى : تاريخ العرب ج١ ص١٢٤ .
(٧) الحميري : الروض المعطار ص٣٧٩ .
(٨) ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ص٢٢ .
(٩) جمال سرور · قيام الدولة العربية الإسلامية ص٥١ .
(١٠) المقدسي : أحسن التقاسيم ص٧٩ ، الإدريسي : نزهة المشتاق ج١ ص١٤٤ .
(٢١) الحميري · الروض المعطار ص٣٧٩ .

ولقد استفاد أهل الطائف من الزراعة والتجارة فزادت ثرواتهم ، ونمت وصارت بلدهم تقرن بمكة ، فيقال : المكتين والقريتين ، وهذه التسمية وردت في قوله تعالى : ﴿ وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾ [١] .

وفي الطائف يزرع الكروم ، والنخيل والموز ، وسائر الفواكه[٢] ، وأكثرها ثمار الزيتون[٣] .

- جُــدَّة :

تقع جُدَّة إلى الغرب من مكة المكرمة[٤] ، وبينهما أربعون ميلاً[٥] ، وهي ثغر مكة على البحر الأحمر تستقبل المراكب التجارية القادمة من اليمن ومصر ، وتعتبر قبلة الحجيج القادم من عيذاب إليها[٦] ، مما جعلها تحظى بالتجارة العظيمة والثراء العريض[٧] ، وهي محط السفن القادمة من الهند وعدن ، واليمن ، وعيذاب ، والقلزم[٨] .

وقد وصفها الرحالة الفارسي ناصر خسرو أثناء زيارته للحجاز سنة ٤٤٢هـ / ١٠٥٠م بأنها مدينة كبيرة يحيط بها سور حصين، وتقع شمال البحر الأحمر ، وفيها أسواق جميلة ، وقبلة مسجدها الجامع من ناحية المشرق ، ولها بوابتان إحداهما شرقية تؤدي إلى مكة، والثانية غربية تؤدي إلى البحر الأحمر ، ولا يوجد في جدة زروع ولا ثمار ، وكل ما يحتاجه أهلها

---

(١) سورة الزخرف آية (٣١) .
(٢) القزويني : آثار البلاد وأخبار العباد ص٩٧ .
(٣) ابن حوقل : صورة الأرض ق١ ص٣٢ .
(٤) أيوب صبري : مرآة جزيرة العرب ج١ ص١٧١ .
(٥) الحميري : الروض المعطار ص١٥٧ .
(٦) ابن المجاور : تاريخ المستبصر ص٥١ ، القلقشندي : صبح الأعشى ج٤ ص٢٥٨ .
(٧) ابن حوقل : صورة الأرض ق١ ص٣١ .
(٨) الحميري . الروض المعطار ص١٥٧ .

يحضرونه من القرى .

وكان أمير جدة يتبع أمير مكة[١] .

- *الجار :*

تعتبر الجار ميناء المدينة ، وهي آهلة عامرة ، وتقع على ساحل البحر مما يلي المدينة[٢] وميناء الجار كان معروفاً قبل الإسلام ، إلا أنها في العصر الإسلامي اكتسبت أهمية كبيرة حينما أصبحت أشهر ميناء في الحجاز ، وتعهدها الخلفاء بالرعاية واهتموا بشأنها بعد فتح مصر فعندما فتح عمرو بن العاص مصر كتب إليه الخليفة عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أن يحمل الطعام منها إلى المدينة عبر ساحل الجار[٣] ، ومن الجار إلى جدة نحو عشرة أيام في البر بطول الساحل وفيها ترسو المراكب التي تحمل الطعام من مصر[٤] .

ولقد حازت الجار شهرة تاريخية كبيرة بحيث كان البحر الأحمر يعرف ببحر الجار[٥] ، ولقد ضعف شأنها منذ القرن الرابع الهجري حيث اختل نظام الأمن في الجار فتسلطت الأعراب عليها بالنهب والسلب وقتل أهلها[٦] .

واستمرت الجار على حالها من عدم الاستقرار تستقبل المراكب القادمة من مصر، حتى أخذ الحجاج من مصر والمغرب طريق عيذاب إلى ميناء جدة في أواخر القرن السادس الهجري، فضعف أمر الجار ويدأ ثغر ينبع في الازدهار بقدوم سنة ٦٢١هـ/ ١٢٢٤م حين جعله الأيوبيون الميناء الرئيسي للمدينة بعد جدة[٧] .

---

(١) ناصر خسرو : سفر نامة ص١٢٠ .

(٢) الحميري : الروض المعطار ص١٥٣ .

(٣) حمد الجاسر : بلاد ينبع ص٤٧ .

(٤) الحميري : الروض المعطار ص١٥٣ .

(٥) حمد الجاسر . بلاد ينبع ص٤٧ .

(٦) المرجع السابق ص ٤٩ .

(٧) علي السليمان : النشاط التجاري في شبه الجزيرة العربية ص١٠٧ .

- **ينبع :**

يذكر الجغرافيون أن ينبع بلدتان إحداهما تسمى « ينبع البحر » والأخرى تسمى « ينبع النخل »[١] ، فالأولى ينبع البحر تقع على شاطئ البحر الأحمر في الجانب الشرقي منه وتبعد عن المدينة المنورة مسافة مائتين وخمس وعشرين كيلو متراً من الجهة الغربية وهي ميناء جيد للمدينة المنورة[٢] ، ولا يوجد بها مياه عذبة ، والسكان يشربون من مياه الأمطار ومن الآبار المحفورة عن طريق السيول[٣] .

وقد أصبح ميناء ينبع البحر من الموانئ الحجازية الهامة منذ سنة ٦٢١هـ / ١٢٢٤م حين جعله الأيوبيون ميناء للمدينة ، وأقاموا فيه قلعة قوية زودت بالجنود للحماية والحراسة بالإضافة إلى بعض الإصلاحات والإنشاءات التي جعلت من ينبع ثغراً هاماً من ثغور الحجاز ترسو به السفن القادمة من مصر[٤] .

والبلدة الثانية ينبع النخل وتقع في الجهة الشرقية من ينبع البحر وهي عبارة عن عدة قرى صغيرة ، تحاط كل قرية من هذه القرى من جهاتها الأربع بالمياه الجارية ، وتقع ينبع النخل في طريق الحجاج القادمين من مصر[٥]

ويبدو من هذا العرض الجغرافي أن أكثر بلاد الحجاز عبارة عن جبال مكونة من الرمال والحجارة والوديان المنخفضة في بعض مناطقها والمحصورة بين الجبال ، وبعضها الآخر عبارة عن صحراء لا تهطل بها الأمطار في بعض المواسم .

---

(١) ياقوت . معجم البلدان ج٢ ص١١٠ .
(٢) أيوب صبري : مرآة جزيرة العرب ج١ ص١٩٥ .
(٣) المرجع السابق .
(٤) علي السليمان : النشاط التجاري ص١٠٤ - ١٠٥ .
(٥) أيوب صبري : مرآة جزيرة العرب ج١ ص١٩٥ .

ولذا فإن محصولاتها الداخلية ليست كافية ، وجبالها وصحاريها لا تنبت فيها الأعشاب بالقدر الكافي ، ولذلك فإنها غير قابلة لإنتاج المحاصيل الكافية لسد احتياجات ساكنيها .

وخلاصة القول أن صفات الحجاز الطبيعية التضاريسية منها والمناخية ، وموارده المائية ، وموقعه الجغرافي ، ما هي إلا عوامل أثرت إلى حد بعيد في ارتباط الحجاز بمصر منذ القدم حيث كان سكان الحجاز يحصلون على احتياجاتهم من القمح والحبوب وسائر الحاجيات الضرورية ، بل إنهم كانوا يهاجرون بكميات محدودة إلى مصر حين يتوقف هطول الأمطار ويسود الجفاف ، فيلقون كل رعاية وعناية من حكام مصر وأهلها[١] ، ويتضح هذا من خلال حديثنا عن علاقات مصر بالحجاز قبيل الفاطميين .

---

(١) ناصر خسرو : سفر نامه ص١١٢ .

ثانياً : علاقة مصر بالحجاز قبيل الفاطميين

ارتبطت مصر بالحجاز منذ أقدم العصور نتيجة القرب الجغرافي بينهما الذي ساعد على تنمية العلاقات وتواصلها واستمرارها ، إذ لو لم يكن البحر الأحمر لكانت بلاد الحجاز ومصر رقعة واحدة من الأرض .

ويمكن القول : إن العلاقات بينهما تضرب بجذورها في أعماق التاريخ ، فالسيدة هاجر أم إسماعيل – عليه السلام – كانت مصرية(١) ، وإسماعيل هو جد العرب العدنانية ، وجد قريش ، فكأن لمصر نسباً موصولاً بعرب الحجاز منذ القدم(٢) .

ولقد عرفت مصر قبل الإسلام فرعي العرب الكبيرين ، عرفت عرب الجنوب القحطانية حين عبرت جماعات منهم البحر الأحمر ، واستقروا في الوادي ، واختلطوا بالسكان ، لأنهم -كأهل مصر – أهل استقرار ، وزرع ، وضرع ، كما عرفت مصر عرب الشمال العدنانية الذين كانوا يجوبون الصحاري الشرقية لأنهم أهل بداوة ورحلة وخيام(٣) .

وبعد الفتح الإسلامي لمصر بدأ الارتباط بينها وبين الحجاز يبرز ويتضح فقد تولت مصر مهمة تصنيع كسوة الكعبة وإرسالها إلى مكة منذ أيام عمر بن الخطاب(٤) -رضى الله عنه-.

وحينما ساد الجفاف بلاد الحجاز سنة ٢١هـ / ٦٤١م وقحطت الأرض وأجدبت واشتدت الأحوال على المسلمين هناك كتب الخليفة عمر بن الخطاب إلى والي مصر عمرو بن العاص يذكر قحط الحجاز ويطلب منه ما يُقبض من الطعام في الخراج إلى المدينة المنورة فبادر عمرو بإعداد

---

(١) ابن كثير : قصص الأنبياء ص٢٢٠ .

(٢) حسين مؤنس : مصر ورسالتها الحضارية ص١٠٢ .

(٣) المرجع السابق ص١٠٤ .

(٤) الفاسي : شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ج١ ص١٢٠ .

الطعام وإرساله إلى المدينة[١] .

وهكذا فرضت الظروف على مصر أن تكون صاحبة النصيب الأكبر في إمداد الحجاز بما يحتاجه منذ عصور الإسلام الأولى ، وتوثقت صلتها بالحجاز مقر الخلافة الإسلامية وشاركت بثقلها السياسي والاقتصادي مشاركة فعالة في الأحداث السياسية التي خاضتها الخلافة .

لذا لم تكن مصر بمعزل عما دار في المدينة المنورة عاصمة الخلافة من أحداث في عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان ؛ بل أسهمت فيها بدور كبير وملحوظ ، وقد ظهر دور مصر في الأحداث التي وقعت في العالم الإسلامي بعد وفاة يزيد بن معاوية ، وفي الحركة التي قادها عبد الله بن الزبير من خلال مشاركتها للحجاز في تأييد حركة ابن الزبير والخروج على الأمويين.

وفي زمن الدولة العباسية جاء كثير من العلويين إلى مصر ، وأيد المصريون الحزب العلوي تأييداً كبيراً ، مما أدى إلى قيام كثير من الثورات العلوية على العباسيين بمصر بالإضافة إلى مساندة ومناصرة الثورات العلوية بالحجاز .

وفي عهد الطولونيين والإخشيديين لم تعد مصر مجرد ولاية تخضع خضوعاً مباشراً

---

(١) أبو الحسن البلاذري : فتوح البلدان ص٢١٧ ، ٢١٨ ، ويروي كل من الطبري وابن عبد الحكم واليعقوبي وابن الأثير والقلقشندي رواية شبيهة بذلك مع اختلاف في تاريخ حدوثها فيروون أنه في سنة ١٨هـ / ٦٣٩م أصاب الناس بالمدينة قحط شديد ، وسمي هذا العام بعام الرمادة فأرسل عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص يشكو قحط الحجاز فكتب إليه عمرو بن العاص لأمدنك بعير طعام أوله عندي وآخره عندك وأرسل إليه العير فوسع بها على المسلمين ، والحقيقة أن تاريخ حدوث هذه القصة يوحي بالشك لأن عمراً اتجه لفتح مصر في أواخر سنة ١٨هـ / ٦٣٩م ، ولم تكن ظروف الحرب والقتال تسمح له بذلك وبالتالي فإن التاريخ الذي أورده البلاذري يعتبر واقعياً ومناسباً لهذا الحدث . (انظر : الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج٤ ص١٠٠ ، ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ص٢١٨ - ٢١٩ ، اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ج٢ ص١٥٤ ، ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج٢ ص٣٩٦ - ٣٩٧ ، القلقشندي : مآثر الإنافة في معالم الخلافة ج١ ص٩١ ، صبح الأعشى ج٣ ص٢٩٨) .

لسلطة الدولة المركزية ، وإنما صارت مستقلة بأمورها الداخلية وأبقت على ذلك الخيط الذي يربطها بالخلافة كالسكة والخطبة والخراج .

ويدأ تطور هام في الدور الذي تقوم به مصر في الحياة الإسلامية ، فقد أكدت ذاتها ووضحت شخصيتها وبدأت بثقلها السياسي والاقتصادي تفرض نفوذها ، ففي عهد الطولونيين سوف نجد مصر تحاول فرض نفوذها على الحجاز ولم يحالفها التوفيق في ذلك ؛ لكنها نجحت في عهد الإخشيديين الذين فرضوا سيادتهم على الحجاز وصار يدعى لهم على منابره إلى قيام الدولة الفاطمية في مصر .

ومن ثنايا هذا التمهيد يمكن التحدث عن علاقات مصر بالحجاز قبيل الفاطميين من خلال ما يلي :

أولاً : دور مصر في أحداث الفتنة زمن عثمان بن عفان .

ثانياً : موقف مصر من حركة عبد الله بن الزبير .

ثالثاً : موقف مصر من الصراع العلوي العباسي .

رابعاً : ابن طولون والحجاز .

خامساً : الإخشيديون والحجاز .

* * *

أولاً : دور مصر في أحداث الفتنة زمن عثمان بن عفان

لعب أهل مصر دوراً كبيراً في المحنة التي صادفت عثمان بن عفان خليفة المسلمين ، والتي اشتهرت باسم « الفتنة » ، ويقصد المؤرخون بها انقسام وحدة المسلمين واختلاف آرائهم ، وهي الوحدة التي بناها الخليفة الأول أبو بكر الصديق ، ثم دعمها من بعده الخليفة الثاني عمر ابن الخطاب بحزمه وعدله(١) .

فقد تولى عثمان بن عفان الخلافة ، ويذكر المؤرخون أنه كان وصولاً للرحم ، محباً لأهله، لين العريكة ، كثير الإحسان ، فأذن لكبار الصحابة بالتفرق في الأمصار الإسلامية ، واقتناء الضياع والعقارات فيها(٢) .

وصحب هذا اللون من الحياة ظهور طبقة من الولاة كان معظمهم من بني أمية أقارب عثمان لا هم لهم إلا الإثراء ودعم سلطاتهم ولو أدى الأمر إلى القسوة على الرعية(٣) ، فبلغت المعارضة السياسية لسياسة عثمان المالية ، وسياسته في محاباة أقاربه ، وتركه محاسبة ولاته حداً كبيراً .

---

(١) إبراهيم العدوي : تاريخ العالم الإسلامي ص ١٥٢ .

(٢) عدد المسعودي أسماء الصحابة الذين اقتنوا الضياع والدور أيام عثمان ووصف ما يملكون فذكر أن الزبير بن العوام بنى داراً بالبصرة ، وابتنى أيضاً دوراً بمصر والكوفة والاسكندرية وبلغ مال الزبير بعد وفاته خمسين ألف دينار ، وخلف ألف فارس ، وألف عبد وأمة وكذلك طلحة بن عبيد الله التيمي ابتنى داراً بالكوفة وكانت غلته من العراق كل يوم ألف دينار وقيل أكثر من ذلك ، وشيد داره بالمدينة وبناها بالآجر والجص والساج ، وكذلك عبد الرحمن بن عوف الزهري ابتنى داره ووسعها وكان مربطه مائة فرس، وله ألف بعير وعشرة آلاف شاة من الغنم وزيد بن ثابت ترك عقب موته كثيراً من الذهب والفضة بالإضافة إلى الأموال والضياع التي قدرت بمائة ألف دينار ، وتوفي يعلي بن أمية وترك خمسمائة ألف دينار ، وديونا على الناس وعقارات (المسعودي : مروج الذهب ج٢ ص٣٤٢ - ٣٤٣) .

(٣) ابن قتيبة : الإمامة والسياسة ج١ ص٣٢ ، السيوطي : تاريخ الخلفاء ص١٥٦ .

واستثمر ذلك عبد الله بن سبأ[١] فراح يتنقل في الأمصار الإسلامية منددا بتصرفات عثمان في تولية أقاربه ، وأخذ يشن هجومه على الطبقة الجديدة من الأغنياء ، ويغلو في تقديس شخصية علي بن أبي طالب[٢] .

وقد طرد عبد الله بن سبأ من كل بلد حل به في البصرة والكوفة والشام ، فلما وصل مصر صادفت دعوته لخلع عثمان هوى في النفوس[٣] ، ويرجع السبب في ذلك إلى أن المسلمين في مصر كانوا ينقمون على عبد الله بن سعد[٤] الذي عينه عثمان أميراً على مصر سنة ٢٥هـ / ٦٤٥م[٥] لأنه كان يكلفهم فوق ما يطيقون ، فاشتد عليهم في تحصيل الضرائب ، ففي حين اقتصرت جباية عمرو بن العاص للخراج طوال سني إمارته على ١٢ مليون دينار[٦] رفع عبد الله بن سعد الجباية إلى ١٤ مليون دينار[٧] ، بالإضافة إلى أنه كان يشتد على الرعية

---

(١) عبد الله بن سبأ : يهودي من صنعاء أظهر الإسلام على عهد عثمان ، وكان يعرف بابن السوداء وكان يكثر الطعن في عثمان ويدعو في السر لآل البيت ، ويذكر ابن خلدون أن هذا الرجل لم يحسن إسلامه فقد كان يقول « إن محمداً يرجع كما يرجع عيسى وعنه أخذ ذلك أهل الرجعة ، وأن علي وصى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – حيث لم يجز وصية وعثمان أخذ الأمر بغير حق » ويحرض الناس على ذلك ويثيرهم على الأمراء ، فاستمال بعضاً منهم وكاتب به بعضهم نفراً في الأمصار الإسلامية (ابن خلدون : العبر ج٢ ص٥٨٧-٥٩١) .

(٢) المصدر السابق ص٥٨٧ .

(٣) المصدر السابق ص٥٩١ .

(٤) عبد الله بن سعد بن أبي سرح القرشي العامري كان أخا عثمان من الرضاع أسلم قديماً وخرج من المدينة إلى مكة فارتد عن الإسلام فلما فتح رسول الله – صلى الله عليه وسلم – مكة أهدر دمه لكن عثمان ابن عفان استأمن له فأمنه الرسول – صلى الله عليه وسلم – وسأل له المبايعة ثانياً فبايعه الرسول – صلى الله عليه وسلم – وقال : « إن الإسلام يهدم ما قبله » فلما ولي عثمان الخلافة ولاه على مصر . (الكندي : تاريخ ولاة مصر ص١٦- ١٧ ، ابن إياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ج١ ق١ ص١١٢)

(٥) الكندي : تاريخ ولاة مصر ص١٧ .

(٦) ابن إياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ج١ ق١ ص١١٢ .

(٧) المصدر السابق ص١١٣ .

حتى شكوه إلى عثمان ، فكتب إليه عثمان ينذره ، ويأمره أن ينزع عما تكره الرعية فلم يحفل بذلك، وإنما عاقب من شكوه وضرب منهم رجلاً حتى قتله[١] .

وقد استطاع عبد الله بن سبأ أن ينقل السخط على الخليفة في مصر والبصرة والكوفة[٢] إلى تخطيط منظم للإطاحة به ، وأسفر هذا التخطيط عن خروج سبعمائة رجل من مصر إلى المدينة ، فكان الثائرون الأولون على الخليفة من مصر ، إذ ذهبوا إلى المدينة واشتكوا إلى أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ما صنع بهم الوالى[٣] ، فاتجه نفر من الصحابة على رأسهم علي بن أبي طالب إلى عثمان واشتدوا عليه حتي يعزل عبد الله بن سعد فعزله ، وكتب بولاية مصر لمحمد بن أبي بكر[٤] .

وخرج محمد بن أبي بكر وأصحابه ، حتى إذا كانوا على مسيرة ثلاثة ليال من المدينة قبضوا على رجل كان يحمل خطاباً من الخليفة إلى واليه على مصر عبد الله بن سعد يأمره فيه بمعاقبة الثائرين الذين خرجوا من مصر عند عودتهم[٥] فاضطر الثائرون إلى العودة للمدينة وعرضوا الخطاب على الصحابة[٦] فأسرع علي بن أبي طالب ونفر من الصحابة إلى عثمان وعرضوا عليه الخطاب فأنكر علمه به[٧] .

وعلم الثائرون أن الخطاب بخط مروان بن الحكم ، فطلبوا من الخليفة أن يخرجه لهم فرفض عثمان إخراجه خشية قتله ، فاتخذ الثائرون من رفضه ذريعة للهجوم على الخليفة

---

(١) ابن قتيبة : الإمامة والسياسة ج١ ص٣٦ ، السيوطي : تاريخ الخلفاء ص١٥٧ .
(٢) ابن خلدون : العبر ج٢ ص٥٩١ .
(٣) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص١٥٧ .
(٤) المصدر السابق ص١٥٨
(٥) المسعودي : مروج الذهب ج٢ ص٣٥٣ .
(٦) ابن قتيبة : الإمامة والسياسة ج١ ص٣٧ – ٤٠ .
(٧) ابن العربي : العواصم من القواصم ص١١٠ .

ومحاصرة داره[١] وانضم إليهم بقية الوفود الثائرة الأخرى[٢] واستمر حصاره لهم مدة أربعين يوماً ثم قام بعضهم بالانقضاض عليه وقتله سنة ٣٥هـ / ٦٥٥م[٣] .

أخذت مصر تواصل دورها في الأحداث الداخلية التي وقعت داخل الدولة الإسلامية بعد مقتل عثمان بن عفان - رضي الله عنه - وكانت الأطراف المتنازعة على السلطة في الدولة تحرص أن تقف مصر إلى جانبها ، وكان أملها في تحقيق النصر يتأكد إذا استطاعت أن تعتمد على تأمين أهل مصر وولائهم لها .

وعلى هذا فكر معاوية بن أبي سفيان في الاستيلاء على مصر وضمها إلى جانبه، لأنه كان يعلم أن وقوف مصر إلى جانب علي بن أبي طالب يضعف من قوته ويزعزع من سلطته ، فاتجه إلى مصر سنة ٣٦هـ / ٦٥٦م لكن محمد بن أبي حذيفة[٤] خرج إليه ومنعه من دخولها

(١) المسعودي : : مروج الذهب ج٢ ص٣٥٣ .

(٢) حسن علي : دراسات في تاريخ مصر ص٣٥ .

(٣) ابن الأثير . الكامل في التاريخ ج٣ ص٦٠ - ٦٨ .

(٤) هو محمد بن حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي بن كلاب القرشي ، ولد بالحبشة وكفله عثمان بعد مقتل أبيه وبقي في كفالته ونفقته عدة سنين وكان من أشد الناس تأليباً على عثمان ولقد انتهز خروج عبد الله بن سعد والي مصر لمقابلة الخليفة عثمان بن عفان فجمع حشداً من الجند والساخطين على الخليفة ، وهاجم عقبة بن عامر الذي استخلفه عبد الله لحين عودته وأخرجه من الفسطاط ودعا الناس إلى خلع عثمان من الخلافة ، ومنع عبد الله بن سعد من دخول مصر بعد عودته من المدينة ، وضيق على شيعة عثمان بمصر وعلى رأسهم معاوية بن حديج ، وخارجة بن حذافة ، وبشر بن أبي أرطأة ومسلمة بن مخلد الأنصاري فلما علموا بمقتل عثمان واشتراك طائفة من المصريين في مقتله ثاروا وعقدوا لمعاوية بن حديج على الطلب بدم عثمان وتقاتلوا مع محمد بن أبي حذيفة وانتصروا عليه في عدة معارك مما شجع معاوية على القدوم إلى مصر ويذكر الكندي أن معاوية قال لابن أبي حذيفة اجعل بيننا وبينكم رهناً فلا يكون بيننا وبينكم حرب فرضي ابن أبي حذيفة وخرج في الرهن هو وجماعة من قتلة عثمان فاحتال عليهم معاوية وسجنهم وسار إلى دمشق فهربوا من السجن وتبعهم صاحب فلسطين حتى قتلهم (الكندي : تاريخ ولاة مصر ص٢٢ ، ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ج٣ ص١٥٢ ، الفاسي : العقد الثمين ج١ ص٤٥٤) .

فمكر به معاوية حتى أخرجه من مصر حيث قتل في ذي الحجة من نفس العام[١] .

ولما بلغ علي بن أبي طالب ما حدث لمحمد بن أبي حذيفة أرسل قيس بن سعد[٢] أميراً على مصر في مستهل ربيع الأول سنة ٣٧هـ / ٦٥٧م ؛ لكن معاوية بن أبي سفيان لم يكن ليترك قيس بن سعد يحوّل مصر إلى قاعدة قوية لمؤازرة علي، فاستعمل دهاءه للإيقاع بين علي بن أبي طالب وقيس بن سعد ، فاصطنع خطابات بينه وبين قيس توهم أنه يتفاوض معه فانخدع علي بهذه الحيلة ، وظن أن قيساً يتعاون مع معاوية فعزله عن مصر بعد أربعة أشهر وخمسة أيام[٣] وولى مكانه الأشتر مالك بن الحارث ، فلما وصل الأشتر إلى القلزم في رجب سنة ٣٧هـ / ٦٥٧م تمكن أحد أصحاب معاوية من قتله بعد أن وضع له سماً في العسل ، ومات وهو على أبواب مصر ولم يدخلها[٤] فولى علي بعده محمد بن أبي بكر فخرج إلى مصر ، واستقر بها ، وأخذ يدعم مركزه فيها[٥] .

ولقد شعر معاوية أن وقوف مصر إلى جانب علي بن أبي طالب لن ينفصم عراه إلا بالقوة العسكرية فأرسل إليها جيشاً بقيادة عمرو بن العاص الخبير بمصر وأبنائها استطاع هزيمة محمد ابن أبي بكر وقتله في سنة ٣٨هـ / ٦٥٨م[٦] وصارت مصر تابعة لمعاوية وأنصاره .

---

(١) الكندي : تاريخ ولاة مصر ص٢٢ .

(٢) هو قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري أرسله علي إلى مصر ، وجمع له الصلاة والخراج فدخلها في مستهل ربيع الأول واستطاع بدهائه وحسن سياسته أن يستميل الشيعة العثمانية بمصر ، وبعث إليهم أعطياتهم ووفد عليه وفدهم فأكرمهم ، وأحسن إليهم ، وكان من ذوي الرأي والبأس واستطاع أن يأخذ البيعة لعلي بن أبي طالب في مصر ، واستقامت الأحوال في عهده مما جعل معاوية يلجأ إلى المكر والدهاء حتى ينتزعه عن مصر (الكندي : تاريخ ولاة مصر ص٢٣) .

(٣) الكندي .تاريخ ولاة مصر ص٢٤ - ٢٥ .

(٤) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج٣ ص٢٢٦ - ٢٢٧ .

(٥) الكندي : تاريخ ولاة مصر ص٢٨ .

(٦) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج٣ ص٢٢٩ - ٢٣٠ .

وفي سنة ٤٠هـ / ٦٦٠م تمكن عبد الرحمن بن ملجم الخارجي من قتل علي[١] فبايع جند العراق ابنه الحسن الذي رأى أن من مصلحة المسلمين مبايعة معاوية وتسليم الأمر إليه منعاً للشقاق وتوحيداً لقوى الأمة ، فبايعه في ربيع الأول من سنة ٤١هـ / ٦٦١م ليتولى معاوية بن أبي سفيان مقاليد الأمور في الدولة الإسلامية[٢] وتقوم على يديه الدولة الأموية التي أصبحت مصر إقليماً من أقاليمها .

---

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج٣ ص٢٥٥ .

(٢) محمد الخضري . الدولة الأموية ص٤٢٥ .

ثانياً : موقف مصر من حركة عبد الله بن الزبير :

انتقلت الخلافة في عهد الأمويين من الحجاز إلى الشام ، مما أغضب الحجازيين الذين كانوا يرون عودة الخلافة إلى وضعها السابق في عهد الخلفاء الراشدين وبخاصة بعد أن جعل معاوية الخلافة وراثية بتولية ابنه يزيد بن معاوية بعده،ثم مقتل الحسين بن علي بيد قوات يزيد[١] .

لذا فقد رفع أهل الحجاز راية العصيان على حكم الأمويين في عهد يزيد بن معاوية، ولبوا نداء عبد الله بن الزبير الذي ثار على الأمويين، مستغلاً حالة السخط التي شملت العالم الإسلامي عامة والحجاز خاصة لمقتل الحسين فدعا إلى خلع يزيد بن معاوية ، ومبايعته بالخلافة[٢] .

ولقد شاركت مصر أهل الحجاز في شق عصا الطاعة على الأمويين ، إذ لاقت دعوة عبد الله بن الزبير قبولاً منهم فأرسلوا وفوداً إلى مكة لمبايعته وطلبوا منه أن يبعث إليهم بأمير يقومون معه ويؤازرونه، فأرسل إليهم عبد الرحمن بن عتبة بن جحدم الفهري والياً عليهم من قبله سنة ٦٤هـ / ٦٨٤م[٣] .

ويذكر الكندي أن عبد الرحمن بن عتبة قدم على رأس جماعة من الخوارج الذين ساندوا عبد الله بن الزبير فوثبوا على سعيد بن يزيد بن علقمة الوالي الأموي وعزلوه[٤] ونزل عبد الرحمن بن عتبة بدار الإمارة في الفسطاط[٥] .

وتوطدت الصلات بين مصر والحجاز في عهد ابن الزبير ، وقامت مصر بدور كبير في

---

(١) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج٥ ص٤٥٣ .

(٢) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص٢١٢ .

(٣) الكندي : تاريخ ولاة مصر ص٣٩ .

(٤) المصدر السابق .

(٥) المصدر السابق .

مساندة الحجاز اقتصادياً عقب خروجه على الخلافة التي كانت تمده بما يحتاجه نظراً لضعف موارده ، وشحنت الغلال من مصر إلى الحجاز عبر قناة القلزم(١) .

وحين احترقت الكعبة وهدمها ابن الزبير أعاد بناءها وكساها القباطي البيض ، وهي ثياب كانت تصنع في مصر آنذاك(٢) .

لكن الأمور لم تدم على هذا الحال ، فحينما تولى الخلافة مروان بن الحكم أدرك أن استقرار الأمر لبني أمية لن يتم إلا باستعادة مصر مرة أخرى، فسار إليها ودخلها سنة ٦٥هـ / ٦٨٤م بعد هزيمة عبد الرحمن بن عتبة عامل ابن الزبير عليها(٣) ، وولى ابنه عبد العزيز بن مروان على صلاة مصر وخراجها ، وأمده بموسى بن نصير بمثابة وزير له(٤) .

وعادت مصر للأمويين مرة أخرى بعد أن انفصلت عنهم فترة لم تزد عن تسعة أشهر انضمت خلالها لابن الزبير ، وبسقوط مصر في يد بني أمية حُرِم الحجاز من الغلال التي كانت مصر ترسلها إليه، فتعسر وضع الحجاز الاقتصادي، وتأثر موقف ابن الزبير بذلك(٥) .

ولم يتخذ الأمويون من مصر قاعدة للتضييق على ابن الزبير اقتصادياً فحسب ؛ بل شاركت مصر في الناحية العسكرية حين وجه عبد العزيز بن مروان سنة ٧٢هـ حملة بحرية من قبله على ساحل الحجاز للمشاركة في القضاء على ابن الزبير(٦) ، وبعد القضاء عليه سنة ٧٣هـ / ٦٩٢م عاد الحجاز إلى سيطرة الأمويين ، وصار ملجأ لبعض المضطهدين من العلويين(٧) حتى قيام الدولة العباسية التي أخذت تطارد العلويين هي الأخرى .

---

(١) سيديو : تاريخ العرب العام ص١٤٧ .

(٢) الحميري : الروض المعطار ص٩٤ ، القلقشندي . مآثر الإنافة فى معالم الخلافة ج١ ص١٢٣ - ١٢٤

(٣) الكندي . تاريخ ولاة مصر ص٤١ .

(٤) المصدر السابق ص٤٣ .

(٥) سيديو : تاريخ العرب العام ص١٤٧ .

(٦) المقريزي : الخطط ج١ ص٣٠٢ .

(٧) أحمد الشريف : دور الحجاز في الحياة السياسية العامة ص٤٥٠ .

ثالثاً : موقف مصر من الصراع العلوي العباسي :

وقف العلويون مدة طويلة على رأس الزعامة من بني هاشم ، وحاولوا أن ينالوا الخلافة قبل العباسيين ، فقاموا بثورات عديدة في وجه بني أمية مطالبين بالخلافة ، وسقط منهم كثير من الضحايا[١] .

وقد استغل العباسيون الاضطهاد الأموي للعلويين كي يضمنوا نجاح دعوتهم فجعلوا شعار الدعوة لهم هو « الرضا من آل محمد » حتى يجتذبوا عطف الجماهير نحو حركتهم وحتى يضمنوا تأييد العلويين لهم ، فلما ظفر العباسيون بالخلافة أدرك العلويون أنهم خدعوا من العباسيين الذين استأثروا بالخلافة دونهم فنابذوهم العداء ، وشهدت كل من مصر والحجاز ثورات من العلويين على العباسيين[٢] .

ففي مصر لقيت الدعوة للعلويين قبولاً ، إذ حينما قام علي بن محمد النفس الزكية بالدعوة لأبيه ، بايعه كثير من المصريين مؤيدين لدعوته ، ويذكر الكندي أن الوالي العباسي لمصر حميد بن قحطبة أخفى أمره عن الخليفة المنصور ، ولم يهتم بالقبض عليه ، مما جعل المنصور يسخط على هذا الوالي ويعزله لتعاطفه مع العلويين ، ويولي يزيد بن حاتم المهلبي مكانه ، وقد تمكن يزيد من القضاء على دعوة علي بن محمد الذي فر بعد هزيمته في المعركة وأخفاه المصريون عن أعين العباسيين حتى مات ودفن بمصر[٣] .

وقد ظهر تعاطف المصريين بوضوح نحو العلويين ، وتمثل في ترحيب المصريين بكل علوي يقدم إليهم ، وإن كان خارجاً على الخلافة العباسية ، إذ حينما فر إدريس بن عبد الله بن الحسن أخو النفس الزكية ، وأخوه يحيى بن عبد الله من الحجاز بعد هزيمة الحسين بن علي بن الحسن في موقعة « فخ » وجدا ترحيباً من المصريين الذين كتموا أخبارهما عن العباسيين ،

---

(١) محمد الخضري : الدولة العباسية ص٤٩٧ .

(٢) انظر الفصل الأول - حالة الحجاز قبيل السيادة الفاطمية .

(٣) الكندي : تاريخ ولاة مصر ص٩١ - ٩٤ .

وحين علم علي بن سليمان الوالي العباسي لمصر بمكان إدريس بن عبد الله ذهب إليه سراً ، وتقابل معه ، وأخفى أمره عن الخليفة[١] كما أن «واضحاً» مولى بني العباس والمتولي بريد مصر سهل له الخروج منها مع معرفته به[٢] ، ولما علم الخليفة هارون الرشيد بذلك عزل الوالي عن مصر[٣] .

وقد اتجه إدريس إلى بلاد المغرب الأقصى ، واستطاع أن يكون أول دولة للعلويين هناك سنة ١٧٢هـ / ٧٨٨م وهي دولة الأدارسة[٤]

وفي النصف الثاني من القرن الثالث الهجري توالت ثورات العلويين على العباسيين بمصر ففي سنة ٢٤٨هـ / ٨٦٢م وفي ولاية يزيد بن عبد الله خرج محمد بن علي بن الحسين الذي يعرف بأبي حدرى ، وبويع له ، لكن يزيد بن عبد الله خرج إليه وقبض عليه وعلى أنصاره بعد أن أقر عليهم ثم أخرجه يزيد ومن معه من آل أبي طالب إلى العراق متفياً من مصر[٥] .

ولم يكتف العلويون في مصر بالثورة على العباسيين ، بل إنهم كانوا يرحبون بكل ثورة ضد الخلافة العباسية وينضمون إليها ، ففي سنة ٢٥٢هـ / ٨٦٦م خرج حابر بن الوليد المدلجي على العباسيين بمدينة الإسكندرية واستطاع السيطرة على معظم بلدان الوجه البحري ، وكان يسانده ابن الأرقط العلوي[٦] الذي ضم إليه كثيراً من الأعراب ووجوه أصحابه ، ولم يستطع والي مصر يزيد بن عبد الله أن يوقف هذه الثورة مما اضطر الخليفة العباسي أن يرسل إليه المدد بقيادة مزاحم بن خاقان فتمكن من القبض على عبد الله بن أحمد بن الأرقط العلوي وأمر

---

(١) الكندي : تاريخ ولاة مصر ص١٠٦ .

(٢) محمد الخضري : الدولة العباسية ص٤٩٩ .

(٣) الكندي : تاريخ ولاة مصر ص١٠٦ .

(٤) محمد الخضري · الدولة العباسية ص١٠٤ .

(٥) الكندي : تاريخ ولاة مصر ص١٥٩ .

(٦) هو عبد الله بن أحمد بن إسماعيل بن محمد بن عبد الله بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ويقال له ابن الأرقط العلوي (المصدر السابق ص١٦١) .

بإخراجه مع أنصاره إلى العراق[١] .

وتتابعت ثورات العلويين على العباسيين في مصر ، ففي سنة ٢٥٤هـ / ٨٦٨م خرج أحد العلويين بمصر ويقال له « بُغا الأكبر »[٢] وأعلن ثورته على العباسيين في ولاية أزجور التركي ، وذهب إلى الصعيد واستقر به ، لكن أزجور والي مصر العباسي هزمه وقضى على حركة تمرده[٣] .

وفي ولاية أحمد بن طولون خرج علوي آخر يقال له « بُغا الأصغر »[٤] بموضع يسمى الكنائس فيما بين الاسكندرية وبرقة ، وسار في جمع معه إلى الصعيد ٢٥٥هـ / ٩٦٩م فلقيهم جيش ابن طولون فهزمهم ، وقتل بُغا وأتى برأسه إلى الفسطاط[٥] ثم خرج ابن الصوفي العلوي[٦] سنة ٢٥٦هـ / ٩٧٠م بصعيد مصر وقوي أمره وتغلبت قواته على جيش ابن طولون، وأسر قائده ابن ازذاذ حيث قتل وصلب ، ثم تحرك الثائرون إلى أسوان فتقابلوا مرة أخرى مع الجيش الطولوني فهزمهم وقضى عليهم ، وفر ابن الصوفي إلى عيذاب متجهاً إلى مكة حيث أقام بها إلى أن قبض عليه وأرسل إلى مصر ، فسجنه أحمد بن طولون فترة ثم أطلق سراحه ، فخرج إلى المدينة المنورة ومات بها[٧] .

والمتتبع لتلك الأحداث يجد أن العلويين في مصر وجدوا مؤازرة ومساندة من أهلها في

---

(١) المصدر السابق ص١٦٢ .

(٢) هو أحمد بن إبراهيم بن عبد الله بن طباطبا إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب (المصدر السابق ص١٦٥) .

(٣) المصدر السابق .

(٤) هو أحمد بن محمد بن عبد الله طباطبا (الكندى . تاريخ ولاة مصر ص ١٦٧) .

(٥) المقريزي : الخطط ج١ ص٣١٩ .

(٦) هو إبراهيم بن محمد بن يحيى بن عبد الله بن محمد بن على بن أبي طالب (ابن الأثير : الكامل في التاريخ ح٦ ص٢٢٦) .

(٧) الكندي : تاريخ ولاة مصر ص١٦٨ ، ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ج٦ ص٢٢٧ ، ٢٤٣ .

ثوراتهم على العباسيين ؛ بل إن بعض ولاة مصر من قبل العباسيين كانوا يكتمون أخبارهم عن دار الخلافة متعاطفين معهم ، ويبدو أن هذا الارتباط ناتج عن حب المصريين لآل البيت وبخاصة العلويون الذين قهروا من العباسيين ، وقد أدرك الخلفاء العباسيون ذلك مما جعل الخليفة المتوكل العباسي يأمر والي مصر بإخراج آل أبي طالب من مصر[١] ، فخرجت مجموعة منهم في سنة ٢٣٦هـ / ٨٥٠م فقدموا العراق ثم أمروا بالخروج إلى المدينة[٢] .

---

(١) المقريزي : الخطط ج١ ص٣١٢

(٢) الكندي · تاريخ ولاة مصر ص١٥٥

رابعاً : ابن طولون والحجاز :

ظلت مصر ولاية تتبع الدولة العباسية حتى سنة ٢٥٤هـ / ٨٦٨م حيث استقل بحكمها أحمد بن طولون وأقام بها دولة تنتسب إلى أبيه[١] ، وقد نشأ أحمد بن طولون نشأة طيبة أشار إليها كل من أرخ له ، وكان لهذه النشأة الطيبة أثر كبير في اهتمامه بأمور الحجاز لأن أي إنسان مؤمن يهفو دائماً بنظره تجاه الحرمين الشريفين ويمتلئ قلبه حباً لهما ورغبة في القرب منهما ؛ حيث مهبط الوحي وموطن الرسالة والنبوة .

ولقد كان ابن طولون يقوم بواجبه في مساعدة مجاوري الحرمين الشريفين فيذكر ابن إياس أنه كان يرسل إليهم كسوة الشتاء والصيف[٢] .

إلا أننا لم نر في أي مصدر من المصادر التاريخية المتاحة أن ابن طولون قد وُلي على الحجاز بجانب مصر والشام لكن المؤرخ المكي تقي الدين الفاسي (ت ٨٣٢هـ / ١٤٢٩م) يرى أن ابن طولون كان والياً على مكة من قبل الخليفة العباسي المعتمد[٣] ، ويستدل لرأيه بما ذكره ابن جرير الطبري في أخبار سنة٢٦٩هـ / ٨٨٣م في تاريخه عن المعركة التي نشبت بين المصريين والعباسيين في مكة وهزم فيها جيش ابن طولون[٤] وقد تابع الفاسي في ذلك كثير من المؤرخين الحجازيين الذين جاءوا من بعده واعتمدوا على روايته مثل عمر بن فهد (ت ٨٨٥هـ / ١٤٨٠م) [٥] وعبد العزيز بن عمر بن فهد (ت ٩٢٢هـ / ١٥١٦م)[٦] والجزيري (ت ٩٧٧هـ / ١٥٧٠م)[٧] وابن ظهيرة (ت ٩٨٦هـ / ١٥٧٩م)[٨] .

---

(١) حسن علي : دراسات في تاريخ مصر الإسلامية ص٥٣ .

(٢) ابن إياس · بدائع الزهور فى وقائع الدهور ج١ ق١ ص١٦٨ .

(٣) الفاسي : شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ج٢ ص١٨٨ - ١٨٩ .

(٤) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج٢ ص٦٥٢ - ٦٥٣ .

(٥) عمر بن فهد : إتحاف الورى بأخبار أم القرى ج٢ ص٣٤٣ - ٣٤٤ .

(٦) عبد العزيز بن فهد : غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام ح١ ص٤٥٣ - ٤٥٤ .

(٧) الجزيري : الدرر الفرائد المنظمة فى أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة ج١ ص٤٤٩ - ٥٥٠ .

(٨) ابن ظهيرة : الجامع اللطيف فى فضل مكة وبناء البيت الشريف ص٣٠٢

والحقيقة أن ابن طولون لم يتولّ مكة من قبل الخليفة العباسي المعتمد ، لأننا لم نر في أي مصدر من المصادر الأخرى ما يثبت ذلك ؛ كما أن استنتاج الفاسي لا ينهض دليلاً على تولية العباسيين له على مكة .

ويمكن القول : إن ابن طولون بعد استقلاله بمصر وتمكنه منها فكر في بسط سلطانه على الحجاز ، لكنه فشل في تحقيق هدفه بعد محاولتين كانت الأولى منهما سنة ٢٦٧هـ / ٨٨١م حينما حاول أنصاره الدعوة له بموسم الحج في هذا العام ، فتصدى لهم أنصار عمرو بن الليث الصفاري[١] ، ويبين الطبري أن كل فريق منهم نازع صاحبه في وضع علمه على يمين المنبر في مسجد إبراهيم خليل الرحمن ، وادعى كل منهما أن الخلافة لصاحبه ، وانتصر أصحاب عمرو بن الليث ودعوا لصاحبهم في هذا الموسم[٢] .

ويرجع السبب في انتصار أصحاب عمرو بن الليث إلى أنه كان يتمتع بتأييد أبى أحمد الموفق أخو الخليفة العباسي[٣] في الوقت الذي كان ابن طولون فيه على خلاف مع الموفق حين بعث ابن طولون بإعانة مالية للخلافة مساعدة منه في القضاء على ثورة الزنج ، فاتهم الموفق أحمد بن طولون بالتقصير في إرسال المال الكافي وبعث إليه خطاباً مليئاً بالتهديد والوعيد فرد عليه أحمد بن طولون رداً قاسياً وأعلن استقلاله بالبلاد[٤] .

وكانت المحاولة الثانية لابن طولون نحو الحجاز في سنة ٢٦٩هـ / ٨٨٣م وقد تحدث عنها ابن جرير الطبري ونقل عنه تقي الدين الفاسي، فذكر أن ابن طولون قد أرسـل جيشاً

---

(١) عمرو بن الليث الصفاري تولى أمر الدولة الصفارية عقب وفاة أخيه يعقوب بن الليث مؤسس الدولة ، وأقره أبو أحمد الموفق أخو الخليفة العباسي المعتمد على خراسان وفارس وأصبهان وسجستان وكرمان والشرطة ببغداد وخلع عليه وبذلك قبض عمرو على ما كان بيد أخيه (انظر : ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج٣ ص٤٠ . حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ج٣ ص٧٣) .

(٢) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج٩ ص٥٩٩ - ٦٠٠ .

(٣) الفاسي : شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ج٢ ص١٨٩ .

(٤) البلوي : سيرة أحمد بن طولون ص٨٥ .

من مصر إلى مكة قوامه أربعمائة وسبعين فارساً وألفي راجل بقيادة محمد بن السراج وقد استطاع هذا الجيش دخول مكة في بداية الأمر بعد أن فر من أمامهم هارون بن محمد عامل الخلافة على مكة .

ويبين الطبري أن جيش ابن طولون قام بتوزيع الأموال على أهل مكة وعلى الجزارين والحناطين ورؤساء المهن المختلفة لاستمالتهم ؛ إلا أن الإمدادات جاءت من العراق لوالي مكة الذي عاد مرة أخرى ونازل قوات ابن طولون وهزمهم وغنم أموالهم وقرئ كتاب في المسجد بلعن ابن طولون[١] .

ويبدو أن هذه المحاولة كانت نتيجة الخلاف الذي نشأ بين ابن طولون والموفق فأعد ابن طولون عدته للسيطرة على مكة مستغلاً هذا الخلاف ، لكن الموفق لم يكن ليسمح له بالاستيلاء على الحجاز الذي تستمد منه الخلافة شرعيتها الدينية أمام المسلمين ، فأرسل قواته بقيادة جعفر بن الباغمردي لمساعدة والي مكة في طرد جيش ابن طولون عنها[٢] وخرجت قوات ابن طولون بعد هذه المحاولة ولم يفكر الطولونيون مرة أخرى في السيطرة على الحجاز .

---

(١) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج٩ ص٦٥٢ - ٦٥٣ .

(٢) المصدر السابق .

خامساً : الإخشيديون والحجاز :

في أواخر عهد الطولونيين انتشرت الفوضى في مصر واشتد التنافس عليها بين الطامعين في السلطان، وانتهى الأمر بأن أعدت الخلافة العباسية جيشاً للاستيلاء على مصر وإعادته للخلافة ، وزالت الدولة الطولونية[١] بعد أن حكمت مصر مدة ثمانية وثلاثين عاماً .

وقد ظل النفوذ العباسي غير مستقر بعد زوال الطولونيين مما شجع أحد قادة الأتراك في الجيش العباسي في مصر ، وهو محمد بن طغج إلى الانفراد بالسلطة دون القادة والولاة المتنازعين عليها ، ومما ساعده على ذلك ما قدمه من خدمات في الدفاع عن مصر ضد الهجمات الفاطمية[٢] .

وصار محمد بن طغج الحاكم المطلق في البلاد سنة ٣٢٣هـ / ٩٣٥م وأطلق عليه الخليفة الراضي لقب الإخشيد أي « ملك الملوك »[٣] وصار مؤسس دولة انتسبت إلى اللقب الذي منحه إياه الخليفة العباسي وعرفت باسم الدولة الإخشيدية[٤] .

وبعد سنتين من قيام الدولة الإخشيدية ضم الإخشيد إليه الشام ليعيد القوة إلى الشرق العربي، وليستطيع الوقوف في وجه الروم البيزنطيين ، وخشي أباطرة الروم قوة الدولة الجديدة وراسلوا الإخشيد كسباً للسلام والمودة[٥] .

وفي سنة ٣٣١هـ / ٩٤٣م أسندت ولاية مكة والمدينة إلى محمد بن طغج الإخشيد والي مصر من قبل الخليفة العباسي الراضي[٦] ، واستمر ذلك إلى عهد الخليفة العباسي المتقي الذي

---

(١) الكندي : تاريخ ولاة مصر ص١٩١ .
(٢) إبراهيم العدوي : تاريخ العالم الإسلامي ص٢٥٧ .
(٣) المقريزي : المقفي الكبير ص٢٥٧ .
(٤) المصدر السابق .
(٥) إبراهيم العدوي : تاريخ العالم الإسلامي ص٢٥٨ .
(٦) الفاسي : شفاء الغرام ج٢ ص١٩٣ .

كان على صلة حسنة وطيبة بالإخشيد وقد حرص أن يقوي جانبه مادياً وأدبياً ليلجأ إليه عند الحاجة تخلصاً من سلطة الأتراك عليه فأقره على الحجاز بالإضافة مصر والشام ، كما جعل هذه الولاية له ولأولاده من بعده لمدة ثلاثين عاماً[١] ، وصار يدعى له مع الخليفة العباسي بمكة والمدينة بالإضافة إلى مصر والشام[٢] .

ولم تذكر المصادر التاريخية المتاحة من كان يتولى أمر مكة من قبل الإخشيد في تلك الفترة ، وإن كان المؤرخ المكي تقي الدين الفاسي يرى أن تولية الصلاة بالحرمين للإمامين عبد السميع وعبد العزيز ابنى عمر بن الحسن بن عبد العزيز[٣] مكان أبيهما يدل على ولاية الاخشيد للحرمين ، فتقليدهم للصلاة فيها يقتضي أنهما في ولاية الإخشيد[٤] .

ويبدو أن تقليد الإخشيد لولاية مكة كان تقليداً شكلياً ، لأنه لا يوجد في ضوء المصادر المتاحة أن الإخشيد قد تدخل في شئون مكة الداخلية ، أو عين نائباً عنه في الحجاز ؛ بل إنه كان يكتفى بالدعاء له على منابرها وكان يعتز بذلك ويشير إليه في مراسلاته، كما جاء في رسالته إلى امبراطور الروم التي يقول فيها : « هذا إلى ما نتقلده من أمر مكة المحفوفة بالآيات الباهرة والدلالات الظاهرة ، فإنا لو لم نتقلد غيرها لكانت بشرفها وعظيم قدرها وما حوت من الفضل توفي كل مملكة لأنها محج آدم ومحج إبراهيم وإرثه ، ومهاجره ، ومحج سائر الأنبياء ، وقبلتنا وقبلتهم عليهم السلام، ومنها مدينة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - المقدسة

---

(١) المقريزي : المقفي الكبير ص١٣٤ ، أحمد شلبي : موسوعة التاريخ الإسلامي ج٥ ص٩٨ .

(٢) الفاسي : : العقد الثمين ج٢ ص٣٠ - ٣١ ، شفاء الغرام ج٢ ص١٩٢ ، عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج١ ص٤٧١ .

(٣) هو عمر بن الحسن بن عبد العزيز الهاشمي كان يتولى الصلاة بالحرم الشريف وفي أيام الحج ، وقد حج بالناس من سنة ٣١٨هـ / ٩٣٠م إلى سنة ٣٣٥هـ / ٩٤٦م ثم تولى القضاء بمكة ومصر سنة ٣٣٦هـ/ ٩٤٧م وظل ينظر في الأحكام إلى النصف من ذي الحجة سنة ٣٣٩هـ / ٩٥١م (المسعودي : مروج الذهب ج٤ ص٤٠٨ ، الكندي: تاريخ ولاة مصر ص٣٧١ - ٣٧٢) .

(٤) الفاسي : شفاء العرام ج٢ ص١٩٣ .

بتربته، وأنها مهبط الوحي، وبيضة هذا الدين المستقيم الذي امتد ظله على البر والبحر»[١].

وبعد وفاة محمد بن طغج الإخشيد بدمشق سنة ٣٣٤هـ / ٩٤٥م[٢] تولى الحكم من بعده ابنه أبو القاسم أنوجور[٣] ، وفي هذا العام استولى البويهيون على بغداد وأصبحوا أصحاب النفوذ الحقيقي والسلطان الفعلي في العراق ، وأصبح اسم معز الدولة البويهي يذكر في الخطابة بعد ذكر الخليفة العباسي[٤] .

ولقد حاول البويهيون القضاء على نفوذ الإخشيد بالحجاز مما أدى إلى نشوب كثير من الخلافات بين أنصار الفريقين العراقي ، والمصري ، فقد تمسك المصريون بعقد المتقي للإخشيد ولولده من بعده[٥] وأصر العراقيون على الدعوة لمعز الدولة البويهي ولأخيه ركن الدولة ولولده عز الدولة بعد الخليفة العباسي المطيع[٦] مما أدى إلى حدوث اشتباك بين الفريقين في موسم الحج سنة ٣٤١هـ / ٩٥٣م[٧] وكان على رأس الفريق المصري عمر بن الحسن بن عبد العزيز المتولي للصلاة بالحرم الشريف ، وأحمد بن عمر بن يحيى العلوي أمير الحاج العراقي ، وانتصر أصحاب معز الدولة وأقاموا الخطبة بمكة للخليفة العباسي ، ولبني بويه من بعده[٨] .

ثم حدث اشتباك آخر سنة ٣٤٢هـ / ٩٥٤م بين أنصار الإخشيد والحاج العراقي لم يتمكن فيه أنصار الإخشيد من الدعوة لصاحبهم ، وتمكن أنصار معز الدولة من الدعوة له[٩] إلا أنه

---

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ج٧ ص١٣ - ١٤ .

(٢) الكندي : تاريخ ولاة مصر ص٢٢٠ .

(٣) المصدر السابق ص٢٢١ .

(٤) محمد الخضري : تاريخ الدولة العباسية ص٣٨٠ .

(٥) الفاسي . شفاء الغرام ج٢ ص١٩٢ .

(٦) المصدر السابق

(٧) ابن كثير : البداية والنهاية ج١١ ص٢٢٥ .

(٨) الفاسي : العقد الثمين ج٢ ص١٨٥ .

(٩) عمر بن فهد : إتحاف الورى ج٢ ص٣٩٨ ، ابن كثير : البداية والنهاية ج١١ ص٢٢٧ .

في سنة ٣٤٣هـ / ٩٥٥م حدث قتال بين الفريقين أسفر عن الدعوة للبويهيين ثم لأبي القاسم أنوجور الاخشيدي[١] وتمكن الإخشيديون من الدعوة لصاحبهم هذه المرة .

وفي سنة ٣٤٨هـ / ٩٥٩م استطاع أمير الحاج العراقي الدعوة للخليفة العباسي ثم لبني بويه بعد خداعه لأمير الحاج المصري باتفاق على إفراد الخليفة بالخطبة دون سواه[٢] لكن الإخشيديين سرعان ما استعادوا نفوذهم الاسمي مرة أخرى على الحجاز ، بعد أن ولى الخليفة العباسي المطيع لله كافور الإخشيدي على مصر والشام والحجاز ، وأصبح يدعى له على منابرها[٣] .

ويبدو أن كافور الإخشيدي لم يترك نائباً عنه بمكة ، وإنما اكتفى بالدعوة له على منابرها في مواسم الحج شأنه في ذلك شأن بقية أسرة الإخشيد .

ولما تولى الإخشيديون أمر الحجاز دخلت المدينة ضمن نفوذهم الاسمى فأبقوا للعباسيين سيادتهم عليها والمتمثلة في الدعوة لهم على منابرها[٤] .

ويتضح مما سبق أن الدولة العباسية حين ضعفت في العصر العباسي الثاني كان الحجاز بالنسبة لهم بلداً بعيداً ثقيل التكاليف ، وإصلاح أحواله يتطلب مالاً ، ورعاية الحجاج تتطلب رعاية ونفقة؛ لذا بدا لهم أن الحل المناسب للحجاز هو أن تتولى مصر أموره ، وتتكفل برعاية الحجاج المسلمين وأهل الحجاز ، فعهدوا بإدارة أموره إلى محمد بن طغج الإخشيد الذي أقام دولته الإخشيدية بمصر، وصار الرجل القوي الذي يعتمد عليه، وخطب له على منابر مكة والمدينة مع الخليفة العباسي .

---

(١) عمر بن فهد : إتحاف الورى ج٢ ص٣٩٩ .

(٢) المصدر السابق ج٢ ص ٤٠٠..

(٣) الكندي : تاريخ ولاة مصر ص٢٢٣ ، المقريزي : الخطط ج١ ص٣٣٠ .

(٤) جمال سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ص٢٢ .

ومنذ تلك الفترة بدأ ارتباط مصر بالحجاز قوياً وهو ارتباط استمر لفترة طويلة ، فقد أصبحت مصر تعتبر نفسها مسئولة عن الحرمين الشريفين ، وكان صاحب مصر مكلفاً بأن يعني بأمر الحاج ويقوم على المسجد الحرام ، والمسجد النبوي ، ومزارات المسلمين .

* * *

الباب الأول

الدعوة الفاطمية فى الحجاز
بين القوة والضعف

* * *

الباب الأول
الدعوة الفاطمية في الحجاز
بين القوة والضعف

مدخل :

كان الفاطميون يفكرون في بسط سلطانهم على بلاد الحجاز ؛ لأنهم كانوا يعرفون أن من يسيطر على الحرمين الشريفين يتمتع بالزعامة الروحية في العالم الإسلامي ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى قد يكون الحجاز مجالاً أرحب لنشر دعوتهم حيث يغصّ بالكثير من أبناء العالم الإسلامى فى مواسم الحج .

وبالإضافة إلى هذا فإن الفاطميين كانوا يسعون للسيطرة على الحجاز لأنه من الناحية الدفاعية أو الهجومية على مصر يعد منطقة حيوية؛ إذ إن كل سياسة دفاعية أو هجومية للدول القائمة فى مصر تتخذ مجالها فى شمال البحر الأحمر وجنوب الشام .

لذا فقد سعى الفاطميون إلى مد نفوذهم المباشر إلى الحجاز، وظلت البلاد المقدسة تحت سيطرتهم إلى أن ضعفت الدولة الفاطمية فعاد النفوذ العباسى مرة أخرى إلى الحجاز.

والحديث فى هذا الباب يتضمن ثلاثة فصول .

الفصل الأول :

حالة الحجاز قبيل السيادة الفاطمية ، وينوه بالأحداث المتلاحقة على الحجاز منذ قيام الدولة الأموية ثم العباسية ، والمحاولات المتكررة لخلفاء الدولتين في القضاء على معارضيهم بالحجاز وبخاصة العلويون ، ثم ضعف الحجاز في العصر العباسي الثاني وغزو القرامطة له دون أن يحرك العباسيون ساكناً نظراً لضعفهم . وتبع ذلك استقلال الأشراف العلويين بمكة والمدينة وخلع طاعة العباسيين والدعوة للفاطميين .

الفصل الثاني :

السيادة الفاطمية في الحجاز ، ويعرض لمظاهر السيادة الفاطمية في الحجاز التي تتمثل في خضوع الحجاز للنفوذ الفاطمي المباشر ، ومحاولات الحجاز للتحرر من هذا النفوذ ، ثم جهود الفاطميين لإخضاعهم لنفوذهم ، ونجاحهم في إعادة الحجاز مرة أخرى لسلطانهم .

الفصل الثالث :

ضعف النفوذ الفاطمي بالحجاز ، ويعرض لمظاهر ضعف النفوذ الفاطمي على الحجاز في العصر الفاطمي الثاني وأسباب هذا الضعف ونتائجه .



الفصل الأول

حالة الحجاز قبيل السيادة الفاطمية

الفصل الأول

حالة الحجاز قبيل السيادة الفاطمية

مدخل :

استطاع الرسول صلى الله عليه وسلم أن يجعل العرب في الحجاز ؛ بل في الجزيرة العربية كلها تنفض عنها رجس الجاهلية وأوزارها ، فكون منها مجتمعاً إسلامياً موحداً تميز برسوخ العقيدة والاستشهاد في سبيلها ، وقد كون لهم - عليه الصلاة والسلام - دولة إسلامية ثابتة الدعائم والأركان ، وجعل حاضرتها « المدينة المنورة » التي ظلت حاضرة الدولة الإسلامية طوال عهد الخلفاء الراشدين الثلاثة : أبو بكر وعمر وعثمان ، وبداية عهد علي رضي الله عنهم .

وفي عهد الخلفاء الراشدين ،كان أساس اختيار الخليفة هو الشورى فالخلافة لا تتعين لها أسرة معينة وإنما تنعقد عن طريق اختيار أهل الحل والعقد ، وعلى هذا جرى الأمر بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم .

أما الأمويون فقد انتهجوا في طريقة حكمهم منهجاً سياسياً يخالف المنهج السياسي الذي اتبعه الخلفاء الراشدون ، وهو الخروج بالدولة من نظام الشورى إلى نظام الوراثة مما أدى إلى قيام كثير من المعارضين لهذا المنهج السياسي ، وبخاصة الحجاز الذي اشتدت به الثورات على الأمويين، وتضافر آل البيت من العلويين والعباسيين للقضاء على الأمويين ، فلما ظفر العباسيون بالخلافة أدرك العلويون أنهم خدعوا من العباسيين الذين استأثروا بالخلافة دونهم فقاموا بعدة ثورات في الحجاز وأمصار إسلامية أخرى ، واستطاع العباسيون القضاء على هذه الثورات ، ثم عملوا على إضعاف شأن الحجاز حتى لا تقوم به حركات أخرى مناوئة لهم ، فصار الحجاز لا يستطيع صد المغيرين عليه إلا بمساندة خارجية ، مما جعل العلويين ينشطون مرة

أخرى في منتصف القرن الرابع الهجري للخروج على العباسيين والاستقلال بالحجاز .

وعلى ضوء هذه الصورة للحجاز ينصب الحديث في هذا الفصل ليشمل خمسة مباحث جديرة بالبحث والدراسة هي :

أولاً : جهود الأمويين لإخضاع الحجاز .

ثانياً : ضعف الحجاز وعجزه عن صد المغيرين .

ثالثاً : الحجاز في ظل النفوذ العباسي .

رابعاً : غزو القرامطة للحجاز .

خامساً : استقلال الأشراف العلويين بمكة والمدينة .

أولاً : جهود الأمويين لإخضاع الحجاز :

استولى البيت الأموي على خلافة المسلمين بالقوة والغلبة ، لا عن رضا ومشورة ؛ لأن معاوية بن أبي سفيان استعان بأهل الشام الذين كانوا أنصاره ومؤيديه على من خالفه من أهل الحجاز حتى تمّ له الأمر ، ورضي الناس عنه ، والقلوب منطوية على ما فيها من كراهة ولايته[١] .

لذا كان من الطبيعي أن ينقل الأمويون عاصمة الخلافة إلى دمشق ليكونوا وسط أنصارهم ومؤيديهم ، وأصبح الحجاز ولاية تابعة للدولة الأموية ، يضم مكة والمدينة والطائف، ويقيم الأمير بالمدينة[٢] وكان ذلك بالنسبة للحجاز حداً فاصلاً بين عهدين ، عهدٌ كان للحجاز فيه النفوذ السياسي على سائر الأمصار باعتباره دار الهجرة ، ومقر الخلافة الراشدة ، وعهد فقد الحجاز فيه سلطانه السياسي، وأثّر ذلك تأثيراً بالغاً على اقتصادياته منذ أن تحولت موارد

---

(١) محمد الخضري : الدولة الأموية ص٥٧٢ .

(٢) المصدر السابق ص٥٦٠ .

الفتوح وعائدات الخراج والجزية إلى دمشق ؛ مما جعل أهله ينقمون على الأمويين وينتظرون الفرصة المناسبة للثورة عليهم .

ولعل معاوية بن أبي سفيان كان يقدر ذلك ويخشاه ، فجعل ولاية الحجاز لأفراد بيته من بني أمية ؛ ليكون أهل الحجاز تحت أنظارهم ، فاستعمل من أبناء عمومته مروان بن الحكم وسعيد بن العاص ، فكان يولى أحدهما إذا عزل الآخر[١] .

ويبدو أن معاوية كان يخشى أهله ويخاف أن يقع تحت رحمتهم وسلطانهم ، كما فعل عثمان بن عفان – رضي الله عنه – فعمد إلى هذا الأسلوب، ولم يكتف بهذا بل كان يوقع بينهم العداوة والبغضاء حتى لا يتحدوا في وجهه[٢] لكنه قبل وفاته عاد وقسم الحجاز إلى ولايتين فجعل على المدينة الوليد بن عتبة بن أبي سفيان ، وعلى مكة عمرو بن سعيد بن العاص[٣] .

وحاول معاوية أن يعوض أهل الحجاز ما فقدوه من السلطة حين أبعدهم عن الحكم فأغرقهم بالأموال والعطايا لتأليف القلوب ، وشغلهم عن التفكير في القضايا السياسية والمطالبة بالخلافة[٤] وأكثر من الهدايا والهبات لكبار المهاجرين والأنصار[٥] .

ويبدو أن معاوية استطاع بعطاياه السخية أن يكتسب خصومه السابقين من الهاشميين فهدأت الأمور في الحجاز إلى أن فكر معاوية في تحويل نظام الخلافة من الشورى إلى الوراثة

---

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج٣ ص٣١٥ ، ٣٤٤ .

(٢) المصدر السابق ص٣٤٤ ، ٣٤٥ .

(٣) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج٥ ، ص٣٣٨ .

(٤) من ذلك ما تم الاتفاق عليه بين معاوية والحسن بن علي بن أبي طالب على أن يعطيه ما في بيت المال بالكوفة ومقداره خمسة آلاف واتفاقه مع عبد الله بن عباس على أن يتنازل له عما كان في عهدته من أموال البصرة حتى يكسب وده (ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج٣ ، ص٢٧٢ ، ابن خلدون : العبر ج٢ ، ص٦٤٨) .

(٥) ابن الطقطقى : الفخري في الآداب السلطانية ص٩٢ .

باختيار ابنه يزيد ولياً للعهد ، مما جعل الدولة الأموية تتعرض لثورة كثير من المعارضين لهذا المبدأ ، فأهل الحجاز لم يألفوا نظام وراثة الحكم الذي ساد بلاد الفرس والروم والذي تأثر به معاوية أثناء حكمه لبلاد الشام ، كما أن الحجاز مهد التقاليد الإسلامية والعربية العريقة التي ترفض هذا المبدأ[١] .

وكان على رأس المعارضين كبار أبناء الصحابة وهم الحسين بن علي بن أبي طالب ، وعبد الله بن عمر بن الخطاب ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الرحمن بن أبي بكر[٢] وكانت معارضتهم شديدة فلم يستطع معاوية برغم ما جهد أن ينال اعترافهم باستخلاف يزيد من بعده.

وقد اضطر معاوية إلى مواجهة هذه المعارضة بخطوة سياسية بارعة انتزع بها البيعة من أهل الحجاز فاتجه بنفسه إلى هناك في ألف فارس من أتباعه ، فلما اقترب من المدينة قابل كبار أبناء الصحابة مهدداً متوعداً بقتلهم إن لم يبايعوا ، ثم تركهم ومكث بالمدينة فترة لعلهم يعودون إليه[٣] فلما عادوا إليه أصروا على الرفض، فهددهم بالسيف والضرب والسجن، ثم خرج إلى أهل الحجاز وأوهمهم أن كبار أبناء الصحابة بايعوا مع أنهم عارضوه[٤] .

وكان معاوية يظن أنه بهذه السياسة التي اتبعها وبهذه البيعة التي أخذها لابنه يزيد في حياته قديسر الأمور وهيئها له ، فقد ذكر ابن الأثير أنه لما مرض معاوية مرضه الأخير الذي مات فيه دعا ابنه يزيد وقال له : « يا بني إني قد كفيتك الشدّ والترحال ووطئت لك الأمور ، وذللت لك الأعداء ، وأخضعت لك رقاب العرب وجمعت لك ما لم يجمعه أحد »[٥] .

لكن الأمور لم تجر حسبما أراد ، إذ عقب وفاته مباشرة بدأ الاضطراب واشتعلت الثورات على يزيد منذ تولى الخلافة ، وكان الدافع الرئيسي لهذه الثورات - غالباً - هو تقرير

---

(١) جمال سرور : الحياة السياسية في الدولة العربية الإسلامية ص٩٨ .

(٢) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج٥ ص٣٠٣ .

(٣) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج٣ ص٣٥٤ .

(٤) المصدر السابق ص٣٥٥ .

(٥) المصدر السابق ص٣٦٨ .

بحيث فقدت المدينة نفوذها السياسي، وكثيراً من مواردها الاقتصادية .

وقد بدأت الثورة على يزيد عقب توليه الخلافة حينما طلب من عامله على المدينة المنورة إلزام الحسين بن علي ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير إلزاماً شديداً بالبيعة ، إلا أن الحسين وابن الزبير لما دعيا إلى البيعة ليزيد رفضا وخرجا من ليلتهما إلى مكة تخلصاً من أمير المدينة المكلف بأخذ البيعة منهما ليزيد[١] .

وفي الوقت الذي كانت الأمور في الحجاز تجري على هذا النحو كان الشيعة في الكوفة يتخذون موقفاً مماثلاً حين بلغهم موت معاوية واستخلاف يزيد ، وأن الحسين قد امتنع عن البيعة واستقر بمكة ، فتدارسوا الأمر ، ورأوا أنها فرصة للتخلص من حكم الأمويين ، وإعادة الدولة كسابق عهدها أيام علي بن أبي طالب ، فأرسلوا إلى الحسين بن علي يطلبونه[٢] ويحرضونه على المطالبة بالخلافة ، لأنه أحق بها من يزيد بن معاوية ، فدعا الحسين ابن عمه مسلم بن عقيل وطلب منه المسير نحو الكوفة ليتبين الأمر ، ويمهد له سبيل العمل هناك قبل مغادرته مكة ، وإن رأى الناس مجتمعين على بيعته عجل إليه بذلك[٣] .

سار مسلم إلى الكوفة وأقبلت عليه الشيعة فاغتر بلقائهم الحماسي وأرسل إلى الحسين يستعجل قدومه[٤] ، ومن ناحية أخرى أحست السلطات الأموية بما يحدث في الكوفة فبادرت بإرسال عبيد الله بن زياد والياً عليها ، ليضبط الأمور بها على النهج الذي اتبعه والده من قبل أيام الخليفة معاوية بن أبي سفيان ، واستطاع الوالي الجديد السيطرة على الأمور وانتصر على الشيعة وقتل قادتهم ، ومن بينهم مسلم بن عقيل[٥] .

---

(١) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج٥ ص٣٣٨ ، ٣٤١ .
(٢) المسعودي : مروج الذهب ج٣ ص٦٤ ، ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج٣ ص٣٨٥ – ٣٨٧ .
(٣) محمد الخضري : الدولة الأموية ص٤٥٤ ، كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ص١٢٨ .
(٤) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج٥ ص٣٩٥ .
(٥) المسعودي : مروج الذهب ج٣ ص٦٨ .

وكان الحسين قد تأهب للمسير فنصحه كبار الصحابة وغيرهم بالابتعاد عن العراق وعدم الاطمئنان لشيعته فلم يستجب لهم[١] ، وخرج في جماعة من شيعته تبلغ ثمانين رجلاً ومعه نساؤه وأطفاله قاصداً الكوفة ، فلما بلغه ما حدث لم يتراجع[٢] ، وواصل المسير حيث التقى بالقوات الأموية في معركة غير متكافئة سقط فيها قتيلاً عند كربلاء بالقرب من الكوفة في العاشر من محرم سنة ٦١هـ / العاشر من أكتوبر سنة ٦٨٠م[٣] .

قضى الأمويون على الحسين لكنهم لم يقضوا على ثورته من أجل المبدأ والحق ، إذ لم تلبث الأمة أن وجدت من أبنائها من يثور من أجلها ويغضب لحقها[٤] بعد أن ظن يزيد أنه تخلص من منافسيه بقتل معظمهم في كربلاء ، فقد كان هناك عبد الله بن الزبير الذي لم يقبل هو الآخر مبايعة يزيد ، وذهب إلى مكة وأظهر أنه عائذ بالبيت[٥] ، فلما بلغه مقتل الحسين سيطر على مكة وأخذ البيعة من أصحابه ، ولم يستطع عمرو بن سعيد عامل يزيد على مكة والمدينة أن يفعل شيئاً ضده[٦] فعزله يزيد وولى مكانه الوليد بن عتبة بن أبي سفيان[٧] الذي اشتد على ابن الزبير مما جعله يلجأ إلى المكر والدهاء لسياسي للتخلص منه فكتب إلى يزيد ابن معاوية « إنك بعثت إلينا رجلاً أخرق لا يتجه لأمر رشد ولا يرعوي لعظة الحكيم ، ولو بعثت إلينا رجلاً سهل الخلق ، لين الكتف رجوت أن يسهل من الأمور ما استوعر منها وأن يجتمع ما تفرق فانظر في ذلك فإن فيه صلاح خواصنا وعوامنا إن شاء الله »[٨] .

---

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج٣ ص٣٩٩ .

(٢) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج٥ ص٣٨٩ .

(٣) ابن قتيبة : الإمامة والسياسة ج٢ ص٧ ، المسعودي : مروج الذهب ج٣ ص٧١ ، ابن الطقطقي : الفخري في الآداب السلطانية ص١٠٠ ، ابن الأثير . الكامل في التاريخ ج٣ ص٤٣٢ ، بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ص١٢٩ .

(٤) محمد حلمي : الخلافة والدولة في العصر الأموي ص١٢ .

(٥) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج٣ ص٣٨٠ .

(٦) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج٥ ص٤٧٨ .

(٧) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج٣ ص٤٤٦ .

(٨) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج٥ ص٤٧٩ .

واستجاب يزيد لكتاب ابن الزبير وأرسل إلى الوليد فعزله وبعث مكانه عثمان بن محمد بن أبي سفيان ، وكان فتى حدثاً لم تصقله التجارب ولا خبرة له بعمله[١] ، فكان سبباً في خروج أهل المدينة من المهاجرين والأنصار على يزيد .

ففي مستهل عمله أرسل وفداً من أشراف أهل المدينة إلى دمشق ليرى الخليفة مدى طاعتهم له ، فلما ذهبوا إليه أكرم يزيد وفادتهم وأغدق عليهم الأموال والهبات متبعاً نهج والده وظن بذلك أنه يستميل قلوبهم وقلوب أهل المدينة[٢] لكن أعضاء هذا الوفد ما لبثوا بعد عودتهم إلى المدينة أن أذاعوا بين الناس ما شاهدوه في حاضرة الدولة من معيشة لا تتفق مع الدين وتقاليد الخلفاء الراشدين[٣] ، وقالوا : قدمنا من عند رجل ليس عنده دين ، يشرب الخمر ويعزف بالطنابير ، وتضرب عنده القيان ، وإنا نشهدكم أنا قد خلعناه ،فثار أهل المدينة حينما سمعوا ذلك وخلعوا من فورهم طاعة يزيد[٤] .

ولم يكتف أهل المدينة بخلع طاعة يزيد ؛ بل اجتمعوا وحاصروا بني أمية في دار مروان ابن الحكم بالمدينة، فاستغاث بنو أمية بيزيد[٥] فأعد جيشاً ضخماً من جند الشام وأسند قيادته إلى مسلم بن عقبة المري ، وكان شيخاً كبيراً مريضاً لكنه كان يمتاز بالكفاءة والشدة[٦]، فلما علم أهل المدينة بمقدم الجيش أخرجوا بني أمية بعد أن أخذوا المواثيق والعهود منهم بأن يسيروا إلى الشام ولا يساعدوا أحداً عليهم[٧] .

ويذكر الطبري : أن مسلم بن عقبة سار لقتال أهل المدينة فتقابل مع بني أمية المطرودين،

---

(١) المصدر السابق .

(٢) ابن الأثير . الكامل في التاريخ ج٣ ص٤٤٩ .

(٣) جمال سرور : الحياة السياسية في الدولة العربية الإسلامية ص١٠٦ .

(٤) ابن الأثير : الكامل في التاريخ : ج٣ ص٤٥٠ .

(٥) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج٥ ص٤٨٢ .

(٦) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج٣ ص٤٥٥ .

(٧) المصدر السابق ص٤٥٦ .

وطلب إليهم أن يشيروا عليه بما يجب أن يفعله فأرشده عبد الملك بن مروان إلى كيفية الدخول إلى المدينة فزحف إليها مسلم متبعاً الخطة التي أشار بها عبد الملك[١] فوصل إلى « الحرة » وهي الأرض الصخرية البركانية الواقعة شمالى شرق المدينة[٢] ، فخرج إليه أهلها بقيادة عبد الله بن حنظلة الغسيل[٣] والتحموا مع جند الخليفة في معركة شديدة انتهت بهزيمة أهل المدينة، وقتل عدد كبير من بني هاشم ، وسائر قريش والأنصار[٤] ، ويقدر عدد القتلى بسبعمائة من المهاجرين والأنصار وعشرة آلاف من الموالي وغيرهم[٥] .

ومما لا شك فيه أن هذه الموقعة قد أضعفت من قوة المدينة ومقوماتها الذاتية بسبب كثرة من قتل فيها .

ولقد أباح مسلم المدينة لجنده ثلاثة أيام بعد هزيمة أهلها في هذه المعركة التي أطلق عليها المؤرخون « وقعة الحرة »[٦] .

وفي اليوم التالي دعا مسلم الناس للبيعة ، وبالغ في امتهانهم بأن طلب منهم المبايعة على أنهم عبيد ليزيد بن معاوية ، ومن أبى قتله بالسيف[٧] ، وبعد أن انتهى من أخذ المبايعة ليزيد سار بمن معه من الجند متوجهاً إلى مكة لقتال عبد الله بن الزبير لكن المنية وافته قبل أن يصل إلى مكة ، فاستخلف على الجند الحصين بن نمير السكوني ، فمضى الحصين بالجيش الأموي إلى مكة وحاصرها واشتد على الثائرين ، ورمى الحرم بالمجنيق والنفط حيث

(١) الطبري . تاريخ الرسل والملوك ج٥ ص٤٨٦ .
(٢) كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ص١٢٩ ، جمال سرور : الحياة السياسية في الدولة العربية ص١٠٨.
(٣) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج٣ ص٤٥٨ .
(٤) المسعودي . مروج الذهب ج٣ ص٧٩ .
(٥) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج٣ حاشية ص٤٦٢ .
(٦) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج٥ ص٤٩٤ - ٤٩٥ ، ابن الأثير : الكامل ح٣ ص٤٥٥ - ٤٦١ ابن الطقطقي. الفخري في الآداب السلطانية ص١٠١ .
(٧) المسعودي : مروج الذهب ج٣ ص٧٩ .

كان ابن الزبير متحصناً به[١] .

وبعد أن حاصر الحصين مكة طوال شهرين بلغه نعي الخليفة يزيد ، فأوقف القتال وتفاوض مع ابن الزبير على البيعة له بالخلافة شرط أن يهدر الدماء التي كانت بين جند الشام وأهل الحرم وأن يخرج إلى الشام ليبايعه هناك ، لكن ابن الزبير رفض الخروج من الحجاز[٢] لأنه أدرك أن الدافع وراء هذه البيعة هو الإحساس القبلي لا الرغبة في العودة إلى إنصاف الأمة بتقديم خير رجالها إلى منصب القيادة عن طريق الإيمان الحق بحقها في الاختيار والعدول عن نظام الوراثة[٣] .

ولما رفض ابن الزبير الخروج من الحجاز رفع الحصين الحصار وعاد بجنده إلى الشام[٤] ، وأذعنت جزيرة العرب كلها لابن الزبير[٥] ، وانتشرت دعوته في بعض أمصار العراق والشام ومصر[٦] ، لكن الأمور لم تدم على هذه الحال ، فحينما تولى الخلافة مروان بن الحكم دخل مصر سنة ٦٥هـ / ٦٨٤م وأعادها إلى حوزة الخلافة[٧] وبعد وفاته سار ابنه عبد الملك بن مروان على نهجه فتمكن من إعادة العراق للأمويين في سنة ٧١هـ / ٦٩١م[٨] .

ولم يبق أمام عبد الملك إلا عبد الله بن الزبير الذي كان يسيطر على الحجاز كله من مقره في مكة. فوجه إليه الحجاج بن يوسف الثقفي ، فاتخذ من مسقط رأسه الطائف قاعدة لعملياته الحربية ، وتقدم من هناك إلى مكة فحاصرها كما فعل الحصين بن نمير من قبل وقذف

---

(١) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج٥ ص٤٩٦ .
(٢) المصدر السابق ص٥٠٢ .
(٣) محمد حلمي : الخلافة والدولة في العصر الأموي ص١٦٦ .
(٤) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج٥ ص٥٠٢ .
(٥) سيديو : تاريخ العرب العام ص١٤٧ .
(٦) جمال سرور : الحياة السياسية في الدولة العربية الإسلامية ص١١٠ .
(٧) الكندي : تاريخ ولاة مصر ص٤١ .
(٨) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج٦ ص١٦٧ ، المسعودي : مروج الذهب ج٣ ص١١٧ .

الكعبة بالمنجنيق[١] وظل يضيق الخناق عليه حتى تفرق عنه جل أنصاره ، لكن ابن الزبير ظل يقاتلهم ولم يستسلم حتى قتل في سنة ٧٣هـ / ٦٩٢م[٢] وبمقتل ابن الزبير تم للأمويين إخضاع الحجاز لسيادتهم ، وانتهى الدور الأساسي في مشاركة الحجاز في حياة العالم الإسلامي من الناحية السياسية مشاركة ذات أثر فعال ولم يعد سكان الحجاز يهتمون بأمور السياسة فانصرف بعضهم لدراسة الحديث والفقه[٣] بينما انصرف البعض الآخر إلى الترف واللهو وسماع الغناء والموسيقى[٤] وفقد الحجاز قدراته الحربية وصار ضعيفاً لا يستطيع الدفاع عن نفسه إلا بمساعدة رجال الخلافة .

---

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج٤ ص١٢٢ .

(٢) المسعودي · مروج الذهب ج٣ ص١٢٢ .

(٣) كانت مكة والمدينة مركزين من أهم مراكز الحياة العلمية في صدر الإسلام ، فكان يقصدهما طلاب الحديث والفقه للدراسة ، وقد نشأت مدرسة مكة عقب فتح رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لمكة وتركه عبد الله بن معاذ يفقه أهلها ويقرئهم القرآن ، وكذلك درس بمكة عبد الله بن عباس في أخريات أيامه ، فكان يجلس في البيت الحرام يعلم التفسير والحديث والفقه ، وإلى عبد الله بن عباس وأصحابه يرجع الفضل بما كان لمدرسة مكة من شهرة علمية ، وأشهر من تخرج في هذه المدرسة من التابعين · مجاهد بن جبر وعطاء بن أبي رباح وطاوس بن كيسان .... واستمرت هذه المدرسة قائمة تتلقى فيها العلم طبقة عن طبقة . أما مدرسة المدينة فكانت أكثر علماً وأوفر شهرة ، وقد درس فيها زيد بن ثابت الأنصاري وعبد الله بن عمر ، وعلى أمثال هؤلاء تخرج كثير من العلماء التابعين ، من أشهرهم : سعيد ابن المسيب وعروة بن الزبير ، وعن هذه الطبقة أخذ ابن شهاب الزهري القرشي (عمر كحالة . مقدمات ومباحث ص١٣٧-١٣٨) .

(٤) بجانب الحياة الدينية الجليلة التي كانت تسود الحجاز كانت هناك حياة أخرى كلها لهو ومرح وطرب يرجع للأمويين الفضل فيها لصرف أهل الحجاز وأشرافها عن السياسة ، ففي عهد معاوية كان ولاته على المدينة يعقدون مجالس للغناء يحضرها الأمير وكان ابنه يزيد صاحب طرب وترف ومنادمة على الشراب ، وغلب على أصحاب يزيد وعماله ما كان يفعله من الفسوق، وفي أيامه ظهر الغناء بمكة والمدينة واستعملت الملاهي وأظهر الناس شرب الشراب . ففي عام ١٦٩هـ / ٧٨٥م قبض عمر بن عبد العزيز على أحد العلويين مع آخرين على شراب فأمر بضربهم جميعاً (المسعودي : مروج الذهب ج٣ ص٧٧ – أدم‌متز . الحضارة الإسلامية ج٢ ص١٧٧ – عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسي ص ٣) .

ثانياً : ضعف الحجاز وعجزه عن صد المغيرين :

اشتد الأمويون على أهل الحجاز وقتلوا الكثير منهم حتى ضعفت قوتهم الذاتية فلم يستطيعوا الدفاع عن أنفسهم ضد المغيرين الذين هجموا عليهم في عهد مروان بن محمد آخر خلفاء الأمويين .

فقد هاجم الخوارج الأباضية(١) الحجاز بقيادة أبي حمزة المختار بن عوف الأزدي(٢) الذى قدم سنة ١٢٩هـ / ٧٤٦م على رأس جيش يتألف من نحو سبعمائة رجل من الخوارج يرفعون الأعلام والعمائم السود على رؤوس الرماح ففزع الناس منهم(٣) وكان العامل الأموي على الحجاز عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك(٤) فأرسل إلى أبي حمزة الخارجي وفداً من كبار أبناء الصحابة يضم عبد الله بن الحسن بن الحسين بن علي ومحمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان وعبد الرحمن بن القاسم بن محمد بن أبي بكر(٥) وطلبوا منه عقد الهدنة بينهم وبينه

---

(١) الخوارج الأباضية هم أتباع عبد الله بن إباض ، وقد خرجوا زمن مروان بن محمد ، ومن مذهبهم أن مخالفيهم كفار نعمة فقط وعلى هذا يجوز التعامل معهم وموارثتهم إلا أنهم ، استحلوا من أموال الخيل والسلاح أما الذهب والفضة فإنهم يردونهماعلى أصحابهماعند الغنيمة (عبد القاهر : الفرق بين الفرق ص٦١-٦٣ ، الشهر ستاني : الملل والنحل ج١ ص١٣٤) .

(٢) أبوحمزة المختار بن عوف الأزدى أحد الخوارج الإباضية الذين كانوا يأتون إلى مكة فى مواسم الحج لنشر مبادئهم وإثارة الناس منتهزين فرصة تجمع المسلمين فى الموسم وقد تقابل أبو حمزة مع عبد الله بن يحيى وهو رجل من حضرموت كان ثائراً على حكام بنى أمية فأعجب بحديث أبى حمزة واصطحبه معه إلى حضر موت حيث استطاع عبد الله بن يحيى السيطرة على حضر موت وبايعه الخوارج خليفة لهم،ولقب نفسه بطالب الحق وخوطب بأمير المؤمنين ثم قرر غزو الحجاز لما له من قيمة دينية فى نظر المسلمين جميعاً تضفى على صاحبه الشرعية باعتباره صاحب الحرمين الشريفين فأرسل عبد الله بن يحيى أبا حمزة على رأس حملة عسكرية لغزو الحجاز (المسعودى : مروج الذهب ج٣ ص ٢٥٧، ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ج٥ ص ٢٣، ابن خلدون : العبر ج٣ ص ٢١٠).

(٣) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج٥ ص٣٩ .

(٤) كانت ولاية الحجاز آنذاك تشمل مكة والمدينة والطائف (المصدر السابق ص٤١) .

(٥) المصدر السابق ص٣٩ .

حتى ينتهي موسم الحج فوافق أبو حمزة على ذلك[١] .

وبعد انتهاء الموسم لم يستطع الوالي الأموي على الحجاز مقاومة أبا حمزة ، فترك مكة إلى المدينة فاستولى أبو حمزة على مكة بغير قتال[٢] ، ثم سعى للاستيلاء على المدينة ، فجهز عامل الحجاز جيشاً بقيادة عبد العزيز بن عبد الله بن عمر بن عثمان فيه عدد كبير من رجال قريش[٣] ، فلما كانوا بالعقيق أتتهم رسل أبي حمزة يطلبون أن يخلوا بينهم وبين الأمويين ويقولون لهم : إننا والله ما لنا بقتالكم حاجة ، دعونا نمضي إلى عدونا ، فأبى أهل المدينة الاستجابة لهم ، وساروا حتى نزلوا قديداً فالتقوا مع قوات أبي حمزة فدارت الدائرة على أهل المدينة وقتل من رجالها نحو سبعمائة معظمهم من قريش[٤] وفروا من الحجاز إلى الشام[٥] .

وقد وصف ابن الأثير جيش أهل المدينة عقب هذه المعركة بأنهم : كانوا مترفين ليسوا بأصحاب حرب[٦] ؛ ويرجع السبب في ذلك إلى مكر ودهاء الأمويين الذين أغدقوا الثروات الطائلة على كبار رجال مكة والمدينة حين أبعدوهم عن الحكم ، فجرهم هذا إلى حياة البطالة والترف ، حتى أصبحت المدينة مقراً للطبقة المترفة ، وملجأً لكل من يريد حياة الدعة والنعيم[٧] ، نفقد أهلها ميزاتهم الحربية وغرق شبابها في اللهو والترف ، وقد ذكر المسعودي أن الغناء ظهر بمكة والمدينة أيام الأمويين ، واستعملت الملاهي وأظهر الناس شرب الشراب[٨]

---

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج٥ ص ٣٩ .
(٢) ابن خلدون : العبر ج٣ ص٢١٠ .
(٣) المصدر السابق .
(٤) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج٥ ص٤٩ .
(٥) ابن خلدون : العبر ج٣ ص٢١٠ .
(٦) ابن الأثير . الكامل في التاريخ ج٥ ص٤٩ .
(٧) أحمد الشريف : دور الحجاز في الحياة السياسية العامة ص٤٥٢ .
(٨) المسعودي : مروج الذهب ج٣ ص٧٧ .

وانصرفوا إلى اللهو والمجون فكان الحجاز موطن الغناء وموطن الموسيقى وموطن اللهو والغزل[١] بالإضافة إلى الثورات التي أفنت خيرة شباب الحجاز .

ونتيجة لهذا لم يعد بأهل الحجاز قدرة على الصمود والتصدي للأعداء فلقوا قوة صغيرة كقوة أبي حمزة فلم يستطيعوا التغلب عليها .

واستقر أبو حمزة في المدينة لمدة ثلاثة أشهر[٢] حتى أرسل الخليفة الأموي مروان ابن محمد جيشاً كبيراً من أربعة آلاف فارس[٣] التقوا بجيش الخوارج في وادي القرى فهزم الخوارج وقتل عدد كبير منهم[٤] ، وفر أبو حمزة إلى مكة في بقية من جنده حيث لحقهم الجند الأموي فكانت بينهم وقعة أخرى قتل فيها أبو حمزة ومن معه[٥] ، وسار جيش الأمويين نحو اليمن فاستولى على صنعاء وحضرموت وقتل عبد الله بن يحيى « طالب الحق »[٦] .

ومما سبق نلاحظ أن الأمويين قد استطاعوا إضعاف الحجاز والقضاء على فاعليته من الناحية العسكرية فصار إقليماً ضعيفاً من أقاليم الدولة لا يستطيع الدفاع عن نفسه إلا بقوة خارجية بعد أن كان حاضرة المسلمين ومركز الخلافة في صدر الإسلام ، ومركز انطلاق المجاهدين لتحرير الشعوب من عبودية الأصنام والأوثان ولنشر دين الله . وظل الحجاز على ضعفه منذ العصر الأموي وحتى قيام الدولة العباسية .

---

(١) عزيز فهمي : المقارنة بين الشعر الأموي والعباسي ص٩٧ .
(٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ج٥ ص٥١ .
(٣) ابن خلدون : العبر ج٣ ص٢١١ .
(٤) ابن الأثير : الكامل ج٥ ص٥١ .
(٥) المسعودي : مروج الذهب ج٣ ص٢٥٧ .
(٦) ابن الأثير : الكامل ج٥ ص٥١ .

ثالثاً : الحجاز في ظل النفوذ العباسي :

تضافر آل البيت من العلويين والعباسيين للقضاء على الأمويين ، فلما ظفر العباسيون بالخلافة أدرك العلويون أنهم خدعوا من العباسيين الذين استأثروا بالخلافة دونهم ، فقاموا بعدة ثورات في الحجاز ، وتتبع العباسيون المعارضين من العلويين واضطهدوهم بصورة أشد وأقسى مما كانت عليه في العصر الأموي ، وأصبح الحجاز ملاذاً للثائرين من العلويين ، وأظهر مثال لذلك ثورة محمد بن عبد الله بن الحسين بن علي بن أبي طالب الملقب بالنفس الزكية وكان قد امتنع عن بيعة أبي العباس السفاح وأبي جعفر المنصور[١] .

ويعلل كثير من المؤرخين سبب امتناعه عن البيعة بأن بني هاشم جميعاً بايعوه بالإمامة حين اشتدت الأمور على مروان بن محمد واجتمع بنو هاشم للتشاور بالأمر ، بعد أن تذاكروا ما هم عليه من الاضطهاد وما آل إليه أمر بني أمية من الاضطراب ، وكان أبو العباس السفاح والمنصور وكثير من العباسيين ضمن المبايعين في الاجتماع ، فلما نقض العباسيون هذا الاتفاق ونقلوا الحكم إليهم امتنع محمد عن مبايعة السفاح ، كما تخلف هو وأخوه إبراهيم عن البيعة للمنصور[٢] .

وخشي المنصور عاقبة هذا الموقف فعمل جاهداً على تغييره ، وحرص على الظفر بمحمد وإبراهيم لما في أعناق بني هاشم من البيعة لمحمد ، ويبدو أنه أراد التخلص منهما كما تخلص من منافسيه عبد الله بن علي ، وأبي مسلم الخراساني من قبل ، لذا اتخذ محمد وأخوه ملجأ لهما اختفيا فيه عن أعين المنصور ورجاله ، وأخذ المنصور يجد في طلبهما ، ويعمل الحيل في سبيل الظفر بهما[٣] .

---

(١) المسعودي : مروج الذهب ج٣ ص٣٠٦ ، ابن خلدون : العبر ج٣ ص٢٣٩ .
(٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج٥ ص١٣٧ ، ابن الطقطقي : الفخري في الآداب السلطانية ص١٤١.
(٣) ابن خلدون : العبر ج٣ ص٢٣٦ .

ولما أعجزه القبض عليهما عزل زياد بن عبد الله عامله على المدينة ، وعين مكانه محمد ابن خالد القسري ، وأمده بالأموال الكثيرة كي يتمكن من القبض عليهما ، لكنه لم يقف لهما على أي أثر ، فعزله المنصور واتهمه بالتهاون والتفريط[١] .

وفي سنة ١٤٤هـ / ٧٦١م أرسل رياح بن عثمان بن حيان المريّ - ابن عم مسلم بن عقبة المريّ قائد «الحرة» في عهد يزيد بن معاوية - والياً على المدينة فأخذ يجد ويسعى من أجل القبض عليهما ، لكنه لم يستطع فلجأ إلى سجن العلويين من أبناء الحسن[٢] وتقييدهم بالسلاسل في أعناقهم وأرجلهم ، فلما حضر المنصور للحج في ذلك العام أحضرهم وسألهم عن محمد وإبراهيم فلم يعطوه جواباً يشفي غليله ، فأمر بإرسالهم إلى العراق مقيدين بالأغلال حيث حبسوا في قصر ابن هبيرة شرقي الكوفة[٣] .

لم ير محمد بن عبد الله بداً من الظهور بعد أن علم بما حل بأهله من العسف والإرهاق[٤] فقرر أن يضع حداً لهذا بإعلان ثورته في سنة ١٤٥هـ / ٧٦٢م ، فخرج في مائتين وخمسين رجلاً من أنصاره[٥] وتبعه أعيان المدينة ، وعزل واليها من قبل المنصور ، وعين والياً آخر مكانه ، وكسر أبواب السجون ، وأطلق المسجونين بها[٦] ، ودعا إلى نفسه ، وتلقب بأمير المؤمنين ، واعترف الناس في مكة والمدينة بإمامته[٧] ، وذهب أخوه إبراهيم إلى البصرة لكي يكون مؤازراً له هناك ، وتقوية لحركته التي ظهرت بالحجاز ، فاستولى على دار الإمارة بالبصرة ، وهزم قوات الخليفة المنصور ، وانضوى كثير من الناس تحت لوائه ، واجتمع له كثير

---

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج٥ ص١٤١ .
(٢) المصدر السابق ص١٤٤ .
(٣) ابن الأثير · الكامل في التاريخ ج٥ ص١٤٥- ١٤٦ .
(٤) المسعودي : مروج الذهب ج٣ ص٣٠٦ .
(٥) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج٥ ص١٤٨ .
(٦) ابن الطقطقي : الفخري في الآداب السلطانية ص١٤٣ .
(٧) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ح٥ ص١٤٩ .

من الفقهاء وأهل العلم[١] ، وامتد بذلك نفوذ محمد بن عبد الله إلى البصرة .

أعد المنصور جيشاً قوياً بقيادة عيسى بن موسى ابن أخيه والتقى هذا الجيش بأنصار محمد بن عبد الله ، ولم يقو محمد بمن معه على الصمود لقوات المنصور فقتل وهزم أصحابه يوم ١٤ رمضان ١٤٥هـ / ٧ ديسمبر ٧٦٢م[٢] .

ولم يكن لحركة محمد بن عبد الله من رد فعل في المدينة سوى ثورة السودان على جند الوالي الجديد عبد الله بن ربيع الحارثي واستيلائهم على بعض أمتعة كانت موجهة للمنصور ، ولكن الأمر انتهى بخلودهم إلى السكينة ، ورد ما انتهبوا[٣] .

وكما فشلت حركة محمد في الحجاز فشلت حركة إبراهيم في العراق ، لأنه بعد قضاء عيسى بن موسى على ثورة محمد النفس الزكية سرعان ما أنفذه أبو جعفر لمحاربة أخيه إبراهيم ، ودارت رحى الحرب بين الفريقين في باخمري بين الكوفة وواسط[٤] حيث هزمت قوات إبراهيم وقتل في ١٤ ذي القعدة سنة ١٤٥هـ / ١٤ فبراير ٧٦٣م[٥] ، وبذلك اندحرت هذه الحركة العلوية وخلص الأمر للعباسيين .

ظل الحجاز بعد ذلك ساكناً تحت الحكم العباسي ، وركن العلويون إلى الهدوء بعد مقتل النفس الزكية محمد بن عبد الله ، فلم تظهر في الحجاز حركة مناوئة للعباسيين ، وتولى المهدي الخلافة فبدأ حكمه بالعفو السياسي العام وأطلق من كان في سجون المنصور إلا من كان عنده تبعة من دم أو مال ، أو يسعى في الأرض فساداً[٦] ورد على أولاد جعفر الصادق أموال بني

---

(١) ابن خلدون : العبر ج٣ ص٢٤٥ .

(٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج٥ ص١٦١ .

(٣) المصدر السابق ص١٦٤ - ١٦٥ .

(٤) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام السياسي ج٢ ص١٣٥ .

(٥) ابن خلدون : العبر ج٣ ص٢٤٦ ، ابن الطقطقي : الفخري في الآداب السلطانية ص١٤٤.

(٦) ابن خلدون : العبر ج٣ ص٢٥٩ .

الحسن التي صودرت بالمدينة أيام ثورة محمد بن عبد الله[١] ، ونقل خمسمائة من الأنصار إلى العراق جعلهم في حرسه ، وأقطع لهم وأجرى عليهم الأرزاق[٢] .

واهتم المهدي بالحرمين اهتماماً خاصاً فأمر ببناء المحطات للقوافل على طول الطريق إلى مكة وأمر ببناء المصانع (الصهاريج) لخزن المياه ، وحفر الآبار فيها ، وجعل عليها موظفاً خاصاً هو صاحب المصانع[٣] ، ولتسهيل الاتصال بين أطراف الحجاز أمر بإقامة البريد بين مكة والمدينة ، ولم يكن هناك بريد قبل ذلك ، وكذلك إقامة البريد بينهما وبين اليمن بالبغال والإبل[٤] وعلى عهده جددت كسوة الكعبة ، كما أن المسجدين الحرمين بمكة والمدينة كانا محل رعايته فجددهما وزاد فيهما[٥] .

فلما توفي المهدي سنة ١٦٩هـ / ٧٨٥م خلفه ابنه موسى الهادي ، وفي عهده أساء والي المدينة معاملة العلويين وبخاصة الحسن بن محمد النفس الزكية ، واتهمهم بشرب النبيذ ، وقبض عليهم، وشهَّر بهم بين أهل المدينة ، ووضعهم تحت المراقبة ، وصار يبعث في طلبهم كل يوم، فثار الحسين بن علي بن الحسن على عامل المدينة ، واعترض على التشهير بأهل بيته وأعلن خروجه على الخليفة الهادي[٦] ودخل هو وأتباعه الحرم النبوي بالمدينة فاجتمع إليه كثير من أهلها وبايعوه على كتاب الله وسنة نبيه محمد -صلى الله عليه وسلم- للمرتضى من آل محمد، وأوقع أصحاب الحسين الهزيمة بالعباسيين في المدينة ، ثم وضعوا أيديهم على ما في بيت المال من الأموال[٧] .

---

(١) سعد زغلول عبد الحميد : التاريخ العباسي والأندلسي ص٨٧ مكتبة كريدية - إخوان بيروت١٩٧٦م.
(٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج٥ ص٢٣٦ .
(٣) المصدر السابق ص٢٤٠ .
(٤) المصدر السابق ص٢٥٣ .
(٥) ابن خلدون : العبر ج٣ ص٢٦٣ .
(٦) المصدر السابق ص٢٧٠ .
(٧) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج٥ ص٢٦٦ .

وبعد أن قضوا بالمدينة أحد عشر يوماً قرروا الخروج إلى مكة فلقيهم جيش العباسيين بفخ ، وهو واد في طريق مكة يبعد عنها بستة أميال[١] ودارت معركة بين الفريقين تقرر فيها مصير العلويين حيث قتل الحسين بن علي بن الحسن وقتل معه بعض أهل بيته[٢] .

وكانت موقعة فخ بعيدة الأثر فقد أعقبتها ثورتان علويتان ببلاد الديلم وفي شمال أفريقيا وقد انتهت الأخيرة بقيام دولة الأدارسة[٣] .

وهكذا نجد العلويين ثائرين ساخطين على العباسيين ما وجدوا إلى ذلك من سبيل، والعباسيون يوالونهم بالحرب والتنكيل والتشريد .

وقد أصبحت المدينة المنورة مأوى تراجعت إليه العناصر العلوية، وقد ساعد على ذلك قرار هارون الرشيد إخراجهم من بغداد إليها بعد سنتين من خلافته في آخر سنة ١٧١هـ / ٧٨٧م[٤] ولم تقم بالحجاز – آنذاك – ثورات على الرشيد ، إلا أنهم في عهد المأمون قاموا بعدة ثورات عليه ففي جمادى الآخرة سنة ١٩٩هـ / ٨١٤م خرج بالكوفة محمد بن إبراهيم العلوي المعروف بابن طباطبا ، وصار يدعو إلى الرضا من آل محمد ، والعمل بالكتاب والسنة ، وعاونه في نشر دعوته قائد جنده أبو السرايا السري بن منصور الشيباني الذي استولى على الكوفة من واليها العباسي[٥] .

---

(١) محمد حلمي : الخلافة والدولة في العصر العباسي ص٥٤ .

(٢) ابن الطقطقي : الفخري في الآداب السلطانيةص١٦٦ – ١٦٧ .

(٣) نجا من معركة فخ علويان أخوان هما يحيى وإدريس ابنا عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي ، فذهب يحيى إلى بلاد الديلم ، حيث جمع الأنصار حوله وخرج على العباسيين أيام هارون الرشيد ، فأرسل الرشيد إليه جيشاً في خمسين ألفاً بقيادة الفضل بن يحيى البرمكي الذي استطاع مصالحة يحيى والحصول على أمان له من الرشيد . أما إدريس فقد فر إلى مصر هارباً ثم خرج منها إلى شمال إفريقية ، وفي المغرب الأقصى التف حوله أهلها من البربر ، وأعلن خروجه على الرشيد سنة ١٧٢هـ / ٧٨٨م ، فاستطاع الرشيد أن يدس عليه بعض أعوانه فقتلوه بالسم سنة ١٧٧هـ / ٧٩٣م لكن أتباعه انتظروا أمة له كانت حاملاً حتى وضعت ولداً حمل اسم أبيه ، فبايعه أهل المغرب الأقصى بالخلافة وقامت بذلك دولة الأدارسة (انظر ابن خلدون العبر ج٣ ص٢٧٤ ، ج٤ ص١٧– ١٨).

(٤) ابن الأثير : الكامل ج٥ ص٢٨٢ .

(٥) ابن خلدون : العبر ج٣ ص٣٠٤ .

وبعد وفاة محمد بن إبراهيم ولى أبو السرايا خلفاً له غلاماً من العلويين يدعى محمد بن جعفر بن محمد بن زيد بن علي وضرب الدراهم باسمه فى الكوفة[١] وأرسل الحسين بن الحسن الأفطس[٢] عاملاً من قبله على مكة ، فقام بالاستيلاء على ودائع بني العباس هناك ، وأخذ أموال الناس ثم عمد إلى خزانة الكعبة فأخذ جميع ما فيها من الأموال وقسمها على أصحابه[٣] ، واستقر بمكة إلى أن بلغه مقتل أبي السرايا سنة ٢٠٠هـ / ٨١٥م ، فذهب هو وأصحابه إلى محمد الديباج[٤] بن جعفر الصادق وسألوه المبايعة له بالخلافة ولم يزالوا به حتى وافقهم[٥] ودعا لنفسه بمكة وتسمى بأمير المؤمنين ، فأرسل له المأمون عسكراً تمت له الغلبة على محمد وظفر المأمون به وعفا عنه ، وقد مات بجرجان ودفن بها[٦] .

ويبدو أن عودة العلويين للثورة في عهد المأمون ترجع إلى الخلاف الذي وقع بينه وبين أخيه الأمين على الخلافة ، فظن العلويون أن الفرصة سانحة للانقضاض على العباسيين لكن المأمون تصدى لهم وقضى على حركاتهم ، ومع ذلك فقد كانت سياسته معهم تنطوى على التسامح والود، ولم ينس ذلك حتى وفاته فأوصى أخاه المعتصم بهم قائلاً له : « هؤلاء بنو عمك من ولد أمير المؤمنين علي – صلوات الله عليه – فأحسن صحبتهم وتجاوز عن مسيئهم وأقبل من محسنهم ولا تغفل عن صلاتهم في كل سنة عند محلها فإن حقوقهم تجب من وجوه شتى »[٧].

---

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ج٥ ص٤١٨ .

(٢) هو الحسن بن الحسن بن علي الأصغر بن على زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب المعروف بالأفطس (العصامي المكي : سمط النجوم العوالي ج٤ ص١٨٨) .

(٣) المصدر السابق .

(٤) هو محمد بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين وكان يسمى بالديباج والديباجة لحسنه وبهائه (ابن الأثير : الكامل ج٥ ص٤٢٢ – ابن خلدون . العبر ج٣ ص٣٠٥ – المسعودي : مروج الذهب ج٤ ص٢٧) .

(٥) العصامي المكي . سمط النجوم العوالي ج٤ ص١٨٩ .

(٦) المسعودي : مروج الذهب ج٤ ص٢٦ – ٢٧، ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج٥ ص٤٢٢.

(٧) ابن الأثير : الكامل ج٦ ص٨ .

ويتضح مما سبق أن العلويين بالحجاز لم يعدلوا عن اعتقادهم الراسخ أنهم أحق بالخلافة من أبناء عمومتهم العباسيين ، فكانوا يثورون في وجه الدولة الحاكمة كلما سنحت لهم الفرص وتهيأت لهم الأسباب ، وظل ذلك حالهم طوال العصر العباسي الأول .

ولم يهدأ العلويون في العصر العباسي الثاني ؛ بل واصلوا نضالهم ضد العباسيين وانتهزوا فرصة ضعفهم واضطراب الأمر في بلادهم من جراء استئثار الأتراك بالسلطان والنفوذ ، فقام أحد العلويين ويدعى إسماعيل بن يوسف[١] بالهجوم على مكة في سنة ٢٥٠هـ / ٨٦٤م فهرب منها عامل المستعين جعفر بن الفضل المعروف بشاشات[٢] فتمكن إسماعيل من دخول مكة وهزيمة الجند العباسي بها ، وقتل الكثير منهم[٣] ، وسلب دار الوالي العباسي ، وعمد إلى الكعبة الشريفة فأخذ كسوتها وما وجد في خزانتها من الأموال[٤]، ونهب مكة وأخذ من أهلها نحو مائتي ألف دينار بعد أن قتل كثيراً منهم[٥] وبعد أن استقر بمكة مدة خمسين يوماً غادرها إلى المدينة المنورة[٦] فهرب منه عاملها العباسي ودخل إسماعيل المدينة فظلم أهلها وحرب دورهم[٧] .

ولعل إسماعيل علم بخروج أهل مكة عليه نظراً لسوء معاملته لهم فعاد إليها وحاصرها واشتد على أهــلها فكادوا يموتون جوعاً وعطشاً ، ولقي أهل مكة منه كل شدة وبلاء ، ثم تركها بعد سبعة وخمسين يوماً[٨] وسار إلى جدة فنــهبها وأخذ أموال التجار وأصحاب

(١) هو إسماعيل بن يوسف الأخيضر بن إبراهيم بن موسى الجون بن عبد الله المحض بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب (العصامي المكي : سمط النجوم العوالي ج٤ ص١٩٠ - عمر بن فهد : إتحاف الورى ج٢ ص٣٢٩) .

(٢) هو جعفر بن الفضل بن عيسى بن موسى بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس (العصامي : سمط النجوم ج٤ ص١٩٠) .

(٣) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج٩ ص٣٤٦ .

(٤) ابن الأثير : الكامل ج٦ ص١٨١ .

(٥) ابن خلدون : العبر ج٤ ص١٢٦ - ١٢٧ .

(٦) تقي الدين الفاسي : العقد الثمين ج٣ ص٣١٢ .

(٧) عمر بن فهد : إتحاف الورى بأخبار أم القرى ج٢ ص٣٢٩ .

(٨) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج٦ ص١٨١ .

المراكب[١] ثم اتجه إلى عرفة حيث تقابل مع جند العباسيين الذين أرسلهم الخليفة بقيادة عيسى بن محمد المخزومي فانتصر عليهم إسماعيل وقتل عدداً كبيراً منهم ، ومن الحجاج حوالي ألف مائة نفس[٢] مما اضطر الحجاج إلى الهرب من عرفة ولم يقف بها أحد ليلاً ولا نهاراً سوى إسماعيل وجنده[٣] ، الذين عادوا بعد ذلك إلى جدة فعاثوا فيها فساداً بالقتل والنــهب[٤] .

وقد غضب أهل الحجاز من إسماعيل بن يوسف العلوي لما قام به من قتل الأبرياء ونهب الأموال ، وانتهاك حرمة الشهر الحرام فلم ينضم إليه أحد منهم سوى أعراب الحجاز من أهل البادية القاسية قلوبهم ، وقد أطلق عليه لقب «السفاك» لكثرة ما أراق من الدماء[٥] .

وتوفي إسماعيل بن يوسف العلوي مريضاً بالجدري في سنة ٢٥٢هـ / ٨٦٦م[٦] وخلفه أخوه محمد بن يوسف[٧] ، بيد أنه لم يجد مناصرة من أهل الحجاز فتركها ورحل وعادت مكة والمدينة إلى النفوذ العباسي من جديد[٨] . إلى أن تولى الخلافة المقتدر العباسي[٩] ، وساءت الأحوال في عهده بسبب إسرافه وعزله الوزراء والقبض عليهم وتدخل النساء في أمور الدولة وانصرافه إلى اللهو[١٠] .

(١) عبد العزيز بن فهد : غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام ج١ ص٤٣٥ .
(٢) عمر بن فهد : إتحاف الورى بأخبار أم القرى ج٢ ص٣٣٠ .
(٣) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج٩ ص٣٤٧ .
(٤) ابن خلدون : العبر ج٤ ص١٢٧ .
(٥) المصدر السابق .
(٦) الفاسي . العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين ج٣ ص٣١٣
(٧) عبد العزيز بن فهد : غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام ج١ ص٤٣٦ .
(٨) العصامي المكي : سمط النجوم العوالي ج٤ ص١٩١ .
(٩) هو أبو الفضل جعفر بن المعتضد بويع له بالخلافة في سنة ٢٩٥ هـ/٩٠٧م وعمره ثلاثة عشرة سنة وقد قتل المقتدر سنة ٣٢٠هـ / ٩٣٢م (ابن الطقطقي : الفخري في الآداب السلطانية ص٢٢٨ ، ٢٣٣).
(١٠) يروي ابن الطقطقي . « أن دولة المقتدر كانت دولة ذات تخليط كثير لصغر سنه ولاستيلاء أمه ونسائه وخدمه عليه ، فكانت دولته تدور أمورها على تدبير النساء والخدم وهو مشغول بلذته ، فخربت الدنيا في أيامه وخلت بيوت الأموال واختلفت الكلمة » انظر : الفخرى فى الآداب السلطانية ص٢٣٠ .

مما أدى إلى ضعف الدولة وانتشار الفتن ، بها واستغل ذلك أحد العلويين الطامحين إلى النفوذ والسلطان ويدعى محمد بن سليمان[١] وكان يلقب بالزيدى[٢] ،لاعتناقه مذهب الزيدية[٣] فبادر في سنة ٣٠١هـ /. ٩١٣م بالهجوم على مكة والتغلب عليها مستغلاً فرصة انشغال الدولة العباسية بإخماد الفتن والثورات وضعف الوالي العباسي، وخلع طاعة العباسيين وعمل على الاستقلال بإمارة مكة ، وقال في خطبة له بموسم الحج : « الحمد لله الذي أعاد الحق إلى نظامه وأبرز زهر الإسلام من أكمامه ، وكمل دعوة خير الرسل بأسباطه لا ببني أعمامه – صلى الله عليه وعلى آله الطاهرين ، وكف عنهم ببركته – أيدي المعتدين ، وجعلها كلمة باقية في عقبه إلى يوم الدين »[٤] وقد حاول أن يبين في هذه الخطبة أحقية العلويين بالحكم من العباسيين .

ومما لا شك فيه أن محمد بن سليمان قد قوى نفوذه في مكة مما جعل العباسيين يتقربون إليه بالأموال فيروي ابن فهد : أن علي بن موسى بن الجراح وزير المقتدر العباسي كان يرسل إلى الحجاز كل عام ثلاثمائة ألف دينار توزع على مجاوري الحرمين وعلى أرباب الوظائف بمكة والمدينة[٥] ويذكر ابن الطقطقي : أن العباسيين أنشأوا ديواناً سمي « ديوان البر » جعل حاصله لإصلاح الثغور وللحرمين الشريفين[٦] .

---

(١) هو محمد بن سليمان بن داود بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب / الفاسى . العقد الثمين ج٢ ص ٢٤.

(٢) ابن خلدون : العبر ج٤ ص١٢٨ ، العصامي المكي : سمط النجوم العوالي ج٤ ص١٩٢ .

(٣) الفرقة الزيدية : هم أتباع زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب – رضي الله عنهم – وقد ساق أصحاب هذا المذهب الإمامة في أولاد فاطمة – رضي الله عنها – ولم يجوزوا ثبوت الإمامة في غيرهم ؛ إلا أنهم أجازوا الإمامة ووجوب الطاعة لكل فاطمي عالم شجاع خرج يطلبها سواء من أولاد الحسين أو من أولاد الحسن – رضي الله عنهما – وقد مالت الزيدية إلى الاعتدال حتى صار أتباعها أقرب إلى أهل السنة (الشهر ستاني : الملل والنحل ج١ ص١٥٤ – ١٥٥ ، عبد القاهر : الفرق بين الفرق ص١٨ – ١٩) .

(٤) عمر بن فهد : إتحاف الورى ج٢ ص٣٦٢ ، ابن خلدون: العبر ج٤ ص١٢٨ – القلقشندي : مآثر الانافة في معالم الخلافة ج١ ص٢٨٠ ، محمد كرد علي : الإسلام والحضارة العربية ج٢ ص٤٦٢ .

(٥) عمر بن فهد : إتحاف الورى بأخبار أم القرى ج٢ ص٣٦٥ .

(٦) ابن الطقطقي : الفخري في الآداب السلطانية ص٢٣٦ .

إلا أن هذه الدولة الناشئة التي أقامها محمد بن سليمان بمكة لم تكن من القوة بحيث تستطيع فرض حمايتها على الحجاج أو الدفاع عن نفسها ضد المغيرين والمتسلطين ، فقد هددها القرامطة من بلاد البحرين ، وسرعان ما سقطت سنة ٣١٧هـ / ٩٢٩م بعد استيلائهم على مكة بقيادة أبي طاهر القرمطي[١] .

ويجدر بالذكر أننا لم نجد في المصادر والمراجع الكثيرة[٢] التي تحدثت عن استقلال محمد بن سليمان أية إشارة إلى خطوات تنظيم الدولة في عهده ، وكيف استقر حكمه في مكة؟ وما الإصلاحات أو الأعمال التي قام بها في الحجاز بعد استقلاله عن الخلافة العباسية ؟ سوى قيام الدولة وسقوطها على يد القرامطة .

رابعاً : غزو القرامطة للحجاز :

استغل القرامطة[٣] ضعف العباسيين في العصر العباسي الثاني ، ووجهوا نشاطهم الهدام إلى مهاجمة قوافل الحجاج الذاهبة إلى الأماكن المقدسة في مكة والمدينة ، وأنزلوا بالحجاج الآمنين شتى ألوان القتل والنهب والسلب المخيف ، فقد ذكر المؤرخ المكي ابن فهد : أن أبا طاهر

(١) جمال سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ص٢٠ .

(٢) الفاسي : العقد الثمين ج٢ ص٢٤ ، عمر بن فهد : إتحاف الورى ج٢ ص٣٦٢ ، ابن خلدون : العبر ج٤ ص١٢٨ ، القلقشندي : مآثر الأنافة ج١ ص٢٨٠ ، محمد كرد علي : الإسلام والحضارة العربية ج٢ ص٤٦٢ - جمال سرور: سياسة الفاطميين ص٢٠ .

(٣) القرامطة : فرقة من فرق الاسماعيلية تنسب إلي أول دعاتها حمدان بن قرمط ، وكان هذا الرجل أكاراً بسيطاً بعثه أحد كبار الدعوة الاسماعيلية ليدعو نيابة عنه في بلده فبني مركزاً لدعوته قرب الكوفة سماه «دار الهجرة» واتخذه مكاناً للدعوة حيث دخل كثير من الناس في دعوته وبعد وفاته ذهب جماعة من أصحابه إلى البحرين على الساحل الشرقي لبلاد العرب فاستطاعوا نشر دعوتهم هناك ، وتمكن زعيمهم أبو سعيد الحسن بن بهرام الجنابي من إقامة دولة للقرامطة جعل عاصمتها مدينة الاحساء ، وشملت هجر والاحساء والقطيف وسائر بلاد البحرين ، وفي عهد ابنه أبي طاهر سليمان الذي تولى زعامة القرامطة سنة ٣٠٥هـ / ٩١٧م ألقى القرامطة الرعب في جزيرة العرب كلها . (انظر : عبد القاهر : الفرق بين الفرق ص١٦٩ ، ١٧٤ ، ابن الجوزي : القرامطة ص٤٤ ، ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ج٦ ص٣٦٣- ٣٦٦ ، المقريزي : المقفي الكبير ص٢٥٥- ٢٦٥ ، اتعاظ الحنفا ج١ ص١٦٠ ، ابن خلدون : العبر ج٣ ص٤٣) .

القرمطي اعترض ركب الحاج العراقي عند عودته من مكة سنة ٣١٢هـ / ٩٢٤م فأوقع بهم وقتل منهم ألفي رجل ، ونهب القافلة وأخذ إبل الحاج جميعها وما أراد من الأمتعة والأموال والنساء والصبيان ، وعاد إلى بلاده وترك من سلم من الحجاج في مواضعهم فمات أكثرهم جوعاً وعطشاً[١] ، ولم يكتف بذلك بل كرر هذا العمل في العام التالي واعترض ركب الحاج العراقي وكان في حراستهم ألف فارس أرسلهم الخليفة العباسي ، وقاتلهم القرامطة فانهزم الجند العراقي، ولم يترك القرامطة الحاج إلا بعد دفع إتاوة فرضت عليهم لدخول مكة[٢] .

ويبدو أن تكرار الهجوم القرمطي على الحاج العراقي خاصة كان المقصود به إظهار ضعف الخلافة العباسية وعجزها عن حماية أرواح رعاياها من المسلمين وتأمين طريقهم إلى الحجاز .

وكان استيلاء أبى طاهر القرمطى على مكة سنة ٣١٧هـ / ٩٢٩م أخطر نشاط للقرامطة حيث قتلوا الحجاج يوم التروية[٣] ، وهو اليوم الثامن من ذي الحجة الذي يستعد فيه الحجاج للخروج في اليوم التالي لوقفة عرفات ، لذا لم يكن أحد من الحجاج يتوقع غير الهدوء والسكينة في هذا اليوم الجليل ، لكن عصابات القرامطة لم ترع حرمة هذا اليوم وقتلوا في المسجد الحرام نحو ألف وسبعمائة ، وقيل : ثلاثة عشر ألفاً من الرجال والنساء وهم متعلقون بأستار الكعبة ثم خلعوا باب الكعبة والحجر الأسود ، وذهبوا بهما إلى الأحساء[٤] وتبعهم أمير مكة من بني سليمان وتشفع إليهم أن يردوا الحجر الأسود ليوضع في مكانه فرفضوا فقاتلهم حتى قتل ومعه الكثير من جنده[٥] .

---

(١) عمر بن فهد : اتحاف الورى ج٢ ص٣٦٩ - ٣٧٠ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج٧ ص٢٥ .

(٣) المسعودي : التنبيه والإشراف ص٣٣٤ .

(٤) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ج١ ص٧٤ .

(٥) محمد بن مالك : كتاب كشف أسرار الباطنية ص٣٨ ، ابن كثير : البداية والنهاية ج١١ ص١٦١ ، ابن خلدون : العبر ج٤ ص١٢٨ ، عمر بن فهد : إتحاف الورى ج٢ ص٣٧٥ ، دحلان : خلاصة الكلام فى بيان أمراء البلد الحرام ص١٤ ، آدم متز : الحضارة الإسلامية ج٢ ص٤٦- ٤٧ .

Gerald de Gaury : Rulers of Mecca. ;P. 58

ويعتبر هذا الاعتداء منتهى ما وصل إليه أبو طاهر من ظلم وجبروت .

ولقد أراد أبو طاهر القرمطى أن يضفي على نفسه وعلى أعماله صفة شرعية بالخطبة للخليفة الفاطمي ببلاد المغرب عبيد الله المهدي ، لكنه رفض منه ذلك وأنكر عليه عمله وكتب إليه يقول : « إن أعجب العجب إرسالك بكتبك إلينا ها هنا بما ارتكبت في بلد الله الأمين من انتهاك حرمة بيت الله الحرام الذي لم يزل محترماً في الجاهلية والإسلام ، وسفكت فيه دماء المسلمين وفتكت بالحجاج والمعتمرين وتعديت وتجرأت على بيت الله تعالى وقلعت الحجر الأسود الذي هو يمين الله في الأرض يصافح به عباده ، وحملته إلى منزلك ، ورجوت أن أشكرك على ذلك ، فلعنك الله ثم لعنك الله ، والسلام على من سلم المسلمون من لسانه ويده ، وقدم في يومه ما ينجو به في غده »[١] .

والحقيقة أن هجوم القرامطة الوحشى على بيت الله الحرام ، وقتلهم الحجاج من الرجال والنساء جعل الفاطميين يرفضون دعوتهم وينكرون عليهم ما قاموا به من سفك الدماء وخلع الحجر الأسود ونهب الكعبة والحجاج وذلك حرصاً على إرضاء الشعور الإسلامي الذي يرفض وينكر أي إساءة تنزل بالحرمين الشريفين ويثور على أي تجرؤ عليهما ، ولذا فقد سارعوا بإرسال الرسائل للقرامطة لإعادة الحجر الأسود إلى مكانه ، فكتب عبيد الله المهدي إلى زعيم القرامطة يقول : « قد حققت على شيعتنا ودعاة دولتنا اسم الكفر والإلحاد بما فعلت وإن لم ترد على أهل مكة والحجاج وغيرهم ما أخذت منهم وترد الحجر الأسود إلى مكانه ، وترد كسوة الكعبة فأنا بريء منك في الدنيا والآخرة »[٢] وقد ساعد ذلك الموقف المتشدد للفاطميين على عودة

(١) ابن عبد القادر الطبري: الأرج المسكي في التاريخ المكي لوحة رقم ٤٥، ابن خلدون:العبرج٤ ص١٢٨-١٢٩، عمر بن فهد: إتحاف الورى بأخبار أم القرى ج٢ ص٣٧٤ - ٣٨٠ ، السيوطي · تاريخ الخلفاء ص٣٨٣ - ٣٨٤ ، الجزيري: درر الفرائد ج١ ص٥٠٨ - ٥١٢ ، ابن كثير : البداية والنهاية ج١١ ص١٦٠ - ١٦١ ، عبد الكريم القطبي : إعلام العلماء الأعلام ببناء المسجد الحرام ص٨٩ .

(٢) ابن الأثير . الكامل في التاريخ ج٧ ص٥٤ .

الحجر الأسود إلى مكة سنة ٣٣٩هـ / ٩٥٠م[١] .

وعلى الرغم من ذلك فقد عاد نفوذ العباسيين تدريجياً إلى مكة إثر الاتفاق الذي تم بين أبي علي عمر بن يحيى العلوي[٢] من العراق وبين أبي طاهر زعيم القرامطة وكان الاتفاق أن يخلى سبيل الحجاج على مكس[٣] يأخذه ، ويعطيه على كل جمل خمسة دنانير وعن المحمل سبعة دنانير فأجابه إلى ذلك[٤] ، وخرج من العراق سنة ٣٢٧هـ / ٩٣٨م فرقتان إحداهما عن طريق الكوفة والأخرى عن طريق البصرة لتأدية الفريضة ، وهي أول سنة يأخذ فيها القرامطة المكس من الحجاج ولم يعهد ذلك من قبل في الإسلام[٥] وإن كان هذا الأمر يبين مدى ضعف الخلافة العباسية التي رضيت دفع الإتاوة للقرامطة مقابل حماية أرواح رعاياها ومع ذلك فقد خطب للخليفة العباسي الراضي بن المقتدر في هذا العام[٦] .

ومنذ دخل القرامطة مكة فإنهم لم يقوموا بتولية وال من قبلهم لها[٧] ، إذ لم تذكر المصادر التي تعرضت لهذه الفترة أي شيء عن ذلك ؛ ولعل السبب في هذا أنهم لم يكونوا ليستطيعوا نشر دعوتهم الهدامة في بلاد الحجاز مهد الإسلام وموطن الرسالة ، فاكتفوا ببسط نفوذهم على الحجاج وأخذ الإتاوات منهم ، وبالتالي لم يكن ليهمهم إقامة نظام حكومي

---

(١) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ج١ ص٩٨ ، اليافعي . مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان ج٢ ص٢٧١ ، المسعودي : التنبيه والأشراف ص٣٤٦

(٢) هو أبو علي عمر بن يحيى بن الحسين بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب وكان مقيماً بالعراق ويتولى إمارة الحج العراقي من قبل الخليفة العباسي (عمر بن فهد . إتحاف الورى ج٢ ص٣٨٧ - ٣٨٨)

(٣) المكس : الضريبة يأخذها المكّاس ممن يدخل البلد من التجار (المقريزي. الخطط ج١ ص ١٠٤ - المعجم الوسيط ج٢ ص ٨٨١) .

(٤) ابن كثير : البداية والنهاية ج١١ ص١٨٩ .

(٥) عمر بن فهد : إتحاف الورى ج٢ ص٣٨٧ - ٣٨٨ ، السيوطي : تاريخ الخلفاء ص٣٩٢ .

(٦) ابن خلدون . العبر ج٤ ص١٢٩ .

(٧) زامباور . معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي ص٣٠ .

متكامل أو تنصيب الولاة على الحجاز بقدر اهتمامهم بالاغارة على الحجاج كقطاع الطرق ، وقد ثبت أنهم لم يكونوا يقيمون في مكة بصفة دائمة[١] وإنما كانوا يأتون إليها في مواسم الحج للسلب والنهب والدعوة لأنفسهم على منابر الحرمين[٢] وربما شجع هذا على عودة النفوذ العباسي كاملاً إلى مكة وخاصة بعد أن عقد العباسيون اتفاقاً معهم يدفعون بموجبه إتاوة لهم حماية لحجاجهم .

وبعد أن انشغل القرامطة عن مكة بالعمل على تحقيق أطماعهم في بلاد المشرق[٣]. أسند العباسيون سنة ٣٣١هـ / ٩٤٣م ولاية مكة والمدينة إلى محمد بن طغج الإخشيد[٤] الرجل القوي الذي استطاع أن يكون دولة فتية في مصر وأن يصد الفاطميين عنها ، ويضم الشام إليه[٥] ، وصار يدعى له على منابر الحرمين بعد الخليفة العباسي[٦] ، فلما تولى البويهيون[٧] الأمر في بغداد سنة ٣٣٤هـ / ٩٤٥م وصاروا أصحاب النفوذ الفعلي في العراق أصبح اسم معز الدولة البويهي يذكر في الخطبة بعد الخليفة العباسي[٨] .

---

(١) عمر بن فهد : إتحاف الورى بأخبار أم القرى ج٢ ص٣٨٣ ، ص٣٨٥ .

(٢) المصدر السابق ص٣٩٠ .

(٣) جمال سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ص٢٠ .

(٤) المصدر السابق .

(٥) المقريزي : المقفي الكبير ص١٣٤ .

(٦) تقي الدين الفاسي : العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين ج٢ ص٣٠ - ٣١ ، شفاء الغرام ج٢ ص١٩٢، عبد العزيز بن فهد : غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام ج١ ص٤٧٧ .

(٧) البويهيون : أسرة نشأت فى بلاد الديلم وقد استطاعوا الوصول إلى أعلى المراتب فى بغداد حين تقدم أحمد بن بويه إلى بغداد، فخرج الأتراك عنها، واستقبله الخليفة العباسى المستكفى واحتفى به وخلع عليه ولقبه «معز الدولة» ولقب أخاه علياً «عماد الدولة» وأخاه الحسن «ركن الدولة» وأمربضرب ألقابهم على الدراهم والدنانير وبدخول أحمد بن بويه وتوليته إمرة الأمراء فى بغداد سنة ٣٣٤هـ/٩٤٥م ابتدأ العصر البويهى الذى استمر حتى سنة ٤٤٧هـ/١٠٤٥م (انظر : ابن الأثير : الكامل ج٧ ص ٨٧، ابن خلدون : العبر ج٤ ص ٥٦٣، ٦٠٠).

(٨) محمد الخضري : تاريخ الدولة العباسية ص٣٨٠ .

وحاول البويهيون القضاء على نفوذ الإخشيديين في بلاد الحجاز مما أدى إلى نشوب كثير من الخلافات بين أنصار الفريقين العراقي والمصري[١] .

وهكذا تضاءل شأن الحجاز فلم تعد له القدرة على الدفاع عن نفسه ضد المغيرين وخاصة بعد ضعف الدولة العباسية التي لم تتمكن من فرض حمايتها عليه آنذاك ، فصار مطمعاً لكل صاحب نفوذ حيث أن امتلاكه يعطي لصاحبه قوة أدبية باعتباره صاحب الحرمين الشريفين فانتشرت فيه الفتن والصراعات ومع ذلك لم تحرك الدولة العباسية ساكناً مما أدى إلى قيام العلويين بالاستقلال به عن العباسيين والدعوة لأنفسهم .

خامساً : استقلال الأشراف[٢] العلويين بمكة والمدينة :

قام العلويون في الحجاز بعدة ثورات ضد الخلافة العباسية منذ قيامها ، غير أن تلك الثورات كانت تفشل ويقضى على أصحابها ، فاستكان العلويون ، وظلوا مجرد رعايا يعيشون في كنف الدولة بالحجاز ، فلما انشغل الخلفاء العباسيون بالفتن والثورات التي أثارها الأتراك ضدهم ، وأهملوا شئون الولايات الإسلامية التي تتبعهم استقلت بعض هذه الولايات عن الخلافة فظهر الصفاريون بسجستان ، والسامانيون في بلاد ما وراء النهر والغزنويون في بلاد الهند ، والطولونيون والإخشيديون في مصر والشام[٣] ، وهاجم القرامطة الحجاز ، ولم

---

(١) تقي الدين الفاسي : شفاء الغرام ج٢ ص١٩٢ .

(٢) يطلق الشريف في اللغة على الرجل الماجد الكريم أو من كان كريم الآباء ، ثم أطلق لقب الشريف على من كان من آل بيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ومن الناس من قصره على ذرية الحسن والحسين - رضي الله عنهما - ولعل الضعف الشديد الذي انتاب الدولة العباسية وظهور الدولة الفاطمية وقوتها هو الذي جرأ على إطلاق لقب الشريف على من كانوا ينتمون إلى نسل علي من السيدة فاطمة بنت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وحين قامت دولة الأشراف بالحجاز أصبح يطلق على الأسرة الحاكمة لقب « الأشراف » ، أما غيرهم من العلويين فكانوا يطلقون عليهم لقب « السادة » . (انظر : البلاذري : أنساب الأشراف ج١ ص٢٠ ، آدم متز : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ج١ ص٢١١ ، البرادعي : الدرة السنية في أنساب الحسنية والحسينية ص٤) .

(٣) ابن خلدون : العبر ج٣ ص٣٦٧ ، ٣٦٨ ، ٣٨٩ ، ج٤ ص٣٨٠ ، ٤٠٦ ، ٤٧٣ .

تستطع الخلافة لهم دفعاً وانتشرت الفتن ولم يعد الحجاج يأمنون على أنفسهم .

أدرك الأشراف العلويين بالحجاز أن الوقت مناسب للخروج عن طاعة العباسيين والاستقلال عنهم ، ففي منتصف القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) خرج أحد كبار الأشراف العلويين ويدعى جعفر بن محمد الحسني[(١)] من المدينة - وكانت ملجأ للمضطهدين من العلويين في العصر العباسي - فاتجه إلى مكة وملكها وخلع طاعة الخليفة العباسي ودعا لنفسه ، وأقام إمارة مستقلة عن العباسيين[(٢)] .

ولقد تضاربت الأقوال المختلفة للمؤرخين في تحديد تاريخ استقلال جعفر بن محمد الحسني بمكة، فابن حزم (ت ٤٥٦هـ / ١٠٦٤م) يرى أنه استولى على مكة أيام الإخشيديين[(٣)] ولم يحدد الفترة الزمنية التي استولى فيها على الحكم .

بينما يرى القلقشندي (ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م) أن جعفراً ملك مكة سنة ٣٦٠هـ/ ٩٧١م وخطب للمعز لدين الله الفاطمي على منابرها[(٤)] ، إلا أن تقي الدين الفاسي المؤرخ المكي (ت ٨٣٢هـ / ١٤٢٨م) يرى أن ولاية جعفر بن محمد الحسني لمكة كانت في زمن الإخشيديين

(١) هو جعفر بن محمد بن الحسن بن محمد بن موسى بن عبد الله بن موسى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب وقد أورد هذا النسب كل من ابن حزم والفاسي وابن فهد لكن ابن خلدون يخالفهم فيذكر : أن جد جعفر هو محمد بن سليمان الذي دعا لنفسه بمكة سنة ٣٠١هـ / ٩١٣م ويرى أن محمد بن سليمان هذا من ولد الناهض بن سليمان بن داود بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب وبناء على هذا النسب سمى ابن خلدون جعفر بن محمد وخلفائه بالسليمانيين وتابعه في ذلك القلقشندي وبالتالي فإن رأي ابن خلدون في نسب جعفريخالف ما ذكره ابن حزم وهو أقدم من تعرض لهذا الموضوع لذلك نرجح رأي ابن حزم (ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ص٤٧ ، الفاسي : شفاء الغرام ج٢ ص١٩٣، العقد الثمين ج٣ ص٤٢٩ ، عمر بن فهد : إتحاف الورى ج٢ ص٤٢١ ، عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج١ ص٤٨٠ ، ابن خلدون : العبر ج٤ ص١٢٨ ، القلقشندي : صبح الأعشى ج٤ ص٢٦٩) .

(٢) عبد العزيز بن فهد غاية المرام ج١ ص٤٨١ .

(٣) ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ص٤٧ .

(٤) القلقشندي : مآثر الإنافة في معالم الخلافة ج١ ص٣٠٩ .

بعد موت كافور الإخشيدي وبخاصة أنه كان يدعى على منابر الحرمين الشريفين لكافور ويستبعد أن يلي حعفر مكة في عهد كافور ، ويرجح الفاسي أن تكون ولاية جعفر بن محمد الحسني لمكة سنة ٣٥٨هـ / ٩٦٩م حين قام الفاطميون بفتح مصر[١] .

ويرى آخرون أن جعفراً استقل بمكة في عهد الفاطميين الذين باركوا دعوته[٢] ونستنتج مما سبق أن ولاية جعفر بن محمد الحسني لمكة كانت سنة ٣٥٨هـ / ٩٦٩م في أواخر العهد الإخشيدي عقب وفاة كافور واضطراب الأحوال في مصر بعد وفاته ، وضعف هيبة الدولة واستعداد الفاطميين للهجوم على مصر مما جعله يفكر في الاستقلال بمكة والدعوة لنفسه .

وقد نقل بعض الباحثين عن المقريزي أنه : « لما تم لجوهر الصقلي فتح مصر سنة ٣٥٨هـ بادر الحسن بن جعفر فاستولى على مكة ودعا للمعز »[٣] .

والحقيقة أن الحسن هو الأمير الثالث الذي تولى الحكم من أسرة بني جعفر الحسنيين وكان يلقب بأبي الفتوح ، أما أول من قام بالحكم في مكة فهو جعفر بن محمد الحسني[٤] كما أوضحنا من قبل ، وقد صوب المقريزي كلامه في كتاب « المقفي الكبير » حين ترجم للحسن

(١) تقي الدين الفاسي : شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ج٢ ص١٩٣ .

(٢) العصامي المكي . سمط النجوم العوالي ج٤ ص١٩٥ ، أيوب صبري : مرآة جزيرة العرب ج١ ص٨٧ ، البتانوني الرحلة الحجازية ص٧٣ ، أحمد السباعي : تاريخ مكة ج١ ص١٩١ .

(٣) حسـن إبراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص١٥٥ ، جمال سرور : النفوذ الفاطمي في جزيرة العرب ص١٥ .

Zambaur: Manuel de genealogie et de chronologie pour L'Histoire de L' Islam p. 21.

نقلاً عن المقريزي (اتعاظ الحنفا ج١ ص١٠١ ، الخطط ج١ ص٣٥٣) .

(٤) انظر : ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ص ٤٧، الفاسي شفاء الغرام ج٢ ص ١٩٣، العقد الثمين ج٣ ص ٤٢٩، عمر بن فهد: اتحاف الورى ج٢ ص ٤٢١، ابن خلدون : العبر ج٤ ص ١٢٨ القلقشندى : صبح الأعشى ج٤ ص ٢٦٩، عبد العزيز بن فهد. غاية المرام ج١ ص ٤٨٠.

ابن جعفر فقال : « غلب أبوه جعفر بن محمد على مكة بالقوة في أيام الإخشيدية ، وقام من بعده ابنه عيسى واستمر إلى سنة ٣٨٤هـ ، فولى أخوه أبو الفتوح الحسن بن جعفر »[١] .

ولعل المقريزى تدارك ما ذكره فى كتابيه اتعاظ الحنفا والخطط عن الحسن بن جعفر ، نصوّب ذلك فى كتابه المقفى الكبير، عندما قام بعرض ترجمة وافية له استغرقت نحو ثلاث صفحات، بينما تعرض لهذه الشخصية فى كتابيه السابقين بصورة موجزة للغاية .

ولقد أقام جعفر الحسني الدعوة للمعز الفاطمي سنة ٣٥٨هـ قبل حضوره إلى مصر فأرسل جوهر الصقلي يخبره بإقامة الدعوة له بمكة فأنفذ المعز إليه كتاباً بتقليد جعفر إمارة مكة بعد أن وصلت إليه البشارة بإقامة الدعوة له وانقطاع دعوة العباسيين[٢] .

أما المدينة فيذكر ابن خلدون : أن العلويين المقيمين بها[٣] استغلوا ضعف الخلافة العباسية آنذاك فتولوا إمارتها ، وظلوا يخطبون للعباسيين ، وقد تداول الإمارة فيها بنو الحسين بن علي بن أبي طالب ، وبنو جعفر بن أبي طالب ، إلى أن استطاع بنو الحسين الانفراد بالسلطة وإجلاء بني جعفر حيث سكنوا بين مكة والمدينة ، وبقي بنو الحسين يحكمون

---

(١) المقريزي : المقفي الكبير ص٤٣٠ .

(٢) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج٤ ص٣٢ ، الفاسي . شفاء الغرام ج٢ ص١٩٤ ، عمر بن فهد : إتحاف الورى ج٢ ص٤٠٦ ، عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج١ ص٤٨١ ، دحلان : خلاصة الكلام ص١٦ ، الجداول المرضيه ورقة ١٤٠ ..

(٣) استقرّ العلويون في المدينة المنورة عقب اضطهاد العباسيين لهم وإخراجهم من بعض الأمصار الإسلامية، ففي أخر سنة ١٧١هـ أخرجهم هارون الرشيد من بغداد إلى المدينة ، وفي سنة ٢٣٦هـ أخرج المتوكل العباسي العلويين من مصر إلى بغداد ثم المدينة المنورة التي صارت مأوى للمضطهدين من العلويين في العهد العباسي .

(ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج٥ ص٢٨٢ ، المقريزي : الخطط ج١ ص٣١٢) .

المدينة منفردين بها[١] ولم تقم الخلافة العباسية بأية محاولة للوقوف في وجههم نظراً لضعـفها[٢] .

ولم يذكر ابن خلدون تاريخ استقلال بني الحسين بالمدينة ، ويبدوا أن استقلالهم جاء بعد غزو القرامطة للحجاز بفترة ، حيث توقفت الخلافة العباسية عن إرسال الولاة إلى مكة والمدينة آنذاك ، كما لم يهتم القرامطة بتعيين ولاة من قبلهم لمكة أو المدينة ، وربما جاء استقلال بني الحسين بن علي بن أبي طالب قبل خروج جعفر بن محمد الحسني منها مما دفعه هو الآخر إلى التفكير في الاستقلال بمكة ، ولعل أشراف المدينة اتفقوا مع جعفر بن محمد الحسني في حالة استقلاله بمكة على خلع طاعة العباسيين والدعوة للفاطميين الذين ينتسبون لفاطمة الزهراء - رضى الله عنها - ومما يدل على ذلك أن أشراف المدينتين المقدستين قد أعلنا في آن واحد سنة ٣٥٨هـ / ٩٦٩م خلع طاعة العباسيين والدعوة للفاطميين ، وخطب بالحرمين للمعز لدين الله الفاطمي وبطلت الخطبة لبني العباس[٣] .

* * *

---

(١) استمر بنو الحسين بن علي بن أبي طالب يحكمون المدينة إلى أن قدم عليهم من مصر طاهر بن مسلم بن محمد بن عبيد الله بن طاهر بن يحيى المحدث بن الحسن بن جعفر بن عبيد الله بن الحسين بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب ، وكان سبب قدومه من مصر أن الخليفة الفاطمي المعز لدين الله قد خطب من مسلم ابنته لابنه العزيز فرفض مسلم مما جعل المعز يسخط عليه ويسجنه ويصادر أمواله فهرب مسلم من سجنه حيث مات فلحق ابنه طاهر بالمدينة فقدمه بنو الحسين على أنفسهم وقلدوه إمارة المدينة سنة ٣٦٠هـ / ٩٧٠م .
(انظر : ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ص٥٥ - ٥٦ ، ابن عنبه : عمدة الطالب فى أنساب آل أبى طالب ص٣٣٥ ، ابن خلدون : العبر ج٤ ص١٣٩ - ١٤٢) .

(٢) ابن خلدون : العبر ج٤ ص١٣٩ - ١٤٢ .

(٣) عمر بن فهد : إتحاف الورى بأخبار أم القرى ج٢ ص٤٠٦ .

الفصل الثانى

السيادة الفاطمية فى الحجاز

الفصل الثاني
السيادة الفاطمية في الحجاز

مدخل :

بذل الفاطميون عدة محاولات للسيطرة على الحجاز أو الدعوة لهم فيه ، وتعود هذه المحاولات إلى أيام الخليفة الفاطمي الأول عبيد الله المهدي (٢٩٧هـ-٣٢٢هـ/ ٩٠٩-٩٣٤م) ، ففي سنة ٣٠٦هـ / ٩١٨م حين هاجم الجيش الفاطمي مصر واستطاع دخول الإسكندرية[١] كتب أبو القاسم – ولي عهد المهدي وقائد جيشه – إلى أهل مكة يدعوهم إلى طاعته ويعدهم بحسن السيرة فيهم[٢] وكان يأمل من وراء ذلك تقوية مركزه في مصر وتعضيد موقفه أمام العباسيين ، إلا أن أهل مكة رفضوا دعوته آنذاك وأجابوه أن لهذا البيت رباً يحميه ، ولن نؤثر على سلطاننا غيره[٣] .

ويظهر أن الحجازيين رفضوا دعوته لأن نشاط الدعاة الاسماعيلية كان ضعيفاً وفي مهده، ولم يكن أهل الحجاز يعرفون شيئاً عن الدولة الفاطمية الناشئة لبعد المسافة بينهم وبين المغرب ، ولقد جاءت الفرصة الفاطميين لتعريف أنفسهم للحجازيين وأنهم حريصون على أمن الحرمين الشريفين وسلامة الحجاج ، حينما هاجم أبو طاهر القرمطي وجماعته مكة سنة ٣١٧هـ / ٩٢٩م ، وأراد أن يخطب لعبيد الله المهدي الذي رفض دعوته وكتب إليه كتاباً شديد اللهجة يلعنه فيه على ما فعل ، ويطلب منه إعادة الحجر الأسود إلى مكانه .

---

(١) المقريزي : اتعاظ الحنفا ج١ ص٧١ .

(٢) عريب بن سعد : صلة تاريخ الطبري ص٧٧ .

(٣) المصدر السابق .

واستمر الفاطميون بعد ذلك يتطلعون إلى الحجاز ويرقبون الأحداث الجارية فيه عن كثب حتى حدث خلاف بين الأشراف العلويين من بني الحسن بن علي بن أبي طالب وبين الأشراف الطالبيين من بني جعفر بن أبي طالب[١] وتقاتل الطرفان في سنة ٣٤٨هـ / ٩٥٨م فقتل من بني الحسن عدد أكثر مما قتل من بني جعفر[٢] .

وعلم المعز بذلك ، ولم يكن ليترك الفرصة تمر دون أن يحسن استغلالها ، فأسرع بإرسال الأموال ، والرحال سراً للحجاز للصلح بين الطائفتين حتى تمكنوا من إصلاح ذات بينهم ، وكان فاضل القتلى لبني الحسن عند بني جعفر سبعين قتيلاً فعقد رسل المعز صلحاً في المسجد الحرام، وتحملوا دياتهم من مال المعز . فصار ذلك جميلاً له عند بني الحسن .[٣]

ولاريب أن هذا العمل الذي قام به المعز قد أكسبه تأييداً كبيراً بين أشراف الحجاز فلما أعلن أشراف المدينتين خلع طاعة العباسيين سنة ٣٥٨هـ / ٩٦٩م خطبوا للفاطميين ودعوا لهم على منابر الحرمين .

---

(١) كان لقب العلويين والطالبيين يطلق على آل أبي طالب عامة ، وفي أواخر القرن الرابع الهجري صارت لهم نقابة خاصة بهم في بغداد تسمى « نقابة الأشراف الطالبيين » وفي مصر أنشأ الفاطميون نقابة الطالبيين للنظر في شئون العلويين ، وكان يتولى رئاستها أحد كبار شيوخهم يسهر على صحة الأنساب وإثباتها ورعاية مصالح العلويين ، وعرفت هذه النقابة فيما بعد باسم « نقابة الأشراف » أما في الحجاز فكان لفظ العلويين يطلق أحياناً على نسل أبناء علي بن أبي طالب ، ولفظ الطالبيين على نسل إخوة علي بن أبي طالب مثل جعفر وعقيل وكثيراً ما كانت تحدث بينهم الخلافات الشديدة والمعارك الكثيرة (انظر : ابن الطقطقي : الفخري في الآداب السلطانية ص١٤١) المسعودي : مروج الذهب ج٤ ص٣٠٧، العصامي · سمط النجوم العوالي ج٤ ص١١١ ، المقريزي : اتعاظ الحنفا ح١ ص١٠١ ، ج٢ ص٨٦ حاشية ، الخطط ج١ ص٣٥٣ ، ٣٨٦ ، آدم متز : تاريخ الحضارة الإسلامية ج١ ص٢١٣) .

(٢) المقريزي : اتعاظ الحنفا ج١ ص٣٥٣ .

(٣) المقريزي : اتعاظ الحنفا ج١ ص١٠١ ، الخطط ج١ ص٣٥٣ .

ومنذ تلك الآونة بدأت السيادة الفاطمية على البلاد المقدسة ، وهذا الفصل سيعرض لمظاهر السيادة الفاطمية في الحجاز ، والتي تتمثل في خضوع الحجاز للنفوذ الفاطمي المباشر ثم محاولاتهم للتحرر من هذا النفوذ ، وجهود الفاطميين لإخضاعهم ثم عودتهم مرة أخرى للسيادة الفاطمية .

النفوذ الفاطمي المباشر في الحجاز :

بدأ النفوذ الفاطمي في الحجاز عقب استقلال الأشراف العلويين في مكة والمدينة عن العباسيين ودعوتهم للفاطميين على منابر الحرمين في موسم سنة ٣٥٨هـ / ٩٦٩م(١) ولعل السبب الذي دعا أشراف مكة والمدينة إلى إعلان تبعيتهم بمثل هذه السرعة للفاطميين هو ضعف الحجاز لقلة موارده الاقتصادية والبشرية مما يجعله في حاجة إلى مساندة خارجية تسد النقص في مواردة الاقتصادية وتدفع عنه القرامطة الذين كانوا يغيرون عليه ، والعباسيين الذين كانوا يطمعون في عودة نفوذهم إليه ، لذا وجدوا في الدولة الفاطمية الشيعية التي تنتسب لفاطمة الزهراء - رضي الله عنها - والتي نجحت في فتح مصر الغنية بثرواتها المادية والبشرية خير سند لهم يمكن الاعتماد عليه .

ويبدو أن الخليفة الفاطمي المعز لدين الله كان يدرك مدى ضعف الحجاز وفقر موارده ، إذ حين بلغه إقامة الدعوة له بمكة والمدينة أمر حوهر الصقلي أن ينفذ في ذي الحجة من نفس العام أحمال مال ومتاع إلى الحجاز فرحاً بهذه المناسبة(٢) ، وأرسل قائداً من جهته تولى توزيع هذه الهدايا والأموال بالحرمين(٣) .

---

(١) تقي الدين الفاسي : شفاء الغرام ج٢ ص١٩٤ ، المقريزي : اتعاظ الحنفا ج١ ص١٠١ ، الخطط ج١ ص٣٥٣ ، ابن تغري بردي : النحوم الزاهرة ج٤ ص٣٢ ، عمر بن فهد : إتحاف الورى ج٢ ص٤٠٦ ، عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج١ ص٤٨١ ، أحمد بن زيني دحلان : خلاصة الكلام ص١٦ ، الجداول المرضية ورقة ١٤٠ ، أيوب صبري : مرآة جزيرة العرب ج١ ص٨٨ .

(٢) المقريزي : المقفي الكبير ص٣٤٧ ، اتعاظ الحنفا ج١ ص١٢٢ .

(٣) الجزيري : درر الفرائد المنظمة ج٢ ص١٥٢٦ .

إلا أن النفوذ الفاطمي في مكة تعرض لنكسة كبيرة ولما يمض عليه سنة لأن العباسيين نجحوا في استعادة نفوذهم على مكة بالتعاون مع القرامطة الذين انقلبوا على الفاطميين[١] فقد أشارت بعض المصادر إلى نجاح القرامطة في إقامة الخطبة بمكة في موسم سنة ٣٥٩هـ / ٩٧٠م للخليفة العباسي المطيع والحسن بن أحمد الأعصم القرمطي[٢] وحج بالمسلمين في هذا الموسم أمير الحاج العراقي آنذاك أبو الحسين أحمد بن موسى نقيب الطالبيين ببغداد ليعلن عودة النفوذ العباسي إلى مكة ، وقام بتعليق الهدية التي أرسلها المطيع إلى الكعبة ؛ وكانت عبارة عن قناديل من الذهب والفضة[٣] علقت لمدة خمسة أيام حتى رآها الناس ، ثم أدخلت البيت الحرام ، كما قام بنصب الأعلام التي حملها معه وعليها اسم الخليفة العباسي المطيع وكتب إلى

---

(١) كان الفاطميون يتدخلون في شئون القرامطة منذ أوائل القرن الرابع الهجري حتى أنهم شاركوا في تعيين أبي طاهر الجنابي على رأس القرامطة سنة ٣٠٥هـ / ٩١٧م ، فلما توفي أبو طاهر سنة ٣٣٢هـ ٩٤٤م وجد الفريق المناهض للفاطميين السبيل ممهده أمامه لتولي السلطة فتم تعين أحمد بن أبي سعيد الجنابي خلفاً لأخيه وجعلوا سابور بن أبي طاهر ولياً للعهد وكان يميل للفاطميين ، وانقسم القرامطة بذلك إلى فريقين متنافسين فريق يميل إلى الفاطميين وعلى رأسهم أبناء أبي طاهر وفريق معاد للفاطميين ويتمثل في أخيه أحمد بن أبي سعيد ، وقد تمكن الفريق المناصر للفاطميين من القبض على أحمد بن أبي سعيد وسجنه سنة ٣٥٨هـ / ٩٦٩م وولي سابور بن أبي طاهر الذي لم يمكث في الحكم طويلاً إذ تمكن أبو سعيد من الخروج من سجنه وقتل سابور ونفي أخوته وشيعته إلى حزيرة أوال ، وتوفي أبو سعيد سنة ٣٥٩هـ / ٩٧٠م فتولى زعامة القرامطة من بعده أبنه أبو علي الحسن بن أحمد الملقب بالأعصم ويذكر ابن فهد أن الخليفة العباسي المطيع كان له دور في تولية الحسن لزعامة القرامطة مما جعل الحسن يتعامل معهم ضد الفاطميين الذين كانوا يعارضون زعامته ورفضوا بعد فتح دمشق أن يدفعوا الضريبة التي كان يدفعها لهم الحسن بن عبيد الله بن طغج منذ سنة ٣٥٧هـ/ ٩٦٨م (ابن خلدون : العبر ج٤ ص١١٦ ، المقريزي : المقفي الكبير ص٢٦١ ، ٢٦٣ ، ٣٠٢ ، حسن إبراهيم : المعز لدين الله ص١٠١).

(٢) ابن الجوزي : المنتظم ج٧ ص٥٣ ، ابن الأثير : الكامل ج٧ ص٣٢٣ ، ابن كثير : البداية والنهاية ج١١ ص٢٦٨، عمر بن فهد . إتحاف الورى ج٢ ص٤٠٦- ٤٠٧ .

(٣) كان من هذه القناديل واحد من الذهب وزنه ستمائة مثقال والباقي من الفضة (عمر بن فهد : إتحاف الورى ج٢ ص٤٠٧) .

الخليفة يخبره بتمام الحج في هذا العام ، وأنه لم يرد أحد من قبل المغربي -يقصد المعز لدين الله- وأن الخطبة أقيمت للمطيع لله وللقرامطة من بعده بمكة ، أما أشراف المدينة فقد انفردوا بالدعوة للمعز في هذا العام[١] .

لكن المعز لدين الله الفاطمي لم يكن ليقبل عودة النفوذ العباسي مرة أخرى إلى الحجاز ، فبادر بإعداد جيش تحرك من المغرب إلى الحجاز لإقامة الخطبة له بمكة سنة ٣٦٠هـ / ٩٧١م[٢] ، وانضم إلى هذا الجيش أشراف المدينة الحسينيين[٣] وتقابلوا مع جعفر بن محمد الحسني وأنصاره من أشراف مكة الحسنيين يساندهم القرامطة ، واشتبك الطرفان في قتال تمكن فيه جعفر بن محمد وأتباعه من هزيمة الجيش الفاطمي وإقامة الدعوة للعباسيين والقرامطة[٤] .

ولعل القرامطة أرادوا أن ينشغل الفاطميون بمصر عن الحجاز فقاموا بالهجوم على مصر يوم الجمعة أول ربيع الأول سنة ٣٦١هـ / الثاني والعشرين من ديسمبر سنة ٩٧١م فتقابلوا مع جوهر الصقلي وقد استعد لحربهم على باب القاهرة ، فدار قتال شديد وقع فيه من الفريقين كثير من القتلى وانهزم القرامطة بقيادة الحسن بن أحمد القرمطي وعادوا إلى الأحساء[٥] .

ومما لا شك فيه أن المعز لدين الله لم يكن ليهمل شأن الحجاز ، فلجأ إلى الحيلة للقضاء على النفوذ العباسي فقد ذكر ابن فهد أنه قام بتحريض الأعراب من قبائل بني هلال وغيرهم من البدو على الركب العراقي سنة ٣٦٣هـ / ٩٧٤م فقاموا بسلبه ونهبه وقتل الكثير منهم ولم ينج إلا من مضى مع أمير الحاج العراقي الشريف أبو أحمد الموسوي نقيب الطالبيين ببغداد حيث اتجهوا إلى المدينة ، ولم يدخل منهم أحد مكة ، وفي هذا العام أقيمت الدعوة بالحرمين للمعز

---

(١) عمر بن فهد : إتحاف الورى ج٢ ص٤٠٧ .

(٢) القلقشندي : مآثر الإنافة في معالم الخلافة ج١ ص٣٠٩ .

(٣) عمر بن فهد : إتحاف الورى ج٢ ص٤٠٨ .

(٤) المصدر السابق .

(٥) المقريزي : المقفي الكبير ص٢٦٤ .

لدين الله[١] ويعد هذا العام هو بداية الدعوة الكاملة للفاطميين في الحجاز[٢] .

وقد سعد المعز بهذه المناسبة وأهدى الكعبة المشرفة شمسة[٣] غالية الثمن ، وكان العباسيون يرسلونها من قبل ، وقد وصف المقريزي هذه الشمسة بأن سعتها اثنى عشر شبراً في مثلها وأرضيتها من الديباج الأحمر ، ويحيط بها اثنى عشر هلالاً ذهباً وفي كل هلال أترجة

---

(١) عمر بن فهد إتحاف الورى ج٢ ص٤١٠ .

(٢) اختلف المؤرخون في تاريخ الدعوة للفاطميين ، فابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ / ١٢٠٠م) وابن الأثير (ت٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م) واليافعي (ت ٧٦٨هـ / ١٣٦٦م) وابن كثير (ت ٧٧٤هـ / ١٣٧٢م) يذكرون أنه قد ورد الخبر بوقوع الخطبة لأبي تميم معد الملقب بالمعز لدين الله بمكة والمدينة في موسم سنة ٣٦٣هـ / ٩٧٤م وقطعت خطبة الطائع الخليفة العباسي . لكن المقريزي (ت ٨٤٥هـ / ١٤٤٢م) يرى أن أول موسم دعي فيه للمعز بمكة والمدينة هو موسم سنة ٣٦٤هـ / ٩٧٥م فيقول : « في المحرم سنة ٣٦٥ هـ ورد سابق الحج فأخبر بإقامة الدعوة بمكة ومسجد إبراهيم يوم عرفة ومدينة الرسول ، وسائر أعمال مكة وبتمام الحج ، وكان هذا الموسم أول موسم دعي فيه للمعز بمكة ومدينة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فسر المعز بذلك وتصدق شكراً لله» .
ومن ثم فإن رأي كل من ابن الجوزي وابن الأثير واليافعي وابن كثير – وهم أسبق وأقدم من المقريزي جدير بالتأييد – وعلى هذا تكون الدعوة الكاملة للفاطميين في الحجاز قد بدأت في موسم سنة ٣٦٣هـ / ٩٧٤م . (انظر : ابن الجوزي : المنتظم ج٧ ص٧٥ ، ابن الأثير : الكامل ج٧ ص٣٤٩، اليافعي : مرآة الجنان ج٢ ص٣٧٩ ، ابن كثير : البداية والنهاية ج١ ص٢٧٧ ، المقريزي : اتعاظ الحنفا ج١ ص٢٢٥) .

(٣) الشمسة : عبارة عن حلية ضخمة كانت ترسل إلى الكعبة في موسم الحج بصحبة قائد الحاج لتعلق في وجه الكعبة ثم تنزع يوم التروية وسميت بالشمسة لأن لها أثنى عشر ذراعاً تشبه أشعة الشمس ، وعدد الأشعة يمثل عدد شهور السنة ؛ لأن موسم الحج يحل عند مضي أثنى عشر شهراً والأهلة الموجودة في نهاية الأشعة تمثل الشهور القمرية والهجرية ، وقد سبق العباسيون في إرسالها ، وأول من أرسلها الخليفة المتوكل ، لكن المعز صنعها أكبر وأضخم حجماً وأغلى ثمناً وقيمة مما كان العباسيون يصنعونها وهي تختلف عن الشمسة (المظلة) التي كان القادة والأمراء يسيرون بها إلى الحرم .
(انظر : المقريزي : اتعاظ الحنفا ج١ ص١٤٠ حاشية) .

ذهب مشبك ، وفي داخل كل أترجة خمسون درة كبيض الحمام وفيها الياقوت الأحمر والأصفر والأزرق ، وكتبت في جوانبها آيات الحج بالزمرد الأخضر وحشو الكتابة در كبار لم ير مثله، وحشيت الشمسة بالمسك المسحوق(١) .

وقد نصب المعز هذه الشمسة على إيوان قصره فرآها الناس وأعجبوا بها(٢) ، ويبدو أنه أراد أن يبين للحجازيين والعباسيين مدى ثراء الدولة الفاطمية في وقت كان الحجاز يعاني فيه من الفقر والحاجة ، ولم يكن ينل من العباسيين إلا النذر اليسير .

ولا شك أنه نجح في ذلك فقد قدم وفد من أشراف الحجاز في العام التالي إلى مصر للقاء المعز حتى يحظوا بمنحه وعطاياه ؛ فيذكر ابن ميسر : أنه أعطاهم أربعمائة ألف درهم(٣) .

وقد توطدت الصلات بين أشراف الحجاز والفاطميين في عهد المعز لدين الله وجرت بينهم المراسلات الودية ، فقد ذكر المقريزي : أن جعفر بن محمد الحسني أمير مكة أرسل كتاباً إلى المعز لدين الله في سنة ٣٦٥هـ / ٩٧٥م يطلب فيه الإحسان إلى أخته صفية بنت محمد الحسني برد ضياعها وأموالها إليها(٤) ، وكانت مقيمة بمصر مع زوجها عبد الله بن عبيد الله الحسني(٥) ، فتعاون زوجها مع القرامطة وخرج على الفاطميين في أول رجب سنة ٣٦٣هـ /

---

(١) المقريزي : اتعاظ الحنفا ج١ ص١٤٠ - ١٤١ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) ابن ميسر : المنتقى من أخبار مصر ص١٦٦ .

(٤) المقريزي : اتعاظ الحنفا ج١ ص٢٢٥ .

(٥) هو عبد الله بن عبيد الله بن طاهر بن يحيى بن الحسن بن جعفر بن عبيد الله بن الحسين بن علي بن أبي طالب من أشراف الحجاز ، وكان متعاوناً مع القرامطة في هجومهم على مصر فنزل في نواحي أسيوط وأخميم ، وحارب العمال واستخرج الأموال فثقل ذلك على المعز فأرسل إليه بعض جنده ففر إلى الحجاز ثم توجه إلى الأحساء واختلف مع القرامطة وانصرف عنهم إلى العراق فأرسلوا وراءه رجل يقال له ابن سنبر سقاه لبناً وضع فيه السم بموضع يسمى الجعفرية على بعد ميلين من البصرة فمات بموضعه (المقريزي : المقفي الكبير ص٢٤٢ ، ٢٤٣ - اتعاظ الحنفا ج١ ص١٥٠ ، ٢٠٤) .

مارس ٩٧٤م ، واختفت زوجته صفية عن أعين الفاطميين خشية انتقامهم وخاصة بعد أن صادروا أملاكها وأملاك زوجها .

وأحضر يعقوب بن كلس[١] القاضي أبا طاهر الذهلي ، وشهوده وأشهدهم في كتاب عن المعز لدين الله أنه أمره برد ضياعها ورباعها إليها ، فظهرت وأمنت واستردت كل أموالها وضياعها[٢] ، وعاشت في مصر هانئة سعيدة ، وقد تم ذلك بناء على الرسالة الودية التي أرسلها جعفر بن محمد الحسني للمعز ، وهذا إن دل على شئ فإنما يدل على مدى عمق وقوة العلاقات التي سادت بين الجانبين .

ونتيجة لهذا أرسل الشريف جعفر بن محمد الحسني أمير مكة كتاباً ثانياً إلى المعز يسأله أن يرد الأحباس[٣] التي وقفت على ولد عمرو بن العاص بمصر إليهم ، وكان الفاطميون قد استولوا عليها[٤] فأمر المعز بعودة أوقافهم إليهم[٥] .

---

(١) هو أبو الفتوح يعقوب بن كلس صاحب الفاطميين منذ دخولهم إلى مصر وتولى الخراج ووجوه الأموال في عهد المعز وفي سنة ٣٦٥هـ تولى الوزارة وقد توفي سنة ٣٨٠هـ (ابن الصيرفي : الإشارة إلى من نال الوزارة ص٩٢- ٩٤) .

(٢) المقريزي : اتعاظ الحنفا ج١ ص٢٢٥ .

(٣) الأحباس عبارة عن أرض زراعية يعطيها الخلفاء والملوك والسلاطين بمقتضى حجج شرعية وتعاسيط ديوانية إلى بعض الناس على سبيل الاحسان والانعام مع إعفائها من الضرائب (محمد محمد أمين . الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر ص١٠٨ - ١٠٩) .

(٤) يروي المقريزي قصة هذه الأحباس فيقول . « كان المعز لما وقف على حبس عمرو بن العاص بمصر ، وأن محمد بن أبي بكر كان قبضه وضرب عليه صافية لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب – أهل الحق – وأن عـــمـــرو بـن العاص، إنما حبسه لما عاد إلى مصر في أيام معاوية أخرج ذلك من كتاب أبي عمر الكندي القاضي النعمان بن محمد فحمله إلى المعز فقال : « هذا مال لنا فليحمل إلينا مفرداً من مال الأحباس »

(المقريزي : اتعاظ الحنفا ج١ ص٢٢٥) .

(٥) المصدر السابق .

ولا ريب أن سياسة الخليفة الفاطمي المعز لدين الله كانت تميل للتقرب إلى أشراف الحجاز والاستجابة لمطالبهم المحدودة رغبة في كسب ودهم وتدعيماً للصلات الطيبة بينه وبينهم .

بيد أن السيادة الفاطمية على الحجاز قد تعرضت لاختبار عنيف عقب وفاة المعز لدين الله وتولي ابنه العزيز الخلافة سنة ٣٦٥هـ / ٩٧٦م[١] فقد قطع أشراف مكة والمدينة الخطبة له، وخطبوا للخليفة العباسي الطائع[٢] .

وهنا نتساءل ما موقف الخليفة الفاطمي العزيز من ذلك ، وهو في بداية حكمه ؟

الحقيقة أن الخليفة العزيز بالله لم يكن ليسمح بعودة النفوذ العباسي إلى الحجاز مرة أخرى فبادر باتخاذ موقف عاجل وعنيف تجاه الحجازيين فأرسل أميراً علوياً مع بعض الجند إلى الحجاز فأحكموا الحصار حول مكة والمدينة وضيقوا على أهلهما فلقوا معاناة شديدة نتيجة منع الإمدادات عنهم وقلة الطعام وارتفاع الأسعار[٣] .

ويذكر المؤرخون أن النفوذ الفاطمي عاد للحجاز مرة أخرى عقب هذا الحصار فقد رجع أشراف مكة والمدينة إلى دعوتهم وخطبوا للعزيز على منابرهم ، وكان أمير مكة عيسى ابن جعفر الحسني وأمير المدينة طاهر بن مسلم الحسيني[٤] .

ومما تقدم نستنتج أن جعفر بن محمد الحسني أمير مكة في عهد المعز لدين الله قد توفي هو الآخر في نفس العام الذي توفي فيه المعز ، وتولى بعده ابنه عيسى بن جعفر الذي استهل

---

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج٧ ص٣٦٠ .

(٢) ابن خلدون : العبر ج٤ ص٦٥ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج٧ ص٣٦٢ ، المقريزي . اتعاظ الحنفا ج١ ص٢٣٨ ، العصامي المكي : سمط النجوم ج٤ ص١٩٥ ، دحلان : خلاصة الكلام ص١٦ .

(٤) ابن خلدون : العبر ج٤ ص٦٥ ،٦٦ ، الفاسي : العقد الثمين ج٦ ص٤٥٨ ، عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج١ ص٤٨٢ - ٤٨٣ .

حكمه برفض الدعوة للفاطميين متبعاً سياسة تخالف سياسة أبيه ، لكن العزيز اتخذ موقفاً متشدداً معه ومع بقية أشراف الحجاز ، فبادر بإرسال الجند وأجبرهم على الدعوة له ، ويمكن اعتبار هذا الموقف من العزيـــز بداية التدخل الفاطمي المباشر في الحجاز .

ولقد استمر العزيز في تنفيذ سياسته التي ترمي إلى استمرار الدعوة للفاطميين بالحجاز فيذكر المؤرخون أنه أرسل موكب الحج المصري في العام التالي سنة ٣٦٦هـ / ٩٧٧م بصحبة بعض الجنود الذين أقاموا الدعوة له[١] .

وفي سنة ٣٦٧هـ أرسل العزيز باديس بن زيري الصنهاجي - أخا يوسف بلكين خليفته على المغرب - لكي يكون أميراً على موسم الحج ، وليحج بالناس ، ويقيم له الخطبة بمكة فلما وصل إلى مكة أراد قطاع الطرق من الأعراب مفاوضته على ترك الحجاج دون أذى مقابل خمسين ألف درهم يدفعها لهم ، فرفض وتمكن من القضاء عليهم وأنقذ الحجاج من سطوتهم[٢] وأقام الدعوة للفاطميين هذا العام ، وأثبت الفاطميون أنهم لن يتخلوا عن سيطرتهم على الحجاز، إذ إن تلك السيطرة تجعلهم يظهرون أمام العالم الإسلامي أنهم حماة الأماكن المقدسة ، ولن يسمحوا لأي سلطة من الداخل أو الخارج أن تنتقص من هذه الحماية .

وقد لجأ العباسيون بدورهم إلى استخدام القوة المسلحة لاستعادة نفوذهم في الحجاز ، فأرسل عضد الدولة البويهي[٣] جيشاً إلى مكة أجبر أشرافها على إعلان تبعيتها للخلافة

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ج١١ ص٢٨٧ ، عمر بن فهد : إتحاف الورى ج٢ ص٤١٤ .

(٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج٧ ص٣٨٠ ، المقريزي : المقفي الكبير ص٢٩٩ ، الفاسي : شفاء الغرام ج٢ ص٢٢٣ ، عمر بن فهد :إتحاف الورى ج٢ ص٤١٥ - ٤١٦ .

(٣) هو عضد الدولة فنا خسرو بن ركن الدولة الحسن بن بويه ولي سلطنة بلاد فارس بعد عمه عماد الدولة علي ، وقد آل ملك بني بويه إلى عضد الدولة سنة ٣٦٧هـ حين سار بجيوشه إلى بغداد وحارب ابن عمه بختيار وقتله وشارك الخليفة العباسي في الحكم وقد توفي سنة ٣٧٢هـ ببغداد (انظر الذهبي : العبر في خبر من غبر ج٢ ص١٣٩ ، ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج٧ ص٨٧ ، ابن خلدون : العبر ج٤ ص٥٦٣ ، ٦ ، حسن محمود : العالم الإسلامي في العصر العباسي ص٥١٥ ، ٥٢٢) .

العباسية في سنة ٣٦٨هـ[١] ثم قام بإصلاح الطريق من العراق إلى مكة وأطلق الصلات للضعفاء والمجاورين بمكة والمدينة[٢] .

غير أن تبعية الحجاز للعباسيين كانت موقوتة ، إذ لم يلبث الفاطميون أن استردوا سلطانهم عليها في العام التالي ؛ فقد ذكر ابن فهد في أحداث سنة ٣٦٩هـ / ٨٩٠م : أن الخطبة كانت بالحرمين لصاحب مصر[٣] ، ولم تقم بعدها خطبة للعباسيين بعد أن عادت لخلفاء مصر[٤] ولم تذكر المصادر التاريخية كيف عادت الخطبة للفاطميين بالحرمين ؟ وهل واجه الفاطميون المد العباسي البويهي بحركة مماثلة حتى تمكنوا من فرض سيادتهم على مكة ؟

ولعل العباسيين لم يستطيعوا استمالة أشراف الحجاز إلى جانبهم ، حيث كان الفاطميون يغدقون عليهم الأموال الكثيرة والهدايا الوفيرة مما جعلهم يخطبون للفاطميين في العام التالي، وبذلك تمكن الفاطميون من فرض سيادتهم على مكة وأخذوا يرسلون الأموال والهدايا إلى أشراف الحجاز ، فقد ذكر المقريزي : أن قافلة الحج خرجت من مصر في ذي القعدة إلى مكة وفيها صلات الأشراف بالإضافة إلى القمح والشعير والدقيق والزيت وسائر الحبوب ومحراب من الذهب للكعبة[٥] وفي العام التالي أرسل العزيز كسوة الكعبة ومعها صلات الأشراف والطيب والشمع والزيت وبلغ مصروف ذلك مائة ألف دينار[٦] .

ويتضح من ذلك أن العباسيين كانوا غير مؤهلين لمنافسة الفاطميين في هذا الميدان ، وبخاصة أن الفاطميين قد استغلوا ثروات مصر الكثيرة ومواردها الوفيرة في ذلك ، إذ ظل

---

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ج٤ ص٢٦٩ .

(٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج٧ ص٣٨٧ .

(٣) عمر بن فهد : إتحاف الورى ج٢ ص٤١٧ .

(٤) المصدر السابق ص٤١٦ .

(٥) المقريزي : اتعاظ الحنفا ج١ ص٢٤٦ .

(٦) المصدر السابق ص٢٥٢ .

العزيز طوال فترة حكمه يرسل الصلات الضخمة والهدايا الثمينة إلى أميري مكة والمدينة وبقية الأشراف بالحجاز مقابل الدعاء له على منابر الحرمين الشريفين واستمرار تبعية الحجاز له ، فقد كان يعتقد مثل والده المعز – أن انضمام الحرمين الشريفين وتبعيتهما له شرط من شروط الخلافة ، ولأن نفوذ الخلافة لا تكتمل عناصره في نظر الكثيرين من أبناء العالم الإسلامي ما لم تؤيده خطبة الحرمين الشريفين ، وتنطق داعية باسمه ، هذا إلى جانب أن تأمين الحجاز تأمين لمصر .

ولقد اهتم العزيز بقافلة الحاج المصرية اهتماماً كبيراً وكان يقف بنفسه في وداع أصحابها والاطمئنان على ما تحمله إلى الحجاز من كسوة الكعبة والطيب والغلال وصلات الأشراف التي كانت ترسل كل عام[١] مما يدل على مبلغ عنايته باستمرار الصلات الوثيقة بين مصر والحجاز.

لم يقبل العباسيون أن تستمر العلاقات الطيبة بين الفاطميين وأشراف الحجاز فسعوا إلى إفساد هذه العلاقات ، فقد كان التنافس شديداً بينهم وبين الفاطميين على انتزاع زعامة العالم الإسلامي عن طريق كسب الدعوة لأنفسهم في الحرمين الشريفين فقد كان العباسيون يشعرون أنهم خلفاء الإسلام دون الفاطميين ، ومن حقهم الدعوة لهم بالحجاز والسيطرة عليه لذلك لجأ العباسيون إلى الحيلة لإعادة نفوذهم على مكة ، فنجد الخليفة العباسي القادر يحاول في مستهل عهده سنة ٣٨١هـ / ٩٩١م استمالة الشريف أبى الفتوح الحسن بن جعفر الحسني –شقيق أمير مكة عيسى بن جعفر الحسني وولي عهده وصاحب النفوذ القوي في الدولة– ، ورغبه في الطاعة والدعوة للعباسيين ، ووعده باتصال الإمارة في بنيه[٢] ، إلا أن أبا الفتوح رفض هذه المحاولة ، ولم يذعن لها ؛ وسارع بإرسال كتب القادر إلى الخليفة الفاطمي العزيز يخبره بذلك، فشكره العزيز على ولائه له ، وأرسل إليه الهدايا والخلع والأموال وكسوة الكعبة،

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفا ج١ ص٢٦٧ .

(٢) المقريزي كتاب المقفي الكبير ص٤٣٠ .

فجمع أبو الفتوح الأشراف عند الكعبة وقسم فيهم الأموال والهدايا والخلع وألبس كسوة الفاطميين البيضاء للكعبة ، وكان العباسيون يرسلون كسوة سوداء تحمل شعارهم حينما كانت مكة تحت سيطرتهم ، ثم وقف وقال: « الحمد لله يا بني فاطمة الزهراء وأصحاب السنة الغراء على أن زين بيته بلبسة السرور بعد لبسة الحزن ، وجعل ملك الحرمين لبني بنت رسوله من بني الحسن وبني الحسين فأرضى الفريقين »[١] .

وكان من نتيجة ذلك أن توالى الحاج من مصر ، وانقطع ركب العراق في هذا العام خوفاً من انتقام الفاطميين[٢] ، وبالغ العزيز في الإنفاق على قافلة الحاج المصرية ، وزاد في أعطيات الأشراف فقد ذكر ابن ميسر : أن العزيز أنفق في العام التالي لهذا الحدث ثلاثمائة ألف دينار عيناً وورقاً على الكسوة والصلات وغيرها من الهدايا[٣] .

كما ذكر المقريزي : أن العزيز أرسل ثلاثة آلاف وخمسمائة مقاتل بصحبة القافلة لأن أحد رجال الحجاز ، ويدعى القاسم بن علي الرسي خرج على أمير مكة عيسى بن جعفر الحسني يطلب الأمر لنفسه[٤] .

ويبدو أن الجند المصري تمكن من القضاء على ثورة القاسم بن علي ونجح في عقد الصلح بينه وبين أمير مكة عيسى بن جعفر الحسني الذي قدم إلى مصر في العام التالي سنة ٣٨٤هـ وبرفقته القاسم بن علي الرسي فأكرمهما العزيز وأحسن إليهما[٥] .

وفي جمادي الآخرة من نفس العام عاد شريف مكة إلى الحجاز وبصحبته القاسم بن علي ،

---

(١) المقريزي كتاب المقفي الكبير ص ٤٣٠.

(٢) عمر بن فهد : إتحاف الورى ج٢ ص٤٢١ ، الجزيري : درر الفرائد ج١ ص ٥٣ ، العصامي : سمط النجوم ج٤ ص١٩٦ .

(٣) ابن ميسر : المنتقى من أخبار مصر ص١٧١ .

(٤) المقريزي : اتعاظ الحنفا ج١ ص٢٧٨ – ٢٧٩ .

(٥) المصدر السابق ص٢٨١ .

وقد أنعم عليهما العزيز بالجوائز والخلع[١] وقد توفى عيسى بن جعفر الحسني في هذا العام ، وتولى حكم مكة بعده أخوه أبو الفتوح الحسن بن جعفر الحسني[٢] .

استهل أبو الفتوح الحسن بن جعفر الحسني حكمه بالتمسك بالولاء للفاطميين والدعوة لهم[٣] ، وقد قوي النفوذ الفاطمي بالحجاز في عهد العزيز الذي نجح في استمالة القرامطة من جديد إلى جانب الفاطميين وإثارة حفيظتهم على العباسيين[٤] ومما يؤيد هذه الحقيقة ما ذكره ابن خلدون من أن القرامطة رجعوا إلى دعوة الفاطميين ومحاربة بني العباس[٥] ، وما أخبرنا به المقريزي عن مقدم رسول القرامطة إلى مصر سنة ٣٨٢هـ يعلن دخولهم في طاعة العزيز[٦] .

وكان من أثر هذه السياسة التي انتهجها الخليفة الفاطمي العزيز أن أوقف القرامطة غاراتهم على الحجاز ، واتجهوا نحو الممتلكات العباسية فأغاروا على البصرة ، وحالوا دون وصول الحجيج العراقي إلى الأراضي المقدسة في هذا العام[٧] .

وقد ظل الأمل يراود العباسيين في عودة نفوذهم إلى الحجاز فأرسل الخليفة العباسي القادر إلى أبي الفتوح الحسن بن جعفر الحسني أمير مكة يرغبه في الطاعة له[٨] وأن يأذن لحاج العراق بتأدية الفريضة سنة ٣٨٦هـ / ٩٩٦م[٩] فرفض أبوالفتوح الدعوة للعباسيين وأكد

---

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفا ج١ ص٢٨٢ .

(٢) ابن خلدون : العبر ج٤ ص١٣٠ ، الفاسي : شفاء الغرام ج٢ ص١٩٤ ، العقد الثمين ج٦ ص٤٥٨ ، عمر بن فهد: إتحاف الورى ج٢ ص٤٢٣ ، عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج١ ص٤٨٣ ، دحلان : تاريخ الدول الإسلامية بالجداول المرضية ورقة ١٤٠ .

(٣) عمر بن فهد : إتحاف الورى ج٢ ص٤٢٣ .

(٤) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام السياسي ج٤ ص٢٥٦ .

(٥) ابن خلدون : العبر ج٤ ص١١٧ .

(٦) المقريزي : اتعاظ الحنفا ج١ ص٢٧٤ .

(٧) حسن إبراهيم تاريخ الإسلام السياسي ج٤ ص٢٥٧ .

(٨) الفاسي : العقد الثمين ج٤ ص٧٧ – عمر بن فهد : إتحاف الورى ج٢ ص٤٢٤ .

(٩) ابن خلدون : العبر ح٤ ص١٣٠ .

لهم أن الخطبة ستظل للحاكم[١] بأمر الله صاحب مصر[٢] ووافق على السماح للحاج العراقي بتأدية الفريضة فلم يكن ليمنع المسلمين من تأدية شعيرتهم الدينية ، فلما علم الحاكم بما حدث سر من موقف أبي الفتوح ، وقرر الانتقام من الخليفة العباسي فأرسل إلى مفرج بن دغفل بن الجراح أمير بني طيئ بالرملة يأمره باعتراض الحاج العراقي حتى يثبت ضعف العباسيين عن حماية الحاج والسيطرة على الحرمين ، فتصدى ابن الجراح للحاج العراقي لولا وجود الشريف الرضي[٣] وأخيه المرتضي اللذين استطاعا إقناع ابن الجراح أن يسمح لهم بتأدية الفريضة هذا العام على ألا يعود الركب العراقي بعد ذلك فخلى سبيلهم[٤] .

وقد ظل أبو الفتوح الحسن بن جعفر الحسني في بداية عهده مخلصاً في ولائه للفاطميين فحين أمره الحاكم بأمر الله أن يستولى على المدينة ويطرد صاحبها الحسن بن طاهر الحسيني[٥] وأسرته لما بلغه عنهم من الطعن في نسب الفاطميين ، بادر أبو الفتوح بالزحف إلى المدينة والاستيلاء عليها سنة ٣٩٠هـ/ ١٠٠٠م[٦] وجمع بين الحرمين الشريفين[٧] .

---

(١) كان الحاكم بأمر الله أبو علي منصور بن العزيز قد تولى الحكم في مصر عقب وفاة والده العزيز في الثامن والعشرين من رمضان سنة ٣٨٦هـ (المقريزي : اتعاظ الحنفا ج٢ ص٣) .

(٢) عمر بن فهد : إتحاف الورى ج٢ ص٤٢٤ .

(٣) هو أبو الحسن محمد بن الحسين بن موسى بن إبراهيم بن موسى بن جعفر الحسيني نقيب العلويين ببغداد ولد سنة ٣٥٩هـ وتوفى ببغداد سنة ٤٠٦هـ وقد قلد أخوه الشريف المرتضي أبا القاسم نقابة العلويين والحج والمظالم عقب موت أخيه .

(ابن الأثير : الكامل ج٨ ص٩١ ، ٩٣ - ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب ج٣ ص١٨٢) .

(٤) ابن خلدون : العبر ج٤ ص١٣٠ - العصامي المكي : سمط النجوم ج٤ ص١٩٦ .

(٥) هو الحسن بن طاهر بن مسلم بن عبيد الله بن طاهر تولى إمارة المدينة سنة ٣٨١هـ عقب وفاة والده طـــاهـــر بن مسلم (ابن خلدون : العبر ج٤ ص١٤٠) .

(٦) الجزيري : درر الفرائد ج١ ص٥٣٢ .

(٧) الفاسي : شفاء الغرام ج٢ ص١٩٤ ، العقد الثمين ج٤ ص٧٧ .

لكن بعض المؤرخين يرون سبباً آخر لسيطرة أبي الفتوح على المدينة فيذكرون أن الحاكم بأمر الله طلب من أبي الفتوح الاستيلاء على المدينة وإخراج صاحبها منها ، وأن ينقل الجسد النبوي الشريف إلى مصر فلما دخل أبو الفتوح المدينة أصابها إعصار شديد ففزع أبو الفتوح ورفض تنفيذ ما أمر به الحاكم وعاد إلى مكة ، وترك أشراف المدينة يعودون إليها[١] .

والحقيقة أن هذه الرواية يتطرق إليها الشك ، لأن الحاكم بأمر الله لم يكن ليفعل ذلك حتى لا يثير عليه عامة المسلمين في شتى أنحاء العالم الإسلامي ، ولو أنه أمر بذلك لاتخذ موقفاً عدائياً من أبي الفتوح لأنه لم ينفذ أوامره ؛ لكن كل الدلائل والأحداث التاريخية تشير إلى أن العلاقات استمرت بين الحاكم وأبي الفتوح ودية ، ولم يوجد ما يعكرها ، ويؤكد هذا الرأي المؤرخ المكي تقي الدين الفاسيفيستنكر هذه الرواية ، ويقول : إنه يذكرها في كتابه لغرابتها[٢] .

قوى خارجية تدفع الحجاز للتحرر من السيطرة الفاطمية :

استمر أبو الفتوح الحسن بن جعفر الحسني في إخلاصه وولائه للحاكم بأمر الله إلى أن تعرضت علاقتهما للتصدع في مطلع القرن الخامس الهجري ، عندما نزع أبو الفتوح إلى الاستقلال عن الفاطميين والخروج على طاعتهم .

وقد ذكر بعض المؤرخين أن سبب خروجِ أبي الفتوح عن طاعة الفاطميين وثورته عليهم هو الحاكم بأمر الله نفسه الذي أرسل إليه سنة ٣٩٥هـ / ١٠٠٥م سجلاً ينتقص فيه بعض الصحابة وأمره بقراءته على الناس مما دفع أبا الفتوح إلى الغضب والثورة على الحاكم[٣] إلا أن الخلاف

(١) ابن خلدون : العبر ج٤ ص١٤٠ ، عمر بن فهد : إتحاف الورى ج٢ ص٤٢٦ - ٤٢٧ ، الجزيري : درر الفرائد ج١ ص٥٣٢ - ٥٣٣ ، المراغي : تحقيق النصرة ص١٤٨ .

(٢) الفاسي : العقد الثمين ج٤ ص٧٧ .

(٣) عمر بن فهد : إتحاف الورى ج٢ ص٤٣١ ، المقريزي : المقفي الكبير ص٤٣٠ ، القلقشندي : مآثر الانافة ج١ ص٣٢٦ .

الذي نشأ بين الحاكم وأبي الفتوح نتيجة لهذا لم يصل إلى حد القطيعة والخروج على الحاكم ، ففي العام التالي لهذا الحدث قام الأمير أبو الفتوح الحسن بن جعفر الحسني بزيارة ودية إلى مصر سنة ٣٩٦هـ لتهنئة الحاكم بأمر الله لانتصاره على أبي ركوة[١] فخلع عليه الحاكم وأكرمه وأنزله بدار برجوان[٢] واستمرت العلاقات الودية بينهما ، وفي العام التالي كسا الحاكم الكعبة القباطي البيض وأرسل أموالاً كثيرة للحرمين[٣] .

وقد روى كل من ابن الأثير وابن تغري بردي أن الحاكم بأمر الله أرسل فتكين العضدي الداعي سنة ٤٠٠هـ / ١٠١٠م إلى المدينة حيث توجد دار جعفر بن محمد الصادق[٤] ولم تكن هذه الدار قد فتحت منذ موت صاحبها ، ففتحها فتكين وأخذ ما فيها من مصحف وسيف وكساء وسرير وحربة ، وعاد إلى مصر ومعه جماعة من شيوخ العلويين ، فلما وصلوا إلى الحاكم أطلق لهم نفقات، قليلة ورد عليهم السرير وأخذ الباقي ، وقال : أنا أحق به فانصرفوا غاضبين وداعين عليه[٥] .

(١) أبو ركوة هو الوليد بن هشام ينسب إلى المغيرة بن عبد الرحمن من بني أمية وكان يقال له : أبو ركوة، لركوة كان يحملها في أسفاره ، وقد قدم القيروان يعلم الصبيان بها القرآن الكريم ، ثم دخل الاسكندرية وقد دعا لنفسه فقام بأمره بنو قرة ، وقد أكثر الحاكم من القتل فيهم فبايعوه واستجابت له قبائل لواته ومزاته وزناته ، وأخذ برقة وهزم جيوش الحاكم غير مرة إلى أن هزم في ذي الحجة سنة ٣٩٦هـ وقتل فسيرت البشائر بقتله إلى كافة البلاد (المقريزي : الخطط ج٢ ص٢٨٦ ، اتعاظ الحنفا ج٢ ص٦٠ ، ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب ج٣ ص١٤٨ .

(٢) المقريزي : اتعاظ الحنفا ج٢ ص٦٦ .

(٣) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج٤ ص٢١٧ .

(٤) هو أبو عبد الله جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب أحد الأئمة الأثنى عشر على مذهب الإمامية ، وكان من سادات آل البيت ولقب بالصادق لصدقه في مقالته ، وله كلام في صنعة الكيمياء والزجر والفأل ، وقد ألف تلميذه أبو موسى جابر بن حيان كتاباً يشتمل على ألف ورقة تتضمن رسائل جعفر الصادق وهي خمسمائة رسالة وقد توفي سنة ١٤٨هـ بالمدينة ودفن بالبقيع .(ابن خلكان : وفيات الأعيان ج١ ص٣٢٧) .

(٥) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج٤ ص٢٢٢ ، ابن الأثير : الكامل ج٨ ص٥٩ .

ومما لا شك فيه أن هذا العمل قد أثار أشراف الحجاز ، ومعهم أبو الفتوح الحسن بن جعفر الحسني ، لكن ثورتهم لم تصل إلى حد الخروج على الحاكم ، فقد اكتفوا بكظم غيظهم إلى أن قام بتحريضهم على الحاكم بنو الجراح في فلسطين ، والوزير أبو القاسم المغربي الذي قتل الحاكم أسرته ففر إلى الرملة واستجار بآل الجراح وحسن لهم خلع طاعة الحاكم[١] ، ودعوة أبي الفتوح الحسني للثورة على الفاطميين وتنصيبه خليفة على المسلمين ، فمال آل الجراح لرأيه ، وطلبوا منه إقناع أبا الفتوح بالأمر[٢] .

---

(١) كان آل الجراح من بني طيئ في فلسطين قد حاولوا الاستقلال عن الفاطميين وتكوين دولة مستقلة لهم أواخر القرن الرابع الهجري فثار زعيمهم مفرج بن دغفل بن الجراح بالرملة سنة ٣٨٨هـ / ٩٩٦م ، لكن الفاطميين كانوا لهم بالمرصاد ، فأرسلوا حملة عسكرية بقيادة جيش بن الصمصامة فسار إلى الرملة واستولى عليها وأخضع الثائرين هناك ، وطارد مفرج بن الجراح وقواته حتى هزمهم ، فطلبوا منه الأمان والصلح فعفا عنهم وأمنهم وعاد مفرج إلى الرملة موتوراً منتظراً الفرصة المناسبة للخروج على الفاطميين إلى أن جاءه أبو القاسم المغربي هارباً من الحاكم الذي قتل أخوي الوزير سنة ٤٠٠هـ / ١٠١٠م وثلاثة من أهل بيته ، وقد استجار الوزير أبو القاسم بحسان بن مفرح بن الجراح الذي كان ينقم في نفسه على الفاطميين فأجاره ومنع الطلب عنه ، وفي ذلك يقول أبو القاسم من قصيدة له :

فإني أتيت ابن الكريم مفرج   فأطلق من أسر الهموم عقالي

وقد حسن الوزير أبو القاسم لمفرج بن الجراح وقومه الثورة على الحاكم وخلع طاعته ، فاستجابوا له وبادروا بالثورة على الحاكم وقتلوا عامله على الرملة ، فسير الحاكم قوة عسكرية مع مملوك أبيه ياروخ لقتال بني الجراح، فلقيه حسان وأبوه مفرج واستطاعوا الانتصار عليه وقتله وملكوا الرملة ، وساءت الأمور بينهم وبين الحاكم فدفعهم الوزير أبو القاسم إلى تحريض أشراف مكة على الحاكم وخلع طاعته وحث أبى الفتوح الحسني أمير مكة على الدعوة لنفسه. (ابن ظافر الأزدى : أخبار الدول المنقطعة ص٤٨ ، المقريزي : اتعاظ الحنفا ج٢ ص٨٢، وحاشية ص٨٧ ، ابن سعيد : النجوم الزاهرة في حلي حضرة القاهرة ص٥٧ ، الفاسي : العقد الثمين ج٤ ص٧٠ ، ابن خلدون : العبر ج٤ ص٧٣ ، أحمد كامل: الحاكم بأمر الله ص١٥٦) .

(٢) عمر بن فهد ٠ إتحاف الورى ج٢ ص٤٣٧ .

خروج أبي الفتوح على الحاكم بأمر الله :

سافر أبو القاسم المغربي إلى مكة[١] والتقى بأبي الفتوح الحسن بن جعفر الحسني[٢] وأفسد نيته على الحاكم[٣] وأطمعه في الرياسة والملك ، وحرضه على طلب الخلافة وهون الأمر عليه ، بميل آل الجراح له ورغبتهم في طاعته ، والدعوة له[٤] .

فاستحسن أبو الفتوح رأي أبي القاسم إلا أنه رأى استشارة أصحابه قبل اتخاذه القرار الأخير ، فجمع بني الحسن وخاطبهم فيما أشار به أبو القاسم فوافقوه ، وبايعوه ، فصعد المنبر في مكة وخطب لنفسه وتلقب بـ « الراشد بالله »[٥] وشرع يتلقى البيعة من الموالين له في مكة والمدينة ، ثم أقام الدعوة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[٦] إلا أنه اشتكى لأبي القاسم قلة ما بيده من المال فأشار عليه الوزير أبو القاسم بأن يأخذ ما في خزانة الكعبة من الأموال وما عليها من أطواق الذهب والفضة ، فأخذها أبو الفتوح وضرب الدراهم والدنانير التي سميت بالفتحية نسبة إليه .[٧] وأثناء ذلك مات أحد التجار بجدة[٨] ويعرف بالمطوعي[٩] وقد ترك أموالاً عظيمة وودائع ، وأوصى منها لأبي الفتوح ؛ ليصون بها بقية تركته وودائعه ، فاستولى أبو الفتوح عليها كلها[١٠] وشرع يفرق الأموال على أنصاره وأرسل أبا القاسم إلى بطون سليم

---

(١) عمر بن فهد : إتحاف الورى ج٢ ص٤٣٧ .

(٢) ابن ظافر : أخبار الدول المنقطعة ص٤٨ .

(٣) المصدر السابق .

(٤) عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج١ ص٤٨٥ ، الجزيري : درر الفرائد ج١ ص٥٣٦ .

(٥) الصباغ : تحصيل المرام لوحة (٢١٦) .

(٦) أحمد السباعي : تاريخ مكة ج١ ص١٩٨ .

(٧) عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ح١ ص٤٨٥ .

(٨) ابن عبد القادر الطبري : الأرج المسكي في التاريخ المكي لوحة (١٥٩) .

(٩) عمر بن فهد : إتحاف الورى ج٢ ص٤٣٧ .

(١٠) الفاسي : العقد الثمين ج٤ ص٧٥ .

وعوف بن عامر وغيرهم من بطون العرب يدعوهم إلى طاعته وأخذ البيعة عليهم بخلافته فاستجابوا لطاعته[١] فلما استوثق الأمر له ببلاد الحجاز عين أبا القاسم وزيراً له[٢] .

وسافر أبو القاسم المغربي من مكة إلى الرملة بعد أن تأكد من بيعة الحجازيين لأبي الفتوح فاجتمع بمفرج بن دغفل بن الجراح الطائي وبنيه حسان ومحمود وعلي ، وأخذ منهم البيعة لأبي الفتوح[٣] وصعد إلى المنبر يوم الجمعة وخطب فى الناس محرضاً على خلع طاعة الحاكم[٤] .

ولما فرغ الوزير من أخذ البيعة على آل الجراح عاد إلى مكة ودعا أبا الفتوح إلى المسير معه إلى الرملة[٥] .

وبعد استقرار الأمور لأبي الفتوح شد رحاله في قوة كبيرة من عسكره تجاه الشام[٦] فقد روى المؤرخون أنه سافر من مكة سنة٤٠١هـ / ١٠١١م ، ومعه أبو القاسم المغربي ونحو ألف فارس من الأشراف الذين كانوا يعاضدونه ويؤازرونه في موقفه من الحاكم ، ونحو ألف عبد أسود من رجاله[٧] فلما قدم الرملة من أرض فلسطين حيث منازل بني الجراح خرج مفرج وبنوه حسان ومحمود وعلي إلى لقائه ، وقبلوا له الأرض وسلموا عليه بالخلافة ، وخاطبوه بإمرة

---

(١) المقريزي : كتاب المقفي الكبير ص٤٣١ .

(٢) ابن فضل الطبري : اتحاف فضلاء الزمن لوحة (١٠) ، ابن عنبة : عمدة الطالب ص١٣٤ .

(٣) ابن ظافر : أخبار الدول المنقطعة ص٤٩ ، عمر بن فهد : اتحاف الورى ج٢ ص٤٣٨ .

(٤) عمر بن فهد . إتحاف الورى ج٢ ص٤٣٨ .

(٥) المصدر السابق .

(٦) أحمد السباعي : تاريخ مكة ج١ ص١٩٨ .

(٧) المقريزي : المقفي الكبير ص٤٣١ ، ابن فضل الطبري : إتحاف فضلاء الزمن لوحة (١٠) ، ابن عنبه : عمدة الطالب ص١٣٤ ، عمر بن فهد : إتحاف الورى ج٢ ص٤٣٨ ، عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج١ ص٤٨٥ ، ويذكر ابن كثير أن أبا الفتوح ظهر في سنة ٣٨١هـ ودعا لنفسه بالخلافة وتصدى له الحاكم وهذا غير صحيح لأن معظم المؤرخين اتفقوا على خروجه سنة ٤٠١هـ كما أن الحاكم تولى الخلافة في رمضان سنة ٣٨٦هـ (انظر ابن كثير : البداية والنهاية ج١١ ص٣٠٩).

المؤمنين وأنزلوه بدار الإمارة ، وقد أمر بالنداء في الناس بأمان الخائفين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[١] وأقيمت الخطبة في منازل بني الجراح باسمه وفي بعض بلاد الشام حتى استفحل أمره[٢] واشتدت الأمور على الحاكم وبخاصة أن الخليفة العباسي في بغداد أمر بكتابة محضر يتضمن الطعن في نسب الفاطميين وقعه كثير من العلماء والعلويين وأنكروا فيه نسب الفاطميين إلى علي بن أبي طالب – رضي الله عنه –[٣] .

وليس من قبيل الصدفة أن يكتب العباسيون هذا المحضر للطعن في نسب الفاطميين في تلك الفترة التي خرج فيها أبو الفتوح على الحاكم ؛ بل لعلهم وجدوا أنها فرصة ملائمة للانقضاض على الفاطميين بضربة جديدة ينفض بها الشيعة الذين يدينون بالولاء للفاطميين عن الحاكم مما يضعف من هيبة الفاطميين ويقلل من نفوذهم .

– الحاكم بأمر الله يتصدى للخارجين عليه :

كان الحاكم قد أرسل حملة عسكرية بقيادة مملوك أبيه ياروخ إلى الرملة بعد هرب الوزير أبي القاسم إليها ، فأغار حسان عليهم وقاتلهم[٤] بين رفح والداروم[٥] ، وأسر ياروخ وحمله أسيراً ثم ذبحه بين يديه[٦] .

فلما تواقدت الأخبار إلى مصر بما حدث من آل الجراح والوزير المغربي مع أبي الفتوح ، اشتد خوف الفاطميين حتى قال أحد الدعاة الإسماعيليين : « وما بالحضرة أحد من العسكرية

---

(١) المقريزي : المقفي الكبير ص٤٣١ ، القاسي : شفاء الغرام ج٢ ص١٩٤ ، عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج١ ص٤٨٥ .

(٢) أحمد السباعي : تاريخ مكة ج١ ص١٩٨ .

(٣) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج٦ ص٤٤٧ ، ج٨ ص٧٣ .

(٤) عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج١ ص٤٨٤ .

(٥) المقريزي : اتعاظ الحنفا ج٢ حاشية ص٨٧ .

(٦) عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج١ ص٤٨٤ .

ولا من الرعية إلا وهو يعتقد بأن حسن بن جعفر يجيء مع مفرج بن دغفل ويكبسون القاهرة »[١]

لذا فقد بادر الحاكم بإرسال حملة عسكرية أخرى بقيادة علي بن جعفر بن فلاح فسار إلى الرملة في سنة ٤٠١هـ / ١٠١١م لكنه هزم هو الآخر من آل الجراح[٢] .

وعجز الحاكم عن إحراز أي تقدم من الناحية العسكرية فلجأ إلى عدة طرق في ثلاثة اتجاهات مختلفة تظهر مقدرته السياسية البارعة وبالتالي هيأت له النجاح والخروج من تلك المحنة منتصراً .

- الاتجاه الأول في مصر :

يقول تقي الدين الفاسي : « في سنة ٤٠٢هـ قتل الحاكم أحمد بن أبي العلاء مولى أبي الفتوح أمير مكة لأنه كان يستوشي أخباره وينقلها إلى مولاه ، وكان مولاه أقامه لذلك وأقرّ عليه عطار »[٣] .

ويبدو أن الرجل كان سفيراً لبلاده في مصر فلما ساءت العلاقات بين مصر والحجاز انحاز إلى جانب أبي الفتوح وعمل على نقل أخبار مصر إليه فأمر الحاكم بقتله .

وفي نفس العام أصدر الحاكم سجلاً يمنع الناس فيه من السفر إلى مكة في البر والبحر ويمنع حمل الأمتعة والأقوات إليها ، وقد ذكر المقريزي أن بعض الناس حاولوا الخروج لتأدية شعيرتهم الدينية فأعادهم رجال الحاكم من الطريق[٤] كما أمر بقطع الميرة عن الحرمين[٥] .

---

(١) عبد الحميد الدجيلي : رسائل اسماعيلية قديمة نادرة ، مجلة المجمع العلمي العراقي مجلد٣ ج١ ص٤٢١ سنة ١٩٥٤م .

(٢) المقريزي : اتعاظ الحنفا ج٢ ص٨٧ .

(٣) الفاسي : العقد الثمين ج٤ ص٧٦ ، عمر بن فهد : إتحاف الورى ج٢ ص٤٤١ .

(٤) المقريزي : اتعاظ الحنفا ج٢ ص٩٠ .

(٥) القلقشندي : صبح الأعشى ج٤ ص٢٦٩ .

وكانت هذه سياسته التي اتبعها في مصر والتي تتمثل في التضييق على أهل الحجاز ومحاصرتهم اقتصادياً كما فعل العزيز من قبل فيثورون على أبي الفتوح .

- الإتجاه الثاني في الحجاز نفسه :

بعد أن ضيق الحاكم على أهل الحجاز ومنع عنهم الميرة وأوقف الأموال والصلات التي كانت ترسل إليهم من مصر سنوياً مع ركب الحاج حتى أصبحوا في ضيق شديد قام بعزل أبي الفتوح الحسن بن جعفر الحسني وتولية ابن عمه أبا الطيب الحسني على الحرمين مكانه(١) وبعث إليه خمسين ألف دينار كمساعدة مالية له(٢) كما أنفذ أموالاً كثيرة لشيوخ بني الحسن بالحجاز(٣) حتى يضمن ولاءهم له والتخلي عن طاعة أبي الفتوح ، وقد تمكن الحاكم من استمالتهم إلى جانبه .

- الإتجاه الثالث مع آل الجراح :

لما استمال الحاكم أشراف الحجاز اتجه إلى بني الجراح وأرسل إليهم ليستميلهم إلى جانبه(٤) ، ويعدهم الأموال الكثيرة(٥) ويهون على حسان بن المفرج قتل ياروخ(٦) وطلب منهم أن يتخلوا عن مناصرة أبي الفتوح ، ويخلوا بينه وبين الحاكم(٧) وترددت الرسل بينهما حتى تقرر أن يدفع الحاكم إلى حسان بن المفرج خمسين ألف دينار عيناً ، ولكل واحد من

---

(١) هو أبو الطيب بن عبد الرحمن بن قاسم بن أبي الفاتك بن داود بن سليمان بن عبد الله بن موسى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب (الفاسي : شفاء الغرام ج٢ ص١٩٥) .

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ج١١ ص٣٠٩ .

(٣) الفاسي : شفاء الغرام ج٢ ص١٩٥ ، الجزيري : درر الفرائد ج١ ص٥٣٧ .

(٤) عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج١ ص٤٨٩ .

(٥) Gerald de Gaury : Rulers of Mecca. p. 60

(٦) عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج١ ص٤٨٥ .

(٧) دحلان : خلاصة الكلام ص١٧ .

إخوته مثل ذلك ، سوى الهدايا والثياب ، وأرسل لهم الحاكم كل ما أرادوا فمالوا عن أبي الفتوح ، ودخلوا في طاعة الحاكم[(١)] .

وبذلك استطاع الحاكم بمكره ودهائه استمالة آل الجراح أيضاً حتى تخلوا عن أبي الفتوح .

استسلام أبي الفتوح واعتذاره للحاكم :

أدرك أبو الفتوح أن الحاكم نجح في استمالة بني الجراح إلى جانبه[(٢)] ، وعلم بما حدث في مكة فأسرع إلى الوزير أبي القاسم طالباً النصح والمشورة كي يعود إلى مكة قائلاً له . «أغويتني وأخرجتني إلى هؤلاء ينفقون سوقهم بي عند الحاكم ، ويبيعونني بيعاً بالدراهم ، فيجب عليك أن تخلصني كما أوقعتني ، وتسهل سبيلي بالعودة إلى الحجاز ، فإنني راض من الغنيمة بالإياب »[(٣)] فطلب منه أبو القاسم أن يمهله حتى يفكر في طريقة لخلاصه ، فلما طال الأمر عليه ، ولم يجد منه حلاً لمشكلته ذهب إلى المفرج بن الجراح والد حسان وطلب منه أن يعيده إلى مكة[(٤)] فاستجاب له مفرج وأرسل معه جماعة لم يزالوا معه حتى بلغ مكة[(٥)] فتلقاه أصحابه[(٦)] في شهر ربيع الآخر سنة ٤٠٣هـ[(٧)] وبعد ان استقر أبو الفتوح بين أهله في مكة كتب إلى الحاكم يعتذر له عما بدر منه[(٨)] ويطلب الدخول في طاعته فقبل الحاكم عذره وعفا عنه[(٩)] .

---

(١) الفاسي : العقد الثمين ج٤ ص٧٤

(٢) دحلان : خلاصة الكلام ص١٧ .

(٣) عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج١ ص٤٨٥- ٤٨٦ .

(٤) عمر بن فهد : إتحاف الورى ج٢ ص٤٤٠ .

(٥) المصدر السابق .

(٦) عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج١ ص٤٨٦ .

(٧) الفاسي : شفاء الغرام ج٢ ص١٩٥ ، المقريزي : اتعاظ الحنفا ج٢ ص٩٥ .

(٨) الجزيري : درر الفرائد ج١ ص٥٣٨ .

(٩) عمر بن فهد : إتحاف الورى ج٢ ص٤٤٠ ، ابن فضل الطبري : اتحاف فضلاء الزمن لوحة (١٠) ، ابن عبدالقادر الطبري : الأرج المسكي لوحة (١٦٠) .

والحقيقة أن الحاكم كان يعلم أن خروج أبي الفتوح تم بسبب تحريض آل الجراح والوزير أبي القاسم المغربي فلم يتخذ موقفاً تجاه أبي الفتوح وإنما شرع ينتقم من آل الجراح فأرسل قوة عسكرية بقيادة علي بن جعفر بن فلاح الذي قصد الرملة سنة ٤٠٤هـ / ١٠١٣م وفاجأ آل الجراح فهزمهم واستولى على أموالهم وذخائرهم وحصونهم[١] ، وفر أبو القاسم المغربي إلى الموصل[٢] وهكذا استطاع الحاكم القضاء على الفتنة وأعاد الحجاز إلى السيادة الفاطمية مرة أخرى .

- ***عودة الحجاز للسيادة الفاطمية :***

لم يحاول الأمير أبو الفتوح الحسن بن جعفر الحسني بعد عودته إلى مكة الخروج على طاعة الفاطميين بل احتفظ بسيادتهم على هذا البلد المقدس واستمر يقيم الخطبة للحاكم بأمر الله الخليفة الفاطمي[٣] وضرب السكة باسمه[٤] ثم قام بزيارة ودية إلى مصر كي يعيد ما انقطع من روابط الود والإخاء بينه وبين الحاكم ، وليؤكد له إخلاصه وولاءه الكامل ، وقد سعد الحاكم بهذه الزيارة فأنعم عليه وأمر له بالخلع والهدايا[٥] وعاد أبو الفتوح إلى مكة ، وقد رضي الحاكم عنه وظل يدعو للفاطميين على منابر الحجاز ، فلما توفي الحاكم سنة ٤١١هـ / ١٠٢٠م[٦] استمر أبو الفتوح يخطب لمن جاء بعده ، فقد ذكر القلقشندي : أنه خطب للظاهر ابن الحاكم سنة ٤١٢هـ بمكة[٧] وهدأت الأحوال في الحجاز إلى أن وقعت فتنة كبيرة بمكة قتل فيها كثير من الحجاج المصريين .

---

(١) ابن خلدون : العبر ج٤ ص٧٣ .

(٢) المصدر السابق ص٦٣١ .

(٣) جمال سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ص٢٧ .

(٤) المقريزي : كتاب المقفي الكبير ص٤٣١ - اتعاظ الحنفا ج٢ ص٩٥ .

(٥) عبد المنعم ماجد : الحاكم بأمر الله - الخليفة المفترى عليه - ص١٥٣ - القاهرة سنة ١٩٥٩م .

(٦) المقريزي : اتعاظ الحنفا ج٢ ص١١٥ .

(٧) القلقشندي : صبح الأعشى ج٤ ص٢٦٩ .

وقد روى كثير من المؤرخين أحداث هذه الفتنة فقالوا : في سنة ٤١٣هـ[١] يوم الجمعة ، يوم النفر الأول قبل عودة الحجاج من منى ، وبعد فراغ الإمام من الصلاة أقبل رجل من المصريين أحمر اللون أشقر الشعر تام الخلقة جسيماً طويلاً يمسك باحدى يديه سيفاً وبالأخرى دبوسًا وقصد الحجر الأسود كأنه يستلمه فضرب وجه الحجر في وسطه ثلاث ضربات متوالية بالدبوس[٢] وهو يقول : إلى متى يعبد الحجر الأسود ومحمد وعلي ، فليمنعني مانع مما أفعله اليوم[٣] ، فاتقاه أكثر الحاضرين ، وتراجعوا عنه خوفاً ، فهجم عليه رجل ، وطعنه بخنجر فقتله ، وقطعه الناس وأحرقوه[٤] ، وقتل ممن اتهم بمصاحبته جماعة وأحرقوا وثارت الفتنة ، وكان القتلى أكثر من عشرين رحلاً ، وأقبل الناس في ذلك اليوم على المغاربة والمصريين بالقتل والنهب والسلب ، فأسرع أبو الفتوح أمير مكة وأطفأ الفتنة المشتعلة ورد الناس عن المصريين ، ودافع عنهم وأمنهم[٥] .

ومما لاشك فيه أن هذه الفتنة كانت نتيجة مؤامرة مدبرة للوقيعة بين المصريين والحجازيين فقد سارع الخليفة الظاهر باستنكار هذا الحادث و التبرؤ من مرتكبه ، وبين أنه من أهل البصره ، وليس من المصريين ، وذلك من خلال كتابه الذي نقله ابن تغري بردي عن هلال الصابي وجاء فيه «...رجل من أهل البصره أهوج أثول ضال مضل سار مع الحجيج إلى مكة -حرسها الله- فرقاً من وقع الحسام وتستراً بالحج إلى بيت الله الحرام ، فلما وصل في البيت المفضل المعظم ، والمحل المقدس المكرم أعلن بالكفر وما كان يخفيه من المكر ، وحمله تسمم في عقله على قصد الحجر الأسود حتى قصده وضربه بدبوس ضربات متواليات ، أطار منه شظايا وصلت بعد ذلك ،

---

(١) ابن عبد القادر الطبري : الأرج المسكي لوحة (٤٥) ، الجزيري : درر الفرائد ج١ ص٥٤١ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج٨ ص١٤١ ، عمر بن فهد : اتحاف الورى ج٢ ص٤٤٨ ، الجريري : درر الفرائد ج١ ص٥٤١ .

(٣) الفاسي : شفاء الغرام ج٢ ص٢٢٤- ٢٢٥ .

(٤) عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج١ ص٤٩٣ .

(٥) ابن عبد القادر الطبري : الأرج المسكي : لوحة (٤٥) ، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج٤ ص٢٤٨.

ثم إن هذا الكافر عوجل بالقتل على أسوأ حاله ، وأضل أعماله ، وألحق بأمثاله من الكفرة الواردين موارد ضلاله ؛ ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم ، ولعمري إن هذه لمصيبة في الإسلام قادحة ونكاية فادحة فإنا لله وإنا إليه راجعون ، لقد ارتقى هذا الملعون مرتقى عظيماً ومقاماً جسيماً أذكر ما كان أقدم عليه غلام ثقيف المعروف بالحجاج – لعنه الله – من إحراق البيت وهدمه ، وإزالة بنيانه وردمه »[١] .

وقد ذكر ابن تغري بردي أن الكتاب كتب في سنة ٤١٤هـ / ١٠٢٣م[٢] ، ويبدو أن هذه الرسالة قد أرسلت نسخة منها مع أبي القاسم بن رزق البغدادي الذي أرسله الخليفة الظاهر إلى الحجاز في رجب من نفس العام[٣] لإصلاح الأمور وتهدئة النفوس ، ومما لا شك فيه أن هذه الزيارة قد أعطت نتائجها المرجوة ، إذ ورد في السادس عشر من صفر سنة ٤١٥هـ الخبر من أبي الفتوح الحسن بن جعفر الحسني أنه أقام الدعوة للظاهر بعرفات وغيرها[٤] .

ولولا هذه الرسالة التي نفت عن المصريين الاتهام بضرب الحجر الأسود لاستطاع الأشراف الغاضبون التأثير على أبي الفتوح كي يتخذ موقفاً عدائياً من مصر ؛ بل إن هذه الرسالة أطفأت النار المشتعلة في قلوب الحجازيين ، وأتت بنتائج طيبة فقد أكرم أهل الحجاز المصريين في الموسم التالي لعلمهم أنهم ظلموا في الموسم السابق ؛ لدرجة أن بعض المصريين الذين لم يذهبوا لتأدية فريضة الحج هذا العام خوفاً من الحجازيين ندموا ، ولاموا أنفسهم ، وقد روى المسبحي ذلك بقوله : « وفي مصر تواترت الأخبار بما صنعه حسن بن جعفر بمكة من إقامة الدعوة لأمير المؤمنين عليه السلام بعرفات ، وبسائر المقامات الشريفة وتنكيسه رايات خراسان ومنعه لأهلها من الدعوة لصاحبها ، وأنه لم يشاهد حج أهنى من هذه السنة ولا أكثر فائدة للتجار بها وندم من عاد من حجاج المصريين ، ومن لم يسر إلى مكة بحيث لا ينتفع

(١) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج٤ ص٢٤٨ – ٢٥٠ .
(٢) المصدر السابق ص٢٤٨ .
(٣) المسبحي : أخبار مصر ص٣٣ ، المقريزي : اتعاظ الحنفا ج٢ ص١٣٥ .
(٤) المقريزي : اتعاظ الحنفا ج٢ ص١٣٩ .

بنــــدمه»[١] .

ثم اضطربت الأحوال في مصر سنة ٤١٥هـ / ١٠٢٥م[٢] في عهد الخليفة الفاطمي الظاهر فارتفعت الأسعار واشتد الغلاء وبلغ بالناس الجهد[٣] .

ويبدو أن آثار هذه الشدة قد امتدت إلى الحجاز فارتفعت فيه الأسعار وزاد الغلاء وتعذر الطعام[٤] وانشغلت مصر بمعالجة هذه الأزمة ولم ترسل إلى الحجاز المساعدات المالية التي كانت ترسلها كل عام ، كما توقف الحج في هذا العام نتيجة لهذه الشدة[٥] فاضطر أبو الفتوح الحسن ابن جعفر إلى إرسال وفد من أشراف الحجاز لطلب العون والمساعدة لكن الوفد لم يستطع مقابلة أحد سوى القائد معضاد[٦] الذي طلب منهم مقابلة الشيوخ الذين يجلسون بحضرة الخليفة لعرض الموضوع عليهم[٧] فلما لقوا الشيوخ لم يستمعوا لهم وأعادوهم إلى معضاد فأحس الوفد الحجازي عدم الاهتمام به وانشغال رجال الدولة عنه ، وصاروا كما قال المقريزي : « يدفعهم هذا إلى هذا »[٨] مما جعلهم ينادون في القصر : « يا قوم جئناكم وفارقنا أولادنا وأهلينا ، وقد

---

(١) المسبحي : أخبار مصر ص٤٤ .

(٢) المقريزي : اتعاظ الحنفا ج٢ ص١٦٤ .

(٣) كان الخليفة الفاطمي الظاهر قد انهمك في اللهو والترف وحب الغناء وترك أمور الدولة لأربعة من الرجال هم الشريف الكبير العجمي ، والشيخ نجيب الدولة الجرجرائي والشيخ العميد محسن بن دبوس والقائد معضاد فلم يهتموا بتوفير الغذاء للناس فارتفعت الأسعار ، واشتد الغلاء وطمع حسان بن الجراح في الإغارة على مصر فأرسل ألف فارس إلى الفرما ففر الناس منها إلى تنيس بالمراكب وأخذ الناس في التحفظ على أموالهم وفقد القمح والدقيق والخبز وارتفعت الأسعار وصرخ الناس في وجه الخليفة الظاهر الجوع يا أمير المؤمنين ، لم يصنع بنا هكذا أبوك أو جدك فالله الله في أمرنا (المقريزي : اتعاظ ج٢ ص١٦٤- ١٦٦ ، الخطط ج١ ص٣٥٤) .

(٤) المسبحي : أخبار مصر في سنتين ص١٨٧ .

(٥) المقريزي : اتعاظ الحنفا ج٢ ص١٦٥ .

(٦) المسبحي : أخبار مصر في سنتين ص١٩٢ .

(٧) المقريزي . اتعاظ الحنفا ج٢ ص١٦٤ .

(٨) المصدر السابق .

هلكنا من الجوع فإن يكن ليس لكم بإقامة الدعوة بمكة والمدينة حاجة فاصرفونا فإنا قد بذل لنا الرغائب في إقامة الدعوة لغير إمامكم بالحجاز ، فلم نأخذها ، ولم نجب إليها ، ونريد إنساناً يكلمنا ونكلمه »[١] .

والحقيقة أن الوفد الحجازي أراد أن يؤكد للمصريين أنهم باقون على العهد وصدق الولاء للفاطميين على الرغم من حرص العباسيين على استمالتهم .

وبالرغم من تلك الشدة التي كانت مصر تعانيها فقد بعث إليهم جمال الدولة مظفر الصقلبى صاحب المظلة ألف دينار من ماله ، فقالوا له : لا نأخذ إلا ما يصلنا به أمير المؤمنين ، لكنهم عادوا وأخذوها منه ، وقد ذكر المقريزي أنهم فرقوها على العبيد والضعفاء وكانوا خمسمائة نفس ، أخذ كل واحد منهم دينارين[٢] .

وفي نفس الوقت أراد الوفد الحجازي العودة إلى الحجاز فمنعوا وأشير عليهم بالبقاء في مصر إلى انتهاء موسم الحج[٣] وأمر الخليفة الظاهر بإعطائهم ألف دينار يصرفونها في أمورهم[٤] ، وأمرت أم الخليفة بمنحهم بعض الأموال من عندها[٥] .

ولعل الفاطميين أرادوا استبقاء الوفد الحجازي بمصر حتى تستكمل نفقاتهم ، إلا أنهم لم يستطيعوا إعطاءهم نفقاتهم كاملة مثل الأعوام السابقة ، فقد روي المسبحي أن الوفد الحسني اتجه من مصر إلى مكة بعد حصولهم على نصف المعونات المالية المقررة لهم من قبل الفاطميين إلا أبا الفتوح الحسن بن جعفر الحسني فقد أجلت مخصصاته المالية ووعد المسئولون أنها سوف ترسل إليه بحراً فسار رجال الوفد الحجازي وهم ساخطون غير راضين[٦] .

---

(١) المسبحي : أخبار مصر في سنتين ص١٩٢ .

(٢) المقريزي : اتعاظ الحنفا ج٢ ص١٦٤ .

(٣) المسبحي : أخبار مصر في سنتين ص١٩٩ .

(٤) المصدر السابق .

(٥) المقريزي : اتعاظ الحنفا ج٢ ص١٦٦ .

(٦) المسبحي : أخبار مصر في سنتين ص٢٠٧ .

ومع ذلك فقد استمر النفوذ الفاطمي في الحجاز قوياً لأن الحجازيين كانوا يعلمون أن كل ما حدث هو نتاج الشدة التي كان المصريون يعانون منها ، وحين انفرجت الأزمة لم يتأخر الفاطميون عن إعطاء الحجاز ما يحتاجه فقد تصدق الخليفة الظاهر على أهل الحجاز بأربعين ألف دينار سنة ٤١٧هـ / ١٠٢٦م بعد أن شفي من مرضه ، فقد ذكر المقريزي أنه في هذا العام « سقط الظاهر عن فرسه وأرجف بموته ثم عوفي فتصدق بمائة ألف دينار حمل منها إلى مكة والمدينة أربعون ألف دينار ، وإلى بلاد الشام عشرون ألف دينار ، وإلى بلاد المغرب عشرون ألف دينار ، وفرق بمصر عشرون ألف دينار »[١] .

ومن هنا نجد أن الحجازيين قد أخذوا من هذا المبلغ ضعف ما أخذته البلدان الأخرى بما فيها مصر .

وقد استمرت العلاقات بين أبي الفتوح الحسني والفاطميين طيبة بعد وفاة الظاهر ، فقد خطب بمكة سنة ٤٢٧هـ / ١٠٣٦م لابنه المستنصر،[٢] وظل أبو الفتوح على ولائه للفاطميين إلى أن توفي سنة ٤٣٠هـ[٣] وخلفه ابنه شكر الملقب بتاج المعالى[٤] وكان في مثل بأس أبيه وشجاعته ، حارب بني الحسين أصحاب المدينة عندما أرادوا الخروج عن طاعته فانتصر

(١) المقريزي : اتعاظ الحنفا ج٢ ص١٧٥ .

(٢) ابن خلدون : العبر ج٤ ص١٣١ ، العصامي المكي : سمط النجوم العوالي ج٤ ص١٩٨ .

(٣) في عهد أبي الفتوح كان يتولى إمارة المدينة المنورة الحسين بن طاهر الحسيني غير أن صهره وابن عم أبيه داود بن أحمد القاسم بن عبد الله بن طاهر لم يلبث أن غلبه على إمارتها واستقل بإمارة المدينة سنة ٣٩٧هـ وظل يتولاها إلى أن توفي وخلفه على التوالي ولداه هاني ومهنا حتى سنة ٤٠٨هـ ثم عبيدالله ابن مهنا بن داود ، ثم أخوه الحسين بن مهنا بن داود ثم تولى بعد ابنه مهنا بن الحسين بن داود ، ثم ابنه الحسين بن مهنا بن الحسين ، ويذكر القلقشندي أنه في سنة ٤٢٨هـ تولى إمارة المدينة المنورة هاشم ابن الحسن بن داود من قبل الخليفة المستنصر الفاطمي وخطب له فيها (القلقشندي : صبح الأعشى ج٤ ص٢٩٩ ، ابن خلدون : العبر ج٤ ص١٤٠)

(٤) ابن الأثير . الكامل في التاريخ ج٨ ص٢٣١ ، دحلان · خلاصة الكلام ص١٧ .

عليهم[١] وملك المدينة وجمع الحرمين الشريفين تحت إمارته مدة ثلاث وعشرين سنة[٢] وظل على ولائه وصلاته الطيبة بالفاطميين طوال عهده .

وقد مرت الحجاز في أيام شكر بن أبي الفتوح الحسني بضائقة اقتصادية شديدة استمرت مدة عامين ابتداء من سنة ٤٣٩هـ - ٤٤٠هـ / ١٠٤٧ - ١٠٤٨م فلم يتوان الخليفة الفاطمي المستنصر عن مساعدتهم في هذه المحنة[٣] لكنه منع المصريين من تأدية فريضة الحج في سنة ٤٣٩هـ خوفاً عليهم من السلب والنهب بإصدار المرسوم التالي : « يقول أمير المؤمنين إنه ليس من الخير أن يسافر الحجاج للحجاز هذا العام فإن به قحطاً وضيقاً وقد هلك به خلق كثيرون ، وإني أقول هذا شفقة بالمسلمين »[٤] .

واشتد القحط والجدب بمكة وارتفعت الأسعار بها فهاجر المجاورون منها وكثير من أهلها واتجه بعضهم صوب مصر، وقد أحصى الرحالة ناصر خسرو عددهم خمسة وثلاثين ألف إنسان كساهم الخليفة المستنصر ، وأجرى عليهم الرزق سنة كاملة ، وأغدق عليهم الصلات ، ثم أمر بترحيلهم إلى بلادهم معززين مكرمين[٥] .

ويبين الرحالة ناصر خسرو أن القحط استمر بالحجاز إلى سنة ٤٤٠هـ / ١٠٤٨م وأن الخليفة المستنصر الفاطمي منع الحجاج من السفر إلى مكة في هذا العام أيضاً خوفاً عليهم إذ أصدر في شهر رجب سجلاً يوضح أن في الحجاز قحطاً وليس من الخير أن يسافر الحجاج إلى مكة ، إلا أنه لم يقصر في إرسال ما كان يرسله كل سنة من الكسوة وأجور الخدم والحاشية وأمراء مكة والمدينة ، وصلة أمير مكة التى كانت ثلاثة آلاف دينار في الشهر ، بالإضافة إلى

---

(١) العصامي المكي : سمط النجوم العوالى ج٤ ص١٩٨ ، أحمد السباعي : تاريخ مكة ج١ ص٢٠٠ .
(٢) ابن خلدون : العبر ج٤ ص١٣١ ، العصامي : سمط النجوم ج٤ ص١٩٨ .
(٣) ناصر خسرو : سفر نامه ص١١٠ .
(٤) المصدر السابق .
(٥) المصدر السابق ص١١٢ .

الخلع والخيول التي كانت ترسل إليه مرتين في السنة[١] .

وقد ذهب ناصر خسرو مع الوفد المصري وقام بتأدية فريضة الحج[٢] ثم عاد مرة أخرى بصحبة أمير مكة تاج المعالي شكر بن أبي الفتوح الحسني الذي جاء إلى مصر في زيارة ودية[٣] ، ويبدو أنه جاء لتقديم الشكر والولاء للخليفة الفاطمي على ما أرسله لبلاده ، وليس للحصول على الرسم المقرر له كما ذكر ناصر خسرو[٤] ، إذ من المرجح أن صلته قد أعطاها له الوفد المصري كالعادة حين وصل إلى مكة .

استمر الأمير تاج المعالي شكر بن أبي الفتوح الحسني مخلصاً في ولائه للفاطميين حتى توفي سنة ٤٥٣هـ / ١٠٦١م[٥] وكان الحاج العراقي قد منع في عهده عدة سنوات لسوء صلته بالعباسيين[٦] .



(١) ناصر خسرو : سفر نامه ص ١١٢ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) المصدر السابق ص١١٣ .

(٤) المصدر السابق .

(٥) ابن فضل الطبري : إتحاف فضلاء الزمن لوحة (١٢) .

(٦) أحمد السباعي : تاريخ مكة ج١ ص٢٠١ .

الفصل الثالث

ضعف النفوذ الفاطمي في الحجاز

الفصل الثالث

ضعف النفوذ الفاطمي بالحجاز

مدخل :

بدأ الضعف يتطرق إلى النفوذ الفاطمي في الحجاز منذ عهد الخليفة الفاطمي المستنصر بالله إذ تعد فترة خلافته (٤٢٧ – ٤٨٧هـ / ١٠٣٥ – ١٠٩٤م) حداً فاصلاً بين عهد الخلفاء الأقوياء وعهد الوزراء العظام ، ففي أثنائها نقلت السلطة الفاطمية نهائياً من أيدي الخلفاء إلى أيدي الوزراء وجاء ما يعرف في التاريخ الفاطمي بعصر الوزراء العظام .

فقد تولى المستنصر الخلافة ولم يستطع أن يستخلص صلاحياته من براثن الوزراء ورجال الإدارة والجيش الذي قوي نفوذ قادته بفرقه المتعددة الأجناس والمشارب من المغاربة والأتراك والديلم والعرب والسودان ، ولم تلبث هذه العناصر أن ثارت على بعضها فحدثت الفتن والاضطرابات ، ثم نقص النيل عام ٤٥٧هـ / ١٠٦٥م وهو بداية ما عرف بالشدة العظمى التي استمرت مدة سبع سنين نتيجة اضطراب أحوال البلاد فتفاقم الوضع وأهملت الزراعة ونقص الغذاء وارتفعت الأسعار وانتشرت المجاعة ، وتأثرت إمدادات الغلال التي كان الفاطميون يرسلونها إلى الحجاز كل عام وقل مقدارها مما ترتب عليه قطع الخطبة للفاطميين سنة ٤٥٨هـ والدعوة للعباسيين الذين انتهزوا الفرصة فتقربوا لأشراف الحجاز وقدموا لهم الأموال الكثيرة.

ومما لا شك فيه أن عدم استقرار الأمور في مصر في العصر الفاطمي الثاني الذي تميز بازدياد نفوذ الوزراء واستئثارهم بالسلطة دون الخلفاء شجع العباسيين في ذلك الوقت على نشر نفوذهم في كل من مكة والمدينة ، واشتد التنافس بينهم وبين الفاطميين على بسط سيادتهم على الأراضي المقدسة واستمر هذا الوضع حتى نهاية الدولة الفاطمية .

وهذا الفصل سوف يعرض لقيام دولة الهواشم بمكة ، وعلاقاتهم بالفاطميين عقب الشدة العظمى وأثر هذه الشدة في ضعف النفوذ الفاطمي وازدياد النفوذ العباسي ثم التنافس بين الخلافتين العباسية والفاطمية من أجل السيطرة على الحجاز .

- *قيام أسرة الهواشم بمكة :*

لما توفي تاج المعالي شكر بن أبي الفتوح الحسني آخر أمراء بني جعفر الحسنيين سنة ٤٥٣هـ / ١٠٦١م[١] ولم ينجب أولاداً يخلفونه في الحكم[٢] إذ لم يكن له إلا بنتاً يقال لها تاج الملوك[٣] أسرع عبد له يسمى طراد بن أحمد[٤] فاستولى على الحكم خلفاً له وكان رجلاً شجاعاً مقداماً[٥] .

ولعل من الغريب أن يتولى الحكم في مكة أحد العبيد رغم كثرة الأشراف فيها ، لكنهم في ذلك الوقت كانوا منقسمين على أنفسهم ومختلفين مع بعضهم بعضاً[٦] مما يسر له أمر الاستيلاء على حكم مكة .

لم يدم حكم العبد طراد بن أحمد طويلاً ، إذ أسرع بنو أبي الطيب الحسنيين[٧] فقبضوا على زمام الأمور في البلاد ، وولوا أحدهم وهو محمد بن أبي الطيب بن عبد الرحمن[٨] لكنهم فشلوا في إدارة أمور البلاد إذ انتشر السلب والنهب وارتفعت الأسعار ، وساد الغلاء مما دفع أبو هاشم محمد بن جعفر الحسني زوج ابنة شكر بن أبي الفتوح آخر أمراء بني جعفر الحسنيين

(١) ابن فضل الطبري : إتحاف فضلاء الزمن لوحة (١٢) .
(٢) ابن طهيرة ٠ الجامع اللطيف ص٣٠٦ .
(٣) ابن عنبه : عمدة الطالب ص١٣٥ .
(٤) ابن خلدون العبر ج٤ ص١٣٢ .
(٥) المصدر السابق .
(٦) ابن عنبة : عمدة الطالب ص١٣٦ .
(٧) بنو أبي الطيب الحسنيين ينسبون إلى أبي الطيب بن عبد الرحمن بن قاسم بن أبي الفاتك بن داود بن سليمان بن عبد الله بن موسى بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، وهو الذي تولى حكم مكة من قبل الحاكم بأمر الله عقب خروج أبي الفتوح الحسن بن جعفر الحسني على الحاكم سنة ٤٠١هـ (الفاسي : شفاء الغرام ج٢ ص١٩٥) .
(٨) دحلان ٠ خلاصة الكلام ص١٧ - ١٨ .

إلى الخروج عليهم فاقتتلوا سنة ٤٥٤هـ / ١٠٦٢م فانتصر أبو هاشم الحسني عليهم ، وطردهم عن الحجاز فصاروا إلى اليمن[١] وقد أخذوا ميزاب الكعبة وكسوتها[٢] ونهبوا حلية البيت الحرام[٣] واستقل الأمير محمد بن جعفر الحسني[٤] بإمارة مكة وخطب للمستنصر الفاطمي[٥] وإلى أبي هاشم تنسب أسرة الهواشم .

---

(١) ابن خلدون : العبر ج٤ ص١٣٢ .

(٢) عمر بن فهد : إتحاف الورى ج٢ ص٤٦٨ .

(٣) المقريزي : اتعاظ الحنفا ج٢ ص٢٦٩ وفي الحاشية أن صاحب مكة بعد سنتي ٤٥٣هـ ، ٤٦١هـ هو حمزة بن وحاش بن أبي الطيب داود وخلفه سنة ٤٦١ والياً إلى سنة ٤٨٧هـ أبو هاشم محمد بن جعفر نقلاً عن ابن الأثير: الكامل – ابن خلدون : العبر – زامباور : معجم الأنساب ، والحقيقة أن زامباور انفرد بذلك دون بقية المؤرخين ، أما ابن الأثير فبتتبع رواياته عن السنين من ٤٥٣هـ إلى ٤٦١هـ لم نجد ذكراً لحمزة بن وحاش ، أما ابن خلدون فيذكر أن أبا هاشم استقل بإمارة مكة عقب انتصاره على بني سليمان سنة ٤٥٤هـ وقد تابعه في ذلك كثير من المؤرخين (انظر : ابن خلدون : العبر ج٤ ص١٣٢ ، زامباور : معجم الأنساب ص٣١ ، الفاسي : شفاء الغرام ج٢ ص١٩٦ ، العقد الثمين ج١ ص٤٤١ ، عمر بن فهد : إتحاف الورى ج٢ ص٤٦٩ ، ابن عنبه : عمدة الطالب ص١٣٦ ، عبد العزيز بن فهد . غاية المرام ج١ ص٥١٠ – المقريزي : اتعاظ الحنفاج٢ حاشية ٣٠٤) .

(٤) هو محمد بن جعفر بن محمد بن عبد الله بن أبي هاشم بن محمد بن الحسين بن محمد بن موسى بن عبد الله بن موسى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب .

(انظر : الفاسي : العقد الثمين ج١ ص٤٣٩ – شفاء الغرام ج٢ ص١٩٦ ، ابن عنبه عمدة الطالب ص١٣٦ ، ابن فضل الطبري : إتحاف فضلاء الزمن لوحة (١٢) ، عمر بن فهد اتحاف الورى ج٢ ص٤٦٨ ، دحلان : تاريخ الدول الإسلامية بالجداول المرضية ورقة « ١٤٠ ») .

(٥) ابن خلدون : العبر ج٤ ص١٣٢ .

النفوذ اليمني في عهد أبي هاشم :

لم يستطع أبو هاشم الحسني أن يفرض الأمن والنظام بمكة مما دعا الخليفة المستنصر أن يطلب من علي بن محمد الصليحي[(١)] داعيته باليمن أن يذهب بجيشه إلى مكة ليساعد أميرها في ضبط الأمور بها ، فقد روى كثير من المؤرخين أن علي بن محمد الصليحي صاحب اليمن قد زحف إلى مكة في السادس من ذي الحجة سنة ٤٥٥هـ / ١٠٦٣م وملكها وقام بأعمال طيبة فيها ، فأظهر العدل والإحسان ، وضرب على أيدي المفسدين فسعدت به قلوب الناس[(٢)] ، وصارالحجاج يشعرون بالأمن والاطمئنان،[(٣)] فكان الناس يعتمرون ليلاً ونهاراً ، وأموالهم محفوظة ، ورجالهم محروسة ، وأخذ يجلب الأقوات والسلع إلى مكة فرخصت الأسعار وانتشرت له الألسنة بالشكر ، وكثرت له الأدعية[(٤)] وكسا البيت ثياباً بيضاء من الديباج ورد إلى البيت من الحلي ما كان بنو أبي الطيب الحسنيون قد أخذوه عندما ملكوا مكة بعد شكر ابن أبي الفتوح الحسني وحملوه إلى اليمن فاشتراه منهم وأعاده[(٥)] ، ودخل البيت ومعه زوجته «الحرة الكاملة» ، وكان يخطب لها على المنابر معه ، وقد أقام الدعوة للفاطميين بمكة فصار أشراف مكة يخطبون للمستنصر بها ومن بعده للصليحي ثم زوجته الحرة فيقال : اللهم أدم أيام الحرة الكاملة السيدة كافلة المؤمنين[(٦)] .

---

(١) هو علي بن محمد الصليحي وكنيته أبو الحسن بن محمد ، وكان أبوه قاضياً في اليمن سني المذهب إلا أن علياً صاحب داعي اليمن عامر بن عبد الله الزواحي أحد دعاة الفاطميين ، ومال إلى مذهب التشيع حتى صار إماماً فيه فثار سنة ٤٢٩هـ باليمن حتى ملكه كله سهله وجبله ووعره وبره وبحره ، وكانت قاعدة ملكة صنعاء واستمر على حكم اليمن إلى أن قتل سنة ٤٥٩هـ في طريق مكة على يد سعيد الأحول بن نجاح (ابن ظافر : أخبار الدول المنقطعة ص٧١ - ٧٣ ، المقريزي : الذهب المسبوك ص٦٥ ، عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج١ ص٥٠٠ ، الفاسي : العقد الثمين ج٦ ص٢٢٨) .

(٢) عمر بن فهد : إتحاف الورى ج٢ ص٤٦٨ .

(٣) المقريزي : الذهب المسبوك ص٦٥ .

(٤) ابن الأثير . الكامل في التاريخ ج٨ ص٣٦٣ .

(٥) المقريزي : اتعاظ الحنفا ج٢ ص٢٦٨ - ٢٦٩ .

(٦) عمر بن فهد : إتحاف الورى ج٢ ص٤٦٨ .

استمر الصليحي يقيم الأمور بمكة إلى سنة ٤٥٦هـ / ١٠٦٤م[١] ويبدو أن أشراف مكة خشوا أن يظل الصليحي مقيماً بها فيقضي على آمالهم في الاستقلال بالحكم الذي بذلوا في سبيله الكثير فنسوا خلافاتهم ، وتجمعوا مقترحين عليه أن يخرج من مكة ويختار من الأشراف من يراه أهلاً للحكم والسيطرة على الأمور بها[٢] ولم يكن الصليحي ليختار غير محمد ابن جعفر الحسني الحاكم الفعلي لمكة والذي جاء لمناصرته فتركه نائباً عنه بها[٣] وأمره على الجماعة وأصلح بين العشائر واستخدم له العساكر وأعطاه مالاً وخمسين فرساً وسلاحاً حتى يقوي من نفوذه بمكة ثم تركه وعاد إلى اليمن[٤] .

وقد أرسل صاحب مكة رسالة إلى الخليفة الفاطمي المستنصر يبين فيها ما فعله معه الصليحي فأرسل المستنصر سجلاً إلى الصليحي يشكره فيها على معاونته لأمير مكة وفيه يقول : « ... وورد إلى حضرة أمير المؤمنين كتاب صاحب مكة - حرسها الله - يذكر أنك شددت معه حيازيم الجدّ ، بالتقوية من أمره والشدّ ، وشهرت في نصرته حساماً ماضي الحدّ حتى عاد جموح مراكب مراده ذلولاً ، وغرب من انتصر لعناده مغلولاً ، فاستقامت أحوال الحرم الشريف بمقارنة هجرتك لنصره ، وامتيار سحابه من بحرك ، وأفاض في ثناء جميل وشكر جزيل، أعجب أمير المؤمنين بهما فاهتز طرباً لهما ، فلقد كان على قلبه لأجل الحرم الشريف من الفكر ، ما يوفي على الذكر ، ولقد فعلت فعل الموفقين في المقال والفعال ، وحللت بما أتيت عقدة الاشكال وتعين عليك أن تكون أنت وإياه يداً واحدة ببذل المجهود فيما يرد ذلك المقام الشريف بالأمن والعمارة إلى أحسن المعهود »[٥] .

وقد ذكر بعض المؤرخين أن الصليحي اضطر للرجوع عن مكة لوباء أصاب جيشه فمات منهم سبعمائة رجل ، ولم يبق من أصحابه إلا نفر يسير ، ولأن الأشراف العلويين تجمعوا ضده

---

(١) ابن فضل الطبري : إتحاف فضلاء الزمن لوحة (١٢) .

(٢) عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج١ ص٥٠٩ .

(٣) المقريزي . اتعاظ الحنفا ج٢ ص٢٦٩ .

(٤) عمر بن فهد : إتحاف الورى ج٢ ص٤٦٩ .

(٥) عبد المنعم ماجد : السجلات المستنصرية سجل رقم (٣) ص٣٧ .

فخشي الوقوف أمامهم فاضطر للرحيل[١] .

والحقيقة أن الصليحي رحل عن مكة بعد أن تأكد من قوة أبي هاشم محمد بن جعفر الحسني وضمن ولاءه للمستنصر الفاطمي ، وبعد أن أمده بالعدد والعتاد اللازم[٢] واستقر أبو هاشم الحسني في مكة وأقام الدعوة للفاطميين[٣] تسانده الحامية الصليحية التي تركها له علي الصليحي .

الشدة العظمى في مصر وأثرها على النفوذ الفاطمي بالحجاز :

أصيبت مصر بمحنة شديدة في عهد الخليفة الفاطمي المستنصر سنة ٤٥٧هـ / ١٠٦٥م[٤] حيث عم الوباء والقحط ، وانقطع فيضان النيل فأهملت الزراعة ، وندر الطعام وانتشرت المجاعة تبعاً لذلك ، وامتدت تلك المحنة لمدة سبع سنين حتى قرنها المؤرخون بأيام القحط الذي استمر بمصر سبع سنوات متتالية زمن النبي يوسف عليه السلام[٥] وقد اصطلح المؤرخون على تسميتها « الشدة العظمى »[٦] .

وقد صاحبت هذه الشدة حالة من الفوضى الشاملة عمت البلاد بسبب اضطرابات الجند ومنازعاتهم ، فقد نشأت الخلافات بين الأتراك والعبيد ، وتمكن الأتراك من هزيمة العبيد واستفحل أمرهم ، وطالبوا بزيادة رواتبهم ، وألحوا في ذلك حتى خلت خزائن الدولة فأقضوا مضاجع الخليفة والوزراء وألجأوا الخليفة إلى بيع محتويات خزائنه لهم لأجل تسديد

---

(١) تقي الدين الفاسي : شفاء الغرام ج٢ ص١٩٦ ، عمر بن فهد : إتحاف الورى ج٢ ص٤٦٨ ، ابن فضل الطبري . اتحاف فضلاء الزمن لوحة (١٢) – أحمد السباعي : تاريخ مكة ج١ ص٢٠٢ .

(٢) عمر بن فهد : إتحاف الورى ج٢ ص٤٦٩ .

(٣) القلقشندي : صبح الأعشى ج٤ ص٢٧٠ .

(٤) المقريزي : إغاثة الأمة بكشف الغمة ص٢٤ .

(٥) ابن إياس : بدائع الزهور ج١ ق١ ص٢١٦ .

(٦) المقريزي : إغاثة الأمة حاشية ص٢٧ .

رواتبـــهم[١] .

وشلت نزاعات الجند يد الحكومة ، وأخلت بالأمن فنشط الأشرار وقطاع الطرق فتفاقم البلاء بالناس وعجز الفلاحون عن زراعة الأرض فنقص الغذاء وانتشرت المجاعة[٢] .

ولقد أثرت الشدة العظمى تأثيراً عميقاً على السياسة الخارجية للدولة الفاطمية ، ولا شك أن طبيعة الروابط السياسية والاقتصادية مع الحجاز كانت وراء تأثر ولاء مكة والمدينة للفاطميين - الذي يتمثل في الخطبة للخليفة الفاطمي في الحرمين- بأحداث الشدة العظمى.

وبدأ الاضطراب يسود علاقة الأراضي المقدسة بالخلافة الفاطمية منذ انقطاع ما ترسله مصر من معونة وأغذية للحجاز مع بداية هذه الشدة سنة ٤٥٧هـ / ١٠٦٥م مما ترتب عليه قطع الخطبة للفاطميين بمكة سنة ٤٥٨هـ / ١٠٦٦م والدعوة للعباسيين الذين بذلوا لأبي هاشم الحسني الأموال الكثيرة[٣] من أجل استعادة نفوذهم بالحجاز في الوقت الذي كانت فيه مصر تعاني من هذه الشدة .

ولما بلغ المستنصر ما فعله أبو هاشم محمد بن جعفر الحسني من إقامة الدعوة للعباسيين والخروج عن طاعة الفاطميين وطرد الحامية الصليحية إلى اليمن[٤] ، أرسل إلى علي بن محمد الصليحي يأمره بالزحف على مكة لإقامة الدعوة لهم[٥] .

---

(١) المقريزي : اتعاظ الحنفا ج٢ ص٢٧٦ - ٢٨٠ .

(٢) المصدر السابق ص٢٩٦ - ٢٩٧ .

(٣) ابن خلدون : العبر ج٤ ص١٣٢ ، القلقشندي · صبح الأعشى ج٤ ص٢٧٠ .

(٤) عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج١ ص٥١٢ ، العصامي : سمط النجوم ج٤ ص١٩٨ ، الفاسي : شفاء الغرام ج٢ ص١٩٧ ، ابن فضل الطبري : إتحاف فضلاء الزمن لوحة (١٣) ، ابن عبد القادر الطبري : الأرج المسكي لوحة (١٦٠) .

(٥) ابن خلدون : العبر ج٤ ص١٣٣

وفي يوم الإثنين السادس عشر من ذي القعدة سنة ٤٥٩هـ خرج الصليحي من اليمن لإخضاع شريف مكة الذي قطع الخطبة للفاطميين[١] وسار من صنعاء إلى الحجاز بعد أن أناب عنه ابنه أحمد المكرم[٢] .

ولعله أراد إرهاب أبي هاشم الحسني فخرج في ألفي فارس ، يتقدم موكبه الخاص خمسمائة فارس مطهمة محلاة بالسروج المفضضة والمذهبة ، وخمسون هجيناً مزينة ، وكان في الموكب مائة وستون فارساً من آل الصليحي ، لكن هذا الموكب الكبير لم يستطع الوصول إلى الحجاز حيث قابلهم في الطريق سعيد الأحول بن نجاح[٣] ومعه جمع كبير من أنصاره فقتل علي بن محمد الصليحي وهزم أنصاره ، واستولي على جميع ما في مخيمه من الأموال والـذخائر[٤] .

بعد مقتل علي بن محمد الصليحي ، ونتيجة لوم الأشراف لصاحبهم محمد بن جعفر الحسني أعاد الخطبة للفاطميين واستمرت حتى سنة ٤٦٢هـ / ٦٩ - ١٠٧٠م[٥] .

وقد ذكر كثير من المؤرخين أن الخليفة العباسي القائم بأمر الله خاطب الأمير محمد ابن جعفر الحسني وعاتبه وبذل له الأموال فخطب له هذا العام بموسم الحج فقط ، وكتب إلى

---

(١) العقيلي : تاريخ المخلاف السليماني ج١ ص١٥٦ .

(٢) وفي ذلك يقول شاعره عمرو بن يحيى الهيثمي من قصيدة طويلة :

ما لمـن فارق الأحـبة عذر	إن نهي دمعة عن الفيض صبر
إن سيف الإمام كالبحر ذي الموج	لـــه في البلاد مد وجذر
ولئـن سـاءنا فـراق علـى	فلنا في أبنه إذا مـا يسر
ذاك بحر سـقى به مـكة	الله وهذا لوفد صنـعاء بحر

(المصدر السابق) .

(٣) كان سعيد الأحول بن نجاح يعيش مع والده في زبيد حيث كان والده ملكاً على تهامة فهزمه علي الصليحي واستولىٰ على عموم تهامة وزبيد فأخذ سعيد يتحين الفرص حتى أخذ بثأره من الصليحي (المصدر السابق ص١٥٤) .

(٤) عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج١ ص٥٠٦ - ٥٠٧

(٥) عمر بن فهد . إتحاف الورى ج٢ ص٤٧١ .

الخليفة الفاطمي المستنصر معتذراً[١] .

ونلاحظ أنه باعتذاره أراد أن يبين للخليفة المستنصر أن دعوته للعباسيين إنما جاءت لضيق ذات اليد ، إذ لم يكن معه من الأموال ما يجعله يرفض الدعوة العباسية ، خاصة وأن الشدة العظمى في مصر كانت قد بلغت أقصاها في هذا العام[٢].

ويظهر أن الفاطميين قد قطعوا عن صاحب مكة بقية الإعانات التي كانوا يمدونه بها مضطرين بسبب الشدة التي حلت بالبلاد آنذاك فضاقت عليه الحال ، واحتاج إلى ما ينفقه فأخذ الذهب من أستار الكعبة وصفائح الباب والميزاب وضربه دراهم ودنانير ، وكذلك فعل صاحب المدينة بالقناديل التي في الحجرة النبوية الشريفة[٣] .

وما كان المستنصر ليقصر في شيء فيما يتعلق بأشراف الحجاز لأهميته للفاطميين لكن الظروف المحيطة به في تلك الفترة جعلته عاجزاً عن الوفاء بمستلزمات قصره ، لذا فقد أرسل إلى المكرم الصليحي الذي تولى حكم اليمن عقب مقتل والده الصليحي يطلب منه إمداد أهل الحجاز بما يحتاجون لكنه تأخر عنهم فأرسل إليه مرة أخرى يقول له : « كان قد نفذ إليك من حضرة أمير المؤمنين سجل مفرد فيما يتعلق بالحرمين المحروسين ، وإعلامك أن الحوادث الشاغلة للصدور القاضية باختلاف كلمة الجمهور، صدت عن سوق رسومها ورسوم أرباب الرسوم بها إليهم وأن تأخرها أضر بهم وكبر عليهم ، ورسم أمير المؤمنين لك أن تلمظهم بنفقة من عندك يتمززون بها إلى حين وقوع الإمكان من حمل رسومهم إليهم ؛ ولقد جدد أمير المؤمنين الإذكار لك في سجله هذا بحمل عشرة آلاف دينار إليهم لتنفق على الحرمين المحروسين وأرباب الرسوم لكل على قدره وإشعارهم بكون ذلك محمولاً بأمر أمير المؤمنين »[٤] .

---

(١) ابن خلدون : العبر ج٤ ص١٣٢ - ١٣٣ ، الجزيري . درر الفرائد ج٢ ص١٥٢٦ ، القلقشندي : صبح الأعشى ج٤ ص٢٧٠ ، العصامي : سمط النجوم ج٤ ص١٩٩ .

(٢) المقريزي اتعاظ الحنفا ج٢ ص٣ ٣ .

(٣) ابن عبد القادر الطبري : الأرج المسكي لوحة (١٦٠) ، ابن تعري بردي . النجوم الزاهرة ج٥ ص١٩ - ٢٠ ، العصامي المكي : سمط النحوم العوالي ج٣ ص٤٣٢ ، دحلان : خلاصة الكلام ص١٩ .

(٤) عبد المنعم ماجد : السجلات المستنصرية ص٢٠٣ .

لكن المكرم الصليحي لم يستجب لما أمره به المستنصر لأنه كان مشغولاً بمطاردة قتلة والده علي الصليحي والتصدي لبعض القبائل اليمنية التي حاولت الخروج عليه[١] .

وضاقت الأحوال في الحجاز نتيجة نقص الموارد وارتفاع الأسعار ، فاضطر الحجازيون إلى قطع الخطبة للمستنصر وقاموا بالدعوة للقائم بأمر الله العباسي وللسلطان السلجوقي ألب أرسلان[٢] بعد أن أمدهم العباسيون بالأموال[٣] .

ولاريب أن الفاطميين كانوا ينفقون أموالاً كثيرة في سبيل الدعوة لهم ببلاد الحجاز إذ يذكر المقريزي أنهم كانوا ينفقون في كل عام على قافلة الحج مائة وعشرين ألف دينار منها عشرة آلاف للطيب والحلوى والشمع راتباً كل سنة ، وأربعون ألف نفقة الوفد المرافق للكسوة ، وستون ألف وأكثر تنفق على الجرايات والصدقات وأجرة الجمال والجند وأمير الموسم وخدم القافلة ، وحفر الآبار في طريق القافلة ونفقات العربان[٤] .

---

(١) العقيلي : المخلاف السليماني ص١٦٦ .

(٢) هو ألب أرسلان بن داود بن ميكائيل بن سلجوق بن دقاق السلجوقي خلف عمه طغر لبك في تولي سلطنة السلاجقة سنة ٤٥٥هـ / ١٠٦٣م الذين كانوا يحكمون العراق ويستأثرون بالسلطة ولم يكن للخلفاء العباسيين في عهدهم شيء سوى ذكر اسمهم في الخطبة ونقشه على السكة وكان بداية أمر هؤلاء السلاجقة آخر سنة ٤٢٩هـ وأصلهم من التركستان وكانوا يخدمون ملوك الترك ونشأ جدهم سلجوق الذي صار قائداً عظيماً لهم وقد سموا بالسلاجقة نسبة إليه وقد خرج بهم من بلاد الترك إلى بلاد المسلمين وأظهر الإسلام ليكون المسلمون عوناً له فلما مات سلجوق تولى أولاده الحكم من بعده ولقد ساعد السلاجقة العباسيين على التخلص من البويهيين الشيعيين مما جعل السلاجقة بذلك حماة الخلافة العباسية (ابن الأثير : الكامل ج٨ ص٣٩٤ - ابن الطقطقي : الفخري ص٢٥٥ ، حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ج٤ ص١٧ ، ٢٠ ، عبد المنعم حسنين : دولة السلاجقة ص١٨) .

(٣) عمر بن فهد : إتحاف الورى ج٢ ص٤٧٣ .

(٤) المقريزي : اتعاظ الحنفا ج٢ ص٣٠٣ .

ولقد زادت هذه النفقة في وزارة اليازوري[١] حتى بلغت مائتي ألف دينار سنوياً[٢] ولم تبلغ النفقة على موسم الحج مثل ذلك في أي دولة إسلامية أخرى[٣] فلما ألمت بمصر كارثة الشدة العظمى انقطعت هذه النفقات عن الحجاز فاشتدت الأمور عليهم مما يسر للعباسيين طريق العودة للحجاز .

عودة النفوذ العباسي للحجاز :

لما ساءت الأحوال في مصر نتيجة للشدة العظمى التي مرت بها ، والتي طال أمدها إلى سبع سنوات من القحط والجدب والغلاء ، كان طبيعياً أن تؤثر أحداث هذه الشدة على مجريات الحياة في المجتمع المصري ؛ بل وعلى الحياة داخل حدود الخلافة الفاطمية المترامية الأطراف ، ولم يرسل الفاطميون النفقات المخصصة سنوياً لبلاد الحجاز التي كانت تعتمد اعتماداً كبيراً على ما يرسل إليها من مصر فانتهز العباسيون الفرصة ، ووجدوا أن الأمور مهيئة لاستعادة نفوذهم مرة أخرى على الحرمين الشريفين، فشرعوا يتقربون إلى أشراف الحجاز بالمساعدات المالية ؛ مما جعل الأمير محمد بن جعفر الحسني يخطب للخليفة العباسي القائم بأمر الله وللسلطان السلجوقي ألب أرسلان ، ثم أرسل رسولاً من عنده ، ومعه ولده إلى السلطان ألب أرسلان يخبره بإقامة الدعوة للعباسيين سنة ٤٦٢هـ / ٦٩ - ١٠٧٠م[٤] .

---

(١) هو أبو محمد الحسن اليازوري بن علي بن عبد الرحمن من أهل يازور وهي قرية من كورة الرملة وقد عهد إليه بالوزارة في السابع من المحرم سنة ٤٤٢هـ وسمح له بالبقاء في منصبه الأول وهو مدير خاصة أم الخليفة ، وكان يلقب بهذا اللقب المركب وهو الناصر لدين الله ، غياث المسلمين ، الوزير الأجل المكرم ، سيد الوزراء ، تاج الأصفياء ، قاضي القضاة ، داعي الدعاة ، وظل في منصبه حتى قبض المستنصر عليه في أول المحرم سنة ٤٥٠هـ بتهمة مراسلته لطغرلبك السلجوقي ودعوته لغزو مصر فنفي إلى تنيس ثم قتل في نفس العام (حسن إبراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص٢٧٨) .

(٢) المقريزي : اتعاظ الحنفا ج٢ ص٣٠٣ .

(٣) المصدر السابق .

(٤) عمر بن فهد : إتحاف الورى ج٢ ص٤٧٣ ، العماد الأصفهاني : تاريخ دولة آل سلجوق ص٣٧ .

وقد روى كل من ابن الأثير (ت ٦٣٠هـ / ١٢٣٢م) وابن فهد (ت ٨٨٥هـ / ١٤٨٠م) أن رسول أبى هاشم حينما وصل إلى السلطان أخبره بإقامة الخطبة للخليفة القائم بأمر الله ، وللسلطان بعده وأن خطبة الفاطميين قد أسقطت ، وأنهم أذنوا الأذان المعتاد ، وتركوا الأذان بحي على خير العمل ، فأرسل له السلطان ثلاثين ألف دينار وخِلَعاً نفيسة ، وأجرى له كل سنة عشرة آلاف دينار ، وأخبره أن أمير المدينة سوف ينال عشرين ألف دينار ، وتجرى له كل سنة خمسة آلاف إن أقام الخطبة للعباسيين هو الآخر[١] .

ومما سبق يتضح أن أمير مكة هو الذي انفرد بالدعوة للعباسيين أما صاحب المدينة فلم يدع لهم ، وأنهم حاولوا إغراءه واستمالته بالأموال عن طريق صاحب مكة كما جاء في روايتي ابن الأثير وابن فهد ، إلا أن المقريزي وابن تغرى بردي ذكرا رواية مخالفة لرواية ابن الأثير وصاحبه فقالا: إن أميري مكة والمدينة قد قاما بالدعوة للخليفة العباسي والسلطان ألب أرسلان، فأرسل ألب أرسلان لصاحب مكة ثلاثين ألف دينار ، ولصاحب المدينة عشرين ألفاً[٢].

والحقيقة أن رواية ابن الأثير وصاحبه لا تحتمل الشك ، والدليل على ذلك ما فعله صاحب مكة تجاه المدينة ، إذ إننا نجده في نفس العام يرسل جيشاً من الأتراك تمكن من دخول المدينة وهزيمة بني مهنا من أولاد الحسين - رضي الله عنه - وطردهم منها[٣] .

ولعل سبب هجوم صاحب مكة على المدينة هو رفض أصحابها الدعوة للعباسيين مما جعله يسيطر عليها ويضمها إليه ويجمع بين الحرمين الشريفين ، ويصبح أميراً للحجاز بلا منازع ؛ بل إن الجند الأتراك الذين هاجموا المدينة نرجح أن يكونوا من الجند العباسي وقد أرسلوا لمساعدته.

---

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج٨ ص٣٨٤ ، عمر بن فهد : إتحاف الورى ج٢ ص٤٧٣ .
(٢) المقريزي : اتعاظ الحنفا ج٢ ص٤ ٣ ، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج٥ ص١٩ - ٢٠ .
(٣) ابن خلدون : العبر ج٤ ص١٣٣ ، الفاسي : العقد الثمين ج١ ص٤٤٣ .

وفي عام ٤٦٣هـ / ١٠٧١م أرسل الخليفة العباسي القائم أبا الغنائم الزينبي نقيب الطالبيين ببغداد أميراً على الركب العراقي في عسكر ضخم لحماية الركب من غارات الأعراب ولتأمين أرواح الحجاج ، وأعطاه ثلاثين ألف دينار للأمير محمد بن جعفر الحسني ، وتوقيع بعشرة آلاف أخرى واجتمعوا بالموسم حيث خطب الأمير محمد بن جعفر للعباسيين وقال : «الحمد لله الذي هدانا أهل بيته إلى الرأي المصيب ، وعوض بنيه لبسة الشباب بعد لبسة المشيب ، وأمال قلوبنا إلى الطاعة ومتابعة إمام الجماعة»[١] .

وبذلك أعاد الأمير أبو هاشم محمد بن جعفر الحسني الخطبة للعباسيين بعد أن قطعت من الحجاز نحو مائة سنة[٢] .

وقد نتسائل ما موقف الفاطميين من النفوذ العباسي الذي بدأ يتغلغل تدريجياً في الحجاز على يد أبي هاشم محمد بن جعفر الحسني ؟

لقد كان الفاطميون في مرحلة بالغة السوء والقسوة من الشدة العظمى التي مرت بها مصر وشغلتهم بأنفسهم عن الحجاز ، وقد روي ابن تغرى بردي أن المستنصر حين بلغه ما حدث في مكة لم يلتفت إليه لشغله بنفسه ورعيته من شدة الغلاء[٣]، والأوبئة والفتن التي انتشرت آنذاك[٤] ولم يكن المستنصر في حالة تسمح له بالوقوف ضد الحجازيين أو العباسيين.

وقد صور المقريزي الحالة التي كان عليها هذا الخليفة بقوله : « ثم آل الأمر إلى أن باع المستنصر كل ما في قصره من ذخائر وثياب وأثاث ، وصار يجلس على حصير ، وتعطلت دواوينه وذهب وقاره ، وكانت نساء القصر تخرجن ناشرات شعورهن تصحن الجوع ، الجـوع»[٥].

---

(١) العصامي المكي : سمط النجوم العوالي ج٤ ص١٩٩ - ٢٠٠ .

(٢) الفاسي : شفاء الغرام ج٢ ص١٩٧ .

(٣) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج٥ ص٢٠ .

(٤) المقريزي : اتعاظ الحنفا ج٢ ص٣٠٣ .

(٥) المقريزي : إغاثة الأمة بكشف الغمة ص٢٥ .

وإن كانت هذه الرواية تميل إلى المبالغة إلا أنها لا تنفي حقيقة الحال السيئة التي آل إليها أمر الفاطميين آنذاك .

ويري بعض الباحثين أن الفاطميين شجعوا أشراف بنى أبي الطيب الحسنيين بمكة على الثورة ضد أبي هاشم محمد بن جعفر الحسني، وخلعه من الإمارة، وطرده من مكة، ثم تولية حمزة بن وهاس بن أبي الطيب الحسني الذي لم يلبث في إمرة مكة غير فترة قصيرة حيث عاد أبو هاشم وهزمه واستعاد الإمارة[١] .

ومن الجدير بالذكر أن ثورة حمزة بن وهاس الحسني لم تكن في سنتي ٤٦٢هـ / ٦٩ - ١٠٧٠م أو ٤٦٣هـ ١٠٧١م بعد قطع صاحب مكة الخطبة للفاطميين ، وإنما كانت هذه الثورة بعد خروج على الصليحى من مكة إلى اليمن سنة ٤٥٦هـ / ١٠٦٤م[٢] .

---

(١) أحمد السباعي : تاريخ مكة ج١ ص٢٠٣ .

(٢) الفاسي : شفاء الغرام ج٢ ص١٩٦ .

عمر بن فهد : إتحاف الورى ج٢ ص٤٦٩ .

ابن عنبه : عمدة الطالب ص١٣٧ .

ابن عبد القادر الطبري : الأرج المسكي لوحة ٤٥

العقيلي : المخلاف السليماني ج١ ص٣٨١ .

التنافس بين العباسيين والفاطميين للسيطرة على الحجاز :

بدأت الأمور في مصر تتحسن منذ سنة ٤٦٦هـ / ١٠٧٤م بعد أن أرسل الخليفة الفاطمي المستنصر إلى بدر الجمالي[١] والي عكا يستدعيه للقدوم إلى مصر لمساعدته في ضبط الأمور بها وولاه الوزارة ، وتدبير شئون الدولة[٢] فقام بدر الجمالي بدور كبير في القضاء على الفتن التي سادت البلاد ، وتمكن من خلالها أن يقضي على الأتراك[٣] ،وأخذ المفسدين في شتى أنحاء البلاد ، فلم يبق على أحد منهم وطاردهم في كل مكان بمصر حتى قتلهم جميعاً[٤] ، واسترد من القواد والأمراء بمصر جميع ما أخذوه أيام الفتنة أموالاً وأمتعة[٥] فاطمأنت النفوس ، وساد الأمن والاستقرار ربوع البلاد[٦] فخلع عليه المستنصر وزيد في ألقابه أمير الجيوش كافل قضاة المسلمين وهادي دعاة المؤمنين[٧]

وقد أباح بدر الدين الجمالي الأرض للمزارعين ثلاث سنين لا يأخذ خراجها حتى تحسنت أحوال الفلاحين في أيامه وعادوا لزراعة الأرض ، كما عاد التجار إلى مصر مرة أخرى لممارسة أعمالهم بعد خروجهم منها أيام الشدة العظمى[٨] فازدهرت الأحوال واستتب الأمن وعاد

---

(١) يرجع أصل بدر الجمالى إلى الأرمن وكان حاجباً لصاحب دمشق فلما مات قام بالأمور من بعده وتولى إمرة دمشق سنة ٤٥٥هـ، وانفصل عنها بعد عام، ثم وليها والشام كله فى سنة ٤٥٨ هـ إلى أن استدعاه المستنصر إلى الديار المصرية وولاه وزارة السيف والقلم وامتدت أيامه حتى توفى سنة ٤٨٧هـ (ابن الأثير: الكامل فى التاريخ ج٨ ص ٤٩٦، ابن خلدون : العبر ج٤ ص ٨١ - ٨٢، ابن العماد الحنبلى . شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ج٣ ص ٣٨٣).

(٢) المقريزى : الخطط ج١ ص ٣٨١.

(٣) Stanly Lane Poole : AHistory of Egypt in the Middle Ages PP 150 - 151. London 1901.

(٤) المقريزى : اتعاظ الحنفا ج٢ ص ٣١٢.

(٥) ابن خلدون : العبر ج٤ ص ٨٢.

(٦) المقريزى : اتعاظ الحنفا ج٢ ص ٣١١.

(٧) المقريزى : الخطط ج١ ص ٣٨٢.

(٨) المصدر السابق .

الرخاء، ومن ثم شعر الفاطميون أنه لابد من العمل على استعادة الخطبة لهم من العباسيين في مكة[١] فأرسل المستنصر رسولين إلى أبي هاشم محمد بن جعفر الحسني صاحب مكة قبحا عليه خطبته للخليفة العباسي ، والسلطان ألب أرسلان ، وبذلا له المال ليقطع الخطبة لهما[٢] وشعر العباسيون بما يدبره الفاطميون فأرسلوا بصحبة السلار الذي يصاحب الحاج العراقي أموالاً كثيرة وهدايا عظيمة قدمها إلى الأمير أبي هاشم محمد بن جعفر الحسني[٣] ، ولم يكتف بذلك ؛ بل أخذ يجمع له أموالاً أخرى ممن صاحبه من الحجاج ، وقدمها له ولأصحابه[٤] فأعرض أبو هاشم عن رسولي المستنصر وأبعدهما عنه[٥] ونجح السلار في مهمته ، وجعل صاحب مكة يدعو للعباسيين هذا العام[٦] .

وفي عام ٤٦٧هـ / ١٠٧٤م توفي الخليفة العباسي القائم بأمر الله ، وتولى الخلافة المقتدي الذي انشغل بتهيئة الأمور لنفسه فلم يرسل الأموال والصلات كالعادة إلى صاحب مكة[٧] وكان المستنصر قد قوي أمره على يد بدر الجمالي ، واستقرت له الأمور ، وعاد الرخاء بعد الكرب الشديد فأرسل سفارة مثقلة بالهدايا والتحف العظيمة إلى صاحب مكة[٨] ومعها رسالة يقول فيها : « إن أيمانك وعهودك كانت للقائم وللسلطان ألب أرسلان وقد ماتا »[٩] فجمع أبو هاشم أصحابه واستشارهم فيما طلبه المستنصر فأشاروا عليه أن يقبل العرض الفاطمي وقالوا له : إنا سلمنا هذا الأمر لبني العباس لما عدمنا المعونة من مصر ، ولما رجعت المعونة فإنا

---

(١) أحمد السباعى · تاريخ مكة ج١ ص ٢٠٤.

(٢) عمر بن فهد: اتحاف الورى ج٢ ص ٤٧٥.

(٣) أحمد السباعى : تاريخ مكة ج١ ص ٢٠٤.

(٤) عمر بن فهد : اتحاف الورى ج٢ ص ٤٧٥.

(٥) المصدر السابق .

(٦) المصدر السابق .

(٧) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ج٨ ص ٤٠٧، السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٤٢٣.

(٨) أحمد السباعى : تاريخ مكة ج١ ص ٤ ٢.

(٩) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ ج٨ ص ٤٠٨، عمر بن فهد: اتحاف الورى ج٢ ص ٤٧٧.

لا نبتغي بابن عمنا بديلاً[١] فأجابهم الأمير على كره منه خاصة بعد أن اشتد الغلاء في الحجاز عقب انقطاع المعونات التي كان العباسيون يرسلونها ، فخطب للمستنصر بمكة وقطعت الخطبة للعباسيين[٢] بعد أن استمرت مدة أربع سنين وخمسة أشهر[٣] .

وقام محمد بن جعفر الحسني بتفريق الأموال التي أرسلها المستنصر على أصحابه ، وأعاد ألقاب الفاطميين التي خلعها من قبة المقام ومن حول الكعبة حين دعا للعباسيين[٤] .

لم يستمر نجاح الفاطميين طويلاً إذ أرسل الخليفة العباسي المقتدي سلار الحاج العراقى في موسم سنة ٤٦٨هـ / ١٠٧٥م يحمل إلى أبي هاشم عروضًا جديدة منها أن يزوجه العباسيون من أخت جلال الدولة في العراق ، وأن يمنح عشرون ألف دينار كتعويض عما فات في السنوات السابقة حتى يعيد الخطبة لهم مرة أخرى[٥] .

طمع أبو هاشم في العرض العباسي ، لكنه رأى أن يرسل رجلين من أصحابه لاستطلاع الأمور بمصر ، فإن كانت الأحوال مستقرة أبقى على علاقته معهم ورفض هذا العرض ، لكن الأمور كانت في مصر غير مستقرة نتيجة لما حدث في الشام ، فقد حاصر أطسز بن أرتق المعروف بالإقسيس دمشق وقاتل جنود المستنصر وانتصر عليهم بعد فرار واليها حيدرة بن ميرزا الكتامي، ولما دخل أطسز دمشق دعا للمقتدى العباسي ، وأبطل الخطبة للمستنصر[٦] كما

---

(١) عمر بن فهد : اتحاف الورى ج٢ ص ٤٧٧.

(٢) اليافعي : مرآة الجنان ج٣ ص ٩٤.

(٣) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج٨ ص٤٠٨.

(٤) ابن عنبه : عمدة الطالب ص ١٣٧.

(٥) عمر بن فهد : اتحاف الورى ج ٢ ص ٤٧٨

(٦) المقريزي : اتعاظ الحنفا ج ٢ ص ٣١٥

أبطل الأذان بحي على خير العمل[١] .

فلما عاد صاحبا أمير مكة من مصر أخبراه بسوء الأحوال نتيجة لما حدث في الشام فقبل العرض العباسي ودعا لهم[٢] لكن العباسيين أعطوا الأموال لأبي هاشم ولم يزوجوه من أخت جلال الدولة ، مما دعاه إلى ترك الدعوة لهم سنة ٤٧٠هـ / ١٠٧٨م والدعوة للفاطميين فلما أرسل العباسيون في شهر رمضان من هذا العام منبراً كبيراً إلى مكة قد نقش عليه بالذهب « لا إله إلا الله محمد رسول الله - الإمام المقتدي بأمر الله أمير المؤمنين » كسر هذا المنبر وأحرق[٣] بعد أن قامت الفتنة بين العسكر العراقي والعسكر المصري الذين تمسكوا بالدعوة لصاحبهم[٤] وتمت الدعوة للفاطميين هذا العام[٥] ، لكن أبا هاشم محمد بن جعفر أمير مكة لم يلبث أن أعاد الخطبة للعباسيين في عام ٤٧٢هـ / ١٠٨٠م[٦] ليقطعها مرة أخرى ويدعو للفاطميين ، ثم أعادها سنة ٤٧٩هـ[٧] للعباسيين حيث قطعت خطبة الفاطميين من مكة والمدينة[٨] .

ونلاحظ من خلال ذلك أن الفاطميين والعباسيين ظلوا يتناوبون استرضاء أبي هاشم محمد ابن جعفر الحسني أمير مكة بالهدايا والأموال عدة سنوات[٩] فكان يدعو للعباسيين تارة ، وللفاطميين تارة أخرى ، ويبدو أنهم وجدوا أن أفضل طريقة لنيل غرضهم هي بذل الأموال

---

(١) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٤٢٤.

(٢) عمر بن فهد . اتحاف الورى ج٢ ص ٤٧٨.

(٣) المقريزي : اتعاظ الحنفا ج٢ ص ٣١٩، الجزيري : درر الفرائد ج١ ص ٥٥٢.

(٤) العصامي المكي : سمط النجوم العوالي ج٤ ص ٢٠٢.

(٥) المصدر السابق .

(٦) المقريزي : اتعاظ الحنفا ج٢ ص ٣٢٠.

(٧) ابن الأثير: الكامل ج٨ ص ٤٥٠، السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٤٢٥.

(٨) الفاسي : شفاء الغرام ج٢ ص ٢٢٨.

(٩) أحمد السباعي : تاريخ مكة ج١ ص ٢٠٤.

وإرسال الصلات، وقد استفاد أمير مكة كثيراً من هذا التنافس فجمع أموالاً كثيرة نظير إقامته الخطبة على منابر البلاد لمن يدفع أكثر ، ولم يقم بأي إصلاحات في بلاده ، إذ لم يوجد في أي مصدر من المصادر التاريخية المتاحة أنه قام بعمل يذكر لمصلحة وطنه ، وإنما كان كل همه أن يجمع الأموال من الفاطميين أو العباسيين .

ولعل العباسيين أدركوا ذلك فأرسل السلطان ملكشاه السلجوقي[١] - وكان مسيطراً على الأمور ببغداد - قائداً تركياً إلى مكة سنة ٤٨٤هـ / ١٠٩١م على رأس قوة كبيرة من الجند وطلبوا من أبى هاشم محمد بن جعفر الحسني أن يعيد الأموال التي أخذها[٢] فقاتلهم أبو هاشم قتالاً شديداً ، ولما يئس تركهم وفر هارباً إلى بغداد مستغيثاً منهم[٣] .

وربما أراد بفراره إلى بغداد أن يسترضي العباسيين حتى يكفوا عنه[٤] ، ولعلهم استجابو له إذ ما لبث أن عاد إلى مكة ، وظل في أخريات أيامه يدعو للعباسيين والسلاجقة[٥] إلى أن توفي السلطان ملكشاه السلجوقي سنة ٤٨٥هـ / ١٠٩٢م فانقطعت الخطبة بمكة للعباسيين ، وبطل الحاج من العراق ، ولما توفي المستنصر وبويع ابنه المستعلي

---

(١) السلطان ملكشاه السلجوقى هو أبو الفتح جلال الدولة بن السلطان ألب أرسلان محمد بن داود السلجوقى التركى، لما قتل والده جلس على العرش بوصية منه وكتب إلى الخليفة فى بغداد ليصدر له التفويض بالسلطنة وليأمر بذكر اسمه فى الخطبة فأجيب إلى ما طلب وقد استولى على بلاد ما وراء النهر والجزيرة وخراسان وسيطر على العراق وقد توفى سنة ٤٨٥هـ بعد أن اتسع ملكه اتساعاً عظيماً ودعى له على منابر البلاد الممتدة من حدود الصين شرقاً إلى أقاصى بلاد الشام غرباً ومن البلاد الإسلامية فى الشمال إلى جنوبى بلاد اليمن وأدى له أباطرة الروم الجزية .

(ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ج٨ ص ٤٨١ - ٤٨٤ ، الذهبى : العبر ج٢ ص ٣٥٠، حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ج٤ ص ٢٥).

(٢) الفاسى : شفاء الغرام ج٢ ص ١٩٧.

(٣) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ج٨ ص ٤٧٥.

(٤) أحمد السباعى : تاريخ مكة ج١ ص ٢٠٤.

(٥) المصدر السابق .

خطب له بمكة[١] حتى وفاة محمد بن جعفر.

يعد وفاة محمد بن جعفر الحسني سنة ٤٨٧هـ / ١٠٩٤م خلفه ابنه قاسم بن محمد الحسني في إمرة مكة[٢] وظل أمر مكة في عهده عرضة للفتن كما حدث في عهد أبيه نتيجة تنافس العباسيين والفاطميين على إقامة الخطبة لكل منهما ، لذا نجده أول عهده يقيم الخطبة للفاطميين ثم يقطعها في نفس العام ، ويدعو للعباسيين ثم يعيدها مرة أخرى للفاطميين[٣] .

ولا شك أن العباسيين قد استاءوا من التردد والتلون في سياسة هذا الأمير الذي بدأ ينهج نهج أبيه ، فلجأوا إلى القوة العسكرية لإقامة دعوتهم ، فأرسلوا الأمير أصيهيد بن ساوتكين أحد القادة العباسيين إلى مكة في أربعمائة فارس من التركمانية للقضاء على صاحبها ، وقد تمكن القائد العباسي من دخول مكة عنوة بعد الانتصار على أهلها ، وفر الأشراف من أمامه[٤]، وفر صاحب مكة قاسم بن محمد الحسني حيث تمكن من إعادة تجميع قواته ، وانضم إليه بعض الأعراب فأعد العدة لملاقاة أصيهيد فالتقيا بعسفان[٥] فهزم أصيهيد، وفر للشام ومنها إلى بغداد ، وعاد قاسم إلى مكة فدخلها في شوال من سنة ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م[٦] لكنه لم يكد يستقر بمكة حتى تعرض لمحاولة أخرى للإطاحة به نظن أن للعباسيين يداً فيها بعد أن فشلت محاولتهم العسكرية ، فقد ظهر رحل علوي في مكة يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فكثر أشياعه وأنصاره ، ولما قوي أمره نازع الأمير قاسم على الإمارة ، لكن الأمير قاسم تمكن منه وظفر به ، ثم نفاه عن الحجاز إلى البحرين[٧] وكان هذا العلوي من فقهاء المدرسة النظامية

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج٤ ص ٢٧٠.

(٢) ابن الوردى : تاريخ ابن الوردى ج٢ ص ١٠.
الصباغ : تحصيل المرام لوحة (٢١٨).

(٣) أحمد السباعى : تاريخ مكة ج١ ص ٢٠٦.

(٤) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢١٣.

(٥) ابن ظهيرة : الجامع اللطيف ص ٣٠٧.

(٦) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ج٨ ص ٤٩٩ ، الفاسى : شفاء الغرام ج٢ ص ١٩٧.

(٧) الفاسى : العقد الثمين ج٧ ص ٣٠.

ببغداد[١] .

وقد لجأ العباسيون إلى إرهاب أمير مكة ، وإظهار قوتهم فأرسلوا أمير الجيوش المستظهري[٢] في موسم سنة ٥١٠هـ / ١١١٦م لتأدية فريضة الحج فدخل مكة بقواته وعلى رأسه الأعلام ، والسيوف في ركابه ، وكما يقول سبط بن الجوزي إنهم قصدوا بذلك إذلال أمير مكة وعبيده لأنهم كانوا عصاة على بني العباس لا يرون إمامتهم ، ولا يخطبون لهم ، ويخطبون لغيرهم فقصد بذلك الطاعة والإذعان وإرهاب الخاص والعام[٣] .

والحقيقة أن سطوة العباسيين قد اشتدت على الحجاز نتيجة ضعف الدولة الفاطمية آنذاك؛ بل إن الحجازيين أنفسهم استغلوا هذا الضعف فقام أمير مكة بتعمير عدة مراكب حربية وشحنها بمقاتليه حيث أغارت على عيذاب[٤] سنة ٥١٢هـ / ١١١٨م وقامت بنهب مراكب التجار المصريين الراسية هناك ، وقتلوا عدداً منهم[٥] وفر الباقون إلى مصر فاتصلوا بالوزير

(١) المدرسة النظامية ببغداد أنشأها الوزير نظام الملك المتوفى سنة ٤٨٦هـ وقد عمل مع السلطانين ألب أرسلان وولده ملكشاه السلجوقيين، وقد درس فيها أعيان العلماء والأئمة من رجال المذهب الشافعي (الفاسي : العقد الثمين ج٧ حاشية ص ٣٠) .

(٢) هو يمن بن عبد الله الخادم الحبشي أبو الخير الجيوشي المستظهري، كان سفيراً بين يدي الخليفة والسلطان وقد بعث أميراً للحاج العراقي سنة ٥١٠هـ (سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ورقة ٤٣).

(٣) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ورقة ٣٩، ٤٠.

(٤) تقع عيذاب على الساحل المواجه لميناء جدة ، وكانت هي نقطة الاتصال بين تجارة البحر الأحمر وتجارة نهر النيل فكانت ترد إليها البضائع من الحبشة واليمن بطريق البحر ثم تحمل على الإبل في الصحراء مسيرة عشرين يوماً إلى أسوان أو قوص ومن هناك تنقل إلى القاهرة في النيل وقد أصبحت عيذاب في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) من أعظم الموانئ في العالم آنذاك بسبب الأعداد الكبير من المراكب التي كانت ترسو به وخاصة من الهند ، فضلاً عن أنها كانت الميناء الذي تنتهي إليه قوافل الحجاج الذين يعبرون البحر إلى جدة ، وكانت عيذاب مركز تجمع لهم ولتجار الشرق القادمين إليها بسلع من الحبشة واليمن (القلقشندي : صبح الأعشى ج٣ ص٤٦٨، ابن إياس : بدائع الزهور ج١ ق١ ص٢٠ ، الحميري: الروض العطار ص ٤٢٤، آدم متز: تاريخ الحضارة الإسلامية ج٢ ص ٣١٩.

(٥) الفاسي : العقد الثمين ج٧ ص٢٩ ، الجزيري : درر الفرائد ج١ ص٥٥٨ .

الأفضل بن بدر الجمالي ، وشكوا إليه أمرهم وما حدث لهم ، فغضب غضباً شديداً ، وقال : صاحب مكة يأخذ تجاراً من بلادي ، أنا أسير إليه بنفسي بأسطول أوله عيذاب وآخره جدة ثم قرر أن يكاتب أشراف مكة ويخبرهم بما فعله الأمير[١] ويلومهم على ما فعله صاحبهم كما ضمن كتبه التهديد والوعيد[٢] وأمر بمنع المصريين من تأدية فريضة الحج هذا العام ، وقرر قطع المعونات والمؤن التي كانت ترسل لمساعدة أهل الحجاز[٣] وأمر بإعداد المراكب الحربية كي يسير لتأديب أمير مكة لما فعله بالتجار المصريين[٤] .

لما وصلت رسالة الأفضل إلى أشراف مكة ضاقوا بذلك ذرعاً ولاموا صاحبهم[٥] على ما فعل واشتدت الأمور عليهم نتيجة قطع المعونات والمؤن ووقف قافلة الحاج المصرية ، وعلموا بالحملة التي يعدها الوزير الفاطمي للهجوم عليهم فأرسلوا رسولاً إلى مصر لاستطلاع الأمور ومحاولة إصلاح ذات البين[٦] .

حضر الرسول إلى مصر فلم يهتم به أحد من المصريين ، وأهمل شأنه ، ولم تجر عليه ضيافة ، وقيل له : ما يقرأ لك كتاب ، ولا يسمع منك كلام قبل إعادة المأخوذ من التجار إليهم، فتعهد الرسول بإعادة الأموال والبضائع التي أخذت من التجار كما أنه رأى الاستعدادات العسكرية التي تعد للهجوم على الحجاز[٧] فأسرع بالعودة إلى بلاده ، وقد اشتد به الهلع ليخبرهم بما سمع ورأى ثم عاد بعد فترة زمنية قصيرة ، ومعه كل ما أخذ من البضائع والأموال فحملت إلى جامع عمرو بن العاص سنة ٥١٥هـ / ١١٢١م[٨] حيث حضر التجار فأخذوا

---

(١) المقريزي : اتعاظ الحنفا ج٣ ص٥٨ .

(٢) عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج١ ص٥١٧ .

(٣) الجزيري : درر الفرائد ج١ ص٥٥٨ .

(٤) المقريزي : اتعاظ الحنفا ج٣ ص٥٨ .

(٥) عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج١ ص٥١٧

(٦) المقريزي : اتعاظ الحنفا ج٣ ص٥٨ .

(٧) المصدر السابق

(٨) الفاسي : العقد الثمين ج٧ ص٢٩ .

بضائعهم وأموالهم ، أما من قتل منهم فقد رد ماله إلى ورثته[١] وأكرم الفاطميون الرسول وأحسنوا إليه[٢] وعاد إلى بلاده بعد أن ساهم في إطفاء نار الحرب التي كادت تشتعل بين مصر والحجاز .

عادت العلاقات الودية بين مصر وأشراف مكة عقب هذا الحادث ففي سنة ٥١٦هـ / ١١٢٢م وصل الرسول الذي ساهم في إنهاء الخلاف ومعه كتاب من أمير مكة الشريف قاسم بن أبي هاشم يهنئ فيه الوزير الفاطمي المأمون[٣] الذي تولى الوزارة بعد مقتل الأفضل بن بدر الجمالي ، وقد عاد هذا الرسول إلى مكة بعد أن أطلق له الفاطميون ثمانية آلاف وتسعمائة وأربعين أردباً من الغلال برسم مكة مع الثياب والخلع والمال والبخور[٤] .

وظلت علاقات الأمير قاسم الحسني بالفاطميين بعد ذلك طيبة إلى أن توفي سنة ٥١٨هـ/ ١١٢٤م[٥] وخلفه ابنه فليتة وكان يقال له أبو فليتة[٦] ولقد استهل هذا الأمير حكمه بالدعوة للعباسيين[٧] وأسقط المكوس التي قررها آباؤه على الحجاج وأحسن إلى الناس في مكة وسار فيهم أفضل سيرة حتى لهجت الألسنة في الحجاز بالثناء عليه[٨] ، إلا أنه لم يكن ذا صلة

---

(١) عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج١ ص٥١٧ .

(٢) المقريزي : اتعاظ الحنفا ج٣ ص٥٩ .

(٣) هو أبو عبد الله بن البطائحي فوض إليه الخليفة الفاطمي الآمر شئون الوزارة بعد مقتل الأفضل بن بدر الجمالي، ثم خلع عليه بعد سنتين من ولايته للوزارة ولقبه بالمأمون ، لكنه اتفق وأخو الآمر على قتل أخيه ، ليكون خليفة بعده فعلم الآمر بذلك عن طريق بعض أعوانه فقبض عليه وصلبه بعد ثلاث سنين من توليه الوزارة (انظر : ابن الأثير : الكامل ج٩ ص٢٣٤ ، الذهبي : العبر في خبر من غبر ج٢ ص٤١٢ ، ابن خلدون : العبر ج٤ ص٩٠ - ٩١) .

(٤) المقريزي : اتعاظ الحنفا ج٣ ص٨٠ .

(٥) الفاسي : شفاء الغرام ج٢ ص١٩٧ ، القلقشندي : صبح الأعشى ج٤ ص٢٧١ ، ابن ظهيرة . الجامع اللطيف ص٣٠٧ ، عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج١ ص٥١٧ .

(٦) القلقشندي : صبح الأعشى ج٤ ص٢٧١ ، ابن ظهيرة : الجامع اللطيف ص٣٠٨ .

(٧) المصدر السابق .

(٨) الصباغ تحصيل المرام لوحة (٢١٨) .

طيبة بالفاطميين ، ولا ندري سبباً لذلك إلا أن يكون العباسيون قد استمالوه لجانبهم بكثرة النفقات المالية والهدايا التي فاقت ما كان يعطيه له الفاطميون ، ففي عهده كان أمير الحاج العراقي «نظر الخادم» يحضر له الأموال والخلع في كل موسم[١] فلما توفي سنة ٥٢٧هـ / ١١٣٢م[٢] كانت الخطبة للعباسيين ، وعندما ولى ابنه هاشم بن فليتة الحسني إمرة مكة بعده، أبطل الخطبة للعباسيين ، وأقامها للخليفة الفاطمي الحافظ لدين الله[٣] .

ونتيجة لما كان يسود مصر آنذاك من ضعف وفساد وخلافات[٤] قطع هاشم الخطبة للفاطميين وأعادها للعباسيين واستمرت الخطبة لهم حتى توفي سنة ٥٤٩هـ / ١١٥٤م[٥] .

تولى الأمير قاسم بن هاشم الحسني إمارة مكة بعد وفاة أبيه[٦] فبادر بإصلاح العلاقات مع الفاطميين ، وكلف الشاعر عمارة اليمني أن يذهب برسالة إلى مصر سنة ٥٥٠هـ / ١١٥٥م[٧] في عهد الخليفة الفاطمي الفائز ووزيره الصالح طلائع بن رزيك[٨] .

---

(١) ابن خلدون : العبر ج٤ ص١٣٤ .

(٢) عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج١ ص٥٢٠ .

(٣) ابن خلدون : العبر ج٤ ص١٣٤ .

(٤) عقب وفاة الخليفة الفاطمي الآمر سنة ٥٢٤هـ / ١١٣٠م قبض على زمام السلطة بعض رجال الجيش ووقع اختيارهم على الأمير أبي الميمون عبد المجيد ابن عم الآمر ليتولى أمور الخلافة ، ولقب الحافظ لدين الله ، لكنه لم تتح له الفرصة للاحتفاظ بسلطته في الدولة بسبب ثورة الجند عليه وتوليتهم لأبي علي بن الأفضل الوزارة فمنع ابن الأفضل الحافظ من التصرف في شئون الدولة وضيق عليه لكن ابن الأفضل لم يستمر في الحكم طويلاً حيث قتل سنة ٥٢٦هـ بعد أن ظل مستأثراً بالسلطة دون الحافظ الذي أخرجه الجند وأعيد إلى الحكم ولياً للعهد وكفيلاً لولد الآمر الذي لم يعرف مقره فأخذ الحافظ يبحث عنه حتى اهتدى إليه وقتله بعد شهرين من عودته ولياً للعهد وأعلن نفسه خليفة (ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج٩ ص٢٥٥ ، ابن خلدون : العبر ج٤ ص٩١ - ٩٢ ، المقريزي : اتعاظ الحنفا ج٣ ص١٣٩ ، ١٤١ ، ١٤٦) .

(٥) الفاسي : العقد الثمين ج٧ ص ٣٦١.

(٦) المصدر السابق ص٣٢ .

(٧) الفاسي : شفاء الغرام ج٢ ص١٩٧ .

(٨) ابن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ورقة (١٨٩) .

قدم عمارة اليمني إلى مصر في شهر ربيع الأول من نفس العام في مهمة سياسية تقتضي إصلاح ذات البين ، وقد مهد لمهمته بمدح الفاطميين في قصيدة ألقاها عند استقبالهم له في قاعة الذهب بقصر الفائز[١] .

وقد أعجب الحاضرون به وأفيضت عليه الخلع والأموال[٢]، وكتب الوزير الصالح إلى ناصر الدولة والى قوص أن يعطيه مائة أردب من القمح تحمل من مال الديوان إلى مكة[٣] وعند سفره ودع الخليفة الفاطمي ووزيره الصالح بقصيدة يشكر فيها الفاطميين على حسن استقبالهم له[٤].

وبدأت العلاقات بين قاسم بن هاشم الحسنى أمير مكة والفاطميين تتحسن ، لكن

---

(١) ألقى عمارة القصيدة في مدح الفاطميين بحضور الخليفة والوزراء والأمراء وجاء فيها :

الحمد للعيس بعد العزم والهمم ... حمداً يقوم بما أولت من النعم
لا أجحد الحق ، عندي للركاب يد ... تمنت اللجم فيها رؤية الخطم
قربن بعد فرار العز من نظري ... حتى رأيت إمام العصر من أمم
ورحن من كعبة البطحاء والحرم ... وفداً إلى كعبة المعروف والنعم
فهل دري البيت أني بعد فرقته ... ما سرت من حرم إلا إلى حرم
حيث الخلافة مضروب سرادقها ... بين النقيضين من عفو ومن نقم
وللإمامة أنوار مقدسة ... تجلو البغيضين من ظلم ومن ظلم

(المقريزي : اتعاظ الحنفا ج٣ ص٢٢٤ - ٢٢٥) .

(٢)أفيضت الأموال على عمارة اليمنى بمصر فمنحه الوزير الصالح خمسمائة دينار وأخرجت له ابنة الحافظ الفاطمى خمسمائة دينار أخرى وأطلقت له الرسوم من دار الضيافة ولما عزم على الرجوع رسم أن يكون تسفيره خمسمائة دينار كما كانت وفادته، ودفع له الصالح مائة دينار (المصدر السابق ص٢٢٦) .

(٣) المصدر السابق ص٢٢٨ .

(٤) وجاء في هذه القصيدة :

من لي بأن ترد الحجاز وغيرها ... أخبار طيب مواردي ومصادري
زارت بي الآمال أكرم ساحة ... فوق الثرى فغدوت أكرم زائر
ووفدت ألتمس الكرامة والغنى ... فرجعت من كل بحظ وافر

(المصدر السابق) .

العباسيين كانوا يقفون كحجر عثرة أمام تطور هذه العلاقات خاصة أن نفوذهم أصبح قوياً في الحجاز فشرعوا يرسلون الأموال والهدايا للحجازيين ، ففي سنة ٥٥٠هـ / ١١٥٥م جدد الوزير جمال الدين المعروف بالجواد وزير صاحب الموصل باباً للكعبة الشريفة وحلاه حلية حسنة بالفضة وطلاه بالذهب ، وكتب عليه اسم الخليفة المقتفي لأمر الله ، وأمر الخليفة الأمير قاسم الحسني صاحب مكة أن يركب هذا الباب للكعبة المعظمة ، وأن يأخذ حلية الباب القديم لنفسه ، وأن يسير إليه خشب الباب القديم مجرداً ليجعله تابوتاً يدفن فيه عند موته[١] كما أمر العباسيون الوزير جمال الدين بتجديد بقية أبواب الحرم[٢] .

ولما قدم عمارة اليمني من مصر أمره الأمير قاسم بن هاشم الحسني أن يبيع له الفضة التي أخذها من باب الكعبة عند تجار اليمن ، وكان وزن هذه الفضة خمسة عشر ألف درهم ، فتوجه عمارة إلى زبيد وعدن سنة ٥٥١هـ / ١١٥٦م فباع الفضة ، وعاد إلى مكة ليدفع للأمير قاسم ماله ، وأدى فريضة الحج في هذا الموسم ، ثم أراد العودة إلى اليمن[٣] ، لكن الأمير قاسم طلب منه أن يعود إلى مصر في سفارة أخرى لاسترضاء الفاطميين الذين غضبوا عليه لاعتداء جنده على حاج مصر والشام وسلبهم أموالهم[٤] .

ذهب عمارة إلى مصر لكن الصالح طلائع بن رزيك أصدر أمراً إلى والي قوص أن يحتجزه عنده ويمنعه من القدوم إلى القاهرة أو العودة إلى مكة حتى يرد أمير مكة ما أخذ جنده من أموال المصريين والشاميين[٥] .

---

(١) الفاسي : العقد الثمين ج٧ ص٣٣ .

(٢) عمر بن فهد : إتحاف الورى ج٢ ص٥١ .

(٣) الفاسي : العقد الثمين ج٧ ص٣٣ .

(٤) عمر بن فهد : إتحاف الورى ج٢ ص٥١٧ .

(٥) الفاسي : العقد الثمين ج٧ ص٣٤ .

ويبدو أن الأمير قاسم بن هاشم الحسني صاحب مكة أعاد الأموال إلى صاحبها مما جعل الخليفة الفاطمي يستقبل عمارة اليمني ويكرم وفادته ، وأمر الأمير محمد بن شمس الخلافة أن يدفع للأمير قاسم بن هاشم خمسة عشر ألف دينار رسم إطلاق الحاج[١] .

ويلاحظ أن هاتين السفارتين اللتين أرسلهما أمير مكة إلى الخليفة الفاطمي الفائز ووزيره طلائع بن رزيك ، إن دلت على حرص هذا الأمير على العلاقات الودية مع الفاطميين ، إلا أنهما لم يؤديا إلى إحلال النفوذ الفاطمي محل النفوذ العباسي فقد ظلت الخطبة تقام في الحرمين الشريفين للخليفة العباسي المستنجد بالله العباسي[٢] .

وهكذا نجح العباسيون في بسط نفوذهم داخل الحجاز بعد منافسة شديدة مع الفاطميين تمخضت عنها عدة محاولات لبسط النفوذ فمرة يتم بالتهديد العسكري لإرهاب أشراف الحجاز ومرة بالبذل والعطاء لهم وكسبهم عن طريق هذا العطاء .

ولقد أدت ظروف الشدة العظمى وما تلاها من ضعف سلطة الخلفاء وازدياد نفوذ الوزراء في العصر الفاطمي الثاني إلى ترجيح كفة العباسيين في بعض السنين ، وعلى الرغم من أن ولاة مكة والمدينة أقاموا في فترات مختلفة الدعوة للعباسيين إلا أنهم حرصوا على إظهار ودهم للخلفاء الفاطميين ومما لا شك فيه أن انتماء أمراء مكة والمدينة إلى البيت العلوي كان له أثر كبير في حرص هؤلاء الأمراء على التقرب إلى الخلفاء الفاطميين ، الذين ينتسبون إلى فاطمة الزهراء - رضي الله عنها -

نهاية النفوذ الفاطمي في الحجاز :

رأى العباسيون أن الأمير قاسم بن هاشم الحسنى أمير مكة يحرص على التودد والتقرب إلى الخلفاء الفاطميين فخشوا أن يعود النفوذ الفاطمي إلى سابق عهده في الحجاز فقرروا

---

(١) المقريزي : اتعاظ الحنفا ج٣ ص٢٥٣ ، الفاسي : العقد الثمين ج٧ ص٣٤ ، عمر بن فهد : إتحاف الورى ج٢ ص٥١٧ ، عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج١ ص٥٢٤ .

(٢) جمال سرور ٠ النفوذ الفاطمي في جزيرة العرب ص٢٦ .

القضاء على الأمير قاسم وعزله ، فسار أمير الحاج العراقي أرغش التركي إلى مكة في موسم سنة ٥٥٦هـ / ١١٦٠م بصحبة زين الدين بن بكتكين صاحب جيش الموصل ، ومعه طائفة من الجند العباسي ، فقام أمير الحاج العراقي بعزل الأمير قاسم بن هاشم الحسنى بحجة مصادرته أموال المجاورين بمكة[١] وولى مكانه عمه عيسى بن فليتة الحسنى[٢] فظل مقيماً بمكة إلى شهر رمضان من العام نفسه ، حتى قدم قاسم ومعه جموع كثيرة من الأعراب أطمعهم بالمال الذي سيوزعه عليهم حين تفتح مكة فدخلها قاسم ، وأقام بها ، لكنه لم يستطع أن يفى بوعده للأعراب ، ولم يعطهم المال فغضبوا منه ، وازداد غضبهم عليه بعد أن قتل قائداً بارزاً من جنده فأرسلوا إلى عمه عيسى يطلبون قدومه إليهم ، فأتى عيسى مسرعاً فهرب قاسم منه ، وصعد إلى جبل أبي قبيس فسقط عن فرسه فأخذه أصحاب عيسى وقتلوه فعظم على عيسى قتله فأخذه وغسله ودفنه بالمعلي عند أبيه[٣] .

واستقر عيسى بن فليتة في حكم مكة بعد وفاة الأمير قاسم سنة ٥٥٦هـ / ١١٦٠م[٤] وظل يدعو للعباسيين على منابر البلاد ، وكانت الدولة الفاطمية في أواخر أيامها قد شغلت بالفتن التي انتشرت في البلاد وزعزعت الأمن والاستقرار نتيجة الصراعات المستمرة بين رجال الدولة فلم تعد تهتم بعودة الخطبة لها في الحجاز .

وقد استمر عيسى بن فليتة الحسنى في الحكم إلى سقوط الدولة الفاطمية وقيام الدولة الأيوبية .

❋ ❋ ❋

---

(١) الفاسي : العقد الثمين ج٧ ص٣٥ ، عمر بن فهد : إتحاف الورى ج٢ ص٥٢٣ ، أبو الفدا . المختصر في أخبار البشر ج٢ ص٣٩

(٢) ابن فضل الطبري : إتحاف فضلاء الزمن لوحة (١٣) .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج٩ ص٤٥٣ ، أبو الفدا . المختصر ج٢ ص٣٩ ، الفاسي : العقد الثمين ج٧ ص٣٥.

(٤) الفاسي . العقد الثمين ج٦ ص٤٦٥ .

الباب الثانى

الحجاز والدولة الأيوبية

* * *

الحجاز والدولة الأيوبية

مدخل :

منذ تولي صلاح الدين الأيوبي الأمور في مصر ، وهو يعمل من أجل تأمين البلاد وبناء الجبهة الإسلامية الموحدة كمرحلة أولى تتلوها مرحلة التصدي للصليبيين ، فاتجه نحو النوبة وفتحها بعد أن تأكد خطرها على استقرار مصر وأمنها من ناحية الجنوب ، كما قام بالاستيلاء على قلعة أيلة سنة ٥٦٦هـ / ١١٧١م وتقع على شاطئ البحر الأحمر (القلزم) في أول الشام وكانت تسيطر على طريق مصر البري إلى الحجاز كمحطة للقوافل ؛ بل تُعد مفتاح البحر الأحمر لطريق حجاج مصر خاصة والمسلمين عامة .

ولم يكتف صلاح الدين بذلك ؛ بل أرسل أخاه توران شاه في حملة عسكرية إلى اليمن رغبة في أن يملك طرف البحر الأحمر من الجنوب كما ملك ثغر أيلة على رأسه من الشمال ليمنع أي خطر يهدد البلاد المقدسة هذا ، بالإضافة إلى الأهمية التجارية للبحر الأحمر التي لم تكن تخفى على صلاح الدين بعد أن أصبحت عدن مركزاً هاماً من مراكز التجارة في البحر الأحمر .

ومر توران شاه بمكة في طريقه إلى اليمن فدخلها دون قتال ، ورحب به أمير مكة وأعلن دخوله في طاعة نور الدين محمود وتعهد بالخطبة له بعد الخليفة العباسي ، وعقب وفاة نور الدين محمود عمل صلاح الدين على حماية الحجاز وتأمينه ضد الصليبيين ، وتبادل النفوذ مع العباسيين في مكة أواخر أسرة الهواشم التي نكبت بالخلافات المتعددة بين أفرادها من أجل الحكم .

وازداد النفوذ الأيوبي في الحجاز قوة بعد وفاة صلاح الدين وصار ولاة مكة يعينون ويعزلون من قبل السلطان الأيوبي ، كما خضع له أشراف المدينة من الحسينيين وما لبث أن ضعف هذا النفوذ عقب الصراع الذي نشأ بين بني رسول حكام اليمن وبين الأيوبيين .

والحديث في هذا الباب يشتمل على ثلاثة فصول :

الفصل الأول : الوضع السياسي بالحجاز في ظل الأيوبيين .

الفصل الثاني : مظاهر السيادة الأيوبية بالحجاز .

الفصل الثالث : القوى الخارجية المعادية للحجاز وموقف الأيوبيين منها .

الفصل الأول

الوضع السياسي بالحجاز في ظل الأيوبيين

الفصل الأول

الوضع السياسي بالحجاز في ظل الأيوبيين

مدخل :

كان الحجاز في عهد صلاح الدين الأيوبي تحكمه أسرة الهواشم في مكة بالإضافة إلى بني مهنا من آل الحسين حكام المدينة ، وكانوا يخطبون للعباسيين على منابرهم أواخر العصر الفاطمي ؛ بل إن أبا هاشم محمد بن جعفر الحسني مؤسس أسرة الهواشم هو أول من أعاد الخطبة للعباسيين بعد انقطاعها نحو مائة سنة بالحجاز .

لذا لم يرسل صلاح الدين حملة عسكرية للقضاء على أشراف الحجاز الذين يعتنقون المذهب الشيعي هناك ؛ بل اكتفى بإجراءات تحقق الأمن والعدالة للسكان والحجاج القادمين كإلغاء المكوس والقضاء على الفتن والمنازعات ، والعمل على راحة الحجاج .

ولقد تبادل الأيوبيون والعباسيون النفوذ في الحجاز ، فأخذوا يعزلون ويعينون الأمراء من قبلهم ، واستمرت هذه السياسة طوال أسرة الهواشم في مكة ، فلما تولى قتادة بن إدريس الحسني إمارة مكة حرص على إثبات شخصيته المستقلة ، وتصدى لمحاولات قتله ، وعزله ، وفرض ذاته على كل من العباسيين والأيوبيين ، مما أدى إلى دخوله في صراعات مع كليهما ، وخرج سالماً ، وأكد بذلك قدرته على تخطي الصعاب ، وإظهار شخصيته القوية ، وإن استمر يدعو للعباسيين والأيوبيين .

وعلى ضوء هذه الصورة عن الوضع السياسي بالحجاز في ظل الأيوبيين ينصب الحديث في هذا الفصل ليشمل مرحلتين حديرتين بالبحث والدراسة :

الأولى : مرحلة تبادل النفوذ بين العباسيين والأيوبيين (٥٦٩ - ٥٩٧هـ / ١١٧٣ - ١٢٠٠م .

والثانية : مرحلة إثبات الذات (زمن قتادة بن إدريس الحسني (٥٩٧ - ٦١١هـ / ١٢٠٠ - ١٢١٤م) .

أولاً : مرحلة تبادل النفوذ بين العباسيين والأيوبيين (٥٦٩ - ٥٩٧هـ - ١١٧٣-١٢٠٠م) .

حكمت أسرة الهواشم الحسنيين مكة منذ سنة ٤٥٥هـ / ١٠٦٤م[١] ، وهم أول من أعاد الخطبة للعباسيين بمكة والمدينة بعد أن انقطعت نحو مائة سنة[٢] .

ومن أفراد هذه الأسرة الأمير عيسى بن فليتة الحسني الذي كان يحكم مكة أثناء قدوم توران شاه بن أيوب على رأس حملته العسكرية إلى اليمن سنة ٥٦٩هـ / ١١٧٣م وكان قد مرّ في طريقه بمكة المكرمة فدخلها وطاف حول الكعبة وأدى الصلاة ، فلما علم أمير مكة عيسى ابن فليتة الحسني بقدومه خشي على نفسه منه ، وصعد على جبل أبي قبيس على مقربة من المسجد الحرام وتحصن بقلعة سبق أن شيدها هناك[٣] .

ولعله ظن أن الأيوبيين السنيين الذين أسقطوا دولة الفاطميين الشيعية جاءوا لإسقاطه ، وبخاصة أنه كان يعتنق المذهب الشيعي[٤] .

وقد ذكر ابن الجوزي أن توران شاه طمأن الأمير عيسى الحسنى وهدأ من روعه بعد أن نزل إليه الأمير معتذراً وهو يقول : « خفت منك ، والآن فأنا تحت طاعتك » فأقره توران شاه على مكة وأعمالها ، وخلع عليه وعلى أصحابه ، وطيب قلوبهم ، ثم سار إلى اليمن[٥] .

---

(١) الفاسي : العقد الثمين ج١ ص٤٣٩ - ٤٤٠ .

(٢) أمر أبو هاشم محمد بن جعفر الحسني مؤسس أسرة الهواشم بقطع الخطبة للفاطميين والدعوة للعباسيين في مكة سنة ٤٦٢هـ / ١٠٦٩-١٠٧٠م ثم زحف إلى المدينة بجيش من الأتراك واستولى عليها وأخرج منها بني الحسين وجمع بين إمارة الحرمين ، ودانت بلاد الحجاز كلها للخلافة العباسية ، وقد حدث تنافس بين العباسيين والفاطميين في عهد هذه الأسرة إلا أنه انتهى بسيطرة العباسيين على الحجاز أواخر عهد الفاطميين (انظر ص (٩١) من هذا البحث .

(٣) ابن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ورقة ١٨٨ .

(٤) كان أشراف مكة يعتنقون المذهب الزيدي (ابن جبير : الرحلة ص٧٨) .

(٥) ابن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ورقة ١٨٨ .

ويبدو أن عيسى الحسني أرسل إلى بني عمه الحسنيين في المدينة[١] لكي يقيموا الخطبة لنور الدين محمود هناك، فقد ذكر الفاسي أنه منذ ذلك الوقت أخذت منابر الحرمين في مكة والمدينة تخطب للخليفة العباسي المستضئ وللسلطان نور الدين محمود[٢] الذي اتسع ملكه فشمل الموصل والجزيرة وديار بكر ودمشق وحلب ومصر واليمن والحجاز[٣] .

ولما توفي نور الدين محمود ، وآلت الأمور إلى صلاح الدين الأيوبي قام الأمير عيسى ابن فليتة الحسني بالخطبة للخليفة العباسي ، ولصلاح الدين من بعده[٤] وبدأت بذلك مرحلة تبادل النفوذ بين العباسيين والأيوبيين والتي سنعرض لها فيما يلي :

النفوذ العباسي في الحجاز

١- خلع الأمير داود بن عيسى الحسني من إمارة مكة :

استمر عيسى بن فليتة الحسني يخطب للأيوبيين والعباسيين حتى توفي سنة ٥٧٠هـ / ١١٧٤م[٥] وولي إمرة مكة ابنه داود بن عيسى الحسني ، وكان أبوه قد عهد له بها فأحسن السيرة وعدل في الرعية[٦] لكن أخاه مكثراً طمع في الإمارة فجمع أنصاره وثار عليه ، وخلعه

---

(١) عادت أسرة بني مهنا الحسينيين إلى حكم المدينة في عهد الخليفة العباسي المستضئ (٥٦٦ - ٥٧٥هـ) فقد ولي المدينة المنورة لقاسم بن مهنا بن حسين بن مهنا بن داود بن أبي أحمد القاسم بن أبي عبد الله بن أبي القاسم طاهر بن يحيى بن الحسين بن جعفر حجة الله بن أبي جعفر بن عبد الله بن الحسين الأصغر بن زين العابدين بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب وقد استمر يحكم المدينة لمدة خمس وعشرين سنة (انظر الفاسي : العقد الثمين ح٧ ص٣١ ، عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج١ ص٥٤٥).

(٢) الفاسي : العقد الثمين ج١ ص١٨٨ ، شفاء الغرام ج٢ ص٢٣٠ .

(٣) الحريري : الإعلام والتبيين فى خروج الفرنج الملاعين على بلاد المسلمين ص٣٠ .

(٤) العصامي المكي : سمط النجوم العوالي ج٤ ص٢٠٤ ، القلقشندي : صبح الأعشى ج٤ ص٢٧١ .

(٥) ابن ظهيرة : الجامع اللطيف في فضل مكة وأهلها وبناء البيت الشريف ص٣٠٨ .

(٦) عمر بن فهد : إتحاف الورى ج٢ ص٥٣٦ ، عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ح١ ص٥٣٤ - ٥٣٥

منها في ليلة النصف من رجب سنة ٥٧١هـ/ ١١٧٥م[١] .

وقد ذكر بعض المؤرخين أن خلع داود بن عيسى الحسني من الإمارة تم بمساعدة ومؤازرة الخليفة العباسي[٢] ولعل الخليفة العباسي خشي من نفوذ الأمير داود بعد أن أحسن السيرة وعدل في الرعية فقام بتحريض أخيه على خلعه حتى لا يصبح في مكة أمير قوي محبوب من الرعية فيفكر في الاستقلال عن العباسيين .

ب- تولية الأمير مكثر بن عيسى الحسني الإمارة :

تولى مكثر بن عيسى الحسني الإمارة بمساعدة العباسيين بعد فرار أخيه داود إلى وادي نخلة بالقرب من مكة[٣] لكن داود لم يلبث أن عاد إلى مكة في شعبان من نفس العام بعد أن تم الصلح بينه وبين أخيه مكثر على يد شمس الدولة توران شاه بن أيوب أثناء قدومه من اليمن في طريقه إلى بلاد الشام[٤] ، ولم يتدخل توران‌شاه بصورة مباشرة أو غير مباشرة فى أمورهما الداخلية فقد كانت سياسة الأيوبيين تدعو إلى توحيد القوى الإسلامية والقضاء على الفتن والمنازعات، وبالتالى ظل مكثر أميراً على مكة بعد خلع أخيه .

ولقد أخذ مكثر يعمل على تثبيت مركزه وتقوية إمارته ليتحاشى استبداد بغداد به كما حدث مع أخيه بالأمس ، فلجأ إلى شراء الأسلحة ، وتجنيد بعض الرجال وتجديد القلعة التي بناها والده لتكون له حصناً إذا فكر أمير الحاج العراقي في مناوشته أو عزله ، وإن ظل مع ذلك يخطب للعباسيين والأيوبيين[٥] .

(١) ابن ظهيرة : الجامع اللطيف فى فضل مكة وأهلها وبناء البيت الشريف ص٣٠٨ .

(٢) أحمد بن زيني دحلان : خلاصة الكلام ص٢١ ، تاريخ الدول الإسلامية بالجداول المرضية ص١٤١ .

(٣) الفاسي : العقد الثمين ج٤ ص٣٥٤ .

(٤) عمر بن فهد : إتحاف الورى ج٢ ص٥٣٦ - ٥٣٧ .

(٥) أحمد السباعي : تاريخ مكة ج١ ص٢٢٢ .

جـ - أمير الحاج العراقي يعزل الأمير مكثر عن الإمارة :

لما علم الخليفة العباسي بتحصينات مكثر غضب عليه[١] وأمر أمير الحاج العراقي طاشتكين[٢] أن يعزله عن الإمارة[٣] بعد أن أمده بعسكر كثير وعدد من المنجنيقات والنفاطين[٤] .

وكان الخليفة العباسي حريصاً على إضعاف أشراف مكة حتى لا يعودوا للاستقلال مرة أخرى عن العباسيين ، لذا سعى إلى عزل هذا الأمير .

لما علم الأمير مكثر بقدوم أمير الحاج العراقي لقتاله وعزله ، جمع عدداً من الأشراف والأعراب واستعد للنزال[٥] ودار قتال شديد بين الطرفين بالأبطح بالقرب من مكة[٦] وقتل كثير من الفريقين[٧] ولما أيقن مكثر بن عيسى الحسني ضعفه وعجزه عن التغلب على أمير الحاج العراقي وجنوده ، لجأ إلى حصنه بجبل أبي قبيس بعد أن نهب الحجاج وأخذ أموالهم[٨] وتحصن به فحاصره طاشتكين ، مما اضطر مكثراً إلى الهروب وترك الحصن[٩] .

استولى أمير الحاج العراقي على الحصن الذي كان مكثر يحتمي به وأمر بهدمه ، ثم اتجه

---

(١) الفاسي : العقد الثمين ج٧ ص٢٧٦ .

(٢) هو الأمير طاشتكين بن عبد الله المقتفوي ، مجير الدين أمير الحاج العراقي حج بالناس ستًا وعشرين حجة ثم ولاه الخليفة العباسي على جميع خوزستان وقد توفي سنة ٦٠٢هـ (ابن الأثير : الكامل ج ١ ص٣٢١ ، الفاسي : العقد الثمين ج٧ ص٢٧٥ ، وج٥ ص٥٦ - ٥٨) .

(٣) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج١٠ ص٧٧ .

(٤) عمر بن فهد : إتحاف الورى ج٢ ص٥٣٧ .

(٥) المصدر السابق .

(٦) العصامي المكي : سمط النجوم العوالي ج٤ ص٢٠٥ .

(٧) ابن عبد القادر الطبري : الأرج المسكي في التاريخ المكي لوحة (٤٦) .

(٨) المصدر السابق

(٩) عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج١ ص٥٤٠ .

بقواته إلى مكة فنهبوا كثيراً من الدور وسلبوا أموال التجار المقيمين بها ، وأشعلوا النيران في دور كثيرة[١] .

د- أمير المدينة يتولى مقاليد الأمور بمكة :

بعد فرار مكثر بن عيسى الحسني وهزيمته ، ولي أمير الحاج العراقي مقاليد الأمور بمكة إلى أمير المدينة[٢] قاسم بن مهنا الحسيني ، وكان بصحبتهم أثناء هجومهم على الأمير مكثر[٣] .

وقد استمر بمكة لمدة ثلاثة أيام ثم رأى نفسه عاجزاً عن إدارة الأمور والقيام بأعباء مكة ، وأنه لن يستطيع القيام بمنصبه بعد رحيل أمير الحاج العراقي[٤] خوفاً من قتال صاحب مكة مكثر بن عيسى الحسني[٥] وطلب إعفاءه من الإمارة لأن أنصاره وأتباعه في المدينة ، ولا

---

(١) عمر بن فهد : إتحاف الورى ج٢ ص٥٣٧ .

(٢) سبق القول أن بني الحسين أقاموا إمارة لهم بالمدينة المنورة ، ولم يكن لهذه الإمارة دور يذكر في السياسة الخارجية للحجاز ، وإنما صارت مقاليد الأمور بيد أشراف مكة من بني الحسن ، ويبدو أنهم كانوا من القوة إلى حد تدخلهم في إمارة المدينة المنورة وعزل بني الحسين منها مرات عديدة نتيجة خروجهم عن طاعتهم كما حدث في عهد الشريف أبي الفتوح الحسن بن جعفر الحسني سنة ٣٩٠هـ / ١٠٠٠م وفي عهد ابنه تاج المعالي شكر بن أبي الفتوح الحسني الذي ملك المدينة لمدة ثلاث عشرين سنة، واستطاع الشريف أبو هاشم محمد بن جعفر الحسني مؤسس أسرة الهواشم الاستيلاء على المدينة وطرد بني الحسين منها سنة ٤٦٢هـ / ٦٩ - ١٠٧٠م وصار أميراً للحرمين وظلت المدينة تتبع الهواشم إلى أن قرر الخليفة العباسي المستضئ إعادة أشراف بني الحسين إلى المدينة أواخر عهد الهواشم وولى عليهم قاسم بن مهنا الحسيني ، ويبدو أنه كان ينقم على الهواشم مافعلوه بأسرته فاشترك مع العباسيين في حملتهم على مكة (انظر (ص١١٨) من هذا البحث) .

(٣) الفاسي : العقد الثمين ج٤ ص٣٥٥ .

(٤) دحلان · خلاصة الكلام ص٢١ .

(٥) الفاسي : العقد الثمين ج٤ ص٣٥٥ .

يوجد في مكة من يدفع عنه هجوم مكثر وأنصاره من الأشراف الحسنيين ، وقال لأمير الحاج العراقي إني لا أتجاسر أن أقيم بمكة بعد خروج الحاج[١] فقرر أمير الحاج أن يعيد داود بن عيسى الحسني مرة أخرى للإمارة بعد خلع أخيه مكثر واشترط على داود إلغاء المكوس عن الحجاج ، وأخذ عليه العهود والمواثيق بذلك[٢] .

ويلاحظ مما سبق التدخل الفعلي للعباسيين في شئون الحجاز الداخلية وازدياد نفوذهم إلى حد عزل أمراء الأشراف وتعيينهم ، ولم يتدخل صلاح الدين الأيوبي الذي يخطب للخليفة العباسي على منابر بلاده في الخلافات التي نشأت بين أشراف الحجاز والعباسيين حتى لا يعضب الخليفة العباسي .

(١) عمر بن فهد . إتحاف الورى ج٢ ص٥٣٨ .

(٢) عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج١ ص٥٣٥ .

النفوذ الأيوبي في الحجاز

أ - إلغاء المكوس المفروضة على الحجاج :

احتدم النزاع مرة أخرى بين الأخوين داود ومكثر عقب رحيل أمير الحاج العراقي فعزل مكثر أخاه داود ، وتولى الإمارة سنة ٥٧٢هـ / ١١٧٦م[١] لكنه نقض العهود والمواثيق التي قطعها أخوه على نفسه للعباسيين بإسقاط المكوس فأعادها على الحجاج مرة أخرى ، وقد كان أشراف الحجاز يعتبرون المكوس موارد مالية خاصة بهم ولا غنى عنها لأنها تعد مورد الإمارة الرئيسي ، فتدخل صلاح الدين في هذا الأمر بصورة طيبة مكنته من إلغاء هذه المكوس في نفس العام[٢] .

فقد روي المؤرخون أن أحد رجال صلاح الدين الأيوبي ويسمى الشيخ علوان الأسدي الحلبي ذهب إلى الحجاز لتأدية فريضة الحج ، فلما وصل إلى جدة طولب بالرسوم المفروضة فأبى أن يدفعها لهم وأراد العودة من حيث أتى ، فخشي الحجازيون عاقبة الأمر فبعثوا به إلى الأمير مكثر الحسني الذي اعتذر له ، وبين حاجة الحجاز إلى فرض مثل هذه الرسوم لضيق موارده ، فلما اقتنع الشيخ برأيه كتب إلى صلاح الدين الأيوبي بما حدث فقرر صلاح الدين إلغاء هذه المكوس ، وعوض أمير مكة عنها ألفي دينار ، وألفى إردب من القمح سوى اقطاعات بصعيد مصر واليمن[٣] يبلغ مقدار إنتاجها ثمانية آلاف إردب قمح تحمل إلى ساحل جـدة كل عام[٤] وقـرر صلاح الدين أيضاً إرسال الغلال إلى المجاورين والفقراء بمكة والمديـنة[٥] .

---

(١) الفاسي : العقد الثمين ج٤ ص٣٥٦ ، عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج١ ص٥٣٦ .

(٢) الصباغ: تحصيل المرام في أخبار البيت الحرام لوحة (٢٣٤)، عمر بن فهد: إتحاف الورى ج٢ ص٥٣٨ .

(٣) المقريزي . السلوك ج١ ق١ ص٦٤ ، الفاسي : العقد الثمين ج١ ص١٨٩ ، ج٧ ص٢٧٧ ، الجزيري : درر الفرائد ج١ ص٥٧٢ .

(٤) الصباغ : تحصيل المرام لوحة (٢٣٤) ، الأصفهاني : سنا البرق الشامي ص١٥٣ - ١٥٤ .

(٥) الأصفهاني · سنا البرق الشامي ص١٥٣ - ١٥٤ .

وقد وصف ابن جبير إلغاء صلاح الدين هذا المكس بقوله : « فمحا هذا السلطان هذا الرسم اللعين ، ودفع عنه عوضاً ما يقوم مقامه من أطعمة وسواها ، وتكفل بتوصيل جميع ذلك إلى الحجاز لأن الرسم المذكور كان باسم ميرة مكة والمدينة عمرهما الله فعوض عن ذلك أجمل عوض وسهل السبيل للحجاج »[١] ، وكان الرسم المفروض على كل حاج سبعة دنانير مصرية ونصف دينار[٢] .

وقد أرسل الأمير مكثر رسالة يشكر فيها السلطان صلاح الدين الأيوبي على وصول الغلال والأموال إلى الحجاز فأجابه السلطان بأنه سيضاعف هذه الأحمال كل عام على أن يعم خيرها كل أبناء الحجاز ، وهو ما تبينه الرسالة التي كتبها القاضي الفاضل على لسان السلطان للرد على الأمير مكثر وجاء فيها :

« وصل كتابك أيها الشريف معرباً عن المشايعة الشائعة أبناؤها ، والمخالصة الخالصة أسرارها ، واقتضى ما يعرضه أن خرج الأمر بأن يضاعف المحمول في كل عام ، ولا يخص به خاص دون عام ، وأمرنا أن توفر السفن وتوفر الدواب ليحج للحرم الشريف بين البر والبحر وبين حمل البطن والظهر فتظل السنة ودوداً ولوداً »[٣] .

إلا أن الأمير مكثر أخذ يشتد على الحجاج ، ويقسو عليهم ، وبخاصة عند تأخر إمدادات الغلال والأموال عن الوصول إليه[٤] فلما علم صلاح الدين بذلك كتب إليه كتاباً ينهاه فيه عن الجور والظلم ، ويتهدده ويتوعده ، وقد جاء فيه « اعلم أيها الشريف أنه ما أزال نعمة عن أماكنها وأبرز الهمم عن مكامنها وأثار سهم النوائب عن كنائنها كالظلم الذي لا يعفو الله عن فاعله ، والجور الذي لا يفرق بين قائله وقابله ، فإما رهبت ذلك الحرم الشريف وأجللت ذلك المقام المنيف ، وإلا قوينا العزائم ، وأطلقنا الشكائم ، وكان الجواب ما تراه لا ما تقرأه »[٥] .

---

(١) ابن جبير : الرحلة ص٣١ .

(٢) عمر بن فهد : إتحاف الورى ج٢ ص٥٣٩ - ٥٤٠ .

(٣) القلقشندي : صبح الأعشى ج٧ ص١١٠ .

(٤) ابن جبير : الرحلة ص٥٤ .

(٥) الفاسي : العقد الثمين ج٧ ص٢٧٨ .

ومن خلال ما سبق يمكن القول أن صلاح الدين الأيوبي كان مهتماً بأمر الحرمين الشريفين ورعاية أهلهما ، وحماية الحجاج مما استدعى أن يطلق عليه لقب « خادم الحرمين الشريفين »[١] .

ب- حملة سيف الإسلام طغتكين بن أيوب وآثارها :

أثناء حكم مكثر بن عيسى في مكة أرسل صلاح الدين الأيوبي أخاه سيف الإسلام طغتكين في ألف فارس وخمسمائة راجل إلى اليمن[٢] .

ويذكر ابن الأثير سبب هذه الحملة بأن عز الدين عثمان الزنجبيلي والي عدن كتب إلى صلاح الدين يخبره بتردي الأحوال في اليمن ، وانتشار الفتن هناك[٣] عقب وفاة توران شاه بالاسكندرية سنة ٥٧٦هـ/ ١١٨٠م[٤] إذ أظهر نوابه العصيان وحاولوا الاستقلال بما تحت أيديهم من البلاد ، وضرب كل منهم سكة لنفسه ، ومنع أهل بلده التعامل بغيرها[٥] وتنازعت نفسه الاستحواذ على ما يمتلكه غيره من جهات[٦] فاضطربت أحوال اليمن ، واضطر صلاح الدين إلى إرسال مملوكه خطلبا لإصلاح الأمور بها ، لكنه لم يلبث أن توفى فعادت الأمور إلى ما كانت عليه من قبل[٧] فأرسل صلاح الدين آنذاك أخاه سيف الإسلام طغتكين لتولي اليمن ، وضبط الأمور بها وإعادة سلطة الأيوبيين عليها[٨] .

---

(١) حسن الباشا : الألقاب الإسلامية ص ٢٦٨ نقلاً عن Repertoire ج٩ رقم ٣٤٤٧ ، عبد المنعم ماجد : الناصر صلاح الدين ص ١٥٣ ، ريتشارد مورتيل: مكة فى العصر المملوكى ص ٣٢.

(٢) ابن أبي الهيجاء : تاريخ ابن أبي الهيجاء لوحة (٢٦٢) ، العقيلي : المخلاف السليماني ج١ ص١٧٦.

(٣) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج١٠ ص١١١ .

(٤) بامخرمة : تاريخ ثغر عدن ص٧٠ .

(٥) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص٧٧ .

(٦) بامخرمة : تاريخ ثغر عدن ص١٠١ .

(٧) المصدر السابق . ص١٠٢ .

(٨) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص٧٨ .

وفي طريقه إلى اليمن مر طغتكين ببلاد الحجاز ودخلها في رمضان سنة ٥٧٩هـ[١] ونزل في ينبع ، واتجه منها إلى المدينة المنورة لزيارة قبر الرسول - صلى الله عليه وسلم - وتواترت الأنباء على مكة بقدومه فظن الأمير مكثر أن صلاح الدين أرسله لتأديبه ففزع وفكر في الفرار، وعقد العزم على ذلك ، فقام بالطواف حول الكعبة طواف الوداع استعداداً للرحيل[٢] .

لكنه تردد في الرحيل عن مكة فقرر أن يستسلم لطغتكين كما روي ابن جبير[٣] فانتظر لقاءه ، وذهب يطوف حول الكعبة طواف التسليم وأثناء طوافه وصلت مقدمة قوات طغتكين وعسكره إلى الحرم المكي حين كان مكثر يطوف فزاحمته القوات في الطواف ، وبينما الناس ينظرون إليهم إذ أقبل الأمير سيف الإسلام طغتكين في موكب كبير ، وقد وصف ابن جبير قدومه بأنه دخل من باب بني شيبة ، ولمعان السيوف أمامه يكاد يحول بين الأبصار وبينه، والقاضي عن يمينه وزعيم الشيبيين عن يساره ، والمسجد قد امتلأ بالنظارة والوافدين ، والأصوات قد علت له بالدعاء ولأخيه صلاح الدين حتى صكت الأسماع[٤] والمؤذن يرفع صوته بالدعاء له ، والثناء عليه ، ثم بدأ الأمير في مراسم العمرة بالطواف حول البيت ثم الصلاة خلف المقام ، وسعى بين الصفا والمروة[٥] وأثناء ذلك كان الأمير مكثر قد فرغ من الطواف وبادر إلى منزله خائفاً[٦] .

ولعل طغتكين أدرك ذلك لأنه لم يجده في استقباله لدى دخوله مكة ، فأرسل إليه ، وطمأنه ، وهدأ روعه ، وأقره على إمارة مكة وخلع عليه خلعة حسنة ، وخلعتين من الديبق المرقوم البديع الصنع باسم الخليفة[٧] .

---

(١) بامخرمة : تاريخ ثغر عدن ص١٣٣ .

(٢) ابن جبير : الرحلة ص١٢٤ .

(٣) المصدر السابق .

(٤) المصدر السابق ص١٢٤ .

(٥) المصدر السابق ص١٢٥

(٦) المصدر السابق .

(٧) ابن فهد : إتحاف الورى ج٢ ص٥٤٦ .

وقد ذكر ابن جبير أنه شاهدهما بنفسه أثناء وجوده بمكة فقال : « طلع علينا الأمير وغاشيته[١] الأقربون حوله ، وهو رافل في حلة ذهب كأنها الجمر المتقد يسحب أذيالها ، وعلى رأسه عمامة شرب رقيق سحابي اللون وقد علا كورها[٢] على رأسه كأنها سحابة مركومة ، وهي مصفحة بالذهب ، وتحت الحلة خلعتان من الدبيقي المرسوم البديع الصنعة خلعها عليه الأمير سيف الإسلام فوصل بها فرحان جذلان والطبول والدبادب تشيعه عن أمر سيف الإسلام إشادة بتكرمته ، وإعلاماً بأثرة منزلته فطاف بالبيت المكرم شكراً لله على ما وهبه من كرامة هذا الأمير بعد أن كان أوجس في نفسه خيفة منه »[٣] .

وقد صلى الأمير سيف الإسلام طغتكين مع الأمير مكثر في القبة العباسية ثم خرج في طريقه إلى اليمن[٤] حيث استطاع أن يصلح الأمور به وأن يعيده إلى سلطة الأيوبيين[٥] بعد أن ملكه كله طوعاً و كرهاً[٦] ، واستولى على الحصون التي فتحها من قبل أخوه توران شاه ، وزاد عليها[٧] ، ودخل في طاعته أهل صنعاء وصعدة والجوف[٨] وسور زبيد ، وغيرها من حصون اليمن الأخرى ، ووحدهم تحت لوائه بعد أن كان يسودهم التفكك والانقسام[٩] .

ولم تستقر الأمور في مكة عقب رحيل طغتكين عنها ، إذ عاد الصراع مرة أخرى بين الأخوين داود ومكثر ، وهزم مكثر وتولى داود الأمور بمكة ، وقام عبيده بنهب الحجاج وضربهم مما أدى إلى عودة سيف الإسلام طغتكين إلى مكة مرة أخرى في سنة ٥٨١هـ / ١١٨٥م

(١) غاشيته : زواره وأصدقاؤه (المعجم الوسيط ج٢ ص٦٥٣) .

(٢) كورها : الدور منها ، وكوّر الشئ : لفه على جهة الاستدارة (المعجم الوسيط ج٢ ص٨٠٤) .

(٣) ابن جبير : الرحلة ص١٢٦ .

(٤) المصدر السابق .

(٥) ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص٧٨ .

(٦) بامخرمة : تاريخ ثغر عدن ص١٣٣ .

(٧) المصدر السابق .

(٨) يحيى بن الحسين : غاية الأماني ج١ ص٣٣٥ .

(٩) بامخرمة : تاريخ ثغر عدن ص١٣٣ .

لتأديب الأمير داود[١] الذي فر حين علم بمقدم سيف الإسلام طغتكين[٢] ولجأ إلى قلعته بجبل أبي قبيس يحتمي بها[٣] فدخل سيف الإسلام مكة[٤] دون قتال ، واستولى عليها ، وخطب بها لأخيه صلاح الدين الأيوبي[٥] وضرب الدراهم والدنانير باسم صلاح الدين[٦] وقتل جماعة من العبيد يتبعون أمير مكة كانوا يؤذون أهلها والحجاج ، وأمر بقية العبيد أن يكفوا أذاهم عن المسلمين[٧] ومنع الزيدية من الأذان في الحرم بحي على خير العمل[٨] .

جـ - أمير الحاج المصري يعزل أمير مكة :

بعد أن نشر سيف الإسلام طغتكين الأمن والهدوء في ربوع مكة عاد إلى اليمن في نفس العام[٩] وعاد داود بن عيسى الحسني إلى تولى الأمور بمكة ، وفي سنة ٥٨٧هـ/١١٩١م قام بالاستيلاء على أموال الكعبة ، وانتزع طوقاً من الفضة كان على دائرة الحجر الأسود يلم شعثه منذ ضربه أحد القرامطة بالدبوس[١٠] .

فلما أخبر الحجيج السلطان صلاح الدين الأيوبي بما فعله داود بن عيسى الحسني ، أمر صلاح الدين أمير الحاج المصري أن يعزل داود عن إمارة مكة ويولي أخاه مكثراً بدلاً منه[١١] .

---

(١) ابن ظهيرة : الجامع اللطيف ص٣٠٩ .

(٢) العصامي : سمط النجوم العوالي ج٤ ص٢٠٦ .

(٣) الفاسي : شفاء الغرام ج٢ ص١٩٨ ، ابن أبي الهيجاء : تاريخ ابن أبي الهيجاء لوحة (٢٧٤) .

(٤) ابن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ورقة (٢٤٨) .

(٥) الجزيري : درر الفرائد ج١ ص٥٧٤ .

(٦) الطبري · إتحاف فضلاء الزمن لوحة (١٤) .

(٧) عمر بن فهد : إتحاف الورى ج٢ ص٥٥٣ ، ابن أبي الهيجاء : تاريخ ابن أبي الهيجاء لوحة (٢٧٤) .

(٨) عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج١ ص٥٤٨ .

(٩) بامخرمة . تاريخ ثغر عدن ص١٣٣ .

(١٠) ابن كثير . البداية والنهاية ج١٢ ص٣٤٦ .

(١١) القرماني : أخبار الدول ص٢٢٥ .

وذهب داود إلى وادي نخلة هرباً من مكة عندما علم بمقدم الركب المصري وبقي هناك حتى وفاته سنة ٥٨٩هـ / ١١٩٣م[١] .

- *سقوط أسرة الهواشم في مكة :*

انفرد مكثر بن عيسى الحسنى بحكم مكة عقب وفاة أخيه[٢] ، وكان آخر حكام الهواشم لأن الحكم انتقل بعد ذلك إلى فرع حسني آخر هم بنو قتادة الذين عزلوا مكثراً عن إمارة مكة سنة ٥٩٧هـ / ١٢٠١م[٣] .

وبذلك سقطت إمارة الهواشم في مكة نتيجة الصراع المستمر حول وراثة الإمارة الذي ظهر أول مرة سنة ٥٥٧هـ / ١١٦١م بين قاسم بن هاشم بن فليتة الحسني ، وبين عمه عيسى بن فليتة الحسني[٤] وقد أدى ذلك النزاع إلى انتشار الفساد في مكة ، وظهور بعض العناصر التي استغلت هذه الأحداث في نهب الحجاج والتجار مما أدى إلى تدخل الأيوبيين والعباسيين في شئون مكة الداخلية فلجأوا إلى عزل شريف ، وإقامة آخر مكانه .

وقد بين المؤرخون أسباب زوال أسرة الهواشم بانهماك أمرائها في اللهو وتبسطهم في الظلم ، وإعراضهم عن صونها ممن يريدها بسوء اغتراراً منهم بما هم فيه من العز والعسف[٥].

وبسقوط أسرة الهواشم انتهت مرحلة تبادل النفوذ بين العباسيين والأيوبيين على مكة .

---

(١) عمر بن فهد : إتحاف الورى ج٢ ص٥٥٩ .

(٢) المصدر السابق ص٥٦٠ .

(٣) الصباغ : تحصيل المرام لوحة (٢١٩) .

(٤) ابن ظهيرة : الجامع اللطيف ص٣٠٧ .

(٥) الفاسي : العقد الثمين ج٧ ص٤٠ ، عمر بن فهد : إتحاف الورى ج٢ ص٥٦٦ ، عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج١ ص ٥٥١ .

ثانياً : مرحلة إثبات الذات (زمن قتادة بن إدريس الحسنى ٥٩٧هـ - ٦١١هـ/ ١٢٠٠م-١٢١٤م):

في هذه المرحلة أثبت أشراف الحجاز ذاتهم ، وتولى قتادة بن إدريس الحسنى الحكم في مكة ولم يستطع العباسيون أو الأيوبيون أن يفرضوا نفوذهم في عهده ، وصار مستقلاً بكل أموره ، بل أثبت أنه ند لكل من الخليفة العباسي والسلطان الأيوبي وسنعرض لهذه المرحلة فيما يلي :

- قتادة بن إدريس الحسني يخرج عن طاعة الهواشم الحسنيين ويستولى على ينبع :

كان قتادة بن إدريس الحسنى[(١)] ، قد انتهت إليه الرئاسة في قومه من الأشراف في منطقة العلقمية بوادي ينبع أواخر عهد الهواشم الحسنيين بمكة فوحد صفوفهم ، وأركبهم الخيل ، واستكثر من الجند والمماليك[(٢)] الأتراك[(٣)] وبدأ العمل على توسيع رقعة إمارته فضم وادي الصفراء إليه بعد أن أخرج منه بني يحيى من الأشراف الحسنيين ، ثم حارب جماعة أخرى من أشراف بني الحسن ، كانوا يقطنون منطقة ينبع مثل بني حراب وبني أحمد بن إبراهيم ، واستطاع هزيمتهم وإخضاعهم له ، وبذا تمت له السيطرة على منطقة ينبع كلها[(٤)] بعد أن كانت تلك المناطق تخضع لسيادة أشراف الهواشم الحسنيين[(٥)] فلم يتحركوا للدفاع عنها أو

---

(١) هو قتادة بن إدريس بن مطاعن بن عبد الكريم بن عيسى بن حسين بن سليمان بن علي بن عبد الله بن محمد بن موسى بن عبد الله بن موسى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب (انظر: الفاسي . العقد الثمين ج٧ ص٣٩ ، الصباغ : تحصيل المرام لوحة ٢١٩ ، ابن عنبة : عمدة الطالب ص١٤١ ، الجزيري . درر الفرائد ج١ ص٥٧٧ ، ابن ظهيرة : الجامع اللطيف ص٣٠٩) .

(٢) ابن خلدون : العبر ج٤ ص١٣٥ .

(٣) الصباغ : تحصيل المرام لوحة (٢١٩) .

(٤) الفاسي : : العقد الثمين ج٧ ص٤٠ .

(٥) الصباغ : تحصيل المرام لوحة (٢١٩) .

استعادتها، مما جعل قتادة يفكر في الاستيلاء على مكة وإخراج الهواشم منها لأنه كان يعلم مدى ما تعانيه مكة من القلاقل ، والفوضى في أواخر أسرة الهواشم فقد ضعف أفرادها ، وتنازعوا الإمارة وصاروا لا يهتمون إلا بأنفسهم فأهملوا أمر مكة وأعمالها حتى استشرى الفساد ، وانتشرت الفتن ، ونشط قطاع الطرق ، ولم يسلم الحجاج منهم إلا بعد دفع الإتاوة[١] بل إن أشراف مكة أنفسهم كانوا أحياناً ما يعتدون على التجار ، ويسلبون بضائعهم ، فقد ذهب أحد التجار إلى الأمير قتادة بن إدريس الحسني في ينبع يشكو الأمير مكثر بن عيسى الحسني أمير مكة لأنه سلبه أمواله وممتلكاته فطمأنه قتادة وقال له : «إذا كان الموسم القادم فأتني بمكة تجد متاعك والنصفة »[٢] ومعنى ذلك أنه عقد العزم على دخول مكة قبل موسم الحج إذ يذكر ابن فضل الطبري أنه جمع أتباعه ، وأنصاره وقال لهم : «خطر ببالي أخذ مكة فإن ولاتها جاروا ، وقد ظلموا ، فأجابوه جميعاً بالسمع والطاعة »[٣] .

- استيلاء قتادة على مكة المكرمة :

لما وجد قتادة من أتباعه استعداداً للزحف على مكة قام بتجهيزهم بكل ما يحتاجونه من السلاح والمؤن[٤] وقبل أن ينطلقوا للمسير أخذ يستطلع أحوال الأشراف في مكة فعلم أن بعض قادة مكثر بن عيسى الحسني في حالة تذمر وغضب من سوء معاملته لهم هو وأفراد حاشيته مما غير خواطرهم عليه[٥] فأسرع قتادة إلى الاتصال بهؤلاء القادة وعمل على استمالتهم إلى جانبه وسألهم مساعدته في الاستيلاء على مكة[٦] .

---

(١) الطبري : إتحاف فضلاء الزمن لوحة (١٤) ، رضي الدين : تنضيد العقود السنية : لوحة رقم (٧) .

(٢) المصدران السابقان .

(٣) المصدران السابقان .

(٤) دحلان : تاريخ الدول الإسلامية بالجداول المرضية ص١٤٣ .

(٥) عمر بن فهد : إتحاف الورى ج٢ ص٥٦٧ .

(٦) الفاسي : العقد الثمين ج٧ ص٤٠ .

ويبدو أن هؤلاء القادة أبدوا موافقتهم على مساعدته مما يسر لجنوده أمر الاستيلاء على مكة دون مقاومة فقد ذكر المؤرخ المكي الفاسي أن أهل مكة فوجئوا بقوات قتادة وقد دخلت مكة وقادتهم على ما هم فيه من الانهماك في اللهو والترف فلم يستطيعوا المقاومة[١] .

ومما يسر لجنود قتادة الاستيلاء على مكة أيضاً وجود الشريف مكثر في وادي التنعيم يوم الهجوم على البلد الحرام ، فأهل مكة يخرجون إلى وادي التنعيم للعمرة في السابع والعشرين من رجب كل عام إحياء للسنة التي سار عليها عبد الله بن الزبير -رضي الله عنه- ويقضون عدة ليال في هذا الوادي يتجولون[٢] .

وقد وصف ابن جبير خروج أهل مكة لهذه العمرة التي يسمونها عمرة الأكمة بأنهم يحرمون فيها من أكمة أمام مسجد عائشة -رضي الله عنها-[٣] والأصل في هذه العمرة الأكمية عندهم أن عبد الله بن الزبير لما فرغ من بناء الكعبة المقدسة خرج ماشياً حافياً معتمراً وأهل مكة معه فانتهى إلى تلك الأكمة فأحرم منها في السابع والعشرين من رجب فبقيت تلك العمرة سُنّة عند أهل مكة فيخرج أشراف مكة وأهلها ، «ويقيمون أياماً يُطْعِمون ويُطْعَمون ويتنعمون وينعمون شكراً لله»[٤] .

لذا دخلت قوات قتادة مكة المكرمة من جهة المرتفعات أثناء وجود الشريف مكثر في التنعيم ، وأعلنت سقوط مكثر وتنصيب قتادة أميراً على مكة[٥] ففر مكثر إلى وادي نخلة حيث توفى هناك سنة ٦٠٠هـ / ١٢٠٤م[٦] .

---

(١) الفاسي : العقد الثمين ج٧ ص ٤٠ .

(٢) أيوب صبري : مرآة جزيرة العرب ج١ ص٩٣ .

(٣) ابن جبير : الرحلة ص١١٤ .

(٤) المصدر السابق ص١١٥ .

(٥) أيوب صبري : مرآة جزيرة العرب ج١ ص٩٣ .

(٦) العصامي المكي : سمط النجوم العوالي ح٤ ص٢٠٨ .

وبعد وفاته جمع ابنه محمد بن مكثر بعض أعوانه وأنصاره واتجه إلى مكة في محاولة لاسترداد ملك آبائه ، لكن حنظلة بن قتادة ألحق به الهزيمة وقضى على أنصاره[١] وقد ذكر المقريزي (ت ٨٤٥هـ / ١٤٤٢م) أن قتادة بن إدريس الحسني أرسل ابنه حنظلة فحارب الهواشم ، وهزمهم ، وملك مكة ، ثم قدم قتادة بعد استقرار أمورها لابنه سنة ٦٠٠هـ[٢] .

وقد روى الفاسي (ت ٨٣٢هـ / ١٤٢٨م) هذه الرواية فقال : « قيل إنه لم يأت إليها في ابتداء ملكه لها ، وإنما أرسل ابنه حنظلة فملكها »[٣] وقد ذكر بعض المؤرخين الآخرين أن قتادة هجم على مكة ، وملكها بنفسه ، وأخرج منها مكثراً[٤] ولعل قتادة بقي في ينبع لكي يواصل إرسال المدد من الجند لابنه حتى إذا استقرت له الأمور في مكة ، جاء إليها مصطحباً أفراد أسرته وحاشيته .

بعد استيلاء قتادة على مكة عمل على تنظيم ملكه فأنشأ الوزارة وعين ابن الريحاني المكي وزيراً له[٥] ثم خطب للخليفة العباسي الناصر ليضمن مساندته له[٦] وليضفى على

(١) الفاسي : العقد الثمين ج٧ ص٤٠

(٢) المقريزي : السلوك ج١ ق١ ص١٦٢ .

(٣) الفاسي : العقد الثمين ج٧ ص٤٠ .

(٤) ابن خلدون : العبر ج٤ ص١٣٥ . ، القرماني : أخبار الدول ص٢٢٥ .
، ابن ظهيرة : الجامع اللطيف ص٣٠٩ . ، دحلان : تاريخ الدول الإسلامية بالجداول المرضية ص١٤١ .
، الصباغ : تحصيل المرام لوحة (٢١٩) . ، ابن عنبه : عمدة الطالب ص١٣٨ .
Hogarth (D. G). A History of Arabia pp82 (Clarendon press- oxford, 1922)

(٥) هو سليمان بن عبد الله بن الحسن بن علي بن محمد بن عبد السلام بن راشد التميمي الدارمي يكنى أبا الربيع ابن أبي محمد ، ويلقب نجم الدين ويعرف بابن الريحاني ، ولد بمكة سنة ٥٧٤هـ / ١١٧٨م ، وقد سمع بمكة من عمه أبي الحسن علي بن الحسن الريحاني بقراءة علي بن المفضل المقدسي ، ثم قدم مصر واستوطنها وسمع بها وقد أسر في الحرب التي قامت بين قتادة وصاحب المدينة وأطلق سراحه ، وقد توفى بالقاهرة سنة ٦٤٢هـ / ١٢٤٤م ودفن بسفح المقطم (الفاسي : العقد الثمين ج٤ ص٦٠٧ - ٦١٠) .

(٦) ابن خلدون : العبر ج٤ ص١٣٥ .

حكمه صفة الشرعية فأتته الخلع والأموال من بغداد اعترافاً به وتأييداً له[١] ثم خطب للملك العادل بن أيوب بعد الخليفة الناصر[٢] .

- الصراع بين قتادة وأشراف المدينة :

لما أحكم قتادة سيطرته على ينبع ومكة شرع يفكر في بسط نفوذه على المدينة المنورة لكي يضمن ولاء أصحابها له ففي سنة ٦٠١هـ / ١٢٠٤م زحف قتادة على رأس جيش كبير من مكة إلى المدينة[٣] للاستيلاء عليها ، فتجهز صاحبها سالم بن قاسم الحسيني وخرج للقائه بذي الحليفة بالقرب من المدينة[٤] ودار قتال شديد بينهما فانهزم سالم ولجأ إلى المدينة فحاصره قتادة بها أياماً إلا أن سالماً كان ذا مكر ودهاء فلجأ إلى الحيلة ، واستمال بعض أصحاب قتادة وأغراهم بالأموال حتى يتركوا صاحبهم ويعودوا إلى مكة ، وعندما تأكد من نجاح خطته خرج على قتادة وهو مغتر بقوته ، ومتهاون به واشتد القتال بينهما فانهزم قتادة وأسر من أصحابه عدد كبير من بينهم ابن الريحاني المكي وزير قتادة[٥] فعاد قتادة إلى مكة ، لكن شريف المدينة سالم بن قاسم الحسيني تبعه ولحق به وحاصره في مكة كحصاره له في المدينة فلجأ قتادة إلى بعض أتباع سالم واستمالهم إليه فخالفوا صاحبهم ، وانقلبوا عليه ، فاضطر سالم إلى العودة للمدينة مكتفياً بما حل بقتادة وقواته[٦] .

ولا شك أنه قد حدث صلح بينهما وتبادل للأسرى ، إذ يخبرنا ابن فهد أن أصحاب المدينة

---

(١) الفاسي : العقد الثمين ج٧ ص٥٧ .

(٢) ابن خلدون : العبر ج٤ ص١٣٥ ، أحمد السباعي : تاريخ مكة ج١ ص٢٢٩ ، الفاسي : العقد الثمين ج٧ ص٤٢ .

(٣) ابن الساعي الخازن . الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير ص١٥٢ .

(٤) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج١٠ ص٢٩٨ .

(٥) الفاسي : العقد الثمين ح٧ ص٤٢ ، رضي الدين : تنضيد العقود السنية لوحة (٨) ، عمر بن فهد . إتحاف الورى ج٣ ص٣ .

(٦) العصامي . سمط النجوم العوالي ج٤ ص٢١٠ .

أطلقوا وزير قتادة من الأسر فلما عاد إليه سأله قتادة : ماذا فعل سالم بكم؟ فأخبره الوزير بحسن معاملتهم له ولأصحابه[١] .

- استيلاء قتادة على الطائف :

بعد فشل قتادة في الاستيلاء على المدينة سعى للسيطرة على الطائف وإخضاعها لسلطانه فجهز جيشاً سنة ٦١٣هـ / ١٢١٧م لقتال بني ثقيف بالطائف[٢] حيث التقى بهم وقاتله مشايخ ثقيف قتالاً عنيفاً تمكن في نهايته من الانتصار عليهم[٣] .

ولما دخل قتادة الطائف هرب زعماؤها وتحصنوا في حصونهم فأرسل قتادة إليهم يستدعيهم للحضور إليه ، ويؤمنهم ، ويتوعدهم بالقتل إن لم يحضروا ، فاجتمع مشايخ ثقيف وتشاوروا فيما بينهم ، ومال أكثرهم إلى الاستسلام لقتادة خشية أن يقتحم عليهم حصونهم ، ويقتلهم ، فلما ذهبوا إليه نقض عهده لهم وأمر بقتلهم جميعاً ، واستخلف على الطائف نواباً من قبله ، وأمدهم بعدد من العبيد الأشداء يشدون من أزرهم[٤] ويحفظون لهم الأمن[٥] .

وهنا يرد تساؤل : لم هاجم قتادة الطائف واستولى عليها ؟

الحقيقة أن قتادة أراد أن يكون إمارة قوية في الحجاز لا تخضع لقوى خارجية فاستولى على ينبع وما حولها ثم اتجه إلى مكة حاضرة الحجاز آنذاك واستطاع إخضاعها لسلطانه ، وحارب أشراف المدينة حتى يضمن ولاءهم له ، ثم اتجه إلى الطائف المدينة الغنية بمواردها

---

(١) عمر بن فهد : إتحاف الورى ح٣ ص٣ ، الجزيري : درر الفرائد ح١ ص٥٧٩ .

(٢) الفاسي : العقد الثمين ج٧ ص٤٥ .

(٣) أحمد السباعي : تاريخ مكة ج١ ص٢٢٨ .

(٤) الفاسي : العقد الثمين ج٧ ص٤٦ .

(٥) عمر بن فهد : إتحاف الورى ج٣ ص٢٢ .

لاشتهارها بالزراعة[١] ، وقرر الاستيلاء عليها ، لينهل من مواردها فتزداد قوته المادية والعسكرية .

ولقد عاد قتادة إلى مكة بعد أن أطاعته القبائل في الطائف ومن حولها ، وبعد عودته قرر بعض رجال ثقيف استخدام الحيلة للتخلص من أتباعه ، وقتلهم[٢] فقرروا أن يرسلوا إليهم للحضور والتشاور في أمر كتاب ورد عليهم من الشريف قتادة على أن يخبئ كل منهم سيفه في المكان المعد للاجتماع ، فإذا حضروا قاموا بقتلهم ، وقد نفذت الخطة طبقاً لما أرادوا فقد حضر نواب قتادة بغير سلاح غير مبالين بأهل الطائف لما أوقعوا في قلوبهم ونفوسهم من الرعب ، فلما اجتمع الفريقان واطمأن المجلس بهم أخرج كل فرد من أهل الطائف سيفه ووثب على جليسه من أصحاب قتادة ، وقتله[٣] ولم يسلم من أصحاب قتادة إلا شخصاً واحداً استطاع الفرار وذهب إلى مكة فأخبر قتادة بما حدث[٤] .

ومما لا شك فيه أن قتادة استطاع السيطرة على الطائف مرة أخرى ، إذ يذكر كثير من المؤرخين أن ولايته قد اتسعت من حدود اليمن إلى كافة الأراضي الحجازية[٥] .

---

(١) الإدريسي : نزهة المشتاق ج١ ص١٤٤ .

(٢) الفاسي : العقد الثمين ج٧ ص٤٦ .

(٣) عمر بن فهد : إتحاف الورى ج٣ ص٢٣ .

(٤) الفاسي العقد الثمين ج٧ ص٤٦ .

(٥) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج١٠ ص٤٢٦ ، الفاسي : شفاء الغرام ج٢ ص١٩٩ ، ابن خلدون : العبر ج٤ ص١٣٥ ، القلقشندي : صبح الأعشى ج٤ ص٢٧٢ ، ابن ظهيرة : الجامع اللطيف ص٣٠٩ ، القرماني : أخبار الدول ص٢٢٥ ، الصباغ : تحصيل المرام لوحة (٢١٩) ، دحلان : خلاصة الكلام ص٢٣ ، تاريخ الدول الإسلامية بالجداول المرضية ص١٤٣ ، فؤاد حمزة : قلب جزيرة العرب ص٣١٥ .

- العلاقات بين قتادة والعباسيين :

حينما تولى قتادة الأمور في مكة المكرمة خطب للخليفة العباسي على منابر مكة ليضفي على حكمه الصفة الشرعية ، إلا أنه بعد ذلك بدأ يظهر كراهيته للعباسيين فقد ذكر المؤرخون أن أذاه اشتد على الحجاج العراقيين[١] وكان يسر لخاصته أنه أحق بالخلافة من الناصر العباسي[٢] فهل كان يسعى فعلاً للخلافة ؟ لا نظن ذلك . فإنه كان يعلم حدود قوته وقدراته، وإنما دعاه إلى هذا القول رفضه تدخل الخليفة العباسي في شئون بلاده ، وكان يرى نفسه نداً له، لذا سوف نجد أنه تصدى لكل المحاولات التي بذلها الخليفة العباسي لقتله أو عزله ونجح في ذلـك .

وهنا يرد تساؤل : متى بدأ الخلاف بين قتادة والخليفة العباسي ؟

الحقيقة أن قتادة شرع في تقوية نفسه وتأمين بلده عقب تسلمه لإمارة مكة فأكثر في جنده المماليك الأتراك لأول مرة في الحجاز ، وقام بتحصين مكة ، وبناء سور حولها وبسط نفوذه على معظم أرجاء الحجاز[٣] ، مما أغضب الخليفة العباسي الذي كان حريصاً على إضعاف أمراء الإشراف حتى لا يستقلوا عن الخلافة مرة أخرى ، وقد رأينا كيف أمر الخليفة قائد الحاج العراقي بعزل الأمير مكثر بن عيسى الحسني من أمراء الهواشم عندما بدأ يحصن مكة ويجمع الجنود[٤] .

وقد لجأ الخليفة العباسي في بداية الأمر إلى الحيلة للتخلص من قتادة فأرسل أحد دعاة الباطنية لقتله ، لكن القاتل أخطأ في تأدية مهمته ، ففي يوم عيد الأضحى وعقب رمي الجمرات قام هذا الباطني بقتل ابن عم قتادة ويدعى الشريف أبا هارون عزيز -ظناً منه أنه

---

(١) العصامي المكي : سمط النجوم العوالي ج٤ ص٢١٣ ، ٢١٤ .

(٢) ابن خلدون : العبر ج٤ ص١٣٥ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج١٠ ص٤٢٦ ، العصامي المكي : سمط النجوم العوالي ج٤ ص٢١٤ .

(٤) انظر ص١٤٣ من البحث (مرحلة تبادل النفوذ بين العباسيين والأيوبيين) .

قتادة- وكان أشبه الناس به[1] فلما علم قتادة بذلك غضب غضباً شديداً وجمع الأشراف والعبيد وأهل مكة[2] وصعدوا على الجبلين بمنى وهللوا وكبروا وأخذوا يضربون الناس بالمقاليع والنشاب[3] فقتل كثير من الفريقين ، وقتل الباطني القاتل ، ونهب عدد كبير من الحاج العراقي بمنى ومكة[4] وانهال قتادة عليهم ضرباً وتقتيلاً ، وهو يقول : « ما فعل هذا إلا الخليفة »[5] وما كان المقصود إلا أنا ، والله ما أبقيت من حاج العراق أحداً[6] .

وانهزم أمير الحاج العراقي الذي كان دائماً ما يفرض سطوته وسيطرته على أصحاب مكة، وفر نواب الخليفة والمجاورون من مكة خوفاً من قتادة[7] الذى اشتد عليهم وطلب منهم مائة ألف دينار تعويضاً عما حدث حتى يكف عنهم فجمع له أمير الحاج العراقي ثلاثين ألف دينار وأعطاها له[8] فأذن للناس بالدخول إلى مكة[9] .

وفي العام التالي أرسل الخليفة العباسي الناصر إلى قتادة مع الركب العراقي الأموال

(١) المقريزي : السلوك ج١ ق١ ص١٧٥ ، العصامي المكي : سمط النجوم العوالي ج٤ ص٢١٠ .

(٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج١٠ ص٣٥٦ .

(٣) العصامي المكي . سمط النجوم العوالي ج٤ ص٢١١ .

(٤) عمر بن فهد : إتحاف الورى ج٣ ص١١ - ١٢ .

(٥) المصدر السابق ص١٣ .

(٦) الفاسي : العقد الثمين ج٧ ص٤٨ .

(٧) المقريزي : السلوك ج١ ق١ ص١٧٥ - ١٧٦ .

(٨) الفاسي : العقد الثمين ج٧ ص٤٨ .

(٩) المصدر السابق ص٤٩ ، وقد ذكر ابن الجوزي أن ربيعة خاتون بنت أيوب أخت صلاح الدين الأيوبي كانت معهم في الحج واستغاثت بها أمير الحاج العراقي فأرسلت إلى قتادة تقول ما ذنب الناس قد قتلت القاتل ، وجعلت ذلك وسيلة إلى نهب المسلمين ، وتحللت الدماء في الشهر الحرام ، فكف عن الناس وطلب مائة ألف دينار فجمعوا له ثلاثين ألف دينار من أمير الحاج العراقي فأخذهم وهو يهدد ويتوعد العراقيين (انظر : ابن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ورقة ٣٦٣ - ٣٦٤) .

والخلع وكسوة الكعبة ، ولم يعاتبه على ما فعل مع الحجاج العراقيين في العام السابق[١] ونصحه أمير الحاج العراقي أن يعتذر للخليفة العباسي عما حدث وأن يعلن الولاء والطاعة لـه[٢] فبعث الشريف قتادة ولده راجحاً وجماعة من أصحابه إلى بغدادللاعتذار إلى الخليفة عما جرى للحاج العراقي فقبل الخليفة أعذارهم[٣] .

وعاد قتادة بعد هذا الحادث يدعو للخليفة العباسي على منابر الحجاز، لكن الخليفة العباسي لم يكن ليقبل ما فعل قتادة ؛ بل تظاهر بقبول اعتذاره حتى تسنح له الفرصة فينتقم منه جزاء ما فعل ، وأعمل الحيلة مرة أخرى لنيل مأربه فقد ذكر ابن فهد أن الخليفة العباسي أرسل إليه يستدعيه لزيارته ويقول له « انت ابن العم والصاحب ، وقد بلغني شهامتك وحفظك للحجاج ، وشرف نفسك ، وعزتك ، وعفتك ونزاهتك ، وقد أحببت أن أراك وأن أشاهدك ، وأحسن إليك »[٤] .

لكن قتادة فهم ما يقصده الخليفة ، ويسعى إليه ، فرفض الذهاب إلى بغداد ، واجتمع ببني عمه من الأشراف ، وأخبرهم أن ذلك استدراج لهم وله وكتب إليه يرفض دعوته[٥] .

---

(١) العصامي المكي : سمط النجوم العوالي ج٤ ص٢١١ - ٢١٢ .

(٢) الفاسي : العقد الثمين ج٧ ص٥١ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج١٠ ص٣٥٧ ، المقريزي : السلوك ج١ ق١ ص١٧٦ .

(٤) عمر بن فهد : إتحاف الورى ج٣ ص١٧ ، رضي الدين : تنضيد العقود السنية لوحة (٩) .

(٥) عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج١ ص٥٦٤ ويذكر أن قتادة صدر كتابه بأبيات الشعر الآتية :

بلادي وإن هانت علي عـزيزة ... ولو أنني أعرى بها وأجوع

ولي كف ضرغام أصول ببطشها ... وأشري بها بين الورى وأبيع

تظل ملوك الأرض تلثم ظهرها ... وفي بطنها للمجدبين ربيع

أأجعلها تحت الثرى ثم أبتـغي ... خلاصاً لها إني إذاً لرقـيع

وما أنا إلا المسك في كل بـلدة ... يضوع وأما عندكم فأضيـع

فلما بلغ الكتاب الخليفة غضب غضباً شديداً وأرسل إلى قتادة كتابًا يتهدده فيه ويقول : « أما بعد فإذا نزع الشتاء جلبابه ، ولبس الربيع أثوابه قابلناكم بجنود لا قبل لكم بها ، ولنخرجنكم منها أذلة ، وأنتم صاغرون »[١] فلما قرأ قتادة الكتاب تجهز واستعد للقاء الجند العباسي وأرسل إلى بني عمه الحسينيين أشراف المدينة يطلب منهم العون والنجدة[٢] فأتته النجدات من المدينة وانضموا إلى قواته والتقوا جميعاً مع قوات الناصر العباسي حين جاءت واستطاع قتادة دحرهم والانتصار عليهم[٣] .

ويذكر المؤرخون أن الخليفة العباسي ولي مملوكه آقباش بن عبد الله الناصري إمرة مكة أثناء النزاع مع قتادة حتى يضعف من أمره ، لكنه لم يستطع دخول مكة ومباشرة إمرتها[٤].

وانتهى النزاع بين قتادة والخليفة الناصر عندما أرسل قتادة يطلب الصلح معه[٥] فقبل الخليفة العباسي الصلح وبخاصة أنه لم يستطع أن يضعف من سلطان ونفوذ قتادة في الحجاز ؛ بل زادت هيبته ومكانته هناك حتى وصفه كثير من المؤرخين بقولهم : « كان شيخاً مهيباً طوالاً ، وما كان يلتفت إلى أحد من خلق الله ، ولا وطئ بساطاً لخليفة ولا غيره ، وكان يحمل

---

(١) العصامي المكي : سمط النجوم العوالي ج٤ ص٢٠٩ .

(٢) يذكر المؤرخون أنه طلب العون من أشراف المدينة وصدر كتابه لهم بالشعر أيضاً فقال :

بني عمنا من آل موسى وجعفر ... وآل حسين كيف صبركم عنا
بني عمنا إنا كأفنان دوحة ... فلا تتركونا يتخذنا الفنا فنا
إذا ما أخ خلى أخاه لآكل ... بدأ بأخيه الأكل ثم بذا ثنى

ويبين لهم في هذه الأبيات أن العباسيين إذا تخلصوا منه سيعودون ويتخلصون منهم هم الآخرين (ابن فضل الطبري · إتحاف فضلاء الزمن لوحة ١٥ - ١٦ ، العصامي : سمط النجوم العوالى ج٤ ص٢٠٩).

(٣) ابن فضل الطبري : إتحاف فضلاء الزمن لوحة (١٦) .

(٤) الفاسي · شفاء الغرام ج٢ ص١٩٩ ، العقد الثمين ج٣ ص٣٢٢ ، عبد العزيز بن فهد . غاية المرام ج١ ص٥٧٨ ، ابن ظهيرة : الجامع اللطيف ص٣٠٩ .

(٥) ابن فضل الطبري : إتحاف فضلاء الزمن لوحة (١٦) .

إليه في كل سنة من بغداد الخلع والذهب وهو في داره بمكة »[١] .

- موقف الأيوبيين من قتادة :

انشغلت الأسرة الأيوبية بالخلافات التي نشأت بين أفرادها بسبب التنافس على الحكم عقب وفاة صلاح الدين ، فلم يتدخلوا في الخلافات التي نشأت بين قتادة والعباسيين ، أو في شئون مكة الداخلية وبخاصة بعد أن جعل قتادة المؤذنين في الحرم يؤذنون الأذان الشيعي « حي على خير العمل »[٢] بعد انقطاعه أواخر عهد أسرة الهواشم الحسنيين على يد سيف الإسلام طغتكين أخو صلاح الدين[٣] وعامل أهل السنة معاملة قاسية إلى حد قتل بعض أئمتهم ، إذ يخبرنا كل من الفاسي وابن فهد أن قتادة قتل إمام الحنفية وإمام الشافعية بالمسجد الحرام[٤] ، وإن لم يذكرا السبب في ذلك ، ونظن أنه كان متعصباً لمذهبه الزيدي وأراد إرهاب أهل السنة في مكة حتى لا يهاجموا أصحاب مذهبه من الطائفة الزيدية .

لكن الأيوبيين بدأوا يتدخلون تدريجياً في أمور مكة منذ سنة ٦١١هـ إلى أن صارت كل أمور مكة بأيديهم وهذا ما سوف نتناوله في الفصل التالي .

* * *

---

(١) الفاسي : العقد الثمين ج٧ ص٥٧ .

(٢) عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج١ ص٥٧٢ .

(٣) المصدر السابق ص٥٤٨ .

(٤) الفاسي : العقد الثمين ج٧ ص٤٧ ، وقد ذكر أن قتادة قتل إمام الحنفية وإمام الشافعية سنة ٦٠٧هـ بينما يذكر ابن فهد أنهما قتلا في سنة ٦٠٦هـ (انظر : عمر بن فهد : إتحاف الورى ج٣ ص٩) .

الفصل الثانى

مظاهر السيادة الأيوبيه فى الحجاز

الفصل الثاني

مظاهر السيادة الأيوبية في الحجاز

مدخل :

في أواخر عهد قتادة بن إدريس بدأ الأيوبيون يستعيدون نفوذهم تدريجياً على الحجاز، ويرجع السبب في ذلك إلى الخلافات التي نشأت بين قتادة وأشراف المدينة المنورة من بني الحسين ، إذ أنه لما توفي قتادة وتولى ابنه الحسن أمر مكة نازعه الإمرة أخوه راجحاً الذي استعان بالملك المسعود بن الكامل الأيوبي فمهد بذلك للسيطرة الأيوبية الكاملة على مكة والقضاء على بني قتادة الحسنيين وإخراجهم من السلطة بما فيهم راجح الذي استعان به .

ولم تكون خطورة موقف المسعود من بني قتادة مقصورة على هزيمته لهم ، وإنما تمثلت أيضاً في اتخاذه نواباً له في مكة من غير الأشراف على غير ما جرت به السياسة المتبعة من قبل منذ أن تجلى التنافس بين الخلفاء العباسيين والفاطميين على بسط سيادتهم على ذلك البلد المقدس ، فقد كانت غاية ما يسعى إليه كل خليفة هو أن يدعو له شريف مكة في الحرم ، ويرفع علمه على عرفات يوم الحج وأن يعلق كسوة الكعبة التي يرسلها دون سواه .

أما في عهد المسعود فقد صار الحجاز تابعاً لمصر ، وأصبح أمراء مكة يعينون من قبل السلطان الأيوبي ؛ بل يمكن القول إن مكة آنذاك كانت تتبع مصر إدارياً ، وبسط الأيوبيون سيادتهم على الحجاز وهذا الفصل سوف يعرض لمظاهر تلك السيادة .

النفوذ الأيوبي في الحجاز أواخر عهد قتادة

توفى صلاح الدين الأيوبى دون أن يضع نظاماً خاصاً لولاية العهد ، ونشأ عن ذلك قيام النزاع والخلاف بين أولاده ، وإخوته ، وأحفاده ، ثم استطاع العادل أخو صلاح الدين أن يضم إليه الشطر الأكبر من الدولة الأيوبية ، وغدا سلطاناً بمفرده على مصر . ومعظم أجزاء الشام سنة ٥٩٧هـ / ١٢٠٠م[١] ، وفي نفس العام تولى قتادة الحكم في مكة وخطب للخليفة العباسي ، ويخبرنا المؤرخ الفاسي أن قتادة قدم إلى مصر أكثر من مرة لكنه لم يذكر هل جاء إلى مصر قبل تسلمه مقاليد الأمور بمكة ، أم بعدها ؟ وبخاصة أن المؤرخين قد اختلفوا في تاريخ خطبته للملك العادل على منابر مكة ، فقد ذكر الفاسي أنه كان يخطب بمكة للعادل أبي بكر بن أيوب صاحب مصر والشام سنة ٦١١هـ / ١٢١٤م[٢] لكن ابن خلدون يخبرنا أنه خطب للملك العادل سنة ٦١٥هـ / ١٢١٨م بعد الخليفة العباسي الناصر ثم للكامل أيضاً[٣] ، ويذكر بعض الباحثين أن قتادة خطب في أول أمره للعباسيين ولما قطعت علاقاتهم به استمر يخطب للأيوبيين وحدهم[٤] .

ويتضح مما سبق أن قتادة قد خطب على منابره للعادل سنة ٦١١هـ / ١٢١٤م لأن هذا العام شهد مقدم الملك المسعود صلاح الدين يوسف بن الكامل إلى مكة ، وبصحبته ألف فارس،

---

(١) إبراهيم العدوي : تاريخ العالم الإسلامي ص٣١٤ .

(٢) الفاسي : شفاء الغرام ح٢ ص٢٣٤ ، العقد الثمين ج٧ ص٥٣ .

(٣) ابن خلدون · العبر ج٤ ص١٣٥

(٤) أحمد السباعي . تاريخ مكة ج١ ص٢٢٩ .

وخمسمائة من الحرس الخاص والرماة وكان متوجهاً إلى اليمن[١] ففزع منه أمير مكة قتادة الحسني وخشي على نفسه ، وأخذ يجمع قواته استعداداً لقتال المسعود ، وخرج للقائه خارج مكة ، لكن المسعود أظهر الود لأهل مكة فنثر على الناس ألف دينار ، وقام بإعطاء قتادة ألف دينار أخرى وقماشاً يبلغ قيمته ألف دينار فزالت مخاوفه[٢] .

وأقيمت الخطبة في مكة على يد المسعود الذي لم يبق في مكة سوى ستة أيام ثم قفل عائداً إلى اليمن قبيل الحج خشية تفرق جنده أثناء موسم الحج[٣] .

---

(١) هو الملك المسعود صلاح الدين أبو المظفر ويقال له أطسز وأقسيس بن الكامل ناصر الدين محمد بن العادل سيف الدين ولد سنة ٥٩٧هـ / ١٢٠٠م وولاه أبوه اليمن سنة ٦١١هـ / ١٢١٤م لاضطراب الأمور بها ، فذكر المؤرخون أنه عقب وفاة سيف الإسلام طغتكين تولى ابنه المعز إسماعيل ولم يكن يتصف بالعقل والاتزان وجاهر بالتشيع في بداية عهده مما شجع الزيدية على تجديد البيعة للإمام عبد الله بن حمزة سنة٥٩٣هـ فكثرت جموعه وتطلع إلى امتلاك اليمن كله ، فلما تولى أمر اليمن الناصر أيوب بن طغتكين بعد مقتل أخيه المعز إسماعيل سنة ٥٩٨هـ حاول وأنصاره الحد من نفوذ الإمام عبد الله بن حمزة ، لكن الناصر أيوب لم يلبث أن توفي مسموماً على يد أتابك عسكره غازي بن جبريل الذي أخذ البيعة من الجند لنفسه وتلقب بالملك الظافر لكنه لم يتمتع بالحكم طويلاً فقد ثار عليه الجند وقتلوه وضعف أمر الأيوبيين في اليمن حتى أن الإمام عبد الله بن حمزة تمكن من بسط نفوذه على صنعاء وغيرها من المدن ، ولم تؤد تولية سليمان بن تقي الدين شاهنشاه الأيوبي ملك اليمن في بداية سنة ٦١١هـ إلى استقرار الأمور للأيوبيين فيها فتنبه السلطان العادل إلى خطورة الوضع بالنسبة للأيوبيين في اليمن وخشي من زوال نفوذهم فاستقر رأيه على إنفاذ حملة بقيادة حفيده المسعود لاستعادة سلطانهم بهذه البلاد فسار المسعود إلى اليمن وضبط الأمور بها فدخل زبيد وملكها واستولى على تهامة وتعز وصنعاء وسائر ممالك اليمن . (المقريزي : الذهب المسبوك ص٧٦ – ٧٧ ، يحيى بن الحسين : غاية الأماني ج١ ص٣٢٩ ، ٣٤١ ، ٣٩٩ ، ابن عبد المجيد : بهجة الزمن ص٨٢) .

(٢) عمر بن فهد : إتحاف الورى ج٣ ص١٩ .

(٣) عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج١ ص٥٨٩ – ٥٩٠ .

وفي نفس العام أدى الملك المعظم عيسى[١] فريضة الحج وتصدق على أهل الحرمين بصدقات جليلة ، وبذل من أمواله في سبيل البر الشئ الكثير ، وقد استقبله بالمدينة الشريفة سالم بن قاسم الحسيني فأحسن استقباله ، وأعطاه مفاتيح المدينة وسهر على راحته[٢] وبالغ في الحفاوة به ، وصحبه إلى مكة[٣] .

ولما قدم المعظم عيسى إلى مكة وتلقاه قتادة سأله المعظم عن المكان الذي سينزل فيه مدة إقامته في مكة فأجابه قتادة وقد أشار بسوطه هناك - يريد الأبطح - فشعر المعظم عيسى أن قتادة يستهين به فغضب وأسرها في نفسه[٤] .

ولعل جفاء قتادة الذي أبداه في استقبال المعظم عيسى يرجع إلى استيائه من تآلف خصمه القديم أمير المدينة مع صاحب دمشق ، وسيره في خدمته إلى مكة .

- التدخل الأيوبي في الصراع بين قتادة وأشراف المدينة :

لما أدى المعظم عيسى مناسك الحج عاد إلى دمشق بطريق المدينة اشتكى له الأمير سالم من حور قتادة وظلمه منتهزاً غضب المعظم عيسى من سوء استقبال قتادة له فوعده أن ينجده عليه[٥] وتوجه الأمير سالم بصحبة عيسى إلى دمشق[٦] .

---

(١) هو الملك المعظم شرف الدين عيسى بن الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب ، ولد بالقاهرة سنة ٥٧٦هـ وأعطاه أبوه الملك العادل دمشق ، وجعل في ولايته غزة والكرك والشويك سنة ٥٩٦هـ وظل على ذلك حتى توفي بدمشق سنة ٦٢٤هـ (ابن خلكان : وفيات الأعيان ج٣ ص٤٩٤، المقريزي : الذهب المسبوك ص٧٣-٧٥).

(٢) الفاسي : شفاء الغرام ج٢ ص٢٣٤ ، ابن فضل الطبري · إتحاف فضلاء الزمن لوحة (١٦) .

(٣) ابن فضل الطبري : إتحاف فضلاء الزمن لوحة (١٦) .

(٤) المصدر السابق

(٥) الفاسي : العقد الثمين ج٧ ص٤٢ .

(٦) المقريزي : السلوك ج١ ق١ ص١٨٠ .

ويظهر أن قتادة علم بذلك فخشي أن يتآمر سالم مع المعظم عيسى عليه خاصة أنه أساء استقباله في مكة ، فأراد أن يمتلك زمام الموقف في يده فأسرع في سنة ٦١٢هـ / ١٢١٥م وحاصر المدينة المنورة أثناء غياب سالم عنها ، وقطع تمرها وكثيراً من نخلها فقاتله أصحاب سالم ودافعوا عن المدينة فارتد عنها خاسراً[١] .

وتواترت الأخبار على سالم بما حدث ، وكان مقيماً عند الملك المعظم بالشام فأرسل معه جيشاً لمؤازرته ، وسار سالم من الشام إلى المدينة المنورة ، ولكنه توفي بالطريق ، فتولى الأمر من بعده ابن أخيه قاسم بن جماز الذي جمع أشراف المدينة ، وشاورهم في الخروج لقتال قتادة صاحب مكة ، فوافقوه جميعاً وشجعهم على ذلك وصول عسكر الشام الذي أرسله المعظم عيسى بقيادة الناهض بن الجرخي والتقى الجيشان بوادي الصفراء في ذي القعدة من نفس العام سنة ٦١٢هـ[٢] فكانت الغلبة لعسكر المدينة الذين استولوا على عسكر قتادة قتلاً ونهباً ، ومضى قتادة منهزماً إلى ينبع فتبعوه ، وحاصروه بقلعته[٣] بعد أن غنموا من أمواله وسلاحه شيئاً كثيراً ، وأسر من جيشه عدد كبير سيره الأمير قاسم إلى الشام بصحبة الناهض بن الجرخي قائد الجيش الشامي ، وكان في الجيش عدد كبير من الأشراف الحسنيين والحسينيين فأقاموا مع أشراف دمشق يشاركونهم في أوقافهم هناك[٤] .

ولما علم قتادة بأن الأمير قاسم أخذ وادي القرى ونخلة وينتظر انتهاء الحجاج من قضاء مناسك الحج والعودة إلى بلادهم حتى يهاجم مكة ويستولى عليها[٥] ترك حصن ينبع لنوابه واتجه إلى مكة[٦] .

(١) عمر بن فهد : إتحاف الورى ج٣ ص٢٠ - ٢١ .
(٢) الفاسي : العقد الثمين ج٧ ص٤٣ .
(٣) المصدر السابق .
(٤) عمر بن فهد . إتحاف الورى ج٣ ص٢١ .
(٥) الفاسي : العقد الثمين ج٧ ص٤٥ .
(٦) أحمد السباعي : تاريخ مكة ج١ ص٢٢٨ .

ولعل قتادة استنجد بالملك الكامل في مصر لأن أبا شامة يخبرنا أنه في سنة ٦١٣هـ / ١٢١٦م وصل الخبر بتسلم نواب الملك الكامل لينبع من نواب قتادة حماية له من قاسم بن حماز الحسيني صاحب المدينة(١) .

ويبدو أن ما حدث في الحجاز كان نوعاً من التنافس والخلاف بين المعظم والكامل لم تظهر بوادره إلا بعد وفاة والدهم العادل(٢) .

وأراد الشريف قاسم بن جماز الحسيني أن يواصل ضرباته ضد قتادة حتى يضعف من نفوذه فأغار على مدينة حدة سنة ٦١٣هـ / ١٢١٦م فخرج إليه الشريف قتادة وهزمه(٣) .

وفي سنة ٦١٧هـ / ١٢٢٠م قرر قتادة مهاجمة المدينة مرة أخرى كي يؤدب صاحبها ويخضعه لنفوذه وسلطانه فحشد قوات كثيرة ، وسار من مكة إلى المدينة ونزل بوادي الفرع(٤) لكنه مرض فأناب عنه أخاه على الجيش وجعل معه ابنه الحسن للاستيلاء على المدينة المنورة(٥) فلما بلغ الجيش منتصف الطريق اجتمع أخو قتادة برؤساء الجيش ، وأخبرهم بمرض

(١) أبو شامة . الذيل على الروضتين ص٩٢ - القاهرة ١٩٤٧م ، الفاسي : العقد الثمين ج٧ ص٤٤ - ٤٥ ، عبد العزيز بن فهد . غاية المرام ج١ ص٥٥٧ .

(٢) يذكر الدكتور سعيد عاشور أن المعظم عيسى بدأت أطماعه تظهر واضحة سنة ٦٢٠ - ٦٢١هـ حين أراد أن يتوسع في أملاكه على حساب أخويه الكامل والأشرف وأقاربه ، ومن ذلك مهاجمته لحماة واستيلائه على بعض أعمالها مثل المعرة ، وسلمية من ابن عمه الناصر صلاح الدين . قلج أرسلان مما أغضب الأشرف والكامل ، فأرسل إليه الكامل يطلب منه الرحيل عن حماة فتركها غاضباً ، ويذكر أن هذا الحدث كان فاتحة الخلاف بين المعظم من ناحية وأخويه الكامل والأشرف من ناحية أخرى (سعيد عاشور : الأيوبيون والمماليك في مصر والشام ص١٠٦) .

(٣) الفاسي . العقد الثمين ج٧ ص٤٥ ، عمر بن فهد : إتحاف الورى ج٣ ص٢٣ ، المقريزي : السلوك ج١ ق١ ص١٨٥ .

(٤) وادي الفرع بينه وبين المدينة ثمانية برد على طريق مكة (عمر بن فهد : إتحاف الورى ج٣ حاشية ص٢٦) .

(٥) عمر بن فهد : إتحاف الورى ج٣ ص٢٧ .

قتادة ، وأخذ منهم عهداً بمبايعته بالإمارة عقب وفاة أخيه[١] فلما علم الحسن بن قتادة أن عمه أخذ العهد لنفسه بالإمارة بعد أبيه وثب على عمه ، وقتله أثناء الطريق[٢] وعلم قتادة بمقتل أخيه على يد ابنه فأقسم ليقتلن ابنه قوداً أي قصاصاً في أخيه[٣] .

- *مقتل قتادة واستيلاء ابنه الحسن على الإمارة :*

لما قتل الحسن بن قتادة عمه ، وعلم بتهديدات أبيه ، عاد بالقوات إلى مكة وترك مهاجمة المدينة ، وأسرع إلى دار أبيه فوجد حشداً كبيراً من الناس كانوا يعودونه أثناء مرضه فأمرهم بالانصراف إلى ديارهم ، ودخل على أبيه الذي بادر بتأنيبه وتهديده بالقتل جزاء ما فعل فوثب على أبيه وخنقه[٤] بمساعدة غلام ، وجارية له اشتركا معه في قتل أبيه ، وبعد أن قتله بادر بقتلهما حتى لا يكشفا للناس سوء فعله ثم زعم للناس أنه قتلهما لقتل أبيه[٥] .

ويخبرنا ابن الأثير أن الحسن بن قتادة خرج للحرم الشريف ، وأحضر الأشراف ، وقال لهم: « إن أبي اشتد مرضه ، وقد أمركم أن تحلفوا لي أن أكون أميركم » فحلفوا له[٦] ، ونادى بنفسه أميراً على مكة ، ودعا للعباسيين والأيوبيين[٧] .

وانتهت حياة قتادة بن إدريس العلوي الحسني قتلاً على يد ابنه الحسن عن عمر يناهز التسعين سنة ٦١٧هـ / ١٢٢٠م[٨] وقد وُصِف بأنه أدهى وأشهر من ملك مكة من الأشراف الحسنيين ، وكان يخطب للخليفة العباسي الناصر وللأيوبيين ثم يخطب لنفسه بالأمير المنصور،

---

(١) عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج١ ص٥٨٥ .

(٢) ابن فضل الطبري : إتحاف فضلاء الزمن لوحة (١٦) .

(٣) أحمد السباعي : تاريخ مكة ج١ ص٢٣٠ .

(٤) ابن الأثير : الكامل ج١٠ ص٤٢٧ .

(٥) عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج١ ص٥٨٧ .

(٦) ابن الأثير : الكامل ج١٠ ص٤٢٧ .

(٧) أحمد السباعي : تاريخ مكة ج١ ص٢٣٠ .

(٨) الفاسي : العقد الثمين ج٧ ص٥٩ ، الذهبي : العبر ج٣ ص١٧٤ .

وقد دام ملكه نحو سبع وعشرين سنة ، وقد اشترى المماليك وجعلهم جنداً في بلاد الحجاز مما لم تعهده هذه البلاد من قبل ، وقد أثبت ذاته أمام الأيوبيين والعباسيين ، وقوي نفوذه في بلاد الحجاز حتى أطاعته التهائم والنجود[١] .

- الصراع بين الحسن بن قتادة وأخيه راجح وأثره على النفوذ الأيوبي بالحجاز :

لما استقرت الأمور بمكة للحسن بن قتادة الحسني أرسل إلى أخيه بقرية ينبع يستدعيه على لسان أبيه ، وقد كتم موت أبيه عنه ، فلما حضر أخوه قتله كي يستقر له الأمر[٢] ويبدو أنه نسي أخاه الأكبر راجحاً ، أولم يكن يقدر خطورته ، فلم يعبأ به ، لكن راجحاً لم يلبث أن خرج عليه ونازعه الملك[٣] فلما قدم ركب الحاج العراقي بقيادة أقباش بن عبد الله الناصري ، مملوك الخليفة الناصر العباسي قصده راجح بن قتادة الحسني وبذل له وللخليفة مالاً ليساعده على ملك مكة[٤] .

وقد اختلف المؤرخون في موقف أقباش الناصري من طلب راجح بن قتادة الحسني .

فقد ذكر ابن الأثير أنه أجاب طلب الأمير راجح واتجه معه نحو مكة ، ونزلوا بالزاهر فحشدوا صفوفهم ، ونظموا قواتهم ، ثم ساروا لقتال الحسن بن قتادة الحسني وكان قد جمع جموعاً كثيرة من الأعراب وغيرهم من أنصاره ، واستعد للنزال ، فلما التقوا اشتد القتال بينهم فخرج أقباش من بين يدي عسكره منفرداً[٥] وصعد الجبل إدلالاً بنفسه ، وظناً منه أن لا يقدم عليه أحد فأحاط به أصحاب حسن بن قتادة الحسني وقتلوه[٦] .

---

(١) عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج١ ص٥٦٧ .

(٢) المصدر السابق ص٥٨٧ .

(٣) الجزيري · درر الفرائد ج١ ص٥٨٦ .

(٤) عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج١ ص٥٨٠ .

(٥) ابن الأثير · الكامل في التاريخ ج١٠ ص٤٢٦ .

(٦) المصدر السابق .

بينما يذكر آخرون أن آقباش وصل ومعه تقليد وخلعة بالإمرة للحسن بن قتادة الحسني فاجتمع به أخوه راجح وسأله الولاية لنفسه ، فلم يجبه ، واصطحبه إلى مكة فظن الحسن أن أقباش وافقه ، وشب قتال بين الحسن وأنصار أخيه ، فركب أقباش ليسكن الفتنة ويصلح بين الأخوين فخرج إليه أصحاب الحسن وأحاطوا به وقتلوه ، فانهزم أصحابه عنه[١] .

والحقيقة أن ما ذكره ابن الأثير هو الأقرب إلى الصواب لأن العباسيين كانوا دائماً ما يميلون إلى الشخصية الضعيفة في الحجاز حتى يسهل السيطرة عليها ولا تخرج عن نفوذهم ، وهم بالطبع رأوا ما فعله الحسن مع عمه وأبيه وأخيه ، ما يظهر أن شخصيته قاسية يصعب التعامل معها ؛ لذا مالوا إلى مساعدة راجح وكانت النتيجة هزيمتهم ومقتل أمير الحاج العراقي آقباش الناصري .

بعد مقتل أقباش أحاط أصحاب الحسن بن قتادة الحسني بالحجيج لنهبهم وسلب أموالهم فمنعهم أمير حاج الشام المبارز إبراهيم بن موسى المعروف بالمعتمد وخوفهم من الأخوين الكامل والمعظم عيسى ملكي مصر والشام فأجابوه وكفوا عن الحجيج[٢] خوفاً من الأيوبيين وأرسل الحسن بن قتادة عمامته أماناً للحاج فعاد أصحابه عنهم ، ولم ينهبوا منهم شيئاً[٣] وأذن لهم الحسن بن قتادة بدخول مكة المكرمة وتأدية مناسكهم فأقاموا بمكة عشرة أيام ثم رجعوا إلى العراق سالمين .

وعظم الأمر على الخليفة العباسي عندما علم بمقتل آقباش ، فلم يخرج إلى لقاء الحاج لكن الحسن بن قتادة أرسل إلى الخليفة معتذراً طالباً العفو فقبل الخليفة اعتذاره وعفا عنه[٤].

---

(١) الفاسي : العقد الثمين ج٣ ص٣٢٣ ، عمر بن فهد : إتحاف الورى ج٣ ص٣٠ ، عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج١ ص٥٧٨ .

(٢) عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج١ ص٥٨١ .

(٣) الجزيري : درر الفرائد ج١ ص٥٨٧ .

(٤) المصدر السابق .

وهرب راجح بن قتادة إلى اليمن بعد هزيمته من أخيه الحسن ولجأ إلى المسعود صاحب اليمن يطلب عونه على أخيه ، فاستجاب له وقدم إلى مكة وبقدومه صارت مكة تتبع الأيوبيين تبعية مطلقة وهذا ما سوف تتناوله الصفحات التالية .

مكة والتبعية المطلقة للأيوبيين

لم يكن راجح بن قتادة الحسني أقل من أخيه الحسن عناداً وجرأة ، فأبى أن يترك ثأره من أخيه بعد هزيمته واتجه إلى الملك المسعود[١] الذي كان يحكم اليمن باسم أبيه الملك الكامل[٢] ، وطلب مساعدته ، فانتهز المسعود هذه الفرصة لمد نفوذه على مكة بالإضافة إلى اليمن وأجابه إلى طلبه .

استيلاء الملك المسعود على مكة :

سار الملك المسعود في سنة ٦٢٠هـ / ١٢٢٣م على رأس جيش كبير من اليمن إلى مكة مصطحباً معه الشريف راجح بن قتادة الحسني لقتال أخيه الحسن ، الذى تفرق عنه الأشراف والمماليك من أتباع أبيه ، وتركوه لفظاظته وسوء فعاله فضعفت قواه[٣] لكنه تجهز في قوة من بقية أتباعه والتقى الفريقان بالقرب من المسعى بين الصفا والمروة فدارت بينهما معركة انتهت بهزيمة الحسن وفراره من مكة[٤] هارباً من حيش الملك المسعود الذي قام على إثر ذلك بنهب مكة المكرمة ، لكن المسعود نادى بالأمان وأوقف النهب وسفك الدماء[٥] بعد أن سيطر على مكة سيطرة كاملة .

وفي موسم الحج دفع المسعود بجيشه إلى عرفات ، ومنع أعلام الخليفة العباسي أن تتقدم أعلام أبيه السلطان الملك الكامل الأيوبي[٦] .

---

(١) الجزيري : درر الفرائد ج١ ص٥٨٧ .

(٢) أحمد السباعي : تاريخ مكة ج١ ص٢٣٢ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج١٠ ص٤٣٥ .

(٤) ابن ظهيرة : الجامع اللطيف ص٣١٠ ، ابن فضل الطبري : إتحاف فضلاء الزمن لوحة (١٦) .

(٥) الجزيري : درر الفرائد ج١ ص٥٨٨ .

(٦) ابن خلدون : العبر ج٤ ص١٣٦ .

وقال لأصحابه : « إن رفع علم الخليفة فاكسروه »[١] وكاد أمير الحاج العراقي أن يشتبك معه لكنه شعر بقلة جنده ، وأنه لا قبل له بقوات المسعود الذي سمح برفع راية العباسيين قبيل غروب يوم عرفة[٢] .

وظل المسعود على أمره في مكة إلى انتهاء موسم الحج وقد خطب لوالده السلطان الملك الكامل الأيوبي كما ضرب الدراهم المسعودية التي تنسب إليه[٣] وصارت مكة تتبع الأيوبيين بعد أن تولى المسعود أمرها .

وقد ذكر بعض المؤرخين أن الملك المسعود قام بأفعال مشينة في مكة ، وعلى رأس أولئك المؤرخين سبط بن الجوزي فقالوا إنه وجنوده نهبوا مكة حتى أخذوا الثياب عن الناس وأفقروهم، وأن المسعود كان يصعد على زمزم فيرمي حمام الحرم بالبندق ، ويستخف بحرمة الكعبة ، وأنه أكثر من سفك الدماء ، وكان إذا نام بالقرب من المسعى ضرب حراسه المسلمين وهم يسعون بأطراف السيوف قائلين لهم اسعوا قليلاً قليلاً فإن السلطان نائم سكران في دار السلطنة فأخذ الدم يسيل من سيقان الناس[٤] ويبدو أن هذه الأقوال مبالغ فيها والدليل على ذلك ما يلي :

أولاً : حين قام عسكر المسعود بنهب مكة أسرع المسعود بوقف النهب وسفك الدماء ، ونادى بالأمان في الناس[٥] .

ثانياً : أنه رد على أهل الحجاز ما أخذه منهم الحسن بن قتادة الحسني من الأموال والنخيل والدور بمكة والوادي[٦] .

---

(١) ابن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص٦١١ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج١ ص٥٩٤ .

(٤) ابن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ص٦١١ ، ابن الأثير : الكامل ج١٠ ص٤٣٥ ، ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ص١٣ ، عمر بن فهد : إتحاف الورى ج٣ ص٣٥ .

(٥) الجزيري : درر الفرائد ج١ ص٥٨٨ .

(٦) الفاسي : العقد الثمين ج٤ ص١٧٠ ، عمر بن فهد : إتحاف الورى ج٣ ص٣٥ .

ثالثاً : يسر على الحجاج أمر دخول الكعبة فأمر بأن يفتح بابها ليلاً ونهاراً مدة مقام الحاج فيها وأعطى سدنة الكعبة من بني شيبة أموالاً مقابل ما كانوا يأخذونه بإغلاق الباب وفتحه لمن أراد تحاشياً لزحام الناس ولقصر المدة التي كانوا يفتحون فيها الباب وعظم ما يناله الناس من إرهاق وضرب وموت ، وقد عاد الشيبيون لما كانوا يفعلون بعد رحيل المسعود[١] .

رابعاً : قام ببناء القبة الموجودة على مقام إبراهيم عليه السلام[٢] وكانت القبة قبل ذلك غير ثابتة ، فقد كانوا ينقلون حجر المقام إذا اشتد الزحام إلى داخل الكعبة أو أحد أركان المسجد[٣].

خامساً : كثرت الأرزاق بمكة في عهده ، وقلت حوادث السرقة فقد أرهب المفسدين وشتت شملهم فأمنت الطرق والديار وخلت من الأشرار[٤] .

سادساً : كثر جلب السلع إلى مكة من مصر واليمن في أيامه فرخصت الأسعار ، وسعد الناس[٥] .

فمن يقدم على هذه الأعمال لراحة الحجاج والناس لا يستخف بحرمة الكعبة كما قال بعض المؤرخين ، وإنما يبدو أن هذه الأقوال مدسوسة عليه من خصوم الأيوبيين ، وربما من العباسيين الذين ساءهم أن يتولى الأيوبيون أمر الحجاز دونهم ففي عهد المسعود لم يعد للعباسيين نفوذ هناك ، ويؤيد قولنا هذا أيضاً رفض الخزرجي ما نقله عن سبط بن الجوزي عندما أخبرنا بقصة خروج المسعود من اليمن إلى مصر فقال : « إنه تجهز بجهاز عظيم لم يسبقه إليه ملك ، حتى قيل إن المراكب التي حملت أمتعته سبعين مركباً فيها ألف خادم ومائة قنطار عنبر ، وعود ، وسبعون ألف ثوب ومن الجواهر واللآلئ والأحجار الكريمة ما لا ينحصر »[٦] ثم قال : « وعدد

(١) الفاسي : شفاء الغرام ج٢ ص٢٣٦ .

(٢) المصدر السابق ص٢٣٥ .

(٣) أحمد السباعي : تاريخ مكة ج١ ص٢٣٣ .

(٤) الفاسي : شفاء الغرام ج٢ ص٢٣٥ ، العقد الثمين ج٧ ص٤٩٣ .

(٥) المصدران السابقان .

(٦) الخزرجي : العقود اللؤلوية ج١ ص٤١ .

ابن الجوزي الأصناف التي سافر بها وعظمها حتى أن السامع لا يكاد يصدق بها ولهذا تركت ذكرها »[١] وعن قول ابن الجوزي أن المسعود كان ظالماً شديد الظلم سفاكاً للدماء حتى قيل أنه قتل في اليمن ثمانمائة شريف من أولاد الحسنيين ، يقول الخزرجي هذا شئ لا يقبله العقل ولا يصدقه النقل ، ولا يوجد في اليمن كله من أعيان الأشراف الحسنيين مائة رجل ، ولا ذكر هذا ولا ما يشابهه أحد من علماء التاريخ باليمن »[٢] .

- *موقف الخليفة العباسي من أحداث مكة :*

لما علم الخليفة العباسي في بغداد بما حدث من المسعود في مكة كتب إلى صاحب مصر الملك الكامل الأيوبي والد المسعود يعاتبه على فعل ابنه ، فاضطر الكامل إرضاء للخليفة العباسي أن يكتب إلى ابنه يعنفه ويشدد اللوم عليه[٣] قائلاً له : « برئت يا أقسز من ظهر العادل إن لم أقطع يمينك فقد نبذت وراء ظهرك دنياك ، ودينك ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم »[٤] إلا أن ذلك لم يغير من سياسة الملك المسعود الذي استقرت له الأمور في مكة . مما يدل على رضاء الكامل عما فعل[٥] .

- *محاولة الحسن بن قتادة الحسني استرداد مكة :*

بعد أن استقرت الأمور في مكة للأيوبيين ، قفل الملك المسعود راجعاً إلى اليمن في سنة ٦٢٠هـ / ١٢٢٣م وأناب عنه بمكة نور الدين عمر بن علي بن رسول وأمده بثلاثمائة فارس لمعاضدته فيها[٦] .

---

(١) الخزرجي : العقود اللؤلوية ص٤٢ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) ابن خلدون : العبر ج٤ ص١٣٦ .

(٤) القلقشندي : صبح الأعشى ج٤ ص٢٧٢ - ٢٧٣ ، عمر بن فهد : إتحاف الورى ج٣ ص٣٦ .

(٥) يذكر الدكتور عبد المجيد بدوى أن تتابع الحوادث بعد ذلك وصمت الكامل تجاهها ، وقيام المسعود بزيارة لأبيه فى القاهرة بعد استيلائه على مكة يؤكد أن الملك الكامل كان على علم بماأقدم عليه ابنه، وأنه باركه، وإلا لما حرؤ المسعود على القيام بهذه الخطوة (العلاقات المصرية الحجازية ص ٨٠) .

(٦) عبد العزيز بن فهد . غاية المرام ج١ ص٥٩٦ ويذكر ابن الفوطي أن المسعود بعد أن ولي مكة نائباً عنه ظل يتردد عليها دائماً للاطمئنان على أمورها (ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ص١٢) .

وظل نائبه في مكة يدعو له ولأبيه الكامل في مصر[١] .

ولما رحل المسعود عن مكة حاول الحسن بن قتادة استعادة الإمارة والسيطرة على مكة فجمع بعض أتباعه من أشراف بني الحسن في ينبع ، وسار بهم إلى مكة حيث التقى بنائب المسعود نور الدين عمر بن رسول وجيشه ، فانهزم الحسن ، وخرج من مكة مدحوراً[٢] واتجه نحو الشام ربما ليجد مساعدة من أصحابها هناك ، ولما لم يجد ناصراً أو معيناً بها اتجه إلى العراق لعله يجد طلبه هناك ، فلما وصل إلى بغداد وجدهم غاضبين عليه ؛ بل يذكر المؤرخون أن أهل بغداد هموا بقتله قوداً بأقباش الناصري أمير الحاج العراقي الذي قتله أصحاب الحسن بمكة ، ويبدو أنه مرض وعاجلته المنية قبل أن يقتلوه[٣] ودفن في مشهد الإمام موسى الكاظم هناك سنة ٦٢٢هـ / ١٢٢٥م[٤] .

- ***استيلاء الأيوبيين على قلعة ينبع :***

لما وجد الأيوبيون أن أشراف بني الحسن يتخذون من ينبع قاعدة انطلاق لمهاجمة مكة قرروا الاستيلاء عليها وإخراج بني الحسن منها لتأمين مكة وحمايتها منهم فقد ذكر المؤرخون أن المصريين أرادوا شراء قلعة ينبع من الأشراف بأربعة آلاف مثقال ، فامتنع الأشراف عن بيعها ورفضوا تسليمها لهم ، فاضطر الأيوبيون إلى أخذها عنوة ، ثم أقاموا لهم فيها نائباً يتولى أمورها ولم تزل تحت أيديهم إلى سنة ٦٣٩هـ / ١٢٤١م[٥] .

---

(١) أحمد السباعي : تاريخ مكة ج١ ص٢٣٤ .

(٢) الفاسي : العقد الثمين ج٤ ص١٧٠ .

(٣) ابن عبد القادر الطبري : الأرج المسكي لوحة (٤٧) الفاسي : العقد الثمين ج٤ ص١٧٠ - ١٧١ ، عمر بن فهد : إتحاف الورى ج٣ ص٤٢ .

(٤) الفاسي : العقد الثمين ج٤ ص١٧١ .

(٥) عمر بن فهد : إتحاف الورى ج٣ ص٥٨ ، الخزرجي : العقود اللؤلؤية ج١ ص٦٩ ، الفاسي : العقد الثمين ج٦ ص٣٤٧ .

- أشراف المدينة المنورة يحاولون الاستيلاء على مكة :

غضب أشراف المدينة لاستيلاء الأيوبيين على مكة وطردهم أبناء عمومتهم من الأشراف الحسنيين ، فعملوا على استردادها من الأيوبيين وإعادتها للأشراف الحسنيين مرة أخرى ففي سنة ٦٢٢هـ / ١٢٢٥م قدم قاسم بن جماز الحسيني أمير المدينة المنورة للاستيلاء على مكة ، وطرد نواب الملك الكامل منها ، لكنه لم يستطع أن يدخلها ففرض عليها حصاراً استمر نحو شهر ، لكنه قتل أثناء الحصار وعادت قواته إلى المدينة[١] .

وتولى إمرة المدينة شيحة بن هاشم بن قاسم الحسيني بعد مقتل ابن عمه قاسم بن جماز الحسيني فأعاد العلاقات الطيبة التي كانت قائمة بين الأشراف الحسينيين وبين الأيوبيين[٢] .

- استقرار الأمور في مكة للملك المسعود :

استقرت الأمور في مكة ، وصارت ولاية تابعة للأيوبيين يعينون ولاتهم عليها بعد أن خلعوا حكامها من الأشراف الحسنيين الذين ظلوا يحكمونها أكثر من قرنين ونصف من الزمان عندما استقل جعفر بن محمد الحسني بمكة سنة ٣٥٨هـ / ٩٦٨م وخلع طاعة العباسيين وخطب للفاطميين .

وقد استمر نور الدين عمر بن رسول نائباً على مكة من قبل الملك المسعود إلى أن استدعاه إلى اليمن وجعله أتابكه ، وقائد جنده[٣] وأناب بمكة بعده الأمير حسام الدين ياقوت ابن عبد الله المسعودي ، وكان يلقب نفسه أمير الحاج والحرمين ومتولي الحرب بمكة ، ومدبر أحوال الأجناد بها وما حوت من الرعية[٤] .

---

(١) المقريزي : السلوك ج١ ق١ ص٢١٩ ، عمر بن فهد : إتحاف الورى ج٣ ص٣٩ .

(٢) الفاسي : العقد الثمين ج٥ ص٢٣ .

(٣) الخزرجي : العقود اللؤلؤية ج١ ص٣٣ .

(٤) الفاسي : العقد الثمين ج٧ ص٤٢٥ ويذكر أنه وجد هذه الترجمة في عقد بيع لدار بمكة باعها ياقوت بنفسه لحاجة الجند بمكة إلى المال حيث لم يكن في بيت المال فائض من ذهب أو فضة ولا غلال ولا خراج

بعد أن استتبت الأمور للمسعود في مكة واليمن قرر المسير إلى مصر سنة ٦٢٣هـ / ١٢٢٦م لزيارة والده الملك الكامل وترك نور الدين عمر بن رسول نائباً عنه نيابة عامة باليمن ، وترك أخاه بدر الدين الحسن بن رسول على صنعاء وحلف لهم الجند المقيمون هناك[١] ثم توجه إلى مكة للاطمئنان على سير الأمور بها وغادرها عن طريق عيذاب إلى مصر[٢] ، لكن المسعود لم يلبث أن عاد إلى مكة في طريقه إلى اليمن[٣] حين علم باضطراب الأمور هناك[٤] على نائبه نور الدين عمر بن رسول وأخيه بدر الدين الحسن[٥] فلما وصل اليمن ألقى القبض

ولا أعشار حاضرة ينفق عليها منه كما ذكر في مكتوب البيع الذي وقع عليه الأمير حسام الدين ياقوت بنفسه سنة ٦٢٥هـ ويبدو أن المسعود علم بحاجة مكة إلى الأموال فقدم إليها في العام التالي سنة ٦٢٦هـ بأموال كثيرة وأمتعة .

(١) الخزرجي : العقود اللؤلؤية ج١ ص٣٣ ، عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج١ ص٥٩٧ .

(٢) لما وصل المسعود إلى مصر امتدحه الشاعر المصري البهاء زهير بقصيدة مطلعها :

لكم أينما كنتم مكان وإمكان ... وملك له تعنوا الملوك وسلطان

ومنها

ضربتم من العز المنيع سرادقاً ... وأنتم له بين السّماكين سكان

قدمت قدوم الليث والليث باسل ... وجئت مجيء الغيث والغيث هتان

وما برحت مصر إليك مشوقة ... ومثلك من يشتاق لقياه بلدان

فحسبك قد وافاك يا مصر يوسف ... وحسبك قد وافاك يا نيل طوفان

(عمر بن فهد : إتحاف الورى ج٣ ص٤١) .

(٣) المقريزي : السلوك ج١ ق١ ص٢٢٠ ، عمر بن فهد : إتحاف الورى ج٣ ص٤١ .

(٤) الخزرجي : العقود اللؤلؤية ج١ ص٣٩ .

(٥) حينما خرج المسعود من اليمن قام رجل يدعى « يزعم الصوفي » وصار يدعو لنفسه أنه الإمام الحق فانضم إليه جمع غفير من الناس فسار إليه نور الدين ومعه قائده راشد بن مظفر فقال الصوفي لأتباعه: «إن قاتلونا في غد هزمناهم وقتلنا راشد بن مظفر» فوقع القتال كما قال اتفاقاً فازدادت محبة الناس له، وفر نور الدين من أمامه ، ولجأ إلى ذروان واستنجد بأخيه بدر الدين في صنعاء فلما علم أتباع الصوفي بقدوم بدر الدين تفرقوا عنه ، وكان قد ظهر لهم كذبه ، وفساد مذهبه ، كما انتهز أشراف اليمن هذه الفتنة فخرجوا بزعامة عز الدين محمد بن حمزة – وكان المسعود قد استولى على حصون وممتلكات أبيه – يحاولون الاستيلاء على صنعاء فاستماتت بنو حاتم في الدفاع عنها بقيادة الأميرين سالم بن علي بن

على أسرة بني رسول وهم بدر الدين حسن بن علي ، وفخر الدين بكر بن علي ، وشرف الدين موسى بن علي وأودعهم السجن[١] .

وكان القبض على أولاد علي بن رسول بتوجيه من أخيهم نور الدين وسبب ذلك أن الملك المسعود حينما عاد إلى اليمن سنة ٦٢٤هـ / ١٢٢٦م أنبأ نور الدين أنه سيعود إلى مصر ، ويتركه نائباً عنه في اليمن ، فأخبره نور الدين أنه لا يستطيع حفظ اليمن مع وجود إخوته به فسجنهم المسعود ثم أرسلهم إلى مصر[٢] .

وسبب عودة المسعود إلى الديار المصرية هو وفاة الملك المعظم عيسى صاحب دمشق[٣] إذ كتب إليه والده الملك الكامل يستدعيه ليعطيه دمشق ، ففرح فرحاً شديداً حتى أنه سافر ، وقد ابتدأ به المرض[٤] وترك المسعود نور الدين عمر بن رسول نائباً عنه باليمن[٥] ومر بمكة في طريقه إلى مصر وقد اشتد عليه المرض فمكث بها فأحس بدنو الأجل .

ويسوق المؤرخون قصة مضمونها أن المسعود أوصى ألا يجهز بشيء من ماله ؛ بل يسلم إلى رجل من المجاورين يقال له صديق بن بدر بن جناح من أكراد إربل - وكان من كبار الصالحين - فلما مات المسعود تولى الشيخ صديق أمره فكفنه في إزار كان قد أحرم فيه بالحج والعمرة سنين عديدة ، وجهزه تجهيز الفقراء على حسب قدرته ، كما أوصى المسعود ألا يبنى

حاتم وعلوان بن بشر بن حاتم حتى قدم عليهما نور الدين بن رسول وأخاه بدر الدين الحسن فتمكنوا من هزيمة الأشراف وقتل عدد كبير منهم . (انظر : الخزرجي : العقود اللؤلؤية ج١ ص٣٤-٣٥) .

(١) المصدر السابق ص٣٩ .

(٢) بامخرمة : تاريخ ثغر عدن ص٢٠٦ .

(٣) لما توفي الملك المعظم عيسى وتولى ابنه داود ذهب الملك الكامل إلى دمشق ، وأكره ابن أخيه على ترك دمشق وأعطاه بدلاً منها الكرك وأعمالها بالإضافة إلى الصلت والبلقاء والأغوار ونابلس وبيت جبريل (المقريزي :السلوك ج١ ق١ ص٢٣٥) .

(٤) الخزرجي : العقود اللؤلؤية ج١ ص٤٠ .

(٥) المقريزي : السلوك ج١ ق١ ص٢٣٧ .

على قبره شئ ؛ بل يدفن في جانب المعلاة - جبانة مكة - وكتب على قبره (هذا قبر الفقير إلى رحمة الله « يوسف بن محمد بن أبي بكر بن أيوب ») فتم له ذلك[١] بعد أن توفى سنة ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م[٢] .

لما علم الكامل بوفاة ابنه المسعود اشتد حزنه عليه وتسلم مماليكه وخزائنه وأولاده وعين الأمير طغتكين بن عبد الله الكاملي نائباً عنه بمكة[٣] ويخبرنا ابن فهد أن طغتكين أنفق أموالاً كثيرة في مكة لاستمالة أهلها ، ثم جمع أشرافها وحلفهم ووثق منهم حتى لا يخرجوا على طاعته[٤] .

وخلاصة القول أن الأيوبيين تمكنوا من فرض سيطرتهم التامة على مكة والمدينة بعد أن استولى المسعود على مكة واتخذ نواباً له من غير الأشراف على غير ما جرت به السياسة المتبعة من قبل ، بالإضافة إلى استيلاء الأيوبيين على مكة فقد استولوا على ينبع وطردوا الأشراف منها وأخضعوا أشراف المدينة لهم وصار أمير المدينة تابعاً للأيوبيين يتلقى أوامره منهم كما سنرى في الفصل التالي .

* * *

(١) عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج١ ص٥٩٣ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ج٥ ص٨٤ - دار صادر بيروت ١٩٧٧م ١٣٩٧هـ .

(٢) الفاسي : العقد الثمين ج٧ ص٤٩٤ .

(٣) الجزيري : درر الفرائد ج١ ص٥٩٠ .

(٤) عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج١ ص٦١٣ .

الفصل الثالث

القوى الخارجية المعادية للحجاز وموقف الأيوبيين منها

الفصل الثالث

القوى الخارجية المعادية للحجاز وموقف الأيوبيين منها

مدخل :

في عهد الأيوبيين تعرض الحجاز لبعض القوى الخارجية التي حاولت النيل منه وسعت لبسط نفوذها عليه وتتمثل هذه القوى في :

أولاً : الصليبيون الذين حاولوا غزو المدينة المنورة بهدف بسط سيادتهم على البحر الأحمر ، والاستيلاء على طريق الحج البحري والسيطرة عليه وضرب المسلمين في مقدساتهم .

ثانياً : بنو رسول الذين استقلوا باليمن عن الأيوبيين وحاولوا بسط نفوذهم على الحجاز وقد نجحوا في ذلك أواخر عهد الأيوبيين .

وهذا الفصل سيعرض لمحاولات هذه القوى بسط نفوذها على الحجاز ، ورد الفعل الأيوبي تجاه هذه المحاولات .

أولاً : المحاولات الصليبية لغزو المدينة المنورة

تعرضت المدينة المنورة لخطر الصليبيين أكثر من مرة[١] ، ففي عام ٥٧٧هـ / ١١٨١م تجرأ أحد الأمراء الصليبيين واسمه في المصادر العربية (أرناط)[٢] صاحب إمارة الكرك الواقعة شرق البحر الميت على القيام بحملة ضد المسلمين ، كان الغرض منها غزو بلاد الحجاز ، وبسط سيادة الصليبيين على البحر الأحمر ، وتحويل التجارة إلى الموانئ الصليبية في خليج

---

(١) كانت المحاولة الأولى في عهد نور الدين محمود سنة ٥٥٧ هـ حين حاول الصليبيون سرقة رفات الرسول - صلى الله عليه وسلم - من المدينة المنورة فيسوق المؤرخون قصة مضمونها أن نور الدين محمود رأى النبي - صلى الله عليه وسلم - في منامه ثلاث مرات وهو يقول له : يا محمود أنقذني من هذين الشخصين لرجلين أشقرين تجاهه فأحضر وزيره وأخبره بما رأى فأشار عليه بالذهاب إلى المدينة المنورة ، فتجهز وخرج على عجل بمقدار ألف راحلة وما يتبعها من خيل وغير ذلك حتى دخل المدينة على غفلة من أهلها فلما زار طلب الناس عامة للصدقة ، وقال لا يبقى في المدينة أحد إلا جاء ليأخذ الصدقة ، فلم يبق إلا رجلان مجاوران من أهل الأندلس نازلان في الناحية التي تقابل حجرة الرسول - صلى الله عليه وسلم - من خارج المسجد عند دار آل عمر بن الخطاب التي تعرف اليوم بدار العشرة - رضي الله عنهم - فجد في طلبهما حتى حضرا فلما رآهما قال للوزير هما هذان فسألهما عن حالهما ، وما جاء بهما فقالا لمجاورة النبي - صلى الله عليه وسلم - فكرر السؤال عليهما حتى أفضى إلى العقوبة فأقرا أنهما من النصارى وصلا لكي ينقلا النبي - صلى الله عليه وسلم - من هذه الحجرة الشريفة ووجدهما قد حفرا نقباً تحت الأرض من تحت حائط المسجد القبلي فضرب أعناقهما عند الشباك الذي يقع شرقي حجرة النبي - صلى الله عليه وسلم - خارج المسجد ثم أحرقا ، وأمر بإحضار رصاص وصبه وملأ الحفرة به (انظر : ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب في أخبار من ذهب ج٤ ص ٢٣ ، القرماني : أخبار الدول وآثار الأول ص٢٨٠ ، السمهودي : الوفا بما يجب لحضرة المصطفى ص١٢٩) .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج٢ ص١٠١ ، ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج١٠ ص١٠٥ ، المقريزي : السلوك ج١ ق١ ص٧٩ ، ابن خلدون : العبر ج٥ ص٣٤٩ ، العماد الأصفهاني : سنا البرق الشامي ص٢١٣ ، ويسمى أرناط في المصادر الأجنبية ريجنالد دى شاتيون Reginald of Chatillon ورينو دي شاتيون (انظر : البير شاندور : صلاح الدين ص١٦٣ ، عزيز سوريال . الحروب الصليبية ص٥٤ ، كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ص٣٥٦)

العقبة ، وضرب المسلمين في مقدساتهم ، والاستيلاء على طريق الحج البحري والسيطرة عليه[١] ، فجمع أرناط عساكره ، وعزم المسير على تيماء[٢] والتوجه منها إلى المدينة المنورة للاستيلاء عليها[٣] ولما علم بذلك عز الدين فرخشاه نائب صلاح الدين الأيوبي بالشام[٤] انطلق بالعسكر الدمشقي إلى الكرك وهاجمها وأخذ ينهب ويخرب ، وظل مرابطاً تجاه القوات الصليبية ، ولما أدرك أرناط إصرار المسلمين على البقاء حتى يتفرق جمعه رجع عن عزمه لحماية إمارته ، وأثناء عودته استولى على قافلة للحجاج كانت متجهة من دمشق جنوباً في طريقها إلى مكة ، إذ أن هذه القافلة لم تتردد في عبور الأراضي الخاضعة للفرنج ثقة منهم بالهدنة المعقودة بين بلدوين الرابع وصلاح الدين ، لكن أرناط خان التعهد ، وأسر الحجاج وأخذهم إلى حصنه في الكرك واستولى على أموالهم والأضاحي المخصصة للكعبة[٥] .

ووجه صلاح الدين احتجاجاً شديداً إلى ملك القدس طالباً منه إطلاق سراح الدمشقيين وإعادة القافلة ، بما تحمله من ركاب ، وسجاد وذهب ، وخمسة وعشرين قنطاراً من الشموع المنهوبة وغيرها، فأرسل الملك إلى أرناط يأمره أن يعيد كل ما أخذه لكنه أبى ولم يصدع بالأمر[٦] وحدث آنذاك أن قذفت الأمواج على الشاطئ المصري مركباً كبيراً للافرنج[٧] كان على متنه ألفان وخمسمائة راكب في طريقهم لزيارة القدس فألقتهم الريح على ثغر دمياط فغرق عدد كبير منهم ، وأسر الباقون ، وكان عدد الأسرى الفرنج ألفاً وستمائة وستة وسبعين

---

(١) سعيد عاشور : الأيوبيون والمماليك في مصر والشام ٦٣ - ٦٤ ، الناصر صلاح الدين ص١٤٣ ، عبد المنعم ماجد : الناصر صلاح الدين ص١٠٨

(٢) تيماء واحة لها أهميتها لوقوعها في منتصف الطريق بين الأردن والمدينة المنورة على طريق حاج الشام دمشق (ياقوت الحموي : معجم البلدان ج٢ ص٦٧) .

(٣) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ح١٠ ص١٠٥ .

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ج٢ ص١٠١ .

(٥) البير شاندور : صلاح الدين الأيوبي ص١٦١ .

(٦) المصدر السابق .

(٧) المصدر السابق .

نفساً[١] رداً على أسر أرناط للحجاج المسلمين .

وفي سنة ٥٧٨هـ / ١١٨٢م فكر أمير الكرك أرناط في مهاجمة مكة والمدينة مرة أخرى ونتيجة لفشله في عبور الصحراء ، ومهاجمة المدينة في المرة الأولى عزم هذه المرة على مداهمة الأماكن الإسلامية المقدسة بحراً عبر الساحل الغربي فوضع أسطولاً في البحر الأحمر[٢] على طريقة القراصنة كما وصفه أحد المؤرخين الغربيين بقوله : « إن الأفاق لم يتردد في تحويل فرسانه إلى قراصنة ، وحملهم على مهاجمة السفن الإسلامية الماخرة عباب البحر الأحمر معرقلين تجارتها ، قاطعين طريق الحج بين أفريقية وآسيا »[٣] .

ومما لا شك فيه أن استيلاء صلاح الدين على أيلة كان يمكنه من تهديد الشوبك والأراضي الصليبية في وادى عربة ، ولما كان من الصعب على الصليبيين الاحتفاظ بأيلة دون السيطرة على جزيرة القلعة (جزيرة فرعون) المواجهة لها في خليج العقبة ، فكر أرناط في الاستيلاء على هذه الجزيرة ضمن خطته[٤] التي بدأها ببناء خمس سفن كبرى للنقل ومراكب خفيفة وسريعة حملت اجزاؤها على ظهور الجمال إلى شواطىء البحر الأحمر ، وهناك جمعت وشحنت بالذخائر ، والمؤن ، والرجال ، وبعد أن سلحت بدأت أعمالها[٥] بالاستيلاء على القلعة، ومنعت الماء عن أهلها[٦] وسارت بقية السفن نحو عيذاب فقتلوا وأسروا كثيراً من المسلمين ، وأحرقوا في بحر القلزم نحو ستة عشر مركباً ، وأخذوا بعيذاب مركباً يأتى بالحجاج من حدة، وأخذوا في الأسر قافلة كبيرة من الحجاج فيما بين قوص وعيذاب وقتلوا الجميع ، وأخذوا مركبين فيهما بضائع جاءت من اليمن وأخذوا أطعمة كثيرة من الساحل كانت معدة لميرة

---

(١) العماد الأصفهاني : سنا البرق الشامي ص١٩٤ .

(٢) البير شاندور : صلاح الدين الأيوبي ص١٦٤ .

(٣) المصدر السابق .

(٤) سعيد عاشور : الناصر صلاح الدين ص١٦٦ .

(٥) البير شاندور : صلاح الدين الأيوبى ص١٦٤ .

(٦) ابن واصل : مفرج الكروب ج٢ ص١٢٧ .

الحرمين[١] ثم توجهوا إلى سواحل الحجاز ، وأغاروا عليها[٢] فعظم البلاء وأعضل الداء[٣] وأشرف أهل المدينة منهم على خطر كبير[٤] إذ لم يكن بين الصليبيين وبين المدينة أكثر من مسيرة يوم واحد[٥] وكان صلاح الدين الأيوبي منشغلاً بحصار مدينة الموصل[٦] .

وحينما علم صلاح الدين بالهجوم الصليبى أصدر أوامره إلى أخيه العادل كي يسرع بحماية الحرمين الشريفين فأمر العادل بأن تفكك فوراً السفن المائتان التي كانت تحمي مدخل ميناء دمياط ، وأن تنقل براً إلى القلزم (البحر الأحمر) حيث أعيد تركيبها وتسليحها ووضعت في البحر وجمع في الوقت ذاته بحارة شديدي البأس بالغي الشجاعة بقيادة حسام الدين لؤلؤ قائد الأساطيل بالديار المصرية فبدأ بأسطول الفرنج الذي يحاصر أيلة فمزقه شر ممزق، وبعد الانتصار عليهم أقلع يطلب الآخرين ، وانتهى إلى عيذاب فلم يجدهم فعاد إلى رابغ فوجدهم بساحل الحوراء[٧] فأوقع بهم وأطلق الأسرى من التجار ورد عليهم ما أخذ منهم من الأموال والمتاع[٨] ثم نزل إلى البر وسار وراء المنهزمين منهم فحصرهم في شعب لا ماء فيه وأسرهم جميعاً[٩] إلا أرناط فقد استطاع الفرار والهرب دون أن يعرف أحد كيف تسنى له ذلك[١٠] .

(١) المقريزي : السلوك ج١ ق١ ص٧٩ ، ابن أبي الهيجاء : تاريخ ابن أبي الهيجاء لوحة (٢٦٤) .

(٢) ابن خلدون : العبر ج٥ ص٣٤٩ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج٢ ص١٢٧ .

(٤) العماد الأصفهاني : سنا البرق الشامي ص٢١٣ .

(٥) ابن جبير : الرحلة ص٣٥ .

(٦) العماد الأصفهاني : سنا البرق الشامي ص٢٠٧ .

(٧) ابن خلدون : العبر ج٥ ص٣٤٩ - ٣٥٠ .

(٨) العماد الأصفهاني · سنا البرق الشامي ص٢١٣ ، ابن أبي الهيجاء · تاريخ ابن أبي الهيجاء لوحة (٢٦٤) .

(٩) ابن واصل . مفرج الكروب ج٢ ص١٢٨ - ١٢٩ .

(١٠) البير شاندور : صلاح الدين الأيوبي ص١٦٦ .

أخذ حسام الدين لؤلؤ الأسرى ، وقد أهل موسم الحج فاقتاد اثنين منهم إلى منى لينحروا بها كما ينحر الهدي جزاء تجرئهم على حرم الله ، وحرم رسوله[١] وعاد بالباقين إلى مصر[٢] .

ولقد وصف ابن جبير وصول هؤلاء الأسرى إلى مصر عند زيارته لمدينة الاسكندرية في أوائل ذي الحجة سنة ٥٧٨هـ / إبريل سنة ١١٨٢م بأنهم « أدخلوا البلد راكبين على الجمال ، ووجوههم إلى أذنابها ، وحولهم الطبول والأبواق »[٣] .

وقد كتب الملك العادل إلى أخيه صلاح الدين يعرفه ذلك فورد عليه كتابه يأمره بضرب رقاب الأسرى جميعاً ، ولا يبقي منهم أحداً[٤] نتيجة فعلتهم الشنعاء وحتي يكونوا عبرة لغيرهم من الصليبيين فلا يتجرأ أحد منهم بعد ذلك في الهجوم على الحرمين الشريفين ، وهكذا استطاع الأيوبيـون حماية الحرمين وإعطاء الصليبيين درساً لا ينسى ، وقد ظل صلاح الدين حريصاً على أمن البحر الأحمر وحماية بلاد الحجاز من الخطر الصليبي ، كما ظل حريصاً على أن تبقى تجارته في يد التجار المسلمين دون غيرهم ولم يكن ليسمح بتهديد هذا الأمن .

وكتب القاضي الفاضل إلى الخليفة العباسي على لسان صلاح الدين يخبره بهذا النصر ويقول : « .. وكان الفرنج قد ركبوا من الأمر نكراً واقتصوا من البحر بكراً وعمروا مراكب وشحنوها بالمقاتلة والأزواد وضربوا بها سواحل تهامة وأوغلوا في البلاد ، وما ظن المسلمين إلا أن الساعة قد نشرمطوى أشراطها وطوى منشور بساطها ، فثار غضب الله لفنا بيته المحرم ومقام أنبيائه المعظم وضريح نبيه المفخم – صلى الله عليه وسلم – وزجر بفضل الله من قصده فلم يبق الله من العدو مخبراً ولا أثراً ، وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً »[٥] .

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج٢ ص١٢٨ – ١٢٩ .

(٢) ابن خلدون : العبر ج٥ ص٣٥٠ ، تاريخ ابن الهيجاء لوحة (٢٦٤) .

(٣) ابن جبير : الرحلة ص٣٤ .

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ج٢ ص١٢٨ .

(٥) ابن أبي الهيجاء : تاريخ ابن أبي الهيجاء لوحة (٢٦٤) .

ثانياً : الصراع بين الأيوبيين وبني رسول لبسط النفوذ على مكة (٦٢٩ - ٦٥٠هـ / ١٢٣١ - ١٢٥٢م)

اشتد النزاع بين الأيوبيين وبني رسول على مكة عقب وفاة الملك المسعود وقد توالت الحملات من الجانبين عليها ، ودارت معارك بين الطرفين تناوب فيها كل منهما الانتصار على الآخر وظل الحكم في مكة يتداوله ولاة ضعاف من الطرفين واستمر ذلك لفترة طويلة انتهت بسيطرة نور الدين عمر بن رسول على مكة حتى وفاته ، فاستقل الأشراف بحكم مكة مرة أخرى وسنعرض لذلك بعد أن نعرف ببني رسول ودوافعهم للاستيلاء على مكة .

- بنو رسول [١] في اليمن :

توفي الملك المسعود في مكة بعد أن ترك نور الدين عمر بن علي بن رسول نائباً عنه على اليمن كله سهله ووعره ، بره وبحره ، وكان حسن السيرة ثاقب الرأي عاقلاً [٢] فأضمر في نفسه

---

(١) كان اسم رسول هو محمد بن هارون بن أبي الفتح بن يوحي بن رستم التركماني الغساني من ذرية جبلة ابن الأيهم أخر ملوك الغساسنة في بادية الشام فاتصل ببعض الخلفاء العباسيين ، وتقرب منهم فاختصه بحمل رسائله إلى الشام ومصر فعرف برسول وتُرك اسمه الحقيقي حتى صار لا يعرفه بذلك إلا النادر من الناس ، ثم انتقل من العراق إلى الشام ومن الشام إلى مصر فيمن معه من أولاده واتصل بجماعة من بني أيوب بمصر فاتفقوا على تسيير ابنائه إلى اليمن بصيحية الملك المعظم توران شاه بن أيوب وقد استحلفهم له أخوه صلاح الدين الأيوبي ، وأوصاهم بحسن معاملته والنصح له فساروا معه إلى اليمن ، وكانوا خمسة رجال من بيت واحد هم : شمس الدين علي بن رسول ، بدر الدين الحسن بن علي ، نور الدين عمر بن علي ، فخر الدين أبو بكر بن علي ، شرف الدين بن موسى بن علي وفي عهد الملك المسعود تولى نور الدين اليمن نائباً عنه (انظر : الخزرجي : العقود اللؤلؤية ج١ ص٢٦-٢٩ ، الفاسي : العقد الثمين ج٦ ص٣٣٩ ، عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج١ ص٥٩٥ - ٥٩٦) .

(٢) الخزرجي : العقود اللؤلوية ج١ ص٤٤ .

الاستقلال باليمن ، لكنه تظاهر بالولاء والطاعة للأيوبيين فلم يغير السكة أو الخطبة[1] وقام بإرسال الهدايا الثمينة إلى الملك الكامل متظاهراً بالخضوع والولاء وقال له « أنا نائب السلطان على البلاد »[2] حتى يطمئن له الأيوبيـون فلا يعرقلون خططه للاستقلال ، وقد نجح في خداعهم حتى أبقى الملك الكامل عليه باليمن ولم يرسل أحداً غيره .

ولقد استغل نور الدين انشغال الملك الكامل بعدة أمور منها الصلح مع الفرنجة وتسليمه بيت المقدس لهم[3] ، وصراعه مع ابن أخيه الملك الناصر داود صاحب دمشق من أجل أن يأخذها منه[4] وطمع ابنه الصالح نجم الدين أيوب في الملك[5] .

لذا أسرع نور الدين في مباشرة تنفيذ خطته في الاستقلال باليمن عن الأيوبيين فأخذ يولى الحصون والمدن لأتباعه ممن يرتضيهم ويثق بهم ، وشرع في عزل كل من يخشى منه خلافاً، وبادر بقتل أوسجن كل من أظهر عصياناً ممن يميلون إلى الأيوبيين[6] وعندما استقرت له الأمور في تهامة سار من زبيد قاصداً تعز وحاصرها حصاراً شديداً سنة ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م وضيق على أهلها حتى أجهدهم فخضعوا له ، ثم تسلم صنعاء وأعمالها ، واقطعها لابن أخيه أسد الدين محمد بن بدر الدين الحسن[7] ، وأخذت حصون اليمن بعد ذلك تتساقط على يديه واحداً تلو الأخر[8] .

وفي سنة ٦٢٨هـ / ١٢٣٠م عقد نور الدين صلحاً مع أشراف اليمن على حصن ذمَّر[9].

---

(١) بامخرمة : تاريخ ثغر عدن ص٢٠٦ .

(٢) المقريزي : السلوك ج١ ق١ ص٢٣٧ .

(٣) المصدر السابق ص٢٣٠ .

(٤) المصدر السابق ص٢٣٣ - ٢٣٦ .

(٥) المصدر السابق ص٢٣٨ .

(٦) الخزرجي : العقود اللؤلؤية ج١ ص٤٦ .

(٧) عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج١ ص٥٩٩ .

(٨) الخزرجي : العقود اللؤلؤية ج١ ص٤٧ .

(٩) هؤلاء الأشراف هم الأمير عماد الدين يحيى بن حمزة وأولاده، والأمير شمس الدين أحمد بن الإمام وإخوته، ووهاس بن قاسم (المصدر السابق).

وأقرهم على البلاد التي معهم بعد أن تعهدوا بمعاضدته ومؤازرته ضد الأيوبيين[١] .

وفي سنة ٦٣٠هـ / ١٢٣٢م أعلن نور الدين استقلاله باليمن ، وأمر بضرب السكة على اسمه ، وأمر الخطباء أن يخطبوا له في سائر أقطار اليمن ، وتلقب بالملك المنصور[٢] وفي سنة ٦٣٢هـ/ ١٢٣٤م أرسل الهدايا إلي الخليفة العباسي المستنصر بالله وطلب منه تقليده اليمن فأجابه إلى ذلك[٣] وبقيام دولة بني رسول سقطت دولة الأيوبيين في اليمن بعد حكم استمر ما يقرب من ستين عاماً من سنة ٥٦٩ - ٦٣٠هـ / ١١٧٣ - ١٢٣٢م .

ولا شك أن انشغال الأيوبيين بالمنازعات القائمة فيما بينهم التي وصلت إلى حد استعانة بعضهم بالصليبيين ضد بعضهم الآخر قد مهد لنور الدين عمر بن رسول السبيل للاستقلال بشئون اليمن .

- دوافع بني رسول للسيطرة على مكة :

بعد أن استقرت الأمور في اليمن لنور الدين عمر بن رسول بدأ يفكر في فرض سيطرته على مكة والحجاز ، لأسباب عدة من بينها ·

أولاً : أن امتلاك بني رسول للأماكن المقدسة سوف يتيح لهم مركزاً مرموقاً بين المسلمين مما يؤدي إلى تثبيت أقدامهم في بلاد اليمن التي اغتصبوا ملكها من الأيوبيين .

ثانياً : أن مكة كانت من أملاك المسعود الأيوبي التي سعى نور الدين إلى السيطرة عليها وادعى أن المسعود أوصاه بالحفاظ على مكة إذا ما توفي وألا يمكن أحداً من الأيوبيين من السيطرة على شئ منه[٤] .

---

(١) الخزرجى . العقود اللؤلوية ح١ ص ٤٧

(٢) المصدر السابق : ص٥١ .

(٣) بامخرمة : تاريخ ثغر عدن ص٢٠٧ .

(٤) الخزرجي : العقود اللؤلؤية ج١ ص٤٠ - ٤١ .

ثالثاً : أن الحملات التي سيرها الأيوبيون إلى اليمن من مصر كانت جميعها تفد إلى تلك البلاد عن طريق الحجاز[١] ولذا يحتمل أن تكون محاولة بني رسول السيطرة على مكة والحجاز من قبيل تأمين بلادهم والتصدي لمثل هذه الحملات ومنعها من الزحف إلى اليمن[٢].

وخلاصة القول أن نور الدين عمر بن رسول بدأ يفكر في فرض نفوذه على الحجاز حتى يضمن سلامة حكمه في اليمن ويؤمنه من المخاطر الخارجية ، إذا ما تعرض لانتقام الملك الكامل الأيوبي ، وقد خشي نور الدين أن يتعرض لمثل هذا الهجوم ، فلم ينتظر حتى تداهمه قوات الأيوبيين ؛ بل عمل على نقل المعارك خارج قاعدة ملكه باليمن إلى أملاك الدولة الأيوبية بالحجاز .

ونتيجة لهذا أخذ يرسل الحملات العسكرية على مكة الحملة تلو الحملة خوفاً من اتخاذها قاعدة للانطلاق نحو قواته في اليمن لمحاربته وإسقاطه ، ولم ينجح في استبعاد الأيوبيين عن اليمن فحسب ؛ بل نجح أيضاً قبل وفاته ، في إبعادهم عن الحجاز وفرض نفوذه عليه بعد عدة حملات .

-الحملة الأولى لبني رسول على مكة :

يعد وفاة الملك المسعود خشي الملك الكامل على مكة فولى طغتكين بن عبد الله الكاملي عليها ، وأمده بجيش لمساندته في ضبط الأمور هناك فقدم طغتكين إلى مكة واجتمع بأعيانها، وأنفق عليهم أموالاً كثيرة ، وأخذ العهود والمواثيق عليهم بمؤازرته وطاعته[٣] ثم قام بعدة إصلاحات في مكة بعد استقرار الأمور له ففى سنة ٦٢٨هـ/ ١٢٣٠م أوقف رباطاً بمكة على الفقراء [٤] ، وأوقف البيمارستان المنصوري العباسي بالجانب الشمالي من المسجد الحرام

---

(١) محمد عبد الفتاح عليان:: الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في عهد دولة بني رسول باليمن ص٩٠ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) الفاسي : العقد الثمين ج٥ ص٦٤ ، عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج١ ص٦١٢ - ٦١٣ .

(٤) يذكر ابن فهد أن هذا الرباط هو بيت شمس الدين الأنصارى بالصفا (عمر بن فهد : اتحاف الورى ج٣ ص ٤٨ - ٤٩).

على معالجة الفقراء[١] .

ولم يهنأ طغتكين طويلاً لأن ابن رسول بعد استقرار أموره في اليمن جهز جيشاً سنة ٦٢٩هـ/ ١٢٣١م بقيادة الأمير ابن عيدان وبمصاحبة الشريف راجح بن قتادة الحسني الذي كان يسعى لإعادة حكم أسرته من الأشراف الحسنيين على مكة مرة أخرى وأمدهما ابن رسول بالأموال للإنفاق على الجند ، واستمالة أهل مكة وإغرائهم بالمال .

وعندما اقترب الجيش اليمني من مكة عمل ابن عيدان وراجح بن قتادة الحسني على استمالة المكيين إلى جانبهم ، فذكرهم راجح بإحسان نور الدين إليهم عندما كان والياً عليهم وما قام به من أعمال طيبة وصالحة فمالوا إليه[٢] .

وعندما شعر طغتكين بتخلي أهل مكة عنه ، وبضعف موقفه فضل تجنب الهزيمة والقتال، وألا يحاصر من الداخل والخارج ففر هارباً في مائتي فارس من فرسانه إلى وادي نخلة ، ومنها إلى ينبع التي اتخذها الأيوبيون ملاذاً ،وملجأ لهم عند الشدائد ووضعوا فيها الإمدادات الكافية من السلاح والغذاء ، ومن هناك أرسل إلى السلطان الكامل يخبره بما حدث ويطلب عونه ونجدته[٣] .

أما الجيش اليمني فقد دخل إلى مكة ، وخطب فيها لنور الدين عمر بن رسول الذي بعث لهم الأموال والهدايا ، وجعل الشريف راجح بن قتادة الحسني نائباً عنه بمكة[٤] .

- الأيوبيون يستردون مكة من بني رسول :

لم يكن الملك الكامل ليقبل ضياع النفوذ الأيوبي في الحجاز وأغلب الظن أن طغتكين حينما بعث إليه بخبر هزيمته من بني رسول وخروجه من مكة أرسل إليه يطلب منه البقاء في

---

(١) عمر بن فهد : اتحاف الورى ج٣ ص ٤٨ - ٤٩ .

(٢) الفاسي : العقد الثمين ج٥ ص٦٥ ، الخزرجي : العقود اللؤلؤية ج١ ص٥٠ .

(٣) عبد العزيز : بن فهد : غاية المرام ج١ ص٦١٣ .

(٤) الفاسي : العقد الثمين ج٤ ص٣٧٤ .

مكانه إلى أن يصله جمع كبير من جنده بقيادة فخر الدين بن شيخ الشيوخ[١] ، وأرسل الكامل إلى كل من الشريف شيحة أمير المدينة المنورة ، والشريف أبي سعد أمير ينبع اللذين كانا في خدمته يأمرهما بالانضمام بقواتهما إلى جيش الأيوبيين كي يتعاونوا معاً على دخول مكة وطرد بني رسول منها[٢] .

وسار الجيش إلى مكة بقيادة طغتكين بن عبد الله الكاملي وحاصرها[٣] ثم نشبت المعركة بين الجيشين فقتل ابن عيدان ، وعدد كبير من أهل مكة ، وحاقت الهزيمة بالجيش اليمني ، وفر الأمير راجح بن قتادة الحسني ، فدخل طغتكين مكة وأمر بنهب المدينة لمدة ثلاثة أيام ، وأخاف أهلها خوفاً شديداً ، فلما علم الملك الكامل بما فعله طغتكين غضب عليه ، وعزله عن إمارة مكة ، واستدعاه إلى مصر ، وأرسل إلى مكة المكرمة أميراً آخر يقال له ابن مجلي[٤] فدخل مكة سنة ٦٣٠هـ / ١٢٣٢م[٥] .

ومما لاشك فيه أن الملك الكامل خشي غضب أهل مكة لما فعله طغتكين بهم فقرر سحب جنوده منها إلى مصر ، فلما علم الشريف راجح بن قتادة بذلك جمع أتباعه وأنصاره وجاء إلى مكة فدخلها بدون قتال في أواخر سنة ٦٣٠هـ وأخرج من كان بها من المصريين[٦] لكن الملك الكامل لم يتركه يستقر بها إذ أرسل إلى مكة قوات أخرى من مصر بقيادة علاء الدين آق

---

(١) هو يوسف بن محمد بن عمر بن علي بن محمد بن حموية المعروف بابن شيخ الشيوخ كان من رجال الملك الكامل، فلما توفي عمل وزيراً للملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل ، وقام بتدبير الأمر من بعده لابنه المعظم توران شاه ، وقد قتل في المنصورة سنة ٦٤٧هـ (الفاسي : العقد الثمين ج٧ ص٤٩٦، عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج١ ص٦١٥) .

(٢) الخزرجي : العقود اللؤلؤية ج١ ص٥٠ ، بامخرمة : تاريخ ثغر عدن ص٢٠٧

(٣) عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج١ ص٦١٣ ، فريال محمود عباس : الحجاز في ظل الدولة الأيوبية ص ٢٣٥.

(٤) الفاسي : العقد الثمين ج٥ ص٦٥ ، الخزرجي : العقود اللؤلؤية ج١ ص٥٠ .

(٥) عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج١ ص٦٢٥ .

(٦) الفاسي : العقد الثمين ج٤ ص٣٧٧ .

سنقر الزاهدي[١] فدخل مكة في سبعمائة فارس ، وكان بها الشريف راجح بن قتادة الحسني وعسكر لبنى رسول ففروا منها ودخلها علاء الدين الزاهدي دون قتال فأقام بمكة وحج بالناس ، ثم عاد إلى مصر تاركاً الأمير ابن مجلي بمكة في خمسين فارساً [٢] .

الحملة الثانية لبني رسول على مكة :

ظلت بلاد الحجاز تتأرجح بين آل رسول والأيوبيين واستمرت الحرب سجالاً بينهما إذ بالرغم من دخول الأيوبيين إلى مكة المكرمة ، وتولية ابن مجلي عليها فإن نور الدين عمر بن رسول عقد العزم على الاستيلاء عليها فأرسل عسكراً آخر إلى مكة بقيادة الشريف راجح بن قتادة الحسني سنة ٦٣١هـ / ١٢٣٣م استطاع دخول مكة وإخراج الأيوبيين وابن مجلي منها[٣] .

وفي نفس العام أرسل نور الدين عمر إلى الخليفة العباسي المستنصر بالله هدية عظيمة وسأله أن يقلده بلاد اليمن[٤] ليضفي على حكمه صفة الشرعية ويصير نداً للأيوبيين فأجابه الخليفة بأن التقليد والتشريف سيصلان إليه في عرفة بصحبة أمير الحاج العراقي ، فخرج نور الدين من اليمن إلى مكة ، لتأدية فريضة الحج وتعضيد نائبه بها الشريف راجح بن قتادة الحسني واستلام التقليد بولاية اليمن ، فلما ذهب إلى هناك ، وأدى مناسك الحج لم يصل أحد من قبل العباسيين إلى مكة[٥] .

لأن الأعراب هاجموا الحاج العراقي ، وقطعوا عليهم الطريق فعادوا إلى بغداد ، ولم يصل إلى مكة أحد منهم في ذلك العام فعاد نور الدين إلى اليمن حزيناً[٦] .

---

(١) المقريزي : السلوك ج١ ق١ ص٢٤٤ .

(٢) المصدر السابق ص٢٤٥ .

(٣) الخزرجي : العقود اللؤلؤية ج١ ص٥٤ .

(٤) بامخرمة : تاريخ ثغر عدن ص٢٠٧ .

(٥) الخزرجي · العقود اللؤلؤية ج١ ص٥٤ .

(٦) المصدر السابق .

وفي السنة التالية وصل رسول الخليفة بالتشريفة والتقليد فأصبح السلطان نور الدين عمر بن رسول واليا على اليمن من قبل الخليفة العباسي المستنصر[١] ولقب نفسه بالملك المنصور[٢] وأرسل إلى مكة قناديل من ذهب وفضة للكعبة المعظمة فرحاً بهذه المناسبة[٣].

ولما علم نور الدين عمر بن رسول بخروج جيش من مصر إلى مكة أرسل إلى نائبه بها راجح بن قتادة الحسني خزانة كبيرة من الأموال[٤] بصحبة ابن البصري لكي ينفق منها على قواته بمكة ، وأوصاه باستخدام الفرسان وأن يكثر من الجند[٥] لكن الجيش المصري داهمه بقوة كبيرة تتكون من خمسمائة فارس يتقدمهم الأمير أسد الدين جبرائيل[٦] أو جغريل[٧] فدخلوا مكة دون مقاومة بعد فرار الشريف راجح وابن البصري ، ومن كان معهما من عسكر إلى اليمن[٨] وعادت مكة مرة أخرى للأيوبيين ، وتولى الأمير أسد الدين جغريل نائباً عن الملك الكامل الأيوبي[٩] .

- الحملة الثالثة على مكة :

استمر الأمير أسد الدين جغريل نائباً عن الملك الكامل بمكة[١٠] لكن الأمور لم تستقر له دون متاعب ، فقد أخذ يتصدى لمحاولات بني رسول لاسترداد العاصمة المقدسة ففي سنة ٦٣٣هـ / ١٢٣٥م أرسل نور الدين جيشاً إلى مكة بقيادة الشهاب بن عبد الله ومعه خزانة

---

(١) الخزرجي : العقود اللؤلؤية ج١ ص٥٥ .
(٢) المقريزي : السلوك ج١ ق١ ص٢٥٣ .
(٣) الخزرجي : العقود اللؤلؤية ج١ ص٥٥ .
(٤) المقريزي . السلوك ج١ ق١ ص٢٥٠ .
(٥) الخزرجي : العقود اللؤلؤية ج١ ص٥٥ .
(٦) عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج١ ص٦٢٦ .
(٧) المقريزي : السلوك ج١ ق١ ص٢٥٠ .
(٨) الخزرجي : العقود اللؤلؤية ج١ ص٥٥ .
(٩) المقريزي : السلوك ج١ ق١ ص٢٥٠ .
(١٠) المصدر السابق .

مال[١] للإنفاق على الجند واستمالة أهل مكة إلى جانبه فخرج إليه الأمير جغريل بجنده ، وانتصر عليه ، وأسره مع جماعة كبيرة من أفراد جيشه ، وأرسله إلى القاهرة مقيداً[٢] ولم تنجح هذه الحملة في دخول مكة .

- الحملة الرابعة بقيادة السلطان نور الدين والاستيلاء على مكة :

لم تثبط الهزائم المتكررة التي تعرض لها جند السلطان نور الدين بن رسول من عزيمته وإصراره في الاستيلاء على مكة فأعد جيشاً كبيراً بقيادته وزحف هذا الجيش من اليمن إلى مكة سنة ٦٣٥هـ / ١٢٣٧م عن طريق الساحل في ألف فارس وانضم إليهم الشريف راجح بن قتادة الحسني الذى أرسله ابن رسول في ثلاثمائة فارس ليكونوا طليعة جيشه إلى مكة[٣] ووصلت أنباء هذه الحملة إلى الأمير جغريل عن طريق عيونه التي بثها لاستطلاع الأمر ، ولاشك أنه قدر الموقف حق قدره ، وعرف أنه لا قبل له بهذا الجمع الغفير الذي حشده ابن رسول لملاقاته ، بالإضافة إلى أنه تأكد من تخلي أهل مكة عنه ، وانضمامهم إلى قوات المنصور نور الدين بن رسول الذي أغراهم بالأموال ، واستمالهم إلى جانبه فما كان من جغريل إلا أن أسرع بما كان معه من الأحمال والأثقال وخرج من مكة بمن معه قبل وصول الجند اليمني بيومين[٤] فلما وصل نور الدين إلى السرين أتاه كتاب الشريف راجح بن قتادة الحسني يخبره بفرار نائب السلطان الكامل أسد الدين جغريل بمن معه من عسكر المصريين[٥] .

وقد عاد الأمير أسد الدين جغريل وقواته إلى مصر ماراً بالمدينة المنورة فلما وصلها جاءه الخبر بوفاة الملك الكامل الأيوبي[٦] فبادر بالمسير إلى مصر[٧] .

---

(١) المقريزى : السلوك ج١ ق١ ص٢٥٣ .
(٢) عمر بن فهد : إتحاف الورى ج٣ ص٥٠ .
(٣) الخزرجي . العقود اللؤلوية ج١ ص٦١ .
(٤) الفاسي . العقد الثمين ج٣ ص٤٣٤ ، عمر بن فهد : إتحاف الورى ج٣ ص٥٣ .
(٥) الخزرجي : العقود اللؤلؤية ج١ ص٦١
(٦) الفاسي : العقد الثمين ج٣ ص٤٣٤ ، عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج١ ص٦٢٦ .
(٧) عمر بن فهد : إتحاف الورى ج٣ ص٥٤ .

ودخل نور الدين إلى مكة معتمراً في رجب سنة ٦٣٥هـ / ١٢٣٧م وتصدق فيها بأموال كثيرة ، وجعل الشريف راجح بن قتادة الحسني نائباً عنه فيها[١] ثم رحل إلى اليمن في سنة ٦٣٦هـ / ١٢٣٨م بعد أن ترك حامية من الجند لمساعدة نائبه تتكون من مائة وخمسين فارساً ، وجعل عليها اثنين من قواده هما ابن الوليدي وابن التغري[٢] وقد خطب راجح للخليفة العباسي ، ولابن رسول[٣] .

موقف الملك الصالح نجم الدين أيوب من بني رسول :

عقب وفاة الملك الكامل نشبت الخلافات بين أبنائه فأهملوا أمر الحجاز واستقرت الأمور لبني رسول ، إلا أن الملك الصالح نجم الدين أيوب استطاع القضاء على الخلافات التي نشبت بعد وفاة والده ، وتولى الأمور في مصر والشام فبسط العدل في الرعية ، وأحسن إلى الناس ، وأخرج الصدقات[٤] .

ولما استقر الصالح نجم الدين أيوب بمصر شرع يفكر في إعادة الأمور في الحجاز كما كانت من ذي قبل تحت سيطرة مصر ، فأعد عسكراً قوامه ألف فارس ، وأمر عليهم الشريف شيحه ابن قاسم الحسيني أمير المدينة الذي قدم إلى مصر لتهنئته ، وطلب منه طرد اليمنيين من مكة ، فلما بلغ عسكر المنصور قدوم هذه القوات أخلوها وفروا هاربين فدخلها الشريف شيحه وملكها دون سفك دماء[٥] .

واشتد التنافس بين الأيوبيين وبني رسول على تملك العاصمة المقدسة إذ حينما بلغت الأخبار الملك المنصور قرر استرداد إمارة مكة مرة أخرى فأرسل الشريف راجحاً إلى مكة في

---

(١) عمر بن فهد : اتحاف الورى ج٣ ص٥٣ ، ٥٤ .

(٢) الخزرجي : العقود اللؤلؤية ج١ ص٦٢ .

(٣) الفاسي : العقد الثمين ج٤ ص٣٧٨ .

(٤) ابن خلكان . وفيات الأعيان ج٤ ص٨٤ - ٨٥ .

(٥) الفاسي : العقد الثمين ج٤ ص٣٧٧ ، عمر بن فهد : إتحاف الورى ج٣ ص٥٦ .

عسكر كبير بقيادة ابن النصيري ، ففر الشريف شيحة بمن معه ، وقدم القاهرة لإبلاغ الملك الصالح بما حدث[١] .

وفي سنة ٦٣٨هـ / ١٢٤٠م أعاد الملك الصالح تجهيز جنده وأرسلهم مع الشريف شيحة واثنان من كبار القادة هما علم الدين الكبير ، وعلم الدين الصغير فاستطاعوا دخول مكة وطرد عسكر صاحب اليمن وحجوا بالناس هذا العام[٢] .

وهكذا نلحظ أنه رغم الحملات العسكرية المتعددة التي أرسلها بنو رسول إلى مكة فإنهم لم يستطيعوا الاستقرار فيها فقد تداول الحكم بها ولاة كل من الفريقين المتنافسين من الأيوبيين واليمنيين نحو عدة سنوات كان الولاة فيها ضعافاً لا يستطيعون حماية البلاد مما أدى إلى غلاء المعيشة وقلة الأرزاق

استيلاء بني رسول على مكة وانهيار النفوذ الأيوبي بها :

ظل الأمل يراود ابن رسول في السيطرة على مكة فجهز في سنة ٦٣٩هـ / ١٢٤١م جيشاً إلى مكة المكرمة بصحبة الشريف راجح بن قتادة الحسني[٣] فلما علم عسكر الأيوبيين بقدومهم كتبوا إلى الصالح نجم الدين الأيوبي يطلبون العون والنجدة[٤] فأرسل إليهم اثنين من كبار قادته هما مبارز الدين علي بن الحسين بن برطاس ، ومجد الدين أحمد بن التركماني في مائة وخمسين فارساً لنجدتهم ، فلما علم عسكر اليمن بذلك أقاموا بالسرين بعد خروجهم من مكة وكتبوا إلى المنصور نور الدين عمر بن رسول يطلبون نجدته[٥] فبادر بإعداد جيش كبير تولى قيادته بنفسه ، وسار إلى مكة المكرمة ، فلما علم الجند الأيوبي بقدومه تركوا مكة،

---

(١) الخزرجي : العقود اللؤلوية ج١ ص٦٤ - ٦٥ ، الفاسي : شفاء الغرام ج٢ ص٢٠١ ، العقد الثمين ج٦ ص٣٤٦ .

(٢) عمر بن فهد · إتحاف الورى ج٣ ص٥٧ .

(٣) عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج١ ص٦٢٢ .

(٤) عمر بن فهد : إتحاف الورى ج٣ ص٥٧ .

(٥) الخزرجي · العقود اللؤلؤية ج١ ص٦٩ .

وخرجوا منها بعد أن أحرقوا دار السلطنة بما فيها من عدد وسلاح وغيرهما[١] .

ودخل السلطان نور الدين مكة في شهر رمضان من نفس العام فصام بها وأبطل سائر المكوس والجبايات ورفع عن أهلها المظالم ، وكتب بذلك رقعة جعلت قبالة الحجر الأسود بمكة[٢] .

ولتأمين مكة وحمايتها من الأيوبيين أرسل إلى صاحب ينبع أبي سعد بن علي بن قتادة الحسني ، يطلب منه شراء قلعة ينبع فلما اشتراها أمر بهدمها حتى يقضي على خط الإمداد والتموين الذي كان الأيوبيون يعتمدون عليه[٣] .

وجعل المنصور نور الدين مملوكه فخر الدين الشلاح أميراً على مكة المكرمة وابن فيروز نائباً له ، كما جعل الشريف أبا سعد علي بن أبي قتادة الحسني مساعداً له ، ثم عاد إلى اليمن سنة ٦٤٠هـ / ١٢٤٢م[٤] وقد قام الأمير الشلاح بعدة إصلاحات في مكة بأمر الملك المنصور منها أنه في سنة ٦٤١هـ قام ببناء مدرسة بالجانب الغربي من المسجد الحرام ، وقفها على الفقهاء الشافعية[٥] وحينما أتى ركب الحاج العراقي وكانت معهم والدة الخليفة العباسي المستعصم بالله جهز لهم السلطان نور الدين هدية عظيمة إمعاناً في التقرب إلى الخليفة العباسي كي يضمن مساندته له على مكة ويعطيه تقليداً بولايتها إلى جانب اليمن ، وأمر نائبه على مكة أن يتولى خدمتهم ورعايتهم طوال فترة وجودهم بمكة[٦] .

---

(١) الفاسي : العقد الثمين ج٦ ص٣٤٧ .

(٢) بامخرمة : تاريخ ثغر عدن ص٢٠٨ - ٢٠٩ .

(٣) عمر بن فهد : إتحاف الورى ج٣ ص٥٨ .

(٤) الخزرجي : العقود اللؤلؤية ج١ ص٦٩ .

(٥) الفاسي : العقد الثمين ج١ ص١١٧ ، ج٦ ص٣٤٨ ، شفاء الغرام ج١ ص٣٢٨ .

(٦) عمر بن فهد : إتحاف الورى ج٣ ص٦٠ - ٦١ .

وفي سنة ٦٤٥هـ / ١٢٤٧م أمر بتعمير المسجد الذي يوجد بالقرب من دار النحر بمنى[١].

وظل الأمير فخر الدين الشلاح والياً على مكة لآل رسول حتى سنة ٦٤٦هـ / ١٢٤٨م حيث عزله السلطان نور الدين في تلك السنة ، وولى مكة بدلاً منه ابن المسيب الذي تعهد بدفع مال يؤديه عن الحجاز من نفقات الجند وإرسال مائة فرس كل سنة واستمر ابن المسيب نائباً عن السلطان نور الدين بمكة لمدة عام[٢] فاستبد بأمرها وأعاد المكوس والجبايات على أهل مكة ، وخلع الرقعة التي كتبها السلطان نور الدين بجوار الحجر الأسود بمنع المكوس والجبايات واستولى على أموال الصدقة التي كانت تأتي لمكة من اليمن وبغداد وغيرها ، ومنع النفقة عن الجند فغضبوا منه وأخذوا يتفرقون عنه[٣] مما جعل الأمير أبا سعد علي بن قتادة الحسني يأتي إلى مكة ويقبض عليه ويقيده ويستولى على ما كان معه من الخيل والسلاح والمماليك وذكر الخزرجي أن أبا سعد اجتمع بأهل مكة وقال لهم : « إني تحققت أنه يريد الهرب بمال السلطان إلى العراق ، وأنا غلام مولانا السلطان ، والمال عندي محفوظ والخيل والعدد إلى أن يصل مرسوم السلطان فيه » فوردت الأخبار بعد أيام يسيره بوفاة السلطان[٤] .

فلما علم أبو سعد بوفاة السلطان تولى الأمور بمكة في هذه السنة سنة ٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م[٥] واستمر مقيماً على ولايته بها ، وأثناء حكمه لمكة سقطت الدولة الأيوبية بمصر ، وقامت دولة المماليك .

---

(١) عمر بن فهد : إتحاف الورى ج٣ ص ٦٦.

(٢) عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج١ ص٦٣٢ .

(٣) الخزرجي : العقود اللؤلؤية ج١ ص٧٧ – ٧٨ .

(٤) المصدر السابق .

(٥) الفاسي : العقد الثمين ج٤ ص٣٧٨ ، عمر بن فهد : إتحاف الورى ج٣ ص٦٩ .

الباب الثالث

المجتمع الحجازى
فى عهد الفاطميين والأيوبيين

* * *

المجتمع الحجازي في عهد الفاطميين والأيوبيين

مدخل :

كانت العلاقات بين مصر والحجاز طيبة من الناحية السياسية مما أدى إلى ازدهارها في الناحية الاقتصادية وتطورها في الناحية الفكرية والاجتماعية .

ففي الناحية الاقتصادية تمثل العلاقات بين مصر والحجاز وضعاً مميزاً نظراً لما قام به حكام مصر في العهدين الفاطمي والأيوبي من رعاية مالية واقتصادية لسكان الحجاز وأشرافه .

فقد كانت قافلة الحاج تخرج في كل عام من مصر إلى الحجاز تحمل الأموال والمؤن والغلال لأهل الحجاز ؛ بل إن الأزمات الاقتصادية التي تعرضت لها مصر كان أثرها يظهر واضحاً وجلياً على بلاد الحجاز أيضاً مما يبين مدى الارتباط بينهما .

أما في الناحية العلمية فقد بدأت الحركة العلمية في الحجاز متمثلة في حلقات العلم في المسجد الحرام ومسجد رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وقد لعبت الحلقات دوراً كبيراً في الحياة العلمية والثقافية وأثرى ذلك قدوم كثير من طلاب العلم المصريين والعلماء الذين شدوا الرحال إلى الحرمين الشريفين فأفادوا واستفادوا ، وأثروا وتأثروا بل إن بعض العلماء المصريين طاب لهم البقاء بجوار الحرمين الشريفين يَدْرِسون ويُدَرِّسون وقد جاوروا وأقبلوا على العبادة مخلصين لدين الله الكريم .

وفي الناحية الاجتماعية شكل المجاورون من المصريين في الحرمين على مر العصور جزءاً من أجزاء المجتمع في المدينتين المقدستين مكة والمدينة ، ولم يعد أكثرهم إلى مصر ؛ بل تزوجوا وأنجبوا وتعلم أولادهم بمكة وصاروا جزءاً من سكانها ، كما قدم علماء من بلاد الحجاز إلى مصر وطاب لهم المقام بها واتخذوا منها وطناً ثانياً لهم ، ونتيجة لهذا الاتصال الفكري والاجتماعي حدث تأثير وتأثر واضح بين البلدين ، وغدت العلاقات بينهما صورة مثلى لما يجب

أن تكون عليه العلاقات بين البلدان وفي هذا الباب نوضح مدى الروابط الوطيدة بين البلدين في النواحي الاقتصادية والاجتماعية والعلمية .

وقد قسمنا هذا الباب إلى ثلاثة فصول :

الفصل الأول : الناحية الاجتماعية .

الفصل الثاني : الناحية الاقتصادية .

الفصل الثالث : الناحية الفكرية والثقافية .

الفصل الأول

الناحية الاجتماعية

الفصل الأول

الناحية الاجتماعية

مدخل :

لقد عمل الإسلام منذ ظهوره على تغيير العادات والأحوال الاجتماعية التقليدية فبدلها تبديلاً جوهرياً ، وطبعها كلها بطابع واحد ، فالإسلام ليس ديناً فحسب ؛ بل إنه دين وسياسة واجتماع ، وكان من نتيجة ذلك أن العادات والتقاليد الاجتماعية المحلية غلب عليها الطابع الإسلامي فصارت عند جميع المسلمين متقاربة في الأصول والفروع وما نلمسه من اختلاف في بعض النواحي الاجتماعية فهو بتأثير العوامل المعيشية والإقليمية ، وفي هذا الفصل سوف نعرض لأوجه التشابه والاختلاف بين المجتمعين المصري والحجازي في عهدي الفاطميين والأيوبيين .

طبقات المجتمع الحجازي

لقد كان المجتمع الحجازي في هذه الفترة يتكون من طبقة الأشراف ، فأرباب الوظائف الدينية ، ثم المجاورون ، فطبقة العبيد ، ثم طبقة العامة ، وسوف نعرض لهذه الطبقات كما يلي:

أولاً : طبقة الأشراف :

يطلق لقب الأشراف على آل البيت[١] ، وكان كل من العلويين والعباسيين يخاطب بالشريف[٢] ، ولقد تمتع الأشراف في المجتمع الإسلامي بوجه عام ، والفاطمي بوجه خاص بمكانة مرموقة جعلت منهم طبقة مميزة تقابل بالاحترام والتقدير ، ويمكننا أن نقسم الأشراف في العصر الفاطمي إلى قسمين :

١- الأشراف الأقارب :

وهم الذين ينتسبون إلى الفرع الفاطمي ، وكان يطلق عليهم « الأشراف الاسماعيليون » وكان يعين لهم موظف كبير ليشرف على مصالحهم ، ويكون الصلة بينهم وبين الخليفة فيما يتعلق بشئون حياتهم الخاصة والعامة ، ويحافظ على أنسابهم ، وكان يطلق عليه « نقيب الأشراف » كما كان يلقب أحياناً بالأمير[٣] .

٢- الأشراف الطالبيون :

وهم الذين ينتسبون إلى أبي طالب عم الرسول - صلى الله عليه وسلم - وكانت لهم

(١) البلاذري : أنساب الأشراف ج١ ص٢٠ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) عبد المنعم سلطان : المجتمع المصري في العصر الفاطمي ص٣٦ .

نقابة خاصة تعرف بنقابة الطالبيين ، وكانت هذه النقابة تسند إلى أحد الأشراف المميزين أو الشهود المعدلين[١] .

وحينما استقل أبناء الحسن والحسين ابني علي بن أبي طالب بمكة والمدينة وتولوا الأمور بالحجاز أطلق عليهم الفاطميون لقب الأشراف[٢] وصار هذا اللقب منذ تلك الفترة يطلق على أمراء الحرمين الشريفين ، وأفراد عائلتهم الذين كانوا يعتمدون عليهم في إدارة شئون الإمارة ، ولم يكن هذا اللقب معروفاً من قبل في الحجاز[٣] .

وكما كان الفاطميون يرون في إمامهم شخصاً مقدساً تحيطه هالة من الجلال والتنزيه[٤] أثر هذا في نظر أهل الحجاز إلى حكامهم من الأشراف[٥] إذ بعد أن كان الأمراء في مكة لا يمتازون في نظر رعاياهم بغير الإمارة التي لا تستحق التنزيه استطاع الأشراف أن يحيطوا مراكزهم بشئ من الإجلال ، وأن يطبعوا العامة على تقديسهم ، وبالغوا في هذا حتى عم الغلو في تقديس كل شريف ينتسب إلى بيت الحاكمين[٦] .

ولما كان الفاطميون يميلون إلى مظاهر الترف والأبهة ، وتكتظ قصورهم بتقاليد مرعية الجانب أثر هذا في حكام مكة من الأشراف ، وبدأت الأبهة تأخذ طريقها إلى مجالسهم ومواكبهم وحفلاتهم مما لا عهد لمكة به من قبل ، وشرعوا يحتجبون عن رعاياهم كما رتبوا لهم فرقة موسيقية خاصة تصدح بأنغامها أمام قصورهم ، وابتدعوا المواكب التي تمشي بين أيديهم كلما غدوا أو راحوا[٧] .

---

(١) المقريزي : الخطط ج١ ص٣٨٦ .
(٢) أحمد السباعي : تاريخ مكة ج١ ص٢١٧ .
(٣) المصدر السابق .
(٤) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ج٤ ص٣٢٠ .
(٥) أحمد السباعي : تاريخ مكة ج١ ص٢١٤ .
(٦) المصدر السابق .
(٧) المصدر السابق .

وظلت هذه المظاهر سائدة طوال العصرين الفاطمي والأيوبي فقد وصف ابن جبير خروج أمير مكة للاحتفال بالعمرة الرجبية بقوله : « خرج الأمير يزحف بين قواده ، وأبناؤه أمامه ، وقد قاربوا سن الشباب ، والرايات تخفق أمامه والطبول والدبادب بين يديه والسكينة تفيض عليه ، وقد امتلأت الجبال والطرق والثنيات بالنظارة من جميع المجاورين ، فلما انتهى إلى الميقات ، وقضى غرضه أخذ في الرجوع ، وقد ترتب العسكران بين يديه على لعبهم ومرحهم ، والرجالة على الصفة المذكورة من التجاول ، وقد ركب جملة من أعراب البوادي نجباً صهباً لم ير أجمل منظراً منها ، وركابها يسابقون الخيل بها بين يدي الأمير رافعين أصواتهم بالدعاء له والثناء عليه »[١] .

ويبدو أن بلاد الحجاز لم تتأثر بالأيوبيين كما تأثرت بالفاطميين من قبل لضيق المدى الذي تمتع فيه الأيوبيون بنفوذهم هناك ، بالإضافة إلى انشغال الأيوبيين بالجهاد وقتال الصليبيين ، لذا بقي حكام مكة على عاداتهم التي تأثروا فيها بالفاطميين .

ثانياً : أرباب الوظائف الدينية :

كان في الدولة الفاطمية عدد من الموظفين لوظائفهم صبغة دينية ، وكان أولئك الناس يعرفون بأرباب العمائم ، لأن العمائم الكبيرة كانت تميزهم عن غيرهم من الطوائف الأخرى ، ومن أهم هذه الوظائف القضاة والدعاة والشهود العدول ، وقراء الحضرة ، والخطباء والقراء ، والمؤذنون في الجوامع ، وكانت وظيفة قاضي القضاة من أجل الوظائف الدينية وأرفعها شأناً ، وحينما يجمع بين القضاء والدعوة ويلقب بقاضي القضاة وداعي الدعاة يخرج موكبه عند التعيين بالطبول والأبواق والبنود[٢] .

وقد تأثر الحجاز بمصر فوجدت به وظائف القضاء والخطابة والإمامة وكان به الموظفون من القضاة والخطباء والأئمة والقراء والمؤذنين .

---

(١) ابن جبير : الرحلة ص١٠٩ .

(٢) عبد المنعم سلطان : المجتمع المصري في العصر الفاطمي ص٥١ - ٥٢ .

وكان منصب القضاء بمكة من أجل المناصب[١] إذ تعتبر وظيفة القاضي الوظيفة الثانية بعد ولاية مكة والمدينة ، ولابد أن يكون قاضي البيت الحرام والمسجد النبوي من كبار العلماء والفقهاء ، وأشهر من تولى منصب القضاء بمكة عائلة الطبري فقد ذكر المؤرخ المكي الفاسي عدداً كبيراً منهم في كتابه « العقد الثمين » نذكر منهم :

- إبراهيم بن علي بن الحسن الشيباني (أبو إسحاق الطبري المكي) وقد توفي سنة ٥٢٣هـ / ١١٢٨م[٢] .

- محمد بن علي بن الحسين الشيباني (أبو المظفر الشيباني الطبري المكي) وقد توفي سنة ٥٤٥هـ / ١١٥٠م[٣] .

- عبد الرحمن بن علي بن الحسين الشيباني (أبو القاسم الشيباني الطبري المكي) وقد توفي سنة ٥٥٤هـ / ١١٥٨م[٤] .

- يحيى بن عبد الرحمن بن علي بن الحسين الشيباني وقد تولى القضاء خلفاً لوالده وقدم إلى القاهرة في عهد صلاح الدين الأيوبي الذي أكرمه ووقف عليه وعلى ذريته بلدة بديار مصر ، لم يذكر المؤرخ الفاسي اسم هذه البلدة[٥] .

- عبد الله بن يحيى بن عبد الرحمن (القاضي جمال الدين أبو محمد الشيباني الطبري المكي) تولى القضاء والخطابة بمكة ، وكان قاضياً حتى سنة ٦٠٥هـ / ١٢٠٨م[٦] .

---

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ج١٢ ص٢٤١ .
(٢) الفاسي : العقد الثمين ج٣ ص٢٣٣ - ٢٣٤ ، عمر بن فهد : إتحاف الورى ج٢ ص٥٠١ .
(٣) المصدر السابق ج٢ ص١٥٢- ١٥٣ ، المصدر السابق ص٥١٢ - ٥١٣ .
(٤) المصدر السابق ج٥ ص٣٩٢ - ٣٩٣ ، المصدر السابق ص٥٢٢ .
(٥) المصدر السابق ج٧ ص٤٣٨ - ٤٣٩ ، المصدر السابق ص٥٣٠ .
(٦) المصدر السابق ج٥ ص٢٩٨ ، المصدر السابق ص٥٦٨ .

ومن أشهر قضاة المدينة المنورة أبو الطيب الحسني الحنفي الأزهري ، وقد وفد إلى مصر وتتلمذ في الأزهر الشريف ثم رحل إلى المدينة في منتصف القرن السادس الهجري وتولى أمر القضاء فيها ، ومن أبنائه أحمد وعباس اللذان توليا الخطابة والإمامة بالمسجد النبوي الشريف[١] ويبدو أنه كان قاضياً للسنة لأن قاضي الشيعة علي بن سنان الحسيني كان يتولى القضاء للشيعة بالمدينة المنورة[٢] .

وكان للخطيب في مكة مراسم يبدو أنها كانت منذ العصر الفاطمي واستمرت في العصر الأيوبي وقد وصفها ابن جبير حين ذكر أن خطبة الجمعة كان يتولاها الخطيب الشافعي الذي كان يحضر إلى الحرم لابساً الخلعة الخليفية ، ويتقدم إلى المنبر ببطء مبدياً السكينة والوقار بين رايتين سوادوين يمسكهما رجلان من قومة المؤذنين ، ويسعى بين يديه قيم بيده عود مخروط أحمر وفي يده مرسى من الأديم المفتول الرقيق الطويل في طرفه عذبة صغيرة ينفضها في الهواء بيده فتحدث صوتاً مرتفعاً يسمعه من بالحرم وخارجه « يسمونها الفرقعة » ويعني ذلك وصول الخطيب ويستمر في نفضها حتى يصل المنبر ، وعندما يقترب منه يصعد على الحجر الأسود فيقبله ويدعو عنده ثم يعود إلى المنبر ورئيس المؤذنين « المؤذن الزمزمي » بين يديه لابساً ثياباً سوداء ممسكاً سيفاً بيده ، ثم يبدأ الخطيب في صعود المنبر ، وعندما يعتلي الدرجة الأولى يقلده المؤذن السيف فيضرب الدرجة بحديدة في مؤخرة سيفه ضربة يسمعها الحاضرون ويكرر ذلك في الدرجة الثانية والثالثة وإذا ما صعد على درجة ضربها ضربة رابعة ووقف مستقبلاً الكعبة داعياً بصوت منخفض ، ويلتفت يمنة ويسرة ويلقي السلام على الحاضرين فيردون عليه ويجلس ، ويبادر المؤذنون في المنبر بالأذان بين يديه بصوت واحد وإذا فرغوا وقف للخطبة[٣] .

أما في المدينة المنورة فكان الخطيب يتقدم للخطبة يوم الجمعة بعد أن يؤذن المؤذنون

(١) ابن العماد : شذرات الذهب ج٦ ص٢٧٧ .

(٢) السمهودي : الوفا بما يجب لحضرة المصطفى ص١٤٩ .

(٣) ابن جبير : الرحلة ص٧٢ - ٧٣ .

فتتقدمه الرايتان السوداوان وتركزان في جانبي المنبر فيقف بينهما ، وبعد ما يفرغ من الخطبة الأولى يجلس جلسة طويلة يخالف بها جلسة الخطباء التي تتصف بالسرعة ويقوم الخدام التابعون له باختراق الصفوف وتخطي الرقاب يجمعون ما يتبرع به الحاضرون لهذا الخطيب الذي لا يهمه سوى جمع الأموال والذهب والثياب حتى ولو كان ذلك على حساب الدين[١] .

والحقيقة أن أرباب الوظائف الدينية في بلاد الحجاز كانوا ينقسمون إلى فئتين :

الفئة الأولى : تمثل أهل السنة بمذاهبهم المختلفة حيث كان لكل فئة قضاتهم وفقهاؤهم وعلماؤهم وخطباؤهم وأئمتهم وقراؤهم في الحرم المكي .

الفئة الثانية : قضاة وفقهاء وخطباء وأئمة وقراء الشيعة الحسينيين بالمدينة المنورة[٢] .

ومن أرباب الوظائف الدينية في الحجاز نذكر على سبيل المثال :

أولاً : في العصر الفاطمي :

- أبو عبد الله الكازريني (محمد بن حسين بن محمد) مقرئ مكة وقد توفي سنة ٤٤٠هـ / ١٠٤٨م[٣] .

- أحمد بن أسد بن أحمد بن باذل الكوجي ، شيخ الحرم الصوفي توفي بعد سنة ٤٦٠هـ[٤] .

- محدث مكة أبو الفضل جعفر بن يحيى بن إبراهيم التميمي المعروف بابن الحكاك يذكر الفاسي أنه « كان موصوفاً بالمعرفة والحفظ والإتقان وكان أمير مكة يرسله إلى الخلفاء والملوك

---

(١) ابن جبير : الرحلة ص١٧٩ .

(٢) السمهودي : الوفا بما يجب لحضرة المصطفى ص١٤١ - ١٤٢ .

(٣) الفاسي : العقد الثمين ج٢ ص٦ ، عمر بن فهد : إتحاف الورى ج٢ ص٤٦٢ .

(٤) المصدر السابق ج٣ ص١٧ .

ويأخذ الأموال منهم لأشراف الحجاز ويحمل كسوة الكعبة »[١] .

ويبدو أنه كان وزيراً للخارجية لدى أمير مكة يرسله للخلفاء والملوك ويأخذ منهم المعونات التي كانوا يرسلونها إلى مكة ويتولى الإشراف على كسوة الكعبة حتى تصل إلى مكة .

– محمد بن هبة الله بن ثابت – فقيه الحرم – أبو النصر البندنيجي الشافعي مؤلف كتاب المعتمد في فروع الشافعية ، وقد درس على يديه الحافظ السلفي وأجاز له وقد توفي بمكة سنة ٤٩٥هـ / ١١٠١م[٢] .

– عبد الملك بن أبي مسلم النهاوندي ، إمام مقام إبراهيم الخليل عليه السلام توفي سنة ٥١٩هـ / ١١٢٥م[٣] .

– محمد بن عمر بن عثمان بن عبد العزيز بن طاهر البخاري ، أبو بكر ، وأبو الفضل الحنفي إمام الحنفية بالحرم الشريف ، الملقب كاك ، وقد أجاز للحافظ السلفي وذكره في كتابه «الوجيز» وقد توفي سنة ٥٢٥هـ / ١١٣٠م[٤] .

– رزين بن معاوية بن عمار العبدري ، أبو الحسن إمام المالكية بالحرم ، روى عنه قاضي مكة أبوالمظفر الشيباني ، والحافظ أبو القاسم بن عساكر ، وأجاز للحافظ السلفي وله مؤلفات منها كتاب جمع فيه ما في الصحاح الخمسة والموطأ ومنها كتاب « في أخبار مكة » ملخص من كتاب الأزرقي « أخبار مكة » وجاء إلى الاسكندرية ودرس على يد أئمة المالكية بها ، وقد توفي سنة ٥٢٥هـ / ١١٣٠م[٥] .

---

(١) عمر بن فهد : إتحاف الورى ج٢ ص٤٨٦ .

(٢) الفاسي : العقد الثمين ج٢ ص٣٨١ .

(٣) عمر بن فهد : إتحاف الورى ج٢ ص٤٩٩ .

(٤) الفاسي : العقد الثمين ج٢ ص٢٢٦ .

(٥) عمر بن فهد : إتحاف الورى ج٢ ص٥٠٢ .

- أبو بكر بن أبي الحسن الطوسي ، إمام مقام إبراهيم الخليل - عليه السلام - بالمسجد الحرام وقد توفي سنة ٥٦٣هـ / ١١٦٧م[١] .

ثانياً : في العصر الأيوبي :

- علي بن عبد الله بن حمود الفاسي ، أبو الحسن المكناسي إمام المالكية بالحرم الشريف أخذ عن أبي بكر الطرطوشي سنن أبي داود ، وصحيح مسلم أخذه عن ابن طرخان ، وجاور ، وأم بالحرم ، وأصله من مكناسة الزيتون ، وقد توفي بمكة سنة ٥٧١هـ / ١١٧٥م[٢] .

- مبارك بن علي بن الحسين بن عبد الله بن محمد البغدادي ، أبو محمد المعروف بابن الطباخ الحنبلي إمام الحنابلة بالمسجد الحرام ، توفي سنة ٥٧٥هـ / ١١٧٩م[٣] .

- محمد بن عبد الله بن الفتوح بن محمد المكناسي ، جمال الدين أبو عبد الله ، إمام المالكية بالحرم الشريف ، تولى مقام المالكية بمكة سنة ٥٨٨هـ / ١١٩٢م ووقف في هذا العام ست مجلدات على المالكية والشافعية والحنفية الذين يستقرون بمكة ، وجعلها مقرها خزانة المالكية بمكة ، وقد توفي سنة ٥٩٢هـ / ١١٩٥م[٤] .

- محمد بن عبد الله بن الحسين بن علي بن أبي طلحة البرمكي الهروي ، أبو عبد الله ، ويقال له أبو الفتح الحنبلي إمام الحنابلة بالحرم الشريف ، سمع من أبي المعالي بن النحاس ، وأبي الوقت السِّجزي وغيرهم ببغداد ومصر والاسكندرية ، ثم سار إلى مكة واستوطنها إلى حين وفاته ، وأم فيها بمقام الحنابلة سنين وحدث فيهاللكثير ، وكان حياً في سنة ٥٩٠هـ / ١١٩٣م ويذكر الفاسي أنه توفى بعدها بيسير ودفن بالمعلاة[٥] .

---

(١) الفاسي : العقد الثمين ج٨ ص١٢ .

(٢)المصدر السابق ج٦ ص١٨١ - ١٨٢ .

(٣) عمر بن فهد : إتحاف الورى ج٢ ص٥٤٣ .

(٤) الفاسي : العقد الثمين ج٢ ص٧٤ - ٧٥ .

(٥) المصدر السابق ص٥٢ .

- علي بن مظفر بن علي بن نعيم السلامي ، أبو الحسن المعروف بابن الحبير التاجر ، تولى النظر في مصالح المسجد الحرام ، ومصالح الكعبة ، وتوفي سنة ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م[١] .

- عبد المحسن بن أبي العميد بن خالد المنعوت بالحجة ، الفقيه الشافعي الصوفي إمام الحرمين سمع بالقاهرة من أبي القاسم الأباصيري ، وفاطمة بنت سعد الخير ، وفي الاسكندرية من محمد أبي عبد الله محمد بن عبد الرحمن الحضرمي ، وقد توفي سنة ٦٢٤هـ / ١٢٢٦م بمكة[٢] .

- محمد بن عمر بن يوسف بن نعيم الأنصاري ، أبو عبد الله القرطبي الفقيه المالكي المقري ، شيخ الحرمين ، أخذ القراءات بالمغرب عن جماعة منهم : أبو محمد عبد الله بن محمد ابن عبد الله الحجري ، وبمصر عن أبي القاسم الشاطبي ، وأبي القاسم البوصيري ، وأبي عبدالله الأرتاحي ، وأبي محمد بن بري ، وقد أم بالحرم الشريف النبوي وتوفي سنة ٦٣١هـ / ١٢٢٣م ودفن بالبقيع وكان يلقى احتراماً من قبل أشراف مكة فإذا ذهب إلى أحدهم يقوم له حتى يقضي حاجته .

ويذكر الفاسي أن له أخباراً مع السلطان الملك الكامل في حق أشراف المدينة وتعظيمهم ، وقد سافر مع بعض الأشراف[٣] إلى مصر ، وسعى في قضاء حوائجهم حتى قضيت سريعاً ، وكان الكامل صاحب مصر يأتي إليه ويزوره[٤] .

ثالثاً : المجاورون :

المجاورون قوم قدموا من مختلف أنحاء العالم الإسلامي إلى مكة المكرمة للمجاورة في الحرم المكي الذي جعله الله مثابة للناس وأمناً ، فقد قال الله تعالى : ﴿ وإذ جعلنا البيت مثابة

(١) عمر بن فهد : إتحاف الورى ج٣ ص٤٧ .
(٢) المصدر السابق ص٤٣ - الفاسي : العقد الثمين ج٥ ص٤٩٣ .
(٣) الفاسي : العقد الثمين ج٢ ص٢٣٧ - ٢٤١
(٤) المصدر السابق .

للناس وأمناً ﴾ [١] .

وكان المجاورون ومنهم التجار والعلماء وطلبة العلم يطلبون رضوان الله ، وفضله وكرمه ، ثم ما لبث هؤلاء أن استقروا في مكة المكرمة ، واندمجوا في مجتمعها ، وشاركوا في حركتها العلمية والاقتصادية[٢] .

وكان للمجاورين دور في كل ما يدور من أحداث داخل مكة إذ يذكر عبد العزيز بن فهد المؤرخ المكي أن الحاكم بأمر الله أرسل إلى أبي الفتوح الحسن بن جعفر الحسني أمير مكة سنة ٣٩٥هـ / ١٠٠٤م سجلاً ينتقص فيه بعض الصحابة – رضي الله عنهم – فلما أنفذه الأمير إلى القاضي إبراهيم بن إسماعيل الموسوي قاضي مكة وأمره بقراءته على الناس ، وعلم المجاورون بذلك غضبوا غضباً شديداً ، وثاروا فأرجأ القاضي الخروج ، ثم امتنع أبو الفتوح عن تنفيذ ذلك[٣] .

وحينما رأى المجاورون هادي المستجيبين[٤] الذي كان يدعو إلى عبادة الحاكم مضوا إلى أبي الفتوح وذكروا له حكايته فأمر بقتله[٥] .

---

(١) سورة البقرة آية (١٢٥) .

(٢) المشيقح : تاريخ أم القرى ص٤٧ .

(٣) عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج١ ص٤٩٣ .

(٤) هو حمزة بن أحمد ، وقد تلقب بالهادي ، وهادي المستجيبين ، وأقام بمسجد تبر خارج القاهرة وقد تساهل في أعمال الشريعة فأسقط جميع التكاليف في الصلاة والصوم ونحو ذلك فاستجاب له بعض الغافلين وظهر على يديه مذهب الدرزية ببلاد صيدا وبيروت وساحل الشام ، وقد ظهر في أواخر أيام الحاكم ، وكان يدعو إلى عبادته، فلما جاء إلى مكة نزل ضيفاً على أبي الفتوح الحسن بن جعفر الحسني فلما رآه المجاورون يطوف بالكعبة مضوا إلى أبي الفتوح ، وذكروا له شأنه فقتله . (المقريزي : اتعاظ الحنفا ج٢ ص١١٣ ، عمر بن فهد : إتحاف الورى ج٢ ص٤٤٥ ، الفاسي : العقد الثمين ج٧ ص٣٥٤) .

(٥) عمر بن فهد : إتحاف الورى ج٢ ص٤٤٥ ، الفاسي : العقد الثمين ج٧ ص٣٥٥ .

رابعاً : طبقة العبيد :

كثرت هذه الطبقة في بلاد الحجاز ، وكانت تضم أتباع الأمير وأعوانه وخواصه الذين يسهرون على راحته وخدمته وحمايته وتنفيذ أوامره ، وكان لكل أمير مجموعة من العبيد تقل أو تكثر حسب مركزه ، فقد ذكر المؤرخون أن أبا الفتوح الحسن بن جعفر الحسني كان له كثير من العبيد فلما خرج على الحاكم بأمر الله وسار إلى آل الجراح بالرملة كان معه نحو ألف فارس من بني حسن ونحو ألف عبد من قواده[١] .

وكان للعبيد دور كبير في الحجاز ووصل بعضهم إلى مرتبة الإمارة ، إذ لما توفي الأمير شكر بن أبي الفتوح الحسني أمير مكة سنة ٤٥٣هـ / ١٠٦١م ، ولم يعقب ، تولى الإمارة خلفاً له عبد من قواده يسمى طراد بن أحمد[٢] واستمر فترة من الزمن حتى خلعه بنو أبي الطيب الحسنيين ، وتولوا الأمر منه[٣] .

وقد أسهم العبيد في إثارة الشغب والفوضى بمكة فقد ذكر الفاسي أنه في سنة ٥٥٧هـ / ١١٦١م كانت بمكة فتنة بين أهلها والحجاج العراقيين سببها أن جماعة من عبيد مكة أثاروا الشغب ضد الحجاج بمنى ، فنفر عليهم بعض أصحاب أمير الحاج العراقي فقتلوا منهم جماعة ورجع من سلم إلى مكة فجمع العبيد حشودهم وأغاروا على جمال الحاج فأخذوا مايقرب من ألف جمل ، فنادى أمير الحاج العراقي في جنده فركبوا بسلاحهم ووقع القتال بينهم ، فقتل جماعة من الحجاج ، ونهب بعض منهم ، فرجع أمير الحاج العراقي ولم يدخل مكة حتى أرسل إليهم أمير مكة يستعطفهم فرفضوا العودة[٤] .

---

(١) ابن فضل الطبري : إتحاف فضلاء الزمن لوحة (١٠) ، عمر بن فهد : إتحاف الورى ج٢ ص٤٣٨ ، عبد العزيز ابن فهد : غاية المرام ج١ ص٤٨٥ ، الفاسي : العقد الثمين ج٤ ص٧١ .

(٢) ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ص٤٧ ، الفاسي : العقد الثمين ج٥ ص١٤ ، ابن خلدون . العبر ج٤ ص١٣٢ .

(٣) دحلان : خلاصة الكلام ص١٧ - ١٨ .

(٤) الفاسي : شفاء الغرام ج٢ ص٢٢٩ .

وفي سنة ٥٦٦هـ / ١١٧٠م نهب عبيد الأمير مالك بن فليتة بن قاسم الحسني جده وأخذوا أموال التجار[١] .

وفي العصر الأيوبي حينما قدم سيف الإسلام طغتكين سنة ٥٨١هـ / ١١٨٥م إلى مكة واستولى عليها ، وخطب بها لأخيه صلاح الدين قتل جماعة من العبيد كانوا يؤذون الناس ، وشرط على بقية العبيد ألا يؤذوا الحاج[٢] .

إلاأن عبيد مكة عادوا مرة أخرى إلى إثارة الشغب ضد الحجاج ونهبهم ، ففي سنة ٦٠٨هـ / ١٢١١م نهبوا الحاج العراقي ، وكان سبب ذلك أن أحد دعاة الباطنية أراد قتل الشريف قتادة الحسني لكنه أخطأ وقتل ابن عمه الذي كان شديد الشبه به ، فثار عبيد مكة والأشراف وصعدوا الجبلين بمنى ، وهللوا وكبروا ، وضربوا الناس بالحجارة والمقاليع والنشاب ، ونهبوا الحجاج ، وقتل من الفريقين جماعة ، ثم حمل قتادة الحسني أمير مكة والعبيد على الحجاج حتى قتلوا كثيراً منهم[٣] .

وكانت الإماء والجواري يجلبن من أسواق النخاسة بجميع البلاد ، ومنهن الحبشيات والروميات والشركسيات والعربيات من مولدات المدينة والطائف واليمامة ومصر[٤] وكان أهل المدينة يكرهون اتخاذ الإماء أمهات أولادهم ، حتى نشأ فيهم علي بن الحسن بن علي - رضي الله عنه - ، وفاق أهل المدينة فقهاً وعلماً وورعاً فرغب أهل المدينة في اتخاذ الجواري[٥] .

وفي العصر الأيوبي أخذ أمير الحجاز قتادة بن إدريس الحسني جارية حبشية من المدينة وجعلها مقربة منه وقد اشتركت مع ابنه الحسن في قتله كي يتولى الإمارة[٦] .

---

(١) عمر بن فهد : إتحاف الورى ج٢ ص٥٣٢ .

(٢) عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج١ ص٥٤٨ .

(٣) الفاسي : العقد الثمين ج٧ ص٤٨ ، عمر بن فهد : إتحاف الورى ج٣ ص١١ - ١٢ .

(٤) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ج٢ ص٤٣٢ - ٤٣٣ .

(٥) المصدر السابق .

(٦) عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج١ ص٥٧١ ، ٥٨٧ .

كما كان بعض أمراء الأشراف بمكة من أبناء الإماء كالأمير أبي سعد علي بن قتادة الذي كانت أمه حبشية[١] .

والحقيقة أن طبقة العبيد في الحجاز كانت كبيرة ولها دور في الأحداث خلال العصرين الفاطمي والأيوبي .

أما في مصر فقد كانت طبقة العبيد السودان كبيرة وكثر عددهم في عهد كافور الاخشيدي، وظهر أمرهم في أيام الخليفة الحاكم بأمر الله الذي استعان بهم على الأتراك كما أحرقوا القاهرة في عهده حنقاً على المصريين الذين لم يرضوا عن سياسة الحاكم .

وقد ظهر أمر العبيد السودان من جديد أيام الخليفة الظاهر الذي تزوج بسيدة سودانية ثم تفاقم خطرهم في عهد ابنه المستنصر[٢] حتى بلغ عدد الجنود السودانيين خمسين ألفاً[٣] .

وقد استطاع صلاح الدين الأيوبي القضاء على هذه الطبقة في مصر ، لكنها استمرت في الحجاز حتى عصر المماليك .

خامساً : طبقة العامة :

هم السواد الأعظم من الناس ، وتتكون هذه الطبقة من التجار الذين يشتغلون بالتجارة بين الشرق والغرب ، والفلاحين الذين كانوا فئة فقيرة نظراً لطبيعة الحجاز الصحراوية القليلة الأمطار ، والصناع الذين كانوا يشكلون فئة قليلة من السكان .

أما معظم سكان الحجاز فكانوا يعملون بالرعي لأنها من الحرف المفضلة لديهم نظراً للبيئة التي كانوا يعيشون فيها ، ولأنها توفر للأعرابي الحرية التي لا يتمتع بها الفلاح .

---

(١) عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج١ ص٦٣٧ .

(٢) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ج٣ ص٤٨٠ .

(٣) المصدر السابق ص٥٠٣ .

وكان سكان البوادي يتألفون من مجموعات يرأسها شيخ القبيلة التي تكون كلمته مسموعة فيهم[١] وكان الأشراف يعتمدون عليهم في حروبهم ، ففي سنة ٤١٢هـ / ١٠٢١م حشد أبو الفتوح الحسن بن جعفر الحسني عدداً من أبناء البادية وحارب رجلاً من بني حرام استولى على مدينة حلي[٢] فأخذها أبو الفتوح منه وهزمه[٣] .

وفي سنة ٥٥٦هـ / ١١٦٠م جمع قاسم بن هاشم الحسني جموعاً كثيرة من هؤلاء الأعراب وأطمعهم ي مال له بمكة فاتبعوه ، فلما خذلهم ولم يعطهم الأموال تخلوا عنه[٤] .

والحقيقة أن طبقة العامة في الحجاز كانت كثيراً ما تتعرض للجوع والفقر وعدم الاهتمام من الأشراف أيام القحط والجدب ، فيخبرنا ناصر خسرو أنه في سنة ٤٣٩هـ / ١٠٤٧م كان بمكة قحط وحدب فخرج من الحجاز خلق كثير ممن أصابهم الجوع والفقر وتوجهوا ناحية مصر وبلغ عددهم خمسة وثلاثين ألف حجازي كساهم الخليفة الفاطمي وأجرى عليهم الرزق سنة كاملة ، وقد كانوا جميعاً جوعى وعرايا ، ولما أمطرت السماء في بلادهم ،وأخصبت الأرض ، وكثر فيها الطعام ، كساهم السلطان صغيرهم وكبيرهم وأغدق عليهم الصلات ثم قام بترحيلهم إلى الحجاز[٥] .

وقد هاجر كثير من أفراد هذه الطبقة إلى مصر في العصر الفاطمي ، واستقروا فيها وانتظم عدد منهم في سلك الجندية بها ، فقد ذكر الرحالة ناصر خسرو أن جيش الخليفة الفاطمي

---

(١) جميل حرب : بلاد الحجاز واليمن ص٢٣٠ .

(٢) حلي : مدينة صغيرة على ساحل البحر الأحمر بينها وبين ميناء السرين خمسة أيام جهة الشمال وهي محطة السفن الآتية من اليمن (الإدريسي : نزهة المشتاق ج١ ص١٣٧ - ١٣٨) .

(٣) عمر بن فهد : إتحاف الورى ج٢ ص٤٤٦ ، عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج١ ص٤٩٤ ، الفاسي : العقد الثمين ج٤ ص٧٩ .

(٤) عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج١ ص٥٢٦ .

(٥) ناصر خسرو : سفرنامه ص١١٢ .

المستنصر كان به فرقة تسمى « البدو » وهم من أهل الحجاز ، ويقال لهم الرماة ، وقد قدر عددهم بحوالي خمسين ألف فارس[١] .

(١) ناصر خسرو : سفرنامه ص٩٤ .

العادات والتقاليد

كان لموقع بلاد الحجاز الجغرافي واتصاله بمصر براً وبحراً أثر كبير فيما كان بينهما من اتصال أوجد نوعاً من التأثير والتأثر والتفاعل والامتزاج بينهما في العادات والتقاليد ، ومن ينظر إلى الحياة الاجتماعية في مصر والحجاز يلحظ تشابهاً واضحاً حيث انتقلت من مصر إلى الحجاز عادات احتماعية كثيرة ، وخاصة في العصر الفاطمي ، أما في العصر الأيوبي فكان التأثيرضعيفاً ونلمس ذلك فيما يلي :

أولاً : الأعياد والمواسم الدينية والاحتفالات :

ذكر المقريزي أن الخلفاء الفاطميين كان لهم في طوال السنة أعياد ومواسم هي : موسم رأس السنة ، وموسم أول العام ، ويوم عاشوراء ، ومولد النبي - صلى الله عليه وسلم - ومولد علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - ، ومولد الحسن ومولد الحسين - رضي الله عنهما - ومولد فاطمة الزهراء - رضي الله عنها - وليلة أول رجب ، وليلة نصفه ، وليلة أول شعبان وليلة نصفه ، وموسم ليلة رمضان ، وغرة رمضان ، وسماط رمضان ، وليلة الختم ، وعيد الفطر ، وموسم عيد الأضحى ، وعيد الغدير ، وكسوة الشتاء ، وكسوة الصيف ، وموسم فتح الخليج ، ويوم النوروز ، ويوم الغطاس ، ويوم الميلاد[١] .

وقد تأثر الحجازيون بكثير من هذه الأعياد والمواسم كما يلي :

أ- استهلال الشهور الهجرية :

كان الفاطميون يحتفلون برأس السنة الهجرية بإخراج الأسلحة والنفائس وإعداد الخيول المشتركة في الموكب الكبير الذي يخرج صبيحة يوم الاحتفال فيخرج من خزانة الأسلحة ما

---

(١) المقريزي : الخطط ج١ ص٤٩٠ .

يحمله طوائف الجند في الموكب وصبيان الركاب المحيطين بالخليفة من أنواع الأسلحة المختلفة المحلاة بالذهب والفضة والجواهر ، كما تخرج الألوية والبنود بالإضافة إلى الطبول الضخمة التي تحمل على البغال وتصاحب الموكب ، ومن الاصطبلات مائة فرس برسم ركوب الخليفة ، وكبار رجال الحاشية عليها سروج محلاة بالذهب والفضة والجواهر وفي أعناقها أطواق من الذهب وقلائد العنبر ، بالإضافة إلى الخيول التي خصصت لكبار رجال الدولة حسب مكانة كل منهم(١) .

ولقد تأثر الحجازيون بهذه المظاهر ، وبدا ذلك واضحاً في احتفالاتهم باستهلال الشهور الهجرية إذ جرت العادة أن يأتي أمير مكة أول يوم من أيام الشهر يحيط به كبار رجاله والقراء يقرأون أمامه فيدخل على باب النبي – صلى الله عليه وسلم – ورجاله السودان الذين يعرفون بالحرابة يطوفون أمامه وبأيديهم الحراب وهو يسير متقلداً سيفه ، لابساً ثوباً أبيض ، ويبدو عليه السكينة والوقار ، وعندما يصل إلى مقام إبراهيم يصلي ركعتين ، ثم يقبل الحجر الأسود ، ويطوف حول الكعبة سبعة أشواط وبعد الانتهاء من كل شوط يتجه لتقبيل الحجر الأسود فيعلو صوت رئيس المؤذنين – الذي يقف على قبة زمزم – بالدعاء للأمير وتهنئته بدخول الشهر ثم يختتم ذلك بثلاثة أو أربعة أبيات من الشعر في مدحه ومدح سلفه الكريم(٢) .

ب- احتفالات ليالي الوقود :

كان الاحتفال بليالي الوقود الأربع من الاحتفالات الشهيرة في الدولة الفاطمية ويحتفل بها أول شهر رجب ونصفه ، وأول شهر شعبان ونصفه .

وكان أهم مظاهر هذا الاحتفال إضاءة الجوامع والمساجد من الداخل والخارج كما تضاء المآذن والأسطح فتتلألأ بالأضواء الساطعة ، وتصبح كأنها شعلة من نور ويحتشد فيها الناس على مختلف طبقاتهم للتعبد ومشاهدة الزينات والاستمتاع بما يوزع عليهم من أصناف الطعام والحلوى(٣) .

---

(١) عبد المنعم سلطان : المجتمع المصري في العصر الفاطمي ص١٢٩ .

(٢) ابن جبير : الرحلة ص٧٤ – ٧٥ .

(٣) المقريزي : الخطط ج١ ص٤٦٥ – ٤٦٦ .

ولقد تأثر الحجازيون بالفاطميين في الاحتفال بهذه الليالي فكانوا يحتفلون بليلة أول رجب ، وليلة نصفه ، بالإضافة إلى ليلة السابع والعشرين منه ، وليلة أول شعبان وليلة نصفه، وكانت احتفالاتهم كما يلي :

- ليلة اول رجب :

يخبرنا ناصر خسرو أن أول رجب موسم عظيم في الحجاز مثل عيد رمضان[١] ، ويذكر ابن جبير أن هذا الشهر المبارك عند أهل مكة موسم من المواسم المعظمة[٢] .

وقد وصف ابن جبير احتفال أهل مكة بالليلة التي يستهل فيها الهلال فقال : عند ثبوت رؤية الهلال ، يأمر الأمير بضرب الطبول والدبادب[٣] والبوقات إشعاراً بأنها ليلة الموسم ، وفي تلك الليلة يمتلئ المسجد الحرام كله سرجاً فتتلألأ الأنوار ، ويخرج الأمير لقضاء العمرة في احتفال مهيب ، وقد احتشد له أهل مكة عن بكرة أبيهم فخرجوا على مراتبهم قبيلة قبيلة ، وحارة حارة ، شاكين الأسلحة فرساناً ورجاله فاجتمع منهم عدد لا يحصى كثرة وهم يخرجون في تنسيق كامل .

فالفرسان منهم يخرجون بخيلهم ويلعبون بالأسلحة عليها ، والرجالة يتواثبون ويلعبون بالأسلحة في أيديهم حراباً وسيوفاً وتروساً ، وهم يظهرون التطاعن بعضهم لبعض ، والتضارب بالسيوف والمدافعة بالتروس التي يحتمون بها ، ويظهرون في ذلك مهارة كبيرة[٤] ولا يزالون في هذا إلى أن يخرج الأمير إليهم ، وقد أحاط به قواده ، وأبناؤه أمامه ، وقد قاربوا سن الشباب ، والرايات تخفق أمامه والطبول والدبادب بين يديه إلى أن ينتهي إلى الميقات للإحرام للعمرة ، ثم يأخذ في الرجوع للمسجد الحرام فيطوف بالكعبة والقراء أمامه والمؤذن الزمزمي

---

(١) ناصر خسرو : سفرنامة ص١٢١ .

(٢) ابن جبير : الرحلة ص١٠٦ .

(٣) الدبادب : نوع من الطبول وواحده دبداب (ابن جبير : حاشية ص١٠٨) .

(٤) ابن جبير : الرحلة ص١٠٨ .

يقف على سطح قبة زمزم رافعاً صوته بتهنئته بالموسم والثناء عليه ، والدعاء له كالعادة[١].

- *ليلة النصف من رجب :*

يذكر ابن جبير أنهم في يوم الخامس عشر من هذا الشهر يحتفلون احتفالاً شبيهاً باحتفال الليلة الأولى منه ويخرج الناس إلى العمرة ولا يبقى أحد من الرجال والنساء إلا خرج لها[٢].

- *ليلة السابع والعشرين من رجب :*

في ليلة السابع والعشرين من رجب يحتفل أهل مكة منذ صبيحتها احتفالاً عظيماً ويخرجون للعمرة التي يسمونها عمرة الأكمة لأنهم يحرمون فيها من أكمة أمام مسجد السيدة عائشة - رضي الله عنها -[٣] .

- *ليلة أول شعبان :*

في صباح أول يوم من شعبان يبكر أمير البلاد بالخروج إلى الطواف كعادته في أول كل شهر في موكب مهيب مع أخيه وبنيه وقادته وأتباعه[٤] .

- *ليلة النصف من شعبان :*

وهي ليلة معظمة عند أهل مكة فهم يبادرون فيها إلى أعمال البر من العمرة والطواف والصلاة أفراداً وجماعات فيحتفلون احتفالاً عظيماً في الحرم المقدس إثر صلاة العشاء حيث يحتشدون في جماعات متعددة يصلون تراويح يقرأون فيها بفاتحة الكتاب ، وبسورة الإخلاص عشر مرات في كل ركعة إلى أن يكملوا خمسين تسليمة بمائة ركعة ، وقد قدمت كل جماعة إماماً وبسطت الحصر ، وأوقدت الشموع وأشعلت المشاعل وأسرجت المصابيح[٥] .

---

(١) ابن جبير : الرحلة ص١٠٩ .
(٢) المصدر السابق ص١١٣ .
(٣) المصدر السابق ١١٤ .
(٤) المصدر السابق ١١٧ .
(٥) المصدر السابق ص١١٩ - ١٢٠ .

جـ - الاحتفال بشهر رمضان :

استمر الحجازيون طوال العصرين الفاطمي والأيوبي يصومون شهر رمضان ويفطرون على حساب لهم متأثرين في ذلك بالفاطميين فيخبرنا ابن جبير أنه عند زيارته للحجاز حدث اختلاف بين أهل السنة والشيعة حول حلول شهر رمضان ، إذ لم يظهر الهلال ليلة الأحد سنة ٥٧٩هـ / ١١٨٣م ، وعلى ذلك اعتبر أئمة المذاهب السنية أن بداية رمضان يوم الإثنين ؛ أما أهل مكة من الشيعة فقرروا الصيام يوم الأحد بحجة أنهم يشكون في رؤية الهلال ، وحسب مذهبهم يعتبر يوم الشك فرضاً[١] .

ولذلك أقر أمير البلاد الصيام يوم الأحد وأمر بالآذان بالصوم وضربت دبادبه ليلة الأحد لموافقته مذهبه ومذهب شيعته[٢] .

وكان من عادة الفاطميين في مصر الإعلان عن بداية شهر رمضان بخروج الخليفة في موكب رسمي كبير على غرار موكب أول العام ، وترسل الكتب والبشارات إلى ولاة الأعمال والبلاد الخاضعة للنفوذ الفاطمي ، وكان هذا الموكب بمثابة إعلان ببدء شهر رمضان ، وهو بديل عن الاحتفال برؤية الهلال عند أهل السنة[٣] ثم تضاء المساجد ويتبارى القراء في تلاوة القرآن الكريم بأصوات فيها تطريب ، ويتبعهم المؤذنون بالتكبير وذكر فضائل السحور ، ويأتي بعدهم دور الوعاظ فيذكرون فضائل شهر رمضان ، ويسهبون في مدح الخليفة وكرمه ويستمر الاحتفال الديني إلى منتصف الليل[٤] .

وفي الحجاز يتم الاحتفال بحلول شهر رمضان فتجدد الحصر بالمسجد الحرام وتزاد الشموع والمشاعل فيتلألأ الحرم بالأنوار ، ويتفرق الأئمة عدة فرق لإقامة صلاة التراويح ، ويتخذ

---

(١) ابن جبير : الرحلة ص١٢٢ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) عبد المنعم سلطان : المجتمع المصري في العصر الفاطمي ص١٣٧ .

(٤) المرجع السابق ص١٣٨ .

الشافعية والحنابلة والحنفية والزيدية أئمة لهم ، أما المالكية فكانوا يجتمعون على ثلاثة قراء يتناوبون القراءة(١) .

أما السحور فكان يتولاه المؤذن الزمزمي الذي كان يقيم في الصومعة التي في الركن الشرقي من المسجد بسبب قربها من دار الأمير فيقوم في وقت السحور داعياً ومذكراً وحاثاً الناس على القيام للسحور ومعه أخوان صغيران يجاوبانه ويردان عليه ، وفي أعلى الصومعة تنصب خشبة كبيرة طويلة في رأسها عود كالذراع وفي طرفيه بكرتان صغيرتان يرفع عليهما قنديلان كبيران من الزجاج لايزالان مشتعلان مدة التسحير ، فإذا جاء وقت الفجر أنزل المؤذن القنديلين وبدأ بالأذان ويبادر بقية المؤذنين في الأذان من كل ناحية ، وكانت دور مكة كلها أسطح مرتفعة فمن لم يسمع النداء بالتسحير ممن يبعد مسكنه عن المسجد يبصر القنديلين ، فإذا لم يبصرهما عرف أن الوقت قد انقطع فيمتنع عن الطعام والشراب(٢) .

وفي الأشهر الثلاثة رجب وشعبان ورمضان تصنع أنواع كثيرة من الحلوى من العسل والسكر المعقود على صفات شتى يمثلون بها أشكال الفواكه المختلفة وتقام الأسمطة المليئة بهذه لحلوى بين الصفا والمروة(٣) .

ويبدو أنهم قد تأثروا بالفاطميين في ذلك إذ يخبرنا المقريزي أن الموائد كانت تمد في أروقة الجامع الأزهر طوال أشهر رجب وشعبان ورمضان ، وتباح محتوياتها لمن يريد(٤) .

د- الاحتفال بعيدي الفطر والأضحى :

اهتم المسلمون منذ عهد بعيد بالاحتفال بالعيدين في شئ كبير من الأبهة والعظمة فيؤم خلفاء المسلمين الناس في الصلاة ، ويلقون عليهم خطبة في فضائل العيد ، وما يجب على

---

(١) ابن جبير : الرحلة ص١٢٢ .

(٢) المصدر السابق ص١٢٣ .

(٣) المصدر السابق ص٩٨ .

(٤) المقريزي : الخطط ج٢ ص٢٨٥ .

المسلمين اتخاذه للمحافظة على شعائر الإسلام ولاعجب فقد كانت مظاهر الإسلام تتجلى في الاحتفال بالعيدين في البلاد الإسلامية[١] .

ففي مصر بدأ الفاطميون احتفالهم الرسمي بعيد الفطر منذ قدوم الخليفة المعز لدين الله إلى مصر سنة ٣٦٢هـ / ٩٧٢م فقد ركب في هذا العام لصلاة عيد الفطر إلى مصلى العيد التي تقع شرقي القصر الكبير بجوار باب النصر ، التي بناها القائد جوهر لهذا الغرض وفي سنة ٣٨٠هـ / ٩٩٠م خرج الخليفة العزيز في موكبه لصلاة عيد الفطر في هذه المصلى ، وقد أقيمت لهذا الغرض مصاطب على الطريق الذي يسلكه الخليفة بين المصلى والقصر ووضع عليها المؤذنون ، ويجلس على كل مصطبة جماعة من أنصار الدولة من الشيعة تخرج بأسمائهم كشوف من قاضي القضاة ، وداعي الدعاة فيجلس هؤلاء الأتباع على المصاطب[٢] حسب ترتيب أسمائهم ، ويبدأ التكبير والابتهالات من القصر إلى المصلى متصلاً بين المؤذنين الذين على المصاطب ، والخليفة يخترق هذا الطريق في موكبه الضخم الذي يضم طوائف العسكر في أجمل زينة[٣] .

وكانت الاحتفالات بعيد الأضحى في الدولة الفاطمية تبدأ منذ الأول من ذي الحجة فتعقد مجالس الشعراء في القصر ، وفي دار الوزارة ، ويتبارى الشعراء في مدح الخليفة والوزير بهذه المناسبة وتهنئتهم بها ، كما يجري توزيع أموال الصدقة على الأطفال والأيتام والفقراء من أهل القاهرة والفسطاط[٤] .

ولقد حافظ الأيوبيون – بوصفهم مسلمين – على إحياء الأعياد الدينية ؛ ولكن في غير إسراف[٥] .

---

(١) حسن إبراهيم · تاريخ الإسلام ج٣ ص٥٠٦ .
(٢) المقريزي : الخطط ج١ ص٤٥١ .
(٣) عبد المنعم سلطان : المجتمع المصري في العصر الفاطمي ص١٤١ .
(٤) المرجع السابق ص١٤٥ .
(٥) سعيد عاشور : الأيوبيون والمماليك في مصر والشام ص١٧٢ .

أما في بلاد الحجاز فقد كانوا يحتفلون بالعيدين كبقية الشعوب الإسلامية فيذكر ابن جبير أنه في صباح العيد وبعد قضاء صلاة الفجر يلبس الناس ثياب العيد ويتجهون إلى المسجد الحرام لتأدية صلاة العيد ، لأن السنة جرت بالصلاة فيه ، ولم يتخذوا مصلى يخرجون إليه كبقية المدن الأخرى وذلك لشرف بقعة الحرم وفضل بركتها وفضل صلاة الإمام ومن يأتم به خلف المقام[١] .

وفي هذا اليوم يخرج الأمير إلى المسجد الحرام فيطوف حول الكعبة سبعة أشواط والحرم قد امتلأ بالناس الذين حضروا لأداء الصلاة ، والمؤذن الزمزمي في قبته رافعاً صوته بالدعاء للأمير والثناء عليه ، وبعد انتهائه من الطواف يتوجه إلى مصطبة قبة زمزم في مقابلة ركن الحجر الأسود فيجلس بها وأولاده عن يمينه ويساره ووزيره وأمراؤه ،وحاشيته وقوفاً على رأسه[٢] ويحضر بعض الشعراء وينشدون أشعاراً يمدحون بها الأمير ويهنئونه بهذه المناسبة[٣] .

وعندما يحين موعد الصلاة يأتي القاضي الشافعي فيتقدم إلى المقام الإبراهيمي ويقف الناس ويؤذن المؤذن لصلاة العيد ، وبعد الفراغ من الصلاة يصعد إلى المنبر ويخطب في الناس خطبة العيد ، وبعد الفراغ من الخطبة يبادر الناس إلى مصافحة بعضهم بعضاً متناسين خلافاتهم فرحين بالعيد[٤] .

أما في عيد الأضحى فكان المسلمون يتوافدون من شتى أنحاء العالم الإسلامي إلى مكة لأداء فريضة الحج ، وكان الخطيب يخطب في المسجد الحرام في اليوم السابع من شهر ذي الحجة بعد صلاة الظهر خطبة بليغة يشرح لهم فيها مناسك الحج ثم يأخذون في أداء شعائره ويضحون أضحيات العيد بعد رميهم الجمار بمنى[٥] .

---

(١) ابن جبير : الرحلة ص١٣٤ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) المصدر السابق

(٤) المصدر السابق ص١٣٥ .

(٥) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ج٢ ص٤٣٥ .

ومن عادة أهل مكة استعدادهم لاستقبال محمل الكسوة الخاصة بالكعبة المشرفة فقد ذكر القلقشندي أنه في كل سنة يجهز إلى الحجاز المحمل من الديار المصرية لكسوة الكعبة المشرفة فيخرج أمير مكة لملاقاة المحمل هو وأفراد حاشيته من الأشراف وعندما يبصرونه يترجلون عن خيولهم ويستقبلون أفراده بحفاوة بالغة وبعد وضع الكسوة الجديدة يأخذ سدنة الكعبة الكسوة القديمة التي كانت على البيت فتوزع بمعرفتهم(١) .

هـ - الاحتفال بالمولد النبوي :

كان الاحتفال بالمولد النبوي في الدولة الفاطمية يبدأ بعد صلاة ظهر اليوم الثاني عشر من شهر ربيع الأول فيخرج قاضي القضاة على رأس موكب الاحتفال وبصحبته الشهود العدول والمكلفين بحمل صواني الحلوى ويتجه الجميع إلى الجامع الأزهر ، وهناك يجلس القاضي مدة لسماع القرآن حتى يتم ختم المصحف الشريف ، ثم يعود الموكب إلى القصر وقد احتشد الناس على جانبي الطريق لمشاهدته ، وعندما يصل الموكب إلى القصر يسلم عليهم الخليفة ، ثم يبدأ بعدها الاحتفال بقراءة القرآن ويتباري خطباء الجوامع الكبرى في الخطابة ، وذكر مناقب الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم - وما يناسب هذه الذكرى الجليلة ويختمون الاحتفال بالدعاء للخليفة(٢) .

وقد تأثر الحجازيون بالفاطميين في ذلك فاحتفلوا بمولد النبي - صلى الله عليه وسلم - واستمر ذلك طوال العصرين الفاطمي والأيوبي إذ يذكر ابن جبير أنهم يحتفلون بمولد الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم - في يوم الإثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأول وهو يوم مشهود بمكة حيث تفتح المواضع المقدسة كلها في هذا اليوم(٣) .

ويبدو أن هذا الاحتفال ظل مستمراً بعد ذلك ، فقد ذكر ابن بطوطة أثناء رحلته للحجاز أنهم يفتحون الكعبة المشرفة في يوم مولد الرسول - صلى الله عليه وسلم -(٤)

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ج٤ ص٢٧٦ - ٢٧٧ .

(٢) المقريزي : الخطط ج١ ص٤٣٣ .

(٣) ابن جبير : الرحلة ص٩٢ ، البتانوني : الرحلة الحجازية ص٥١ .

(٤) ابن بطوطة : الرحلة ج١ ص١٥٥ - ١٥٦ .

ثانياً : الملابس والأطعمة والأشربة

أ- الملابس :

تمتعت مصر بشهرة كبير في فن صناعة النسيج منذ أقدم العصور واستمرت تلك النهضة خلال العصرين الفاطمي والأيوبي ، فقد اشتهرت بعض المدن المصرية بإنتاج أنواع راقية من المنسوجات أصبحت تنسب إليها ، وكانت موضع الإعجاب لجمالها وجودة صناعتها فكانت مدينة الاسكندرية تشتهر بإنتاج المنسوجات الكتانية الرقيقة التي يقال لها الشرب ، وكانت لجودتها تباع بقيمة وزنها فضة[١] ، كما اشتهرت مدينة تنيس والقرى المحيطة بها بصناعة أرقى أنواع النسيج من الشرب الرقيقة وكانت تنتج من خيوط الكتان نسيجاً رقيقاً يسمى القصب كانت تصنع منه العمائم وملابس النساء[٢] كما كانت تنتج البوقلمون وهو قماش يتغير لونه بتغير ساعات النهار وكانت القرى المحيطة بتنيس مثل شطا تنسب إليها الملابس الشطوية الراقية وديبق التي اشتهرت بصناعة الثياب الديبقية المذهبة والعمائم الشرب الملونة والمذهبة التي تصل طول العمامة منها مائة ذراع وتبلغ قيمة ما فيها من ذهب خمسمائة دينار[٣] .

وكانت مدينة دمياط تختص بصناعة النسيج الأبيض الذي تبلغ قيمة الثوب منه ثلاثمائة دينار[٤] .

ونتيجة للتقارب الكبير والاتصال الدائم بين مصر والحجاز في العصرين الفاطمي والأيوبي عرفت مكة في تلك الفترة بالرغم من عسرها ثياباً جديدة من الحرير والكتان وأنواعاً

---

(١) المقريزي : الخطط ج١ ص١٦٣ .
(٢) المصدر السابق ص١٧٧ .
(٣) المصدر السابق ص٢٢٦ .
(٤) آدم متز : تاريخ الحضارة الإسلامية ج٢ ص٢٥٨ .

براقة تتلألأ وتتغير ألوانها إذا انعكست عليها أشعة الشمس ، وكانت هذه الثياب ترد إليها في تجارتها مع مصر[١] وعرفت بلاد الحجاز العمائم المزركشة ، وعرفت لبس الجبة بما يشبه شكلها في الوقت الحاضر[٢] .

وقد روى المقريزي عن الفاطميين « أنهم كانوا يخرجون من خزائن الكسوة إلى جميع خدمهم وحواشيهم ومن يلوذ بهم من صغير وكبير ورفيع وحقير كسوات الصيف والشتاء من العمامة إلى السراويل ، وما دونه من الملابس والمنديل وفاخر الثياب ونفيس الملبوس »[٣] كما ذكر أن خلعهم على الأمراء كانت الثياب الديبقي والعمائم بالطراز الذهب وكانت خاصة بالأعياد والمناسبات[٤] .

ومما لا شك فيه أن الأمراء في مكة كان لهم نصيب طيب من هذه الخلع بحكم صلتهم الوثيقة بالفاطميين ، كما كان يهدى إلى الأشراف في مكة أنواع من هذه الأثواب الموشاة بخيوط الذهب والفضة في مواسم الحج ومناسبات الأعياد ولابد أن يشيع تقليد هذه الأثواب في الأوساط الراقية في مكة ، وأن تترك أثرها في أزياء الأهالي إلى حد تبدو فيه ملابسهم وقد نالها من التطور ما يجعلها قريبة الشبه بما يلبسه الفاطميون[٥] .

وقد استمرت هذه العادة في ارتداء الثياب الموشاة بالحجاز طوال العصر الأيوبي فقد ذكر ابن جبير أثناء رحلته أن مكثر الحسني أمير مكة كان يرتدي إحدى الخلع التي خلعها عليه سيف الإسلام طغتكين بن أيوب أخو صلاح الدين الأيوبي فيقول : « طلع علينا الأمير مكثر وغاشيته[٦] الأقربون حوله وهو رافل في حلة ذهب كأنها الجمر المتقد يسحب ذيلها وعلى رأسه

---

(١) أحمد السباعي : تاريخ مكة ج١ ص٢١٧ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) المقريزي الخطط ج١ ص٤٠٩ .

(٤) المصدر السابق ص٤١٠ .

(٥) أحمد السباعي : تاريخ مكة ج١ ص٢١٧ .

(٦) غاشيته : الذين يغشون داره أي يدخلون عليه (ابن جبير : الرحلة حاشية ص١٢٦) .

عمامة شرب[١] رقيق سحابي اللون قد علا كورها[٢] على رأسه كأنها سحابة مركومة وهي مصفحة بالذهب وتحت الحلة خلعتان من الديبقي[٣] المرسوم البديع الصنعة ، خلعها عليه الأمير سيف الإسلام طغتكين فوصل بها فرحاً جذلان »[٤] .

أما العلماء وطلبة العلم والمجاورون فقد كانوا يرتدون ثياباً وجبباً مصنوعة من الكتان ، وغالباً ما كانوا يرتدون العمائم السود[٥] .

كان الحجازيون يستحسنون لبس الثياب البيض فقد روي عن النبي - صلى الله عليه وسلم- أنه قال : « خلق الله الجنة بيضاء ، وخير ثيابكم البيض تلبسونها في حياتكم وتكفنون بها موتاكم »[٦] .

لذا شاع استعمال الملابس البيضاء في بلاد الحجاز ، وكانت تصنع في الغالب من الكتان والقطن ، وكانت فئات الشعب المختلفة تلبس تلك الثياب البيضاء ، فقد ذكر ابن جبير أن الأمير مكثر بن عيسى الحسني أمير مكة خرج في أول شهر جمادى الأولى سنة ٥٧٩هـ إلى الحرم المكي للطواف كالعادة عند بداية أول كل شهر هجري وكان يرتدي ثوباً أبيض ويتعمم بعمامة صوف بيضاء رقيقة[٧] .

ويبدو أن هذه الثياب كانت تصنع في مصر وترسل إلى الحجاز ، إذ لم نجد في ضوء المصادر المتاحة ما يدل على وجود مصانع نسيج بالحجاز في هذه الفترة ؛ بل كانت مصر هي

---

(١) الشرب : هو النسيج الرقيق الذي اشتهرت به مدينتا الاسكندرية وتنيس (المقريزي : الخطط ج١ ص١٧٧) .

(٢) كورها : الدور منها (ابن جبير : الرحلة حاشية ص١٢٦) .

(٣) الديبقي : نوع من أنواع النسيج ينسب إلى قرية من قرى دمياط (المقريزي : الخطط ج١ ص٢٢٦) .

(٤) ابن جبير : الرحلة ص١٢٦ .

(٥) أحمد السباعي : تاريخ مكة ج١ ص٢٣٥ ، البتانوني : الرحلة الحجازية ص٥١ .

(٦) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ج٢ ص٤٢٨ .

(٧) ابن جبير : الرحلة ص٧٤ .

التي تشتهر بصناعة الثياب البيضاء من الكتان في الاسكندرية[١] .

وكان لباس المرأة في هذه الفترة يتكون من ملاءة فضفاضة وقميص مشقوق عند الرقبة عليه رداء قصير ضيق يلبس عادة في البرد ، وإذا خرجت المرأة العربية من بيتها فإنها ترتدي ملاءة طويلة تغطي جسمها ، وتحفظ ملابسها ، وتلف رأسها بمنديل يلف فوق الرقبة[٢] .

وكانت المرأة المصرية في العصرين الفاطمي والأيوبي ترتدي فوق ثيابها ملاءة واسعة فضفاضة تخفي كل جسدها[٣] وكان من وظيفة المحتسب أن يمنع النساء من ارتداء الملابس الخليعة[٤] .

أما سيدات الطبقة الراقية في الحجاز فقد غالين في التزين وارتداء أنواع الثياب المختلفة من الحرير ، ويبدو أنه كان نوع من التمثل بسيدات الطبقة الراقية في مصر إذ يصف ابن جبير خروج نساء الطبقة الراقية في الحجاز لتأدية العمرة الرجبية بقوله : « قد امتلأت هوادج مشدودة على الأبل مكسوة بأنواع الحرير وغيرها من ثياب الكتان الرفيعة بحسب سعة أحوال أربابها ووفرهم ، كل يتأنق ويحتفل بقدر استطاعته ، فأخذوا في الخروج إلى التنعيم ميقات المعتمرين فسالت تلك الهوادج في أباطح مكة وشعابها ، والإبل قد زينت تحتها بأنواع التزيين ، وأشعرت بغير هدي بقلائد رائعة المنظر من الحرير وغيره ، ومن أغرب ما شاهدناه من ذلك هودج الشريفة جمانة بنت فليتة الحسني عمة الأمير مكثر فإن أذيال ستره كانت تنسحب على الأرض انسحاباً وغيره من هوادج حرم الأمير وحرم قواده »[٥] .

---

(١) آدم متز : تاريخ الحضارة الإسلامية ج٢ ص٢٥٨ .
(٢) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ج٢ ص٤٢٩ .
(٣) عبد المنعم سلطان : المجتمع المصري في العصر الفاطمي ص٢٨٣
(٤) ابن الأخوة : معالم القربة في أحكام الحسبة ص٢٤٤ .
(٥) ابن جبير : الرحلة ص١٠٧ .

ب- الأطعمة والأشربة :

تميزت مصر على مر العصور بوفرة خيراتها ، وكثرة إنتاجها الزارعي والصناعي والحيواني والذي كان غالباً مايزيد عن حاجتها ، فلم تبخل بخيراتها على جيرانها وقامت بسد حاجتهم من الغلال والأطعمة والصناعات الغذائية وخاصة بلاد الحجاز التي غلب الفقر على سكانها ، فقد كان سكان الحجاز يعتمدون على الرعي أو كري الجمال أو بيع الماء واللبن أو الحطب أو بعض الثمار ، وكان طعامهم قليلاً ، وكانت وجباتهم لا تعتمد على كثير من أصناف الطعام ؛ إلا أنه كان هناك بعض الأطعمة التي اشتهربها أهل الحجاز مثل :

الهريسة والحريرة والثريد والفالوذج[١] .

ويبدو أن هذه الأطعمة قد نقلت إلى الحجاز من مصر التي اشتهرت بكثير من أنواع الطعام المختلفة مثل الهريسة وهي طعام يتكون من خليط القمح واللحم وكان أصحاب هذه الصناعة يسمون بالهرائسيين[٢] وكان المحتسب وأعوانه يشرفون على صناعة الهريسة في الأسواق حتى لايقوم بعضهم بغشها ، ويلزمونهم بعملها طبقاً للنسب المقررة[٣] ، ثم يختمون على قدور الهريسة بعد إتمام صنعتها لمنع تغيير ما فيها[٤] .

وكما كانت في مصر تصنع في دار الفطرة قصور السكر الضخمة التي تزن الواحدة منها سبعة عشر قنطاراً ويحملها العتالون ليزينوا بها سماط عيد الفطر ، وكانت تلك الأسمطة تزين أيضاً بأطباق من تماثيل السكر على أشكال مختلفة وتوزع منها كميات كثيرة على الحاضرين[٥] .

---

(١) جميل حرب : الحجاز واليمن ص٢٤٤ .

(٢) الشيزري : نهاية الرتبة في طلب الحسبة ص٣٦ .

(٣) النسبة المقررة هي لكل صاع من القمح ثماني أواق من لحم الضأن ورطل من لحم البقر (المصدر السابق).

(٤) المصدر السابق .

(٥) المقريزي : الخطط ج١ ص٣٨٧ – ٣٨٨ .

ولقد تأثر أهل الحجاز بهذه العادة فيخبرنا ابن جبير أنهم يصنعون من الحلوى أنواعاً غريبة من العسل والسكر المعقود على صفات شتى قد صورت منها تصاوير إنسانية وفاكهية وجليت في منصات كأنها العرائس وتوضع على أسطة بين الصفا والمروة للمشترين في الأشهر الثلاثة رجب وشعبان ورمضان[١] .

ويذكر ابن جبير من أنواع الطعام بالحجاز اللبن الذي يشرب ويصنع منه السمن والجبن ، والعسل المسعودي الذي يضرب به المثل في الجودة والطيب، والرطب وهو عندهم بمنزلة التين الأخضر في شجره يجنى ويؤكل[٢] والمشروب الوطني في البلاد هو القهوة العربية التي تقدم للضيف ولكن دون مزجها بالسكر[٣] أما الماء فيؤخذ من الآبار ويضعونه في أوان خزفية تسمى « أزياراً » لتصفيتها وتبريدها[٤] .

كسوة الكعبة :

حظيت مصر بشرف صنع كسوة الكعبة الشريفة منذ العصر الجاهلي ، وقبل أن يشرق نور الإسلام على أرضها بفترات طويلة وسبب ذلك اشتهارها بصناعة الثياب الجيدة مثل القباطي وغيرها .

ويخبرنا المسعودي أن أول من كسا الكعبة الملك اليمني تبع بن حسان أبو كرب الذي ملك اليمن والحجاز ، وكساها القصب اليماني[٥] وتبعه خلفاؤه فكانوا يكسونها بالجلد والقباطي -وهو قماش مصري - زمناً طويلاً ثم استمر الناس يقدمون إليها الكساوي المختلفة فيلبسونها

---

(١) ابن جبير : الرحلة ص٩٨ .

(٢) المصدر السابق ص٩٩ .

(٣) فؤاد حمزة : قلب جزيرة العرب ص١٢٠ .

(٤) المرجع السابق ص١٢١ .

(٥) المسعودي : مروج الذهب ج٢ ص٧٦ - ٧٧ .

على بعضها فكان الثوب إذ بلي وضع عليه ثوب آخر[١] حتى جاء قصي بن كلاب فوضع على القبائل مبلغاً من المال لكسوتها سنوياً واستمر ابناؤه يفعلون ذلك[٢] .

وكان أبو ربيعة بن المغيرة يكسوها قبل الإسلام سنة ، وقبائل قريش تكسوها سنة أخرى ، وسمي بذلك العدل لأنه كان يعدل بين قبائل قريش في كسوة الكعبة[٣] .

ويعتبر خالد بن جعفر بن كلاب أول من كسا الكعبة بالديباج ، وممن كسوها بالديباج أيضاً نتيلة بنت كلاب أم العباس بن عبد المطلب الذي ضل الطريق وهو صغير فنذرت أمه إن وجدته أن تكسو الكعبة بالديباج[٤] .

كسوة الكعبة في صدر الإسلام :

في عهد الرسول – صلى الله عليه وسلم – كسيت الكعبة بالبرود وهي ضرب من ثياب اليمن[٥] .

ولقد كسيت الكعبة بالقباطي في عهدي أبي بكر وعمر[٦] ، وكان عمر بن الخطاب ينزع الكسوة في كل عام ويقسمها على الحجاج[٧] وفي عهد عثمان كسيت الكعبة بالقباطي المصرية[٨] .

---

(١) البتانوني : الرحلة الحجازية ص١٣٥ .

(٢) الخربوطلي : تاريخ الكعبة ص١٧٥ – ١٧٦ .

(٣) المرجع السابق .

(٤) المرجع السابق

(٥) ابن العاقولي · عرف الطيب من أخبار مكة ومدينة الحبيب لوحة (٥) ، الصباغ المكي : تحصيل المرام لوحة(٣٧) ، الخربوطلي : تاريخ الكعبة ص١٧٦ ، الفاسي : شفاء الغرام ح١ ص١٢٠ .

(٦) الصباغ المكي : تحصيل المرام لوحة (٣٧) .

(٧) ابن العاقولي : عرف الطيب لوحة (٥) .

(٨) المصدر السابق .

كسوة الكعبة في العصر الأموي :

ذكر القلقشندي أن معاوية بن أبي سفيان حين تولى الحكم كسا الكعبة مرتين بالديباج والقباطي المصرية فكانت الكعبة تكسى الديباج يوم عاشوراء وتكسى القباطي في أواخر شهر رمضان[١] ثم قام بكسوتها الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان ، وجرت عادة الخلفاء الأمويين على وضع الكسوة الجديدة فوق الأكسية القديمة[٢] .

كسوة الكعبة في العصر العباسي :

تولى أبو العباس السفاح الحكم كأول خليفة في الدولة العباسية ، ولم يستمر في الحكم سوى سنوات معدودة إذ توفي سنة ١٣٦هـ / ٧٥٣م[٣] فخلفه أخوه أبو جعفر المنصور الذي عمل على توطيد أركان الدولة وتقويتها وتأمينها حتى تولى الخلافة ابنه المهدي وكان جواداً كريماً ، وفي عهده كسيت الكعبة أول كسوة في عهد العباسيين ، فيخبرنا السيوطي أن المهدي حج في سنة ١٦٠هـ / ٧٧٦م فأبلغه حجبة الكعبة أنهم يخافون هدمها لكثرة ما عليها من الأكسية فأمر المهدي برفع الأكسية القديمة وأبدلها بكسوة جديدة[٤] وأصبحت سنة تتبع طوال العصور التالية[٥] .

وقد كسيت الكعبة القباطي المصرية في عهد المهدي فقد روى المقريزي عن الفاكهي أنه رأى كسوة من قباطي مصر مكتوباً عليها : « بسم الله ، بركة من الله ، مما أمر به عبد الله المهدي محمد أمير المؤمنين – أصلحه الله – محمد بن سليمان أن يصنع في تنيس كسوة الكعبة على يد الخطاب بن مسلمة عامله سنة ١٥٩هـ »[٦] .

---

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ج٤ ص٢٧٨ – ٢٧٩ .
(٢) الخربوطلي : تاريخ الكعبة ص١٧٦ .
(٣) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص٢٥٨ .
(٤) المصدر السابق ص٢٧٣ .
(٥) الخربوطلي : تاريخ الكعبة ص١٧٦ .
(٦) المقريزي : الخطط ج١ ص١٨١ .

ويبدو أن هذه الكسوة هي كسوة العباسيين الأولى للكعبة التي أهداها المهدي عند حجه لمكة سنة ١٦٠هـ / ٧٧٦م .

كما ذكر المقريزي عن الفاكهي أنه رأى كسوة مما يلي الركن الغربي من الكعبة مكتوباً عليها : « بسم الله ، بركة من الله لعبد الله المهدي محمد أمير المؤمنين أطال الله بقاءه ، مما أمر به إسماعيل بن إبراهيم أن يصنع في طراز تنيس على يد الحكم بن عبيدة سنة ١٦٢هـ»[١].

وقد كسيت الكعبة في عهد هاون الرشيد القباطي المصرية أيضاً فقد ذكر المقريزي مرة أخرى عن الفاكهي أنه قال : « رأيت أيضاً كسوة لهارون الرشيد من قباطي مصر مكتوباً عليها بسم الله ، بركة من الله للخليفة الرشيد عبد الله هارون أمير المؤمنين أكرمه الله مما أمر به الفضل بن الربيع أن يعمل في طراز تونة سنة ١٩٠هـ »[٢] .

وقام الخليفة العباسي المأمون بكسوة الكعبة ثلاث مرات فكان يكسوها الديباج الأحمر يوم التروية والقباطي يوم هلال رجب ، والديباج الأبيض في السابع والعشرين من رمضان[٣].

وكان سائر الخلفاء العباسيين يأمرون بصنع الكسوة الشريفة في مصر ثم يرسلونها إلى الكعبة كل عام باستثناء بعض السنوات القليلة التي كانت الكسوة تأتي فيها من الخارج[٤] .

كسوة الكعبة في عهد الفاطميين :

يذكر بعض الباحثين أن الخليفة الفاطمي المعز لدين الله أمر بعد فتحه مصر سنة ٣٦٢هـ/ ٩٧٢م بعمل كسوة للكعبة لينافس بها خلفاء بغداد العباسيين وكانت هذه الكسوة مربعة

---

(١) المقريزي : الخطط ج١ ص١٨١ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) الخربوطلي : تاريخ الكعبة ص١٧٦ - ١٧٧ .

(٤) السيد الدقن : كسوة الكعبة ص١٢٧ .

الشكل من ديباج أحمر وسعتها مائة وأربعة وأربعون شبراً وكان في حافتها أثنى عشر هلالاً ذهبياً ، في كل هلال أترجة ذهبية ، وفي كل منها خمسون درة تشبه بيض الحمام في الكبر كما كان فيها الياقوت الأحمر والأصفر والأزرق وقد نقش في حافاتها آيات قرآنية زينت كتابتها بالجواهر الثمينة وكانت هذه الكسوة معطرة بمسحوق المسك[١] .

ومما لا شك فيه أن هذه هي الشمسة وليست كسوة الكعبة ، والدليل على ذلك ما ذكره المقريزي في حوادث سنة ٣٦١هـ / ٩٧١م : « وفي يوم عرفة نصب المعز الشمسة التي عملها للكعبة على إيوان قصره ، وسعتها أثنى عشرا شبراً في مثلها وأرضها ديباج أحمر ودورها أثنا عشر هلالاً ذهباً ، وفي كل هلال أترجة ذهب مشبك ، جوف كل أترجة خمسون درة كبيض الحمام ، وفيها الياقوت الأحمر والأصفر والأزرق وفي دورها مكتوب آيات الحج بزمرد أخضر »[٢] .

فقد أراد الخليفة الفاطمي المعز منافسة الخلفاء العباسيين بمثل هذه الشمسة الثمينة والغالية القدر بما تحتويه من الذهب والدر والياقوت ، خاصة ، أن الخلفاء العباسيين كانوا منذ عهد المتوكل يرسلون شمسة مكللة ببعض الدر والياقوت إلى الكعبة فيقدم بها قائد يرسل من العراق فيأخذها حجبة الكعبة فيعلقونها على الكعبة يوم السادس من ذي الحجة ثم تنزع يوم التروية[٣] .

أما كسوة الكعبة فمعروف أن الخلفاء العباسيين كانوا يأمرون ولاة مصر بصنعها في مصر ثم يرسلونها إلى الكعبة فلا فضل لهم في صنعها ، وإنما الفضل للمصريين في ذلك ، فكيف للمعز بعد أن ملك مصر أن ينافسهم في ذلك؟ .

---

(١) الخربوطلي : تاريخ الكعبة ص١٧٦ - ١٧٧ .

(٢) المقريزي : اتعاظ الحنفا ج١ ص١٤٠ - ١٤١ .

(٣) المصدر السابق ص١٤١ .

ولعل انشغال المؤرخين بوصف بدائع هذه الشمسة جعلهم ينسون ذكر الكسوة التي أرسلها المعز في عهده إلى الكعبة مما دعا بعض الباحثين إلى القول بأن الفاطميين كسوا الكعبة سنة ٣٨١هـ / ٩٩١م[١] .

فمن المرجح أن يكون المعز قد قام بكسوة الكعبة والدليل على ذلك هذه الشمسة إذ من غير المعقول أن يرسل المعز هذه الشمسة البديعة الزمن والباهظة التكاليف لكي تعلق على الكعبة دون أن يرسل الكسوة أو يغفل عنها ، وقد ذكر المقريزي أن الستائر نصبت على الكعبة وعليها اسمه ، كما نصبت له المحاريب الذهب والفضة داخل الكعبة وعليها اسمه[٢] .

ولقد استمر الخلفاء الفاطميون من بعد المعز يواصلون إرسال الكسوة إلى الكعبة ففي عهد الخليفة الفاطمي العزيز أرسلت كسوة الكعبة ومعها صلات الأشراف والطيب والشمع والزيت وقدر ذلك بمبلغ مائة ألف دينار[٣] .

وقد ظل العزيز طوال فترة حكمه يرسل كسوة الكعبة والصلات بمعية ركب الحاج سنوياً فلما توفي وتولى الحاكم بأمر الله الخلافة سار على نهجه واستمر يرسل الكسوة إلى الكعبة من القباطي البيض ، وفي عهده يذكر ابن إياس أن جماعة من العربان وثبوا على كسوة الكعبة سنة ٣٨٧هـ / ٩٩٦م ونهبوها فقام الحاكم بكسوتها بالشنقاص الأبيض ، ولم تكس الكعبة قط بهذا النوع من الثياب إلا في زمن الحاكم بأمر الله[٤] .

وفي سنة ٤٢٣هـ / ١٠٣١م في عهد الخليفة الظاهر وردت من مصر كسوة الكعبة وأموال للصدقة ، وصلات لأمير مكة[٥] وفي عهد الخليفة المستنصر كسيت الكعبة الديباج الأبيض[٦] .

---

(١) السيد الدقن : كسوة الكعبة ص٣٦ ، إبراهيم حلمي : كسوة الكعبة ص٤٣ .
(٢) المقريزي : اتعاظ الحنفا ج١ ص٢٣٠ .
(٣) المصدر السابق ص٢٥٢ .
(٤) ابن إياس : بدائع الزهور ج١ ق١ ص٢٠٥ .
(٥) الفاسي : شفاء الغرام ج٢ ص٢٢٥ .
(٦) المصدر السابق ج١ ص١٢٢ .

وكانت الكعبة تكسى بالبياض شعار الفاطميين وقد وصفها ناصر خسرو أثناء زيارته للحجاز سنة ٤٤٠هـ / ١٠٤٨م فقال : « والكسوة التي تغطى بها الكعبة بيضاء وقد طرزت في موضعين عرض كل منها ذراع وبينهما عشرةأذرع تقريباً ، ومن فوقهما وتحتهما عشرة أذرع أيضاً بحيث ينقسم ارتفاع الكعبة إلى ثلاثة أقسام ، كل منها عشرةأذرع بواسطة طرازي الكسوة ، وعلى جوانب هذه الكسوة نسجت محاريب ملونة مزينة بخيوط من ذهب ، وعلى كل ناحية ثلاثة محاريب : محراب كبير في الوسط ومحرابان صغيران على جانبيه ، فعلى النواحي الأربعة اثنا عشر محراباً »[١] .

ولقد استمرت الكسوة ترسل إلى الكعبة في عهد الفاطميين حتى ضعفت الدولة وعاد النفوذ العباسي قوياً في بلاد الحجاز فتولوا هم إرسالها مما يجعلنا نقول أن كسوة الكعبة قد اتخذت – إلى جانب طابعها الديني– طابعاً سياسياً فصارت مظهراً من مظاهر القوة السياسية آنذاك .

كسوة الكعبة في عهد الأيوبيين :

لم يذكر أحد من المؤرخين أن الأيوبيين قاموا بكسوة الكعبة ويرجع السبب في ذلك إلى ما يلي :

أولاً : إنشغال المؤرخين أنفسهم بعرض الأحداث التاريخية المهمة التي تعرضت لها وخاصة جهادهم العظيم ضد الصليبيين .

ثانياً : الدولة الأيوبية كانت تتبع الخلافة العباسية فكان يدعى على منابر مصر للخليفة العباسي[٢] وكان الخلفاء العباسيون يأمرون بصنع الكسوة الشريفة في مصر ثم يرسلونها إلى الكعبة ، وبالتالي فمن الطبيعي أن ينسب المؤرخون إرسال الكسوة إلى العباسيين وأن يغفلوا

---

(١) ناصر خسرو : سفرنامه ص١٣١ – ١٣٢ .

(٢) ابن أبي الهيجاء : تاريخ ابن الهيجاء لوحة (٢٤٠) .

ذكر الأيوبيين ، ويؤكد ذلك ما ذكره المؤرخ المكي ابن عبد القادر الطبري حين قال « إن كسوة الكعبة تأتي من وقف بالديار المصرية ، وهي كسوة من حرير أسود مكتوب فيه لا إله إلا الله محمد رسول الله ، ومكتوب فيه سورة الإخلاص وترد كل عام من مصر صحبة أمير الركب المصري ، ويلبسها الكعبة في يوم عيد الأضحى بعد نزولهم من منى ورمي جمرة العقبة »[١] وهذا دليل على أن الأيوبيين كانوا يرسلون الكسوة لكنها نسبت إلى العباسيين لأن مصر كانت تتبعهم ، كما أن صلاح الدين وقف الأوقاف العديدة على الحرمين الشريفين[٢] وأهلهما ولم يكن ليتأخر عن إرسال الكسوة ، وكذلك خلفاؤه ، حتى انفردت مصر بإرسال الكسوة باسمها في العصر المملوكي[٣] .

كسوة الحجرة النبوية الشريفة :

كانت مصر تتولى إرسال كسوة الحجرة النبوية الشريفة بالإضافة إلى كسوة الكعبة الشريفة فيخبرنا القلقشندي أن كسوة الحجرة الشريفة كانت ترسل إلى المدينة لكنها لم تكن تجدد في كل سنة مثل كسوة الكعبة ؛ بل كانت تجدد كل سبع سنين أو ما قاربها نظراً لأنها لا تتعرض لأشعة الشمس بخلاف كسوة الكعبة التي تتعرض دائماً لأشعة الشمس فيسرع بلاؤها[٤] .

وقد ذكر ابن النجار أن أول من كسا الحجرة الشريفة هو الحسين بن أبي الهيجاء صهر الصالح طلائع بن رزيك وزير الخليفة العاضد آخر الخلفاء الفاطميين[٥] .

كسوة الكعبة والمحمل المصري :

كان المحمل يطلق على الجمل الذي يحمل الهدايا العينية والنقدية إلى الكعبة المشرفة ،

---

(١) ابن عبد القادر الطبري : الأرج المسكي في التاريخ المكي لوحة (٦٧) .

(٢) انظر ص٩٣؟ من البحث .

(٣) السيد الدقن : كسوة الكعبة ص٤٥ ، إبراهيم حلمي : كسوة الكعبة ص٤٥ - ٤٦ .

(٤) القلقشندي : صبح الأعشى ج٤ ص٣٠٣ .

(٥) ابن النجار : الدرة الثمينة في تاريخ المدينة ص٣٩٤ .

ولقد تبارى ملوك المسلمين وأمراؤهم في إرسال المحامل التي تحمل هداياهم إلى الحرمين الشريفين كل عام[١] .

وقد اختلف المؤرخون حول بداية ظهور المحمل فيرى البعض أن المحمل يبدأ تاريخه من سنة ٦٤٥هـ / ١٢٤٧م حينما رحلت شجرة الدر زوجة السلطان الأيوبي الصالح نجم الدين أيوب إلى مكة لأداء فريضة الحج فركبت هودجها ، واحتفل بسفرها إحتفالاً شائقاً[٢] ؛ بينما يرى البعض الآخر أن المحمل قديم جداً ؛ بل ربما يرجع إلى ما قبل الإسلام لأنه كان يطلق على الجمل الذي يحمل الهدايا إلى الكعبة المشرفة[٣] .

والحقيقة أنه من الصعب تحديد بداية ظهور المحمل ، لأن المحمل بهذه الصورة المبسطة التي تقتصر على إرسال جمل يحمل الهدايا إلى البيت العتيق أمر عادي من الممكن حدوثه حتى قبل ظهور الإسلام ، لأن تقديس العرب للكعبة المشرفة وإرسال الهدايا إليها كان أمراً مألوفاً لدى العرب منذ الجاهلية ، أما خروج المحمل في موكب رسمي تحيط به مظاهر الأبهة والزينة فهذه أمور ليست من الإسلام في شئ وقد حدثت في وقت لاحق بعد ظهور الإسلام بقرون عديدة[٤] .

ويبدو أن المحمل بهذه الصورة قد بدأ في عهد الفاطميين الذين تميزوا بالاهتمام بمظاهرالأبهة والترف والزينة ، فقد ذكر المقريزي عند حديثه عن قافلة الحج : « أنه كان ينفق في كل سنة على القافلةَ المجهزة إلى مكة في الموسم مائة وعشرون ألف دينار منها عن الطيب والخلوق[٥] والشمع راتباً في كل سنة عشرة آلاف دينار ونفقة الوفد الواصلين إلى الحضرة أربعون ألف دينار ، وعن الجرايات والصدقات وأجرة الجمال ومعونة من يسير من العسكرية

---

(١) السيد الدقن . كسوة الكعبة ص١٧٩ .

(٢) الخربوطلي : تاريخ الكعبة ص١٨٠ ، أحمد السباعي : تاريخ مكة ج١ ص٢٤٧ .

(٣) البتانوني : الرحلة الحجازية ص١٤٠ .

(٤) السيد الدقن : كسوة الكعبة ص١٨٠ - ١٨١ .

(٥) الخلوق : نوع من الطيب ، أعظم أجزائه الزعفران (انظر : المعجم الوسيط ج١ ص٢٥٢) .

وأمير الموسم وخدم القافلة والضعفاء وحفر الآبار ونفقات العربان ستون ألف دينار[١] ثم زادت النفقة في وزارة اليازوري حتى بلغت مائتي ألف دينار في السنة ، ولم تبلغ النفقة على موسم الحج مثل ذلك في دولة من دول الإسلام قط »[٢] .

ومن ثم فقد صار خروج المحمل على تلك الصورة عادة يقوم بها حكام مصر كل سنة ، ولعل خروج موكب شجرة الدر في هودج مزين بأبهى زينة يحيط به الخدم والجنود هو استمرار لهذه العادة التي بدأها الفاطميون .

وكان المحمل يجهز من الديار المصرية بكسوة البيت مع أمير الركب ويكسى البيت بالكسوة المجهزة مع المحمل ، ويأخذ سدنة الكعبة الكسوة التي كانت على البيت فيهدون بها الملوك وأشراف القوم[٣] وكان من عادة أمير مكة إذا وصل المحمل إلى ظاهر مكة خرج لملاقاته هو وأفراد حاشيته من الأشراف فإذا لقيه ترجل عن فرسه واستقبل أفراده[٤] .

أمير ركب المحمل (أمير الحاج) :

يعتبر أمير ركب المحمل (أمير الحاج) المسئول الأول عن قافلة الحاج بكل ما فيها ومن فيها ، وقد نشأ هذا المنصب اقتداء بقول النبي - صلى الله عليه وسلم - « إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمروا أحدهم » رواه أبو داود من حديث أبي سعيد وأبي هريرة - رضي الله عنهما- وروى الإمام أحمد في « المسند » عن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال : « لا يحل لثلاثة يكونون بفلاة من الأرض إلا أمروا عليهم أحدهم» فأوجب - صلى الله عليه وسلم - تأمير الواحد في الاجتماع القليل العارض في السفر

---

(١) بقيت عشرة آلاف من هذه النفقات لم يذكر المقريزي مصارفها (انظر المقريزي: اتعاظ الحنفا ج٢ ص٣٠٣-٣٠٤.

(٢) المقريزي : اتعاظ الحنفا ج٢ ص٣٠٣ - ٣٠٤ ، الخطط ج١ ص٤٩٢ .

(٣) القلقشندي : صبح الأعشى ج٤ ص٢٧٦ .

(٤) المصدر السابق ص٢٧٧ .

منبهاً بذلك على سائر أنواع الاجتماع فتعين بذلك التأمير على حجاج بيت الله تعالى شرعاً ، وهم في الغالب جمع كثيرون[١] .

وقد ذكر الماوردي أن أمير الحاج ينظر في عشرة أشياء هي :

١- جمع الناس في مسيرهم ونزولهم حتى لا يتفرقوا .

٢- ترتيبهم في المسير والنزول وتعريف كل منهم بمقر إقامته ، فلا يتنازعون فيه ولا يضلون عنه .

٣- أن يرفق بهم في المسير حتى لا يعجز عنه ضعيفهم ولايضل عنه منقطعهم .

٤- أن يسلك بهم أوضح الطرق وأخصبها ويتجنب أجدبها وأوعرها .

٥- أن يرتاد لهم المياه إذا انقطعت والمراعي إذا قلت .

٦- أن يحرصهم إذا نزلوا ويحوطهم إذا رحلوا .

٧- أن يمنع عنهم من يصدهم عن المسير ويدفع عنهم من يحصرهم عن الحج بقتال إن قدر عليه أو ببذل مال إن أجاب الحجيج إليه .

٨- أن يصلح بين المتشاجرين ويتوسط بين المتنازعين ، ولا يتعرض للحكم بينهم إجباراً.

٩- أن يقوم زائغهم ويؤدب خائنهم ولايتجاوز التعزير إلى الحد .

١٠- أن يراعي اتساع الوقت حتى يؤمن الفوات ، ولا يلحقهم ضيقه في الحث على المسير ، فإذا وصل إلى الميقات أمهلهم للإحرام وإقامة سنته[٢] .

---

(١) الجزيري : درر الفرائد ج١ ص٢١٨ .

(٢) الماوردي : الأحكام السلطانية ص٩٤

ولقد كانت بداية إمارة الحاج من مكة المكرمة في السنة الثامنة من الهجرة النبوية حين فتحها رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وأقام بها عتاب بن أسيد أميراً عليهم وأقامه أميراً أيضاً على الحاج ليحج بالمسلمين ، فحج بهم ذلك العام ثم صار أمير الحاج يخرج من المدينة المنورة إلى أن انتقلت الخلافة إلى بني أمية وكانت عاصمة الخلافة دمشق فصار الأمير يخرج بالحاج منها ويجتمع عليه الحجاج من أنحائها بمكان معلوم ويسير بهم على النهج المنظوم[١] إلى أن انتقلت الخلافة للعباسيين وصارت بغداد عاصمة لهم فصار أمير الحاج يخرج منها واستمر الحال على ذلك إلى أن فتح الفاطميون مصر فصار أمير الحاج يخرج من مصر بمحمله الشريف ، ووردت المحامل من بغداد ودمشق ، وغيرها من البلدان بصحبة أمرائها . لكنهم كانوا يتبعون أمير الحاج المصري لأنه كان المقدم عليهم نظراً للصلات الوطيدة والنفوذ القوي للفاطميين في الحجاز .

فلما ضعفت الدولة الفاطمية وتولى الأيوبيون حكم مصر عاد الأمر إلى بغداد وصار أمير الحاج يخرج منهم كما كان من قبل[٢] وعاد الحجاج المصريون يؤدون شعيرتهم الدينية تحت زعامة أمير الحاج العراقي .

وكان لأمير الحاج هيبة كبيرة بالإضافة إلى القوات التي يصحبها معه للمحافظة على الحجاج ففي سنة ٣٦٧هـ أرسل الخليفة الفاطمي العزيز باديس بن زيري الصنهاجي أميراً على موسم الحج وأمده بطائفة من الجند فاستطاع أن يؤمن الحاج ، وحينما أراد قطاع الطرق من الأعراب مفاوضته على ترك الحجيج دون أذى مقابل خمسين ألف درهم يدفعها لهم ، رفض وتمكن من القضاء عليهم ، وأنزل الرعب في نفوس الأعراب الذين كانوا يحاولون التعرض للحاج وأنقذ الحجاج من سطوتهم[٣] .

---

(١) الرشيدي : حسن الصفا والابتهاج بذكر من ولي إمارة الحاج ص٨٧ .

(٢) المصدر السابق ص٨٨ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج٧ ص٣٨٠ ، المقريزي : المقفي الكبير ص٢٩٩ ، الفاسي : شفاء الغرام ج٢ ص٢٢٣ ، عمر بن فهد : إتحاف الورى ج٢ ص٤١٥ – ٤١٦ .

وقد بدأ أمير الحاج المصري في العهد الفاطمي يتدخل في الشئون الداخلية لمكة منذ سنة ٣٨١هـ / ٩٩١م حين صحب قافلة الحاج المصرية ثلاثة آلاف وخمسمائة مقاتل لمساعدة أمير مكة في القضاء على أحد الخارجين عليه[١] .

وقد استمر نفوذ أمير الحاج المصري قوياً حتى ضعفت الدولة الفاطمية وازداد النفوذ العباسي قوة في الحجاز فشرع أمير الحاج العراقي يظهر هيبته .

ففي موسم سنة ٥١٠هـ / ١١١٦م دخل أمير الحاج العراقي مكة وعلى رأسه الأعلام ، والسيوف في ركابه ويذكر سبط بن الجوزي أنهم قصدوا بذلك إذلال أمير مكة وعبيده لأنهم كانوا عصاة على بني العباس لايرون إمامتهم ولا يخطبون لهم[٢] .

ولم يكتف أمير الحاج العراقي بإظهار هيبته في مكة ؛ بل شرع يتدخل في شئون مكة الداخلية فقد ذكر المؤرخون أنه في موسم سنة ٥٥٦هـ / ١١٦٠م سار أمير الحاج العراقي أرغش التركي إلى مكة ومعه طائفة من الجند العباسي وقام بعزل أمير مكة قاسم بن هاشم الحسني بحجة مصادرته لأموال المجاورين ، وولى مكانه عمه عيسى بن فليتة الحسني[٣] .

وفي سنة ٥٧١هـ أمر الخليفة العباسي أمير الحاج العراقي طاشتكين بن عبد الله المقتفوي أن يعزل أمير مكة مكثر بن عيسى الحسني وأمده بعسكر كثير وعدد من المنجنيقات والنفاطين ، وجرى بينهما قتال شديد تمكن فيه أمير الحاج العراقي من هزيمة أمير مكة الذي فر هارباً ، وولى أمير الحاج العراقي مقاليد الأمور بمكة إلى أمير المدينة قاسم بن مهنا الحسيني الذي رأى نفسه عاجزاً عن إدارة الأمور بمكة ، فقرر أمير الحاج إعادة داود بن عيسى الحسني

(١) المقريزي . اتعاظ الحنفا ج١ ص٢٧٨ - ٢٧٩ .

(٢) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ج٨ ورقة ٣٩ ، ٤٠ .

(٣) الفاسي : العقد الثمين ج٧ ص٣٥ ، عمر بن فهد : إتحاف الورى ج٢ ص٥٢٣
أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ج٢ ص٣٩ ، ابن فضل الطبري : إتحاف فضلاء الزمن لوحة (١٣)

للإمارة بعد خلع أخيه مكثر وأخذ عليه العهود والمواثيق بإسقاط المكوس عن الحجاج[١] .

وعلى هذا نرى مدى تدخل أمراء الحاج في شئون مكة الداخلية .

إلى أن أصبحت مكة تابعة للأيوبيين يولون عليها الولاة من قبلهم ، فلم يعد لأمراء الحاج نفوذ في مكة ، ولم تعد لهم قوة تذكر .

(١) الفاسي : العقد الثمين ج٧ ص٢٧٥-٢٧٦ ، ج٤ ص٣٥٥ ، ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج١ ص٧٧ ، عمر بن فهد : إتحاف الورى ج٢ ص٥٣٧ ، العصامي : سمط النجوم العوالي ح٢ ص٢٠٥ ، ابن عبد القادر الطبري : الأرج المسكي لوحة (٤٦)، عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج١ ص٥٤٠ ، دحلان : خلاصة الكلام ص٢١ .

طريق الحاج من مصر إلى الحجاز
في عهدي الفاطميين والأيوبيين

كان الحجاج أغلب ما يفدون آنذاك من طريق مصر يصلون إليها من الأندلس والمغرب وإفريقيا براً وبحراً فيصلون إلى مصر ليجتمعوا مع من اجتمع فيها من غيرهم بالقاهرة ومن ثم يتجه بعضهم إلى السويس بعد شهر رمضان حيث تنقلهم المراكب الشراعية إلى جدة[١] .

ويمضي الكثيرون في طريق الصعيد إلى عيذاب وقد روى المقريزي أن حجاج مصر والمغرب أقاموا أكثر من مائتي سنة لا يتوجهون إلى مكة إلا من صحراء عيذاب ، فيركبون النيل من ساحل مدينة الفسطاط إلى قوص[٢] وتستغرق رحلتهم في النيل ثمانية عشر يوماً[٣] .

وكان الحجاج يستريحون في قوص وقد وصفها ناصر خسرو أثناء زيارته لها سنة ٤٤٢هـ/ ١٠٥٠م بأنها مدينة قديمة محاطة بسور من الحجر وفيها أبنية عجيبة تبعث العجب في نفس من يراها[٤] .

وقد نزل ابن حبير سنة ٥٧٩هـ/١١٨٣م في مدينة قوص بفندق كبير خارج المدينة ووصفها بأنها « حفيلة الأسواق متسعة المرافق كثيرة الخلق لكثرة الصادر والوارد من الحجاج والتجار اليمنيين والهنديين والحبشيين لأنها محط الرجال ومجتمع الرفاق وملتقى الحجاج المغاربة والمصريين والاسكندريين ومن يتصل بهم »[٥] .

---

(١) أحمد السباعي : تاريخ مكة ج١ ص٢١٨ .

(٢) المقريزي : الخطط ج١ ص٢٠٢ .

(٣) الجزيري : درر الفرائد ج١ ص٤٠١ .

(٤) ناصر خسرو : سفر نامه ص١١٦ .

(٥) ابن جبير : الرحلة ص٤١ .

ويتجمع الحجاج من قوص في المبرز ، وهو موضع بقبلي البلد ، وعلى مقربة منه فسيح الساحة ، محدق بالنخيل ، كثير المياه[١] ثم يركبون الأبل من قوص ويعبرون الصحراء إلى عيذاب[٢] .

وكانت الصحراء معمورة أمناً نظراً لمرور القوافل العيذابية والقوصية بها صادرة وواردة[٣].

وقد ذكر ابن جبير أنهم أرادوا إحصاء عدد القوافل الواردة والصادرة فلم يستطيعوا لكثرتها[٤] .

وكان الطريق في هذه الصحراء آمناً يجد الحجاج على قارعة الطريق أحمال الفلفل والقرفة وسائر السلع مطروحة لا حارس لها ، تترك بهذا السبيل إما لإعياء الأبل الحاملة لها أو غير ذلك من الأعذار ، وتبقى بموضعها إلى أن ينقلها صاحبها مصونة على كثرة المار عليها من أطوار الناس[٥] .

وكانت الرحلة في هذا الطريق تستغرق سبعة عشر يوماً من قوص إلى عيذاب[٦] وقد ذكر ناصر خسرو أثناء زيارته لمدينة عيذاب في العصر الفاطمي أنه لا يوجد فيها ماء سوى ماء المطر فلا بئر فيها ولا عين ، وكانت قربة الماء تباع فيها بدرهم أو درهمين[٧] .

---

(١) ابن حبير · الرحلة ص ٤١ .
(٢) المقريزي : الخطط ج١ ص٢٠٢ .
(٣) ابن جبير : الرحلة ص٤٢ .
(٤) المصدر السابق ص٤٣ .
(٥) المصدر السابق ص٤٤ .
(٦) الجزيري : درر الفرائد ج١ ص٤٠١ .
(٧) ناصر خسرو : سفر نامه ص١١٩ .

ويبدو أن عيذاب قد وجدت الرعاية من حكام مصر بعد ذلك إذ يؤكد ابن جبير وجود المياه فيها أثناء زيارته لها في العصر الأيوبي فيذكر أن قافلة الحجاج نزلت على ماء الخبيب ، وهو موضع بمرأى العين من عيذاب ، يستقي منه القوافل ، وأهل البلد ويعم الجميع ، وهي بئر كبيرة[١] .

وكانت عيذاب تعتبر من أحفل مراسي الدنيا نظراً لكثرة المراكب التي تحط فيها من الهند واليمن وتقلع منها بالإضافة إلى مراكب الحجاج الصادرة والواردة[٢] .

وكان أهل عيذاب يأخذون من الحجاج على كل حمل طعام يحملونه ضريبة معلومة خفيفة المؤونة بالإضافة إلى المكوس التي كانت تفرض عليهم وعلى التجار ، وقد رفع صلاح الدين كل هذه المكوس والضرائب عن الحجاج[٣] .

وبعد إقامة الحجاج في عيذاب مدة ثلاثة وعشرين يوماً[٤] يركبون السفن في البحر إلى جدة ساحل مكة[٥] فيصلون بعد ثمانية أيام[٦] ثم يتجهون براً إلى مكة لتأدية فريضة الحج .

---

(١) ابن جبير : الرحلة ص٤٥

(٢) المصدر السابق .

(٣) المصدر السابق .

(٤) المصدر السابق ص٤٩ .

(٥) المقريزي : الخطط ج١ ص٢٠٢ .

(٦) ابن جبير : الرحلة ص٥٢ .

تأصيل لقب خادم الحرمين الشريفين

ظهر لقب خادم الحرمين الشريفين في العصر الأيوبي ، وكان يقصد به من يتولى الإشراف على المسجد الحرام بمكة المكرمة ، ومسجد الرسول - صلى الله عليه وسلم - بالمدينة المنورة، ورعاية هذين المكانين المقدسين لما لهما من شأن كبير في نفوس وقلوب المسلمين في شتى الأمصار الإسلامية .

وقد أطلق هذا اللقب لأول مرة على صلاح الدين الأيوبي[(١)] ، وإن كانت المصادر التاريخية لا تمدنا بمن أطلق عليه هذا اللقب الذي وجد في نقش مؤرخ في سنة ٥٨٧هـ / ١١٩٠م في قبة يوسف ببيت المقدس[(٢)] .

وقد استمر هذا اللقب يطلق على من تولى الإشراف على الحرمين الشريفين من الأيوبيين، فقد ذكر المؤرخون أن الملك الكامل كان يخطب له في مكة ويقولون عنه « صاحب مكة وعبيدها، واليمن وزبيدها ، ومصر وصعيدها ، والشام وصناديدها ، والجزيرة ووليدها ، سلطان القبلتين ، ورب العلامتين ، وخادم الحرمين الشريفين أبو المعالي محمد الكامل ناصر الدين خليل أمير المؤمنين »[(٣)] .

وقد صار هذا اللقب من جملة الألقاب التي اصطلح عليها للسلطان بالديار المصرية[(٤)] .

---

(١) كان صلاح الدين يطلق على نفسه الخادم في مراسلاته للخليفة العباسي الناصر لدين الله ففي سنة ٥٧٥هـ كتب إليه حين عزم على المسير إلى مصر فقال : « وقد توجه الخادم إلى الديار المصرية لتجديد النظر فيها وترتيب مصالحها » (انظر : ابن شاهنشاه : مضمار الحقائق وسر الخلائق ص٥٢) .

(٢) حسن الباشا : الألقاب الإسلامية ص٢٦٨ نقلاً عن Rep'ertoire ج٩ رقم ٣٤٤٧ ، عبد المنعم ماجد: الناصر صلاح الدين الأيوبي ص١٥٣ ، ريتشارد مورتيل : مكة في العصر المملوكي ص٣٢ .

(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج٥ ص٨٢ - ٨٣ ، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج٦ ص٢٣٤ - ٢٣٥ ، الفاسي : العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين ج٢ ص٢٨٣ ، عبد العزيز بن فهد : غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام ج١ ص٦٠٩ .

(٤) القلقشندي : صبح الأعشى ج٦ ص١٢٤ .

الفصل الثانى

الناحية الاقتصادية

الفصل الثاني

الناحية الاقتصادية

مدخل :

إن العلاقات الاقتصادية بين مصر والحجاز علاقات وطيدة ، وقديمة إذ كانت صلات مصر ببلاد الحجاز قائمة على التجارة ، ويذكر بعض المؤرخين أن عمرو بن العاص أتى إلى مصر في الجاهلية وقام بزيارة الاسكندرية مع بعض التجار المصريين .

وبعد الفتح الإسلامي خرجت القوافل من مصر تحمل المؤن للحجاز لتنقذه من محنة اقتصادية شديدة انتابته نتيجة للجدب والقحط لعدم سقوط الأمطار .

وتمثل العلاقات الاقتصادية بين مصر والحجاز وضعاً مميزاً نظراً لما قام به حكام مصر في العصرين الفاطمي والأيوبي من رعاية مالية واقتصادية لسكان الحجاز وأشرافه .

فقد كانت قافلة الحاج المصرية تخرج كل عام من مصر إلى الحجاز تحمل الأموال والغلال والمؤن لأهل الحجاز ؛ بل إن الأزمات الاقتصادية التي تعرضت لها مصر كان أثرها يظهر واضحاً وجلياً على بلاد الحجاز فتنشأ هناك أزمات ومحن أيضاً .

وهذا الفصل سوف يتناول الدعائم الثلاث التي يقوم عليها الاقتصاد وهي الزراعة والصناعة والتجارة ويبين أثرها في كل من مصر والحجاز ثم يعرض للمعونات الاقتصادية المصرية للحجاز والأزمات الاقتصادية التي مر بها البلدان وأثرها على العلاقات بينهما .

أولاً : الزراعة

تعتمد بلاد الحجاز في زراعتها على مياه الأمطار والعيون والآبار[١] ، ويمثل المطر المصدر الرئيسي لمياه الري اللازمة للزراعة في الحجاز[٢] وقد أقيمت البرك لتخزين مياه الأمطار في أطراف الأودية ، واستخدمت لسقيا الدواب ، وفرعت منها قنوات كثيرة لري المزارع[٣] .

ومن أهم الحاصلات الزراعية بالحجاز : الذرة - الشعير - القمح (الحنطة) وتعتبر الذرة الغذاء الرئيسي لبعض السكان نظراً لقلة إنتاج البلاد من القمح ، وتزرع في السرين[٤] والصفراء[٥] وخيبر[٦] .

أما الشعير فيزرع بالمدينة المنورة ويعتمدون عليه في غذائهم بعد التمر وكان محصوله يسد جانباً من احتياجاتهم إلى الحبوب[٧] ويزرع الشعير بالطائف والقرى المحيطة بها[٨]

---

(١) القلقشندي . صبح الأعشى ج٤ ص٢٤٦ .

(٢) عمر الفاروق : الحجاز - أرضه وسكانه ص٢٧٦ .

(٣) الفاسي : شفاء الغرام ج١ ص٣٣٩ .

(٤) السرين : مدينة في طريق مكة من اليمن بالقرب من يلملم وهي من عمل مكة وأكثر زروعهم الذرة والسمسم (الحميري : الروض المعطار ص٣١٢) .

(٥) الصفراء عرض كبير من أعراض المدينة فيه أودية وقرى يقع بين ينبع والمدينة وماؤه يجري علي ينبع . (حمد الجاسر : بلاد ينبع ص١٩٥) .

(٦) خيبر : بلدة عامرة آهلة ذات نخيل وحدائق ومياه وهي في جهة الشمال والشرق من المدينة على نحو ست مراحل (القلقشندي : صبح الأعشى ج٤ ص٢٩١) .

(٧) أيوب صبري . مرآة جزيرة العرب ج١ ص١٩٧ .

(٨) عمر الفاروق : الحجاز - أرضه وسكانه ص٢٩١ .

ويعتبر القمح أقل انتشاراً في الحجاز من الشعير والذرة لأنه يحتاج إلى كميات كبيرة من المياه عند زراعته ، لذا نجده يزرع في الأماكن الأكثر مطراً ، وعلى مياه العيون وتعتبر الطائف من أهم مناطق الحجاز المنتجة للقمح إلا أن إنتاجها لا يكفي حاجة البلاد الحجازية[١] .

وتوجد بعض المزروعات الأخرى في الحجاز مثل البقول فيذكر الرحالة ابن جبير أنه رأى أنواعاً من البقول التي تزرع بالحجاز كالباذنجان والسلجم (اللفت) والجزر والكرنب[٢] ويخبرنا القلقشندي أن البقول تزرع بالحجاز في بطن مر[٣] وفي الطائف[٤] .

وأكثر فواكه مكة تصدر عن الطائف ، وقد وصفها كثير من الجغرافيين العرب بأنها مدينة صغيرة متحضرة مياهها عذبة ، وهواؤها معتدل ، وفواكهها كثيرة وضياعها متصلة[٥] .

ويعتبر النخيل من رموز الزراعة الصحراوية ومن أهم علاماتها[٦] إذ تتحمل أشجار النخيل العطش والجفاف وشدة الحرارة[٧] ومن النادر أن يوجد نبات آخر مثمر يمكنه التكيف لهذه الظروف مجتمعة ، وتعد منطقة المدينة المنورة أهم مناطق تجمعات النخيل بالحجاز يليها منطقة الطائف ، ثم منطقتي جدة ومكة[٨] .

ويوجد بالحجاز نبات البلسان وهو من العقاقير الطبية الشرقية التي اشتهرت في كل

---

(١) عمر الفاروق الحجاز - أرضه وسكانه ص ٢٩١ .

(٢) ابن جبير : الرحلة ص٩٧ .

(٣) بطن مر : واد من أودية الحجاز في الشمال من مكة على مرحلة منها علي طريق حجاج مصر والشام، بها عدة عيون ومياه تجري ونخيل ومنها تحمل البقول إلى مكة (القلقشندي : صبح الأعشى ج٤ ص٢٥٩) .

(٤) المصدر السابق .

(٥) الأدريسي : نزهة المشتاق ج١ ص١٤٤ ، المقدسي : أحسن التقاسيم ص٧٩ ، ابن حوقل : صورة الأرض ص٣٢ ، ابن المجاور : تاريخ المستبصر ص٢٢ - ٢٣ ، الحميري : الروض المعطار ص٣٧٩ .

(٦) عمر الفاروق : الحجاز - أرضه وسكانه ص٢٩٢ .

(٧) أيوب صبري : مرآة جزيرة العرب ج٢ ص٣٩١ .

(٨) عمر الفاروق : الحجاز - أرضه وسكانه ص٢٩٢ .

مكان ، ويزرع البلسان البري في الحجاز[١] ويسمى شجره بالبشام[٢] ويزرع بمكة[٣] ووادي العقيق[٤] ويبدو أن شتلاته كانت تصدر إلى مصر لأن بها نوع جديد يسمى بلسم مكة[٥] .

ويمكن القول من خلال ماسبق أن الزراعة في هذه المناطق شبه الصحراوية لم تكن بقادرة على كفاية سكانها جميعاً فقد كانت مساحتها وإنتاجيتها وفائضها أقل من أن تعول أعداداً متزايدة من السكان[٦] مما جعلها تعتمد في حاجاتها الضرورية إعتماداً كبيراً على مصر وما تنتجه أرضها من غلات ومحاصيل وخضروات فقد كانت الزراعة دائماً هي الدعامة الأساسية للإقتصاد المصري .

وقد وصف المقدسي ما تقدمه مصر للحجاز من خيرات فقال : « مصر إقليم كرر الله في القرآن ذكره ،وأظهر للخلق فضله ، مصر قبة الإسلام ونهره أجل الأنهار ، وبخيراته تعمر الحجاز، وبأهله يبهج موسم الحج ، وبره يعم الشرق والغرب »[٧] .

ويعتبر القمح الغلة الرئيسية الأولى في مصر ، وكانت ترسل منه كميات كبيرة إلى بلاد الحجاز لمساعدة أهلها فقد كانت قافلة الحاج المصرية تتجه إلى الحجاز كل عام وبها صلات الأشراف وأحمال القمح والشعير والدقيق وسائر الحبوب[٨] .

وقد ذكر المقدسي حين زيارته لمصر أنه رأى في قرية مشتول كثير من الطواحين التي يحمل منها أكثر ميرة الحجاز من الدقيق والكعك ، وقد أحصى ذلك في وقت من أوقات السنة فإذا هو يبلغ ثلاثة آلاف حمل جمل في كل أسبوع كلها حبوب ودقيق[٩] .

---

(١) نعيم زكي فهمي : طرق التجارة ص٢٠٦ ، أيوب صبري : مرآة جزيرة العرب ج١ ص١٩٩ .

(٢) القزويني : آثار البلاد وأخبار العباد ص٨٦ .

(٣) المصدر السابق .

(٤) الجزيري : درر الفرائد المنظمة ج٢ ص١٤٠٧ .

(٥) نعيم زكي : طرق التجارة ص٢١١ .

(٦) عمر الفاروق : الحجاز - أرضه وسكانه ص٢٧٤ .

(٧) المقدسي : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص١٩٣ .

(٨) المقريزي اتعاظ الحنفا ج١ ص٢٤٦ .

(٩) المقدسي : أحسن التقاسيم ص١٩٥ .

ويخبرنا المقريزي أن الفاطميين كانوا يرسلون للحجاز ثمانية آلاف وتسعمائة وأربعين أردباً من الغلال[١] .

ولما تعرضت مصر للشدائد والقحط نتيجة انخفاض مياه النيل وتعرض اقتصادها لأزمات شديدة تتوقف معها إمدادات الغلال لبلاد الحجاز ، كان الحجازيون يسارعون إلى مصر مستغيثين لطلب العون والمساعدة[٢] .

بعد زوال الدولة الفاطمية من مصر وتولي الأيوبيين للحكم أمر صلاح الدين أن يرسل للحجاز ثمانية آلاف أردب من القمح كل عام[٣] .

وقد ذكر ابن جبير أن صلاح الدين أمر أشراف الحجاز بإلغاء المكس المفروض على الحجاج وعوضهم عنه ألفي دينار وألفي أردب من القمح كل عام[٤] .

ولقد كانت أسعار القمح في الحجاز مرتبطة بما ترسله مصر فإن توقفت إمدادات مصر لهم ارتفعت أسعاره إرتفاعاً شديداً .

فيذكر الفاسي أنه في سنة ٤٤٧هـ / ١٠٥٥م كان بمكة غلاء شديد وارتفعت أسعار الخبز فبلغ عشرة أرطال بدينار مغربي وتعذر وجوده فأشرف الناس والحجاج على الهلاك ، وكان سبب هذا الغلاء عدم زيادة النيل بمصر على العادة ، فلم يحمل منها الطعام إلى مكة[٥] .

وفي سنة ٥٦٧هـ / ١١٧١م بلغ الحب بمكة خمسة أمداد بدينار لتأخر وصول الميرة من مصر فلما وصلت جلبتان مشحونتان بالغلال من مصر أحيا الله المسلمين وفرج عنهم بها وانخفضت الأسعار[٦] .

ويذكر العماد الأصفهاني أنه في سنة ٥٧٢هـ / ١١٧٦م كان القمح في مكة يباع منه

(١) المقريري : اتعاظ الحنفا ج٣ ص٨٠ .
(٢) المسبحي : أخبار مصر في سنتين ص١٩٢ .
(٣) العماد الأصفهاني : سنا البرق الشامي ص١٥٤ .
(٤) ابن جبير : الرحلة ص٥٥ .
(٥) الفاسي : شفاء الغرام ج٢ ص٢٧٠ .
(٦) المصدر السابق .

الويبة وربع بدينار مصري ، وهذا غلو شديد في سعره فلما أرسل صلاح الدين ثمانية آلاف أردب من القمح[١] انخفضت الأسعار إنخفاضاً شديداً ويسر على الناس .

ومن ذلك نجد أن مصر كانت تكمل النقص الموجود في الحجاز من الغلال وتيسر على المسلمين والحجاج به ، ولقد كانت مصر تستورد من الحجاز شجر البلسان البري الذي تجود زراعته في البيئة الصحراوية .ويخبرنا الجزيري بذلك فيقول : «شجر البلسان البري أخذناه من رؤوس جباله مراراً يمر الراكب به في مضيق وجبال وعرة وواد يسمى واد العقيق ، وحمل من هذا المحل شجر البلسان من حوالي فساقي مكة المشرفة إلى القاهرة المحروسة مغروساً في الطين الموضوع في شقادف من الخشب المتقنة المحكمة الصنعة ورجل يسقيه ويقوم عليه إلى أن زرع بغيط البلسان بأرض المطرية »[٢] .

اثر الزراعة في حياة السكان بمصر والحجاز :

لقد كان للزراعة في مصروالحجاز أثر واضح في رخص الأسعار ووفرة السلع الغذائية مما أحدث رواجاً اقتصادياً وانتعاشاً اجتماعياً في حياة السكان باستثناء الفترات التي حدثت فيها أزمات اقتصادية نتيجة القحط والجفاف .

ففي مصر نجد أنها تعتمد في زراعتها على نهر النيل ، وإذا نقص فيضان النيل عن المستوى اللازم لري الأراضي ، كان المصريون يعجزون عن تلافي النتائج الخطيرة المترتبة على هذه الظاهرة الطبيعية نظراً لعدم وجود نظام للري الثابت يرتكز على قواعد علمية دقيقة[٣] .

أما الفيضان العام فلم يكن يقل خطراً عن الفيضان المنخفض ، وبرغم أنه كان قليل الحدوث إلا أن أثره كان خطيراً لأنه يغرق الأراضي ويفسد المراعي ويهلك الماشية اللازمة للزراعة ، وفي كل هذه الحالات كانت الزراعة تتعذر في كثير من المناطق .

---

(١) العماد الأصفهاني : سنا البرق الشامي ص١٥٤ .

(٢) الجريري · درر الفرائد المنطمة ج٢ ص١٤٠٧ .

(٣) راشد البراوي : حالة مصر الاقتصادية ص٧٩ .

ويترتب على ذلك قلة العرض من المواد الغذائية بالنسبة إلى الطلب وترتفع الأسعار[١] ويسود الغلاء الذي يؤثر في حياة السكان نتيجة قلة المزروعات الغذائية ،وحينما يصل ارتفاع النيل إلى الحد المناسب والمنسوب الملائم للزراعة يقوم الفلاحون بزراعة الأراضي ، وتنخفض الأسعار وتتوفر المواد الغذائية وتهدأ الأحوال وتستقر الأمور وتستقبل البلاد الرخاء[٢] .

ويخبرنا ناصر خسرو أنه عند زيارته لمصر كان النيل قد بلغ حد الوفاء المناسب[٣] فكان الرخاء عظيماً لدرجة أنه رأي في يوم هذه الفواكه والرياحين : الورد الأحمر ، والنيلوفر والنرجس ، والنارنج ، والليمون والتفاح ، والياسمين ، والريحان ، والسفرجل والرمان ، والكمثرى ، والبطيخ ، والموز ، والزيتون ، والرطب ، والعنب ، وقصب السكر ، والباذنجان ، والفول الأخضر وغيرها من المزروعات الكثيرة .

ويذكر أن سبب إجتماع كل هذه الأشياء بمصر هو جودة جوها الذي يشمل البارد والحار[٤].

ويذكر المقدسي حين زار مصر في أوقات الرخاء بأن الفسطاط حسن الأسواق والمعايش ويطول الوصف بنعت أسواقه ، وأنه اشترى به الخبز الحواري ثلاثين رطلاً بدرهم ، والبيض ثمانية بدانق ، والموز والرطب بها رخيص »[٥] .

ويصف الأدريسي مدينة الفسطاط بأنها مصر[٦] وهي مدينة كبيرة على غاية من العمارة والخصب ، والطيب والحسن ، فسيحة الطرقات ، متقنة البناءات ، قائمة الأسواق ، نافقة التجارات متصلة العمارات ، نامية الزراعات ، لأهلها همم سامية ، ونفوس نقية عالية ، وأموال مبسوطة نامية ، وأمتعة رائعة ، لا تشغل نفوسهم بهم ، ولا تعقد قلوبهم على غم لكثرة أمنهم

(١)راشد البراوى : حالة مصر الاقتصادية ص ٧٩ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) ناصر خسرو : سفرنامه ص٩٣ .

(٤) المصدر السابق ١٠٣ .

(٥) المقدسي : أحسن التقاسيم ص١٩٧ .

(٦) الإدريسي : نزهة المشتاق ج١ ص٣٢٢ .

ورفاهة عيشهم[١] .

والحقيقة أن الإدريسي بين أثر الزراعة الكبير في حياة السكان من خلال هذا التحليل النفسي العظيم الذي عرض له ، فالزراعة هي مصدر رخاء مصر ومنبع ثرواتها ، فالمحاصيل الزراعية الغذائية المتوفرة تؤثر تأثيراً إيجابياً على نشاط السكان اليومي فينطلقون لتحقيق التقدم في شتى المجالات .

وفي الحجاز الذي يعتمد على المطر في معظم أراضيه ، كان هطول الأمطار سبباً في الرخاء الناشئ عن الزراعة ، وانخفاض أسعار المحاصيل الزراعية ، وإذا انعدم المطر أجدبت الأرض ، وقحطت ، وجفت الموارد وارتفعت الأسعار ، وساد الغلاء ومن ذلك ماحدث في سنة ٥٧٩هـ / ١١٨٣م .

فيقول ابن فهد : « نال أهل مكة الجهد وأضر بهم القحط وأهلك المواشي الحر ، فإن المطر لم يهطل عليهم في الربيع ولا الخريف ولا الشتاء »[٢] .

ويذكر ابن جبير عند زيارته لمكة أن الحجازيين كانوا في رخاء نتيجة سقوط الأمطار وزراعة الأرض فيقول : « وكانوا يتحدثون بكثرة نعمها في هذا العام ولين سعرها وأنها خارقة للعوائد السالفة عندهم ، كان سعر الحنطة أربعة أصواع بدينار مؤمني وهي أويتان من كيل مصر وجهاتها ، والأويتان قدحان ونصف قدح من الكيل المغربي »[٣] .

ولاشك أن رخص الأسعار أدى إلى ازدهار الأحوال في البلدين ، باستثناء حالات القحط والجفاف التي كانت تؤدي إلى الغلاء وشدة المعاناة والضيق .

---

(١) الإدريسي : نزهة المشتاق ج١ ص٣٢٣ .

(٢) عمر بن فهد : إتحاف الورى ج٢ ص٥٤٧ .

(٣) ابن جبير : الرحلة ص١٠٠ .

ثانياً : الصناعة

إن الحياة التي كانت سائدة في بلاد الحجاز يغلب عليها طابع البداوة نظراً لبيئتها الصحراوية لذا لم تتقدم بها الصناعة تقدماً ملحوظاً مثل مصر لأن الصناعة تحتاج إلى الاستقرار وتوفر المواد الخام المعدنية والزراعية ، كما تتطلب كثرة الأسواق والمستهلكين .

لذا بقيت الصناعات في الحجاز قليلة وبسيطة ؛ بل يدوية وبدائية مثل صناعة الحلي في المدينة المنورة[١] نظراً لتوفر معدن الذهب في الحجاز بالقرب من المدينة المنورة وبين ينبع والمروة[٢]

ونظراً لتوفر معدن الحديد بعدة أماكن من الحجاز فقد قام أهل الحجاز بصناعة بعض أنواع الأسلحة مثل صناعة السيوف في مكة والمدينة ، والسهام التي كانت تصنع برقم المدينة وإليها تنسب السهام الرقميات(٣) .

وفي الطائف قامت صناعة دبغ الجلود ، ويذكر الإدريسي أن بالطائف تجار مياسير ، وجل بضائعهم صنع الأديم وأديمها عالي الجودة ، رفيع القيمة[٤] .

ويخبرنا ابن جبير أن صناعة الحلوى قامت في مكة فكانوا يصنعون منها أنواعاً غريبة من العسل والسكر المعقود على صفات مختلفة[٥] ويبدو أن العسل والسكر كانا يجلبان إليها من مصر ضمن ما تأتي به قافلة الحاج المصرية[٦] .

---

(١) العباسي عمدة الأخبار ج٥ ص٣٣١ .
(٢) المصدر السابق .
(٣) ياقوت : معجم البلدان ج٣ ص٥٨ .
(٤) الإدريسي . نزهة المشتاق ج١ ص١٤٤ – ١٤٥ .
(٥) ابن جبير : الرحلة ٩٨ .
(٦) المصدر السابق .

ونظراً لتوفر حجارة الرحي بالحجاز[١] صنعت الرحى التي تطحن الغلال وكانوا يطحنون السدر وهو سويق النبق[٢] وقد صنعت بعض الأدوات الفخارية لحفظ مياه الشرب كما صنعت بعض أواني الطهي[٣] .

أمامصر فإنها تقدمت تقدماً ملحوظاً في النشاط الصناعي مما أثر تأثيراً واضحاً في التقدم الاقتصادي بها ، فقد استطاعت الدولة أن تصدر ما فاض عن احتياجاتها وتستورد ما لم تستطع إنتاجه مما أحدث رواجاً كبيراً في الاقتصاد ظهر أثره واضحاً على سكان البلاد .

ويمثل التعاون الصناعي بين مصر والحجاز في العصرين الفاطمي والأيوبي صورة طيبة لما يجب أن يكون عليه التعاون بين البلدان العربية والإسلامية لتحقيق الرخاء والازدهار لشعوبها .

فقد كانت مصر تصدر كل عام إلى الحجاز الزيت والدقيق والشمع والطيب بصحبة قافلة الحاج[٤] .

ويخبرنا القلقشندي أن مصر كانت ترسل إلى المدينة المنورة كل عام سبعة وعشرين قنطاراً من الزيت الحار لإضاءة قناديل المسجد الشريف بالمدينة المنورة ، ومائة وستين شمعة ما بين كبيرة وصغيرة[٥] .

واشتهرت مصر بتفوقها في صناعة المنسوجات ، وكانت أهم مراكز هذه الصناعة في تنيس وتونة وشطا ودبيق ودمياط .

لذا فإن مصر طوال العصرين الفاطمي والأيوبي كانت تقوم بإعداد كسوة الكعبة المشرفة وإرسالها كل عام بصحبة قافلة الحاج ، ويروي المقريزي عن المسبحي حوادث سنة ٣٨٤هـ أنه في

---

(١) ابن المجاور : تاريخ المستبصر ص٣٥ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) جوستاف لوبون : حضارة العرب ص٤٤ .

(٤) المقريزي : اتعاظ الحنفا ج٢ ص١٥

(٥) القلقشندي : صبح الأعشى ج٤ ص٣٠٤ .

ذي القعدة ورد يحيى بن اليمان من تنيس ودمياط والفرما بهدية وهي أسفاط وتخوت وصناديق مال وخيل وثلاث مظال وكسوتان للكعبة[١] .

ولقد كان أشراف مكة يرتدون الملابس المنسوجة في مصر .

إذ يذكر ابن جبير أنه أثناء رحلته للحج شاهد في مكة الأمير مكثر بن عيسى الحسني وهو يرفل في حلة ذهب وعلى رأسه عمامة شرب ، ومعروف أن الشرب نسيج رقيق اشتهرت به مدينتا تنيس ودمياط[٢] .

كما يذكر أنه كان يرتدي تحت الحلة خلعتان من الديبقي المرسوم البديع الصنعة[٣] والقماش الدبيقي من أجود أنواع الأقمشة التي كانت تصنع بمصر آنذاك[٤] .

ويذكر المقدسي أثناء زيارته لمصر أنه رأى بمصر كثيراً من الطواحين بمدينة مشتول ومنها يحمل أكثر ميرة الحجاز من الدقيق والكعك[٥] .

ويخبرنا المقريزي أن الحكومة المصرية في عهد الفاطميين كانت تنفق كل عام عشرة آلاف دينار ثمن الطيب والحلوى والشمع مما يصدر إلى الحجاز[٦] .

ولقد ساهم العمال بدورهم في التعاون الصناعي بين مصر والحجاز إذ يذكر المقدسي أنه شاهد بعض الفسيفساء في الكعبة وعليها توقيع صناع مصريين[٧] بالإضافة إلى أن أروقة الكعبة كانت تستند على أعمده رخام حملت من الاسكندرية إلى جدة[٨] .

نستنتج مما سبق أن الحجاز كان يعتمد على المصنوعات المصرية اعتماداً كبيراً مما أحدث إزدهاراً وانتعاشاً إقتصادياً به .

---

(١) المقريزي : الخطط ج١ ص١٨١ .
(٢) المصدر السابق ص١٧٧ .
(٣) ابن جبير : الرحلة ص١٢٦ .
(٤) آدم متز : الحضارة الإسلامية ج٢ ص٢٥٨ .
(٥) المقدسي : أحسن التقاسيم ص١٩٥ .
(٦) المقريزي : الخطط ج١ ص٤٩٢ .
(٧) المقدسي : أحسن التقاسيم ص٧٢ .
(٨) المصدر السابق .

ثالثاً: التجارة

إن خصب مصر ووفرة إنتاجها الزراعي والصناعي ونمو ثروتها وجدب بلاد الحجاز ، وقلة مواردها ، وسهولة الانتقال براً وبحراً بين البلدين ظروف طبيعية تجعل اتصالهما أمراً ضرورياً فمن موانئ الحجاز على البحر الأحمر اتخذت المراكب طريقها إلى مصر ، ونخص بالذكر ميناء جدة فعن طريقه كانت تنقل إلى مصر غلات الهند وشرقي آسيا[١] كما تيسر لموانئ الحجاز أن تستقبل في مراحل نموها التجاري سفناً تجارية من مصر والحبشة والهند والصين[٢] وكان الحجاز وبه الأماكن المقدسة قبلة الكثير من المصريين الذين يقومون بأداء فريضة الحج ويساهمون في رواج التجارة وازدهارها هناك .

ولقد كانت هناك بعض الطرق البرية والبحرية التي ساعدت على نشاط الحركة التجارية بينهما بالإضافة إلى كثرة الموانئ التي ترسي فيها السفن المحملة بالبضائع .

وستعرض الصفحات التالية للطرق بين مصر والحجاز والموانئ والمحطات التجارية الموجودة فيهما وأهميتها في التبادل التجاري بينهما ونظم المعاملات التجارية في كل منهما ، والصادرات الواردات ، والمعونات الاقتصادية المصرية للحجاز ثم الأزمات الاقتصادية في مصر والحجاز وأثرها على العلاقات بينهما .

١- الطرق بين مصر والحجاز :

كانت هناك عدة طرق بين مصر والحجاز عملت على ازدهار النشاط التجاري بينهما منها الطريق المحاذي للنيل إلى قوص ، ثم إلى أسوان وبلاد النوبة ، ويتفرع منه طريق إلى ميناء عيذاب على البحر الأحمر ، فضلاً عن طريق يتجه من مكة عبر الصحراء إلى البحر الأحمر ثم إلى الجار ميناء المدينة[٣] .

---

(١) راشد البراوي : حالة مصر الاقتصادية ص٢٣٤ .

(٢) علي السليمان : النشاط التجاري ص٩٧ .

(٣) انطوان خليل : الدولة المملوكية ص١٨٥ .

أما البضائع التي كانت تأتي عن طريق البحر الأحمر فكانت تنقل عبر النيل إلى عيذاب ومنها براً إلى قوص ، ثم عبر النيل إلى القاهرة ، ثم عبر النيل أيضاً إلى رشيد والاسكندرية ويستمر طريق عيذاب - قوص إلى فندق الكارمية بالفسطاط ، وكان هذا الطريق أكثر أماناً لقلة الشعاب المرجانية فيه كما استعمل أيضاً طريق قوص إلى فندق الكارم ومنه بالنيل إلى موانئ البحر الأبيض المتوسط[١] وهناك طريق مدينة أسوان وكان يمتاز بقصره وكانت القوافل تقطعه في خمسة عشر يوماً ، كما تميز هذا الطريق بخلوه من الجبال المتشابكة .

وبالإضافة إلى ذلك فإن أسوان كانت ثغراً هاماً للتجارة مع بلاد النوبة لذلك كان المسافرون يفضلون طريق أسوان على طريق مدينة قوص ، وكانت المراكب تسير بالحجاج شرقاً إلى جدة ميناء الحجاز ، أو بالبضائع جنوباً إلي بلاد اليمن وعدن حيث تستأنف سيرها إلي سواحل بلاد الهند والصين ، ثم تعود محملة بالبضائع إلي عيذاب ومنها إلى الساحل المصري[٢] .

وقد توزعت على تلك الخطوط التجارية موانئ ومحطات تجارية أمنت الاتصال التجاري بين البلدين ، وسوف نشير إلي تلك الموانئ في كل من مصر والحجاز :

ب- الموانئ والمحطات التجارية :

أولاً : في مصر :

- الفسطاط :

كانت الفسطاط من أهم المراكز التجارية في مصر وقد وصفها الإدريسي بقوله : « هي الآن مدينة كبيرة على غاية من العمارة والخصب والطيب والحسن فسيحة الطرقات متقنة البناءات قائمة الأسواق نافقة التجارات »[٣] .

وترجع أهميتها التجارية إلى أنها تقع على النيل في مكان متوسط بين الوجهين القبلي

---

(١) انطوان خليل : الدولة المملوكية ص ١٨٥ .

(٢) حسن إبراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص٥٩٧ .

(٣) الإدريسي . نزهة المشتاق ج١ ص٣٢٣ .

والبحري وعلي مقربة من النقطة التي ينقسم فيها النيل إلى فرعيه الرئيسيين كما أنها تتصل بالنيل بكافة أنحاء البلاد من أسوان حتى ساحل البحر الأبيض المتوسط ، وكانت ترتبط بالبلاد بواسطة القوافل حيث تخرج منها طرق برية مباشرة إلى بلاد الحجاز والشام وبلاد المغرب ، وبذا وصلت إليها المتاجر من أوربا وآسيا وإفريقيا(١) ومنها كانت ترد المؤن والإعانات إلى مكة المكرمة(٢) .

واستمرت الفسطاط مزدهرة إلى أن أمر شاور بإحراقها في نهاية العهد الفاطمي خوفاً من استيلاء الصليبيين عليها(٣) .

وقد شاهد ابن جبير بعضاً من آثار الخراب الذي أحدثه الإحراق ، إلا أن مبانيها جددت في العهد الأيوبي(٤) وعادت المدينة لبعض من النشاط الذي كان يمارسه أهلها .

- ***القاهرة :***

أخذت القاهرة تنافس الفسطاط وتزدهر تجارياً نظراً لوقوعها عند التقاء الطرق التجارية والطريق الذي استعمل لنقل السلع بين إفريقيا وآسيا وفي حج المسلمين الإفريقيين إلى مكة كان يمر من وسطها ، فضلاً عن أن الطريق الذي كانت تحمل عليه السلع الثمينة من السودان والحبشة كان ينتهي عندها وفيها تمركز الجهاز العسكري والإداري الحاكم الذي جذب إليه تجارة البحرين الأحمر والمتوسط(٥) .

وقد وصف المقريزي ازدهار تجارتها ورواجها بقول : « هي عظيمة آهلة يجبى إليها من

---

(١) البراوي : حالة مصر الاقتصادية ص١٩٩

(٢) القوصي : تجارة مصر في البحر الأحمر ص٣٨ .

(٣) المقريزي : الخطط ج١ ص٢٨٦

(٤) ابن جبير : الرحلة ص٢٩ .

(٥) انطوان خليل : الدولة المملوكية ص١٨٨ .

الشرق والغرب والجنوب والشمال ما لا يحيط بجملته وتفصيله إلا خالق الكل جل وعلا »[١]

فالسلع التي كانت ترد الأسكندرية ودمياط كانت ترسل بدورها إلى بولاق ميناء القاهرة على النيل وأسواقها كانت مزدهرة وعامرة بجميع أنواع السلع المحلية والأجنبية الشرقية والغربية وكان فيها سوق للأقمشة الإيطالية والأوربية وأخرى للسلع الفارسية فضلاً عن أسواق التجارة الكارمية[٢] .

وهكذا صارت القاهرة مستودعاً للتجارة العالمية التي كان يتزود منها التجار العرب والمسلمون .

- *الاسكندرية :*

كانت الاسكندرية مربعة الشكل ولها أربعة أبواب موزعة على الجهات الأربعة وفيها طريق رئيسي يصل الباب الشرقي بالباب الغربي وينفرج الباب الشمالي على الميناء وبالقرب منه يمتد الحي الأكثر ازدحاماً بالسكان ، حيث الحي التجاري وفيه كانت تنتشر مؤسسات الأجانب التجارية ومراكز قنصلياتهم وكانت أسواق الاسكندرية تعتبر من أكبر وأشهر أسواق البهارات في العالم ، وكانت تحمل إليها الأقمشة الأوربية المتنوعة والبهارات من آسيا والذهب من السودان ، والمعادن والأخشاب من أوربا ، والسجاد والأحجار الكريمة من بلاد فارس ، وفيها كانت تتم المبادلات التجارية العالمية[٣] .

---

(١) المقريزي : الخطط ج١ ص٣٦٧ .

(٢) تجار الكارميه هم تجار التوابل وغيرها من سلع الشرق الأقصي بين المحيط الهندي ومصر عبر البحر الأحمر وقد بني لهم تقي الدين عمر ابن أخي صلاح الدين فندقاً في مدينة الفسطاط ، وكانت المحطات الكبرى للتجارة الكارمية في عدن وتعز وزبيد ، ومخازنهم التجارية في قوص حيث نظموا شئونهم الاقتصادية ومن عيذاب والطور والسويس كانت تبدأ رحلاتهم بين البحر الأحمر وقوص والقاهرة والاسكندرية ودمياط وكانوا يغرقون أسواق مكة وجدة في مواسم الحج بسلعهم المتنوعة وفيهما تعقد الصفقات التجارية الكبرى .

(انظر : صبحي لبيب : التجارة الكارمية وتجارة مصر في العصور الورسطى - المجلة المصرية للدراسات التاريخية - مايو ١٩٥٢ - العدد الثاني - المجلد الرابع ص١٢ - ١٩) .

(٣) انطوان خليل : الدولة المملوكية ص١٩٠ - ١٩١ .

- **عَيْذَاب :**

شهد العصر الإسلامي بمصر نشأة ميناء عيذاب على الشاطئ الغربي للبحر الأحمر ، ولقد استمدت شهرتها من أهمية الدور الذي قامت به كقاعدة بحرية تجارية لتجارة الشرق الأقصى عبر مصر إلى أوربا ، وكمرحلة هامة في طريق قوافل الحجاج إلى المقدسات الإسلامية بالحجاز عبر البحر الأحمر نظراً لموقعها المواجه لميناء جدة(١) .

وكانت عيذاب تستخدم في السفر إلي مكة قبيل الفاطميين(٢) ثم زادت أهميتها في العصرالفاطمي منذ سنة ٤٦٠هـ / ١٠٦٧م بسبب الشدة العظمى التي قاستها مصر في عهد الخليفة المستنصر بالله(٣) نتيجة لخراب الدلتا فتحولت قوافل الحجاج المصريين والمغاربة من طريق شبه جزيرة سيناء إلى عيذاب واستمر هذا الطريق طوال العصر الأيوبي بسبب الحروب الصليبية(٤) .

فقد ظل حجاج مصر والمغرب أكثر من مائتي سنة لا يتوجهون إلى مكة إلا من صحراء عيذاب(٥) فيركبون المراكب في النيل من الفسطاط إلي قوص ثم يركبون الإبل من قوص ، ويعبرون هذه الصحراء إلى عيذاب ثم يركبون السفن إلي جدة ، ومنها إلي مكة(٦) .

وكان البحارة والتجار يفضلون الرسو فيها عند قدومهم إليها أو عند رحيلهم عنها بسبب عمق مينائها وغزارة مياهه ، وخلوه من الشعب المرجانية التي تعيق الملاحة(٧) وكانت تجبى بها

(١) أحمد دراج . عيذاب - مقال بمجلة نهضة أفريقيا ص٥٣ .

(٢) اليعقوبي : كتاب البلدان ص٨٩ .

(٣) المقريزي : الخطط ج١ ص٢٠٢ .

(٤) أحمد دارح : عيذاب ص٥٧ .

(٥) المقريزي : الخطط ج١ ص٢ ٢ .

(٦) ابن إياس : بدائع الزهور ج١ ق١ ص٢٠ .

(٧) آدم متز : الحضارة الإسلامية ج٢ ص٣١٩ ، القلقشندي : صحيح الأعشى ج٣ ص٤٦٤ ، ٤٦٨ .

الرسوم على البضائع الواردة من الحجاز واليمن وزنجبار والهند والحبشة[١] .

ولقد ازدهرت عيذاب في العصر الأيوبي فيذكر ابن جبير في رحلته للأراضي الحجازية بأنها كانت من أحفل مراسي الدنيا لأن مراكب الهند واليمن تحط فيها وتقلع منها باستمرار بالإضافة إلي مراكب الحجاج التي تقصدها دائماً في مواسم الحج[٢] ، وأنه أراد إحصاء عدد القوافل العيذابية الصادرة والواردة فلم يستطع لكثرة عددها[٣] .

وقد ساد الأمن والاستقرار في عيذاب بحيث كانت أحمال البهار كالقرفة والفلفل ونحو ذلك ، توجد ملقاة بها دون أن يتعرض لها أحد حتى يأتي صاحبها ويأخذها[٤] .

ونظراً لقرب عيذاب من جدة فقد كانت الغلات الآتية من الحبشة وساحل أفريقيا واليمن والهند ، وما بعدها تصل إلى عدن إذ هي نقطة ابتداء البحر الأحمر ثم تنقل منها مباشرة إلى جدة ، ومن جدة تنقل إلى عيذاب[٥] .

- دمياط :

يعتبر ميناء دمياط من الموانئ الشهيرة في مصر فهو ثالث الثغور التي تقع على ساحل مصر الشرقي وهي تنيس والفرما ودمياط[٦] ويعتبر مخرج التجارة المصرية إلى البحر المتوسط ويتصل بالقوافل البرية إلى موانئ البحر الأحمر ، ولا تدخل إليه المراكب مباشرة بسبب شدة تيار مياه النيل فقد كانت تخرج منه قناة تصل حتى مدينة تنيس حيث كانت ترسو المراكب[٧] .

وقد برزت دمياط في مجال التجارة والصناعة ، وصارت في العصر الفاطمي مركزاً هاماً لصناعة النسيج كما كانت تبنى فيها السفن التجارية والحربية[٨] .

---

(١) ناصر خسرو : سفرنامه ص١١٨ ، راشد البراوي : حالة مصر الاقتصادية ص٢٨٩ .

(٢) ابن جبير : الرحلة ص٤٥ .

(٣) المصدر السابق : ص٤٣ .

(٤) المصدر السابق ص٤٤ ، المقريزي : الخطط ج١ ص٢٠٢ ، الجزيري : درر الفرائد ج٢ ص٤٠٠ .

(٥) راشد البراوي : حالة مصر الاقتصادية ص٣٨٩- ٣٩٠ .

(٦) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ج٤ ص٤٠٦ .

(٧) انطوان خليل : الدولة المملوكية ص١٩٢ .

(٨) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ج٤ ص٤٠٦ .

- القصير :

يقع ميناء القصير في جهة الشمال من عيذاب ، وكانت بعض المراكب تقصده لقربه من قوص ، وبعد عيذاب منها ، وتحمل البضائع منه إلى قوص ومن قوص إلى فندق الكارم بالفسطاط[١] .

- القلزم :

كانت القلزم من الموانئ ذات الصلة التجارية بموانئ الحجاز[٢] وفيها كانت تبنى بعض السفن التجارية[٣] ومنها تحمل الحمولات إلى الحجاز واليمن[٤] وقد وصفها المقدسي بأنها خزانة مصر وفرضة الحجاز ، ومعونة الحاج[٥] ، وقد استمرت القلزم في أهميتها التجارية بين مصر والحجاز حتى نهاية القرن الرابع الهجري[٦] .

- الفرما :

صارت الفرما (وكانت مفتاح الديار المصرية) من المراكز التجارية بين الشرق والغرب[٧] فقد كانت البضائع تجلب من الموانئ الأوربية المختلفة إلى الاسكندرية والفرما ثم منها إلى الحجاز ، وكانت الفرما حلقة اتصال بين موانئ البحر المتوسط والبحر الأحمر وهي محطة لتجار أوربا وسورية[٨] .

---

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ج٣ ص٤٦٤ ، ٤٦٨ .
(٢) ابن إياس : بدائع الزهور ج١ ق١ ص٢٧ .
(٣) الحميري : الروض المعطار ص٤٦٦ - ٤٦٧ .
(٤) المقريزي : الخطط ج١ ص٢١٣ .
(٥) المقدسي : أحسن التقاسيم ص١٩٦ .
(٦) عطية القوصي : تجارة مصر في البحر الأحمر ص٣٧ .
(٧) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ج٤ ص٤٠٦ .
(٨) عطية القوصي : تجارة مصر في البحر الأحمر ص٣٣ .

ثانياً : الموانئ والمحطات في بلاد الحجاز :

كان لموقع بلاد الحجاز المتاز على البحر الأحمر واتصاله ببلاد الشام شمالاً واليمن جنوباً وبمصر براً وبحراً أثره العظيم في النشاط التجاري داخل شبه الجزيرة العربية وخارجها ونتيجة لتعدد مراحل ذلك النشاط اختلفت أطواره بين البر والبحر .

فمنذ أقدم العصور سارت القوافل التجارية من اليمن وعبر أراضي الحجاز حتى وصلت إلي أراضي الشام حيث مرت بمدن هامة كصنعاء ومأرب ومكة المكرمة ، ومن بلاد الحجاز تعددت وجهات القوافل حاملة البضائع فكانت تسير إلى مصر والشام والعراق واليمن والحبشة وكانت المراكب تأخذ طريقها إلي مصر واليمن عبر ثغور الحجاز على البحر الأحمر ، كما كانت هذه الثغور الحجازية تستقبل سفناً تجارية من الحبشة والهند والصين ومصر[١] ومن هذه الثغور : جدة - الجار - ينبع - السرين .

- جدة :

يعتبر ثغر جدة من أشهر الموانئ الحجازية وقد اشتهر بأنه ميناء مكة وفرضتها على البحر الأحمر[٢] فكانت تستقبل مراكب الحجاج وتحصل منهم المكوس وتعد لهم الإقامة في خاناتها ويأخذ الحجاج من أسواقها السلع والمؤن حتى ينتقلوا إلى مكة[٣] .

ولقد كان لموقع جدة المتوسط من موانئ الحجاز ، ولقربها من عدن والهند ثم قربها من مكة المكرمة أكبر الأثر في أن تقوم على تجارة عريضة مع الموانئ العالمية في حوض البحر المتوسط وعدن ؛ بل إن تجارة جدة وصلت إلى الهند والصين ؛ على أن تجارتها مع موانئ البحر الأحمر ولاسيما المصرية منها وصلت في عصر الفاطميين والأيوبيين إلي درجة كبيرة من الازدهار فقد كانت البضائع تجلب من الموانئ الأوربية إلى الاسكندرية والفرما ثم منها إلى

(١) علي بن الحسين · النشاط التجاري ص٨٣ .

(٢) ابن حوقل : صورة الأرض ص٣١ ، ابن المجاور : تاريخ المستبصر ص٥١ ، القلقشندي : صبح الأعشى ج٤ ص٢٥٨ - عبد القادر الجديّ : السلاح والعُدّة في تاريخ جُدة ص٧٨ .

(٣) علي بن الحسين : النشاط التجاري ص١٠٩ .

الحجاز[١] .

وكانت بضائع الشرق ينقل بعضها عن طريق جدة إلي عيذاب التي كانت تنقل منها براً إلى القاهرة والفسطاط عبر الصحراء ، وكانت لميناء جدة علاقات تجارية مع ميناء القصير الواقع إلى الشمال من عيذاب ، وكانت تصل إليه بعض المراكب لقربه من قوص ولكن ما كان يصل إليه أقل بكثير مما كان يصل إلى عيذاب[٢] .

وكانت جدة وهي ثغر مكة على البحر الأحمر تستقبل المراكب التجارية القادمة من اليمن ومصر ، وكانت أيضاً قبلة الحجيج القادم من عيذاب إليها وميقاته[٣] .

لذا فقد أصابت من ذلك تجارة عظيمة وثراء كبير وقد وصفها الإدريسي بقوله : « هي مدينة كبيرة عامرة تجاراتها كثيرة وأهلها مياسير ذوو أموال واسعة وأحوال حسنة ومرابح ظاهرة، ولها موسم قبل وقت الحجيج مشهود البركة تنفق فيه البضائع المجلوبة والأمتعة المنتخبة والذخائر النفيسة »[٤] .

استمرت جدة في النمو في العصر الأيوبي لازدياد مواردها المالية تبعاً لزيادة عدد الحجاج ولازدهار الحركة التجارية فيها التي كانت تنشط في الحج وحين قدوم القوافل التجارية إليها من عدن .

وفي جدة اعتاد التجار استبدال سلعهم في أسواقها والتهيؤ منها لدخول البيت الحرام ومتابعة تجارتهم في مكة أيضاً بعد المكوث فيها فترة من الوقت ثم السير منها إلى الشام[٥] .

ولقد اهتم أشراف مكة بجدة لقربها من مكة ومركزها المرموق في التجارة الدولية فضلاً

---

(١) الزيلعي : مكة وعلاقاتها الخارجية ص١٧٧ .

(٢) جميل حرب : الحجاز واليمن ص١٣٧ .

(٣) القلقشندي : صبح الأعشى ج٤ ص٢٥٨ .

(٤) الإدريس : نزهة المشتاق ج١ ص١٣٨ - ١٣٩ .

(٥) علي بن الحسين : العلاقات الحجازية زمن سلاطين المماليك ص١٩٣ .

عن أهميتها كبوابة الحجاز للوافدين إليه من مصر وإفريقيا والمغرب وبلاد السودان[١]

وكان أمير جدة يعين من قبل أمير مكة[٢] ويتولى أخذ المكوس من التجار القادمين إليها[٣] .

وكانت جدة وغيرها من موانئ الحجاز من الميادين التي راجت فيها تجارة الكارم بحيث كانت تعتبر إلى جانب الموانئ اليمنية من أهم مراكز هذه التجارة في البحر الأحمر وكانت هذه التجارة القادمة من الحجاز تخضع للمكوس قبل دخولها إلى الموانئ المصرية[٤] .

وكانت السلع التي يجلبها تجار الكارم إلى جدة مما يقبل عليه العامة والخاصة فمنها التوابل كالفلفل والقرنفل ، وكذلك البخور ، وغيرها من السلع المجلوبة من اليمن والهند .

وقد ترك ارتياد تجارة الكارم لميناء حدة وما جلبوه معهم من مختلف السلع الرائجة أكبر الأثر في دفع ذلك الميناء نحو حركة تجارية قوية أدت إلى ارتفاع موارده المالية ارتفاعاً كبـيراً[٥].

- *الجار :*

ومن الموانئ الحجازية التي كان لها علاقة مع الموانئ المصرية ميناء الجار[٦] إذ كانت المراكب الواردة من مصر ترسو فيه[٧] وقد اشتهر بأنه فرضة المدينة لأنه يقع على ثلاثة مراحل منها[٨] .

---

(١) ريتشارد مورتيل : مكة في العصر المملوكي ص١٧٤ .

(٢) ناصر خسرو : سفرنامه ص١٢٠.

(٣) الإدريسي : نزهة المشتاق ج١ ص١٣٩ .

(٤) الزيلعي : مكة وعلاقاتها ص١٨٣ .

(٥) المرجع السابق .

(٦) ناصر خسرو : سفرنامه ص٨٦ .

(٧) ابن المجاور : تاريخ المستبصر ص٥٠ .

(٨) ابن حوقل : صورة الأرض ص٣١ .

وميناء الجار كان معروفاً قبل الإسلام إلا أنه اكتسب شهرة بعد الفتح الإسلامي لمصر ، فقد روى المؤرخون أن عمرو بن العاص لما فتح الاسكندرية كتب إليه عمر بن الخطاب -رضـــي الله عنه- أن يحمل الطعام منها إلى المدينة حتى يصل إلى ساحل الجار فأرسل عمرو طعاماً في عشرين مركباً حتى وافى الجار[١] .

ولقد أصبحت الجار الفرضة الرئيسية للمدينة وحازت شهرة تاريخية بحيث كان البحر الأحمر يعرف ببحر الجار[٢] .

ولقد ضعف شأن الجار منذ القرن الرابع الهجري حيث اختل نظام الأمن بالحجاز نتيجة ضعف الحكام فتسلط الأعراب على الجار بالنهب والسلب وقتل أهله[٣] .

واستمر الجار على حاله من عدم الاستقرار يستقبل المراكب الواردة من مصر رغم الفتن والمنازعات التي سادت الحجاز في القرن الرابع الهجري حتى أخذ الحجاج من مصر والمغرب طريق عيذاب إلى ميناء جدة في أواخر القرن السادس الهجري فضعف أمر الجار ثم بدأ ثغر ينبع في الازدهار بقدوم سنة ٦٢١هـ / ١٢٢٤م حين جعله الأيوبيون ميناءً رئيسياً للمدينة بعد جدة[٤].

- *ينبع :*

تنقسم مدينة ينبع إلى قسمين : ينبع النخل ، وينبع البحر، وقد صارت ميناء للمدينة المنورة ، ومنفذاً لها على ساحل البحر الاحمر[٥] .

ولقد بدأ ميناء ينبع ينشط حتى صار من موانئ الحجاز الرئيسية سنة ٦٢١هـ / ١٢٢٤م في الوقت الذي كان الأيوبيون يسيطرون على الحرمين ، إذ جعلوا ينبع ميناء للمدينة وأقاموا

(١) حمد الجاسر : بلاد ينبع ص٤٧ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) المرجع السابق ص٤٩ .

(٤) علي بن الحسين : النشاط التجاري ص٩٥ .

(٥) أيوب صبري : مرآة جزيرة العرب ج١ ص١٩٥ .

فيها بعض الإصلاحات والإنشاءات ، وشيدوا فيها قلعة حصينة ، ووضعوا فيها جنداً لحمايته ، وكانوا يرسلون السفن من مصر تحمل ما يحتاج إليه الحجاج وما يريدون توزيعه على المحتاجين من أهل المدينة بطريق ميناء ينبع[١] كما كانت ينبع أيضاً محطة على الطريق البري لحجاج مصر وتجارها والذي كان يبدأ من القاهرة إلى مدينة السويس ، ثم ينتقل منها الحجاج والتجار بالسفن إلي العقبة ثم ينزلون إلى البر فيمرون بينبع في طريقهم إلى المدينة ومكة ، وظل هذا الطريق مستخدما في مجال الانتقال بين مصر والحجاز حتى بعد قيام دولة المماليك في مصر[٢] .

واستمرت الصلة التجارية قوية بين مصر وميناء ينبع حتى أن بعضاً من سكان هذا الميناء كانوا من الأسر المصرية التي انتقلت إليه من صعيد مصر للتجارة[٣] .

- *السرين :*

تمثل السرين الواجهة البحرية الثانية لمكة المكرمة[٤] فهي تقع في طريق مكة من اليمن بالقرب من يلملم وهي من عمل مكة[٥] وكان يتولى جباية المكوس والضرائب من التجار بها وال من قبل أمير مكة يأخذ نصفها لصاحبه ، ويعطي النصف الآخر لصاحب تهامة[٦] ولقد أسهم هو وميناء جدة في تزويد مكة بكل ما تحتاجه من السلع التجارية .

جـ - *نظم المعاملات التجارية :*

لقد كان للنشاط التجاري بين مصر والحجاز أثره الكبير في توثيق العلاقات وتوطيدها وتوحد نظم المعاملات التجارية بينهما مثل :

السكة - الصكوك - الموازين - المكاييل - المكوس وسوف نعرف بهذه النظم كما يلي :

---

(١) حمد الجاسر : بلاد ينبع ص٤٩ .

(٢) علي بن الحسين : النشاط التجاري ص٩٢ .

(٣) المرجع السابق ص٩٣ .

(٤) الزيلعي : مكة وعلاقاتها ص١٨٤ .

(٥) الحميري : الروض المعطار ص٣١٢ .

(٦) الإدريسي. نزهة المشتاق ج١ ص١٣٨ .

أولاً : السكة :

يعرف ابن خلدون السكة بقوله : « السكة هي الختم على الدنانير والدراهم المتعامل بها بين الناس بطابع حديد ينقش فيه صور أو كلمات مقلوبة ويضرب به على الدينار أو الدرهم فتخرج رسوم تلك النقوش عليه ظاهرة مستقيمة »[١] ثم يقول : « ولفظ السكة كان اسماً للطابع وهي الحديدة المتخذة لذلك ثم نقل إلى إثرها وهي النقوش الماثلة على الدراهم والدنانير ثم نقل إلى القيام علي ذلك والنظر في استيفاء حاجاته وشروطه وهي الوظيفة فصار علماً عليها في عرف الدول »[٢] .

وتعتبر السكة وسيلة هامة من وسائل التعامل التجاري في البيع والشراء ترجع أهميتها إلى أنها كانت توضح مدى التقدم والازدهار الاقتصادي والحضاري للدولة ،وكانت هذه العملة عبارة عن الدينار وهو الاسم الذي كان يطلق علي النقود الذهبية ، كما كان اسم الدرهم يطلق على النقود الفضية[٣] .

ولقد ظلت مصر منذ الفتح الإسلامي تستخدم سكة الخلافة ، إلى أن قام أحمد بن طولون بضرب دنانير سميت بالدينار الاحمدي[٤] .

فلما فتح جوهر الصقلي مصر عمل على إصدار عملة جديدة تحمل اسم الفاطميين فأمر بضرب الدينار المعزي[٥] وكثر ضرب الدينار المعزي لكن المصريين استمروا يتعاملون بالدينار الراضي فلما قدم الخليفة الفاطمي المعز إلى مصر عهد إلى يقعوب بن كلّس وعسلوج بن الحسن بالإشراف على الخراج فامتنعا أن يأخذا إلا ديناراً معزياً فاتضع الدينار الراضي وانحط ونقص من صرفه أكثر من ربع دينار[٦] وبذلك حملت الحكومة الفاطميين المصريين على التعامل

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ٣٢٢.

(٢) المصدر السابق.

(٣) عبد المرضى محمد عطوة: العلاقات بين المغرب والأندلس ص ٢٧٨.

(٤) المقريزى : الخطط ج١ ص ٤٢.

(٥) المقريزى : شذور العقود فى ذكر النقود ص ١٣٩.

(٦) المصدر السابق ص ١٤١.

بنقودها[١] وبالإضافة إلى الدينار المعزي فقد وجد في مصر الدينار المغربي الذي أتى به الفاطميون معهم من المغرب ، ولم يقف الأمر عند ذلك ؛ بل أصدر الفاطميون في عهد الخليفة الحاكم أمراً بضرب الدراهم الفضية واتخاذها وحدة للتعامل ، وبذلك أصبحت مصر تسير على نظام المعدنين bimetallic System وأصبحت النقود الفضية عملة قانونية[٢] وتقرر أمر الدراهم على ثمانية عشر درهماً بدينار[٣] ولعل ضرب هذه الدراهم أريد به تيسير التعامل في السلع القليلة الثمن[٤] .

فلما زالت الدولة الفاطمية وتولى الأيوبيون حكم البلاد ضرب صلاح الدين السكة باسم الخليفة العباسي المستضيء بأمر الله ، وباسم نور الدين محمود[٥] .

ولما توفي نور الدين محمود واستقرت الأمور لصلاح الدين الأيوبي أمر في سنة ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م بأن تبطل نقود مصر وضرب الدينار ذهباً مصرياً ، وضرب الدراهم الناصرية ، وجعلها من فضة مخلوطة بالنحاس على التساوي[٦] .

فلما تولى الملك الكامل الحكم أمر بإلغاء الدرهم الناصري ، وفي سنة ٦٢٢هـ / ١١٢٥م أمر بضرب دراهم مستديرة سميت باسمه ، وجعل الدرهم الكاملي ثلثاه فضة خالصة والثلث نحاس[٧] واستمرت هذه الدراهم مدة ملوك بني أيوب[٨] .

أما في الحجاز فقد كان التعامل في عصر الفاطميين يعتمد على دينار الذهب ودرهم الفضة ، ويبدو أنه كانت بمكة دار لضرب النقود إذ يذكر ابن المجاور : « أن نقد البلد ذهب

---

(١) جمال سرور: الدولة الفاطمية ص ١٦٠.

(٢) راشد البراوى : حالة مصر الاقتصادية ص ٣٠٤.

(٣) المقريزى : شذور العقود ص ١٤٢.

(٤) جمال سرور : الدولة الفاطمية فى مصر ص ١٦٠.

(٥) المقريزى: شذور العقود ص ١٤٣.

(٦) المصدر السابق ص ١٤٤ - ١٤٥.

(٧) العمرى : مسالك الأبصار ص ٨٠.

(٨) المقريزى: شذور العقود ص ١٤٦.

مصري ، وبها يضرب على عيار الدينار المصري »[١] .

كما شاع التعامل بالدينار المغربي[٢] الذي أحضره الفاطميون معهم من المغرب وتعاملوا به في مصر .

وفي عهد أبي الفتوح الحسن بن جعفر الحسني ضربت السكة باسم الحاكم بأمر اللـه[٣].

وفي عهد الأيوبيين تولى سيف الإسلام طغتكين إصلاح الأمور في مكة وفي سنة ٥٨١هـ/ ١١٨٥م ضرب الدراهم والدنانير فيها باسم أخيه السلطان صلاح الدين الأيوبي[٤] .

ولقد شاع في مكة نوعان من الدراهم هما الدراهم النقرة أوالكاملية وتنسب إلى الملك الكامل[٥] وقد ضربها في مصر سنة ٦٢٢هـ[٦] والدراهم الثانية تسمى بالدراهم المسعودية وتنسب إلى الملك المسعود بن الملك الكامل[٧] وهي دراهم مربعة الشكل من الفضة الخالصة ، ويساوي الدرهم فيها في المعاملة ثلثي الدرهم الكاملي[٨] .

ويذكر القلقشندي أن المعاملات في المدينة المنورة هي نفسها ما كان يتم به التعامل في الديار المصرية ومكة[٩] .

---

(١) ابن المجاور : تاريخ المستبصر ص ١٢.

(٢) الفاسى: العقد الثمين ج١ ص ٢٠٩.

(٣) المقريزى : كتاب المقفى الكبير ص ٤٣٢.

(٤) الفاسى : شفاء الغرام ج٢ ص ١٩٨ ، ابن فهد: اتحاف الورى ج٢ ص ٥٥٣.

(٥) القلقشندى· صبح الأعشى ج٤ ص ٢٧٥.

(٦) العمرى: مسالك الأبصار ص ٨٠.

(٧) المقريزى : الذهب المسبوك ص ٧٩، ابن المجاور: تاريخ المستبصر ص ١٢.

(٨) القلقشندى : صبح الأعشى ج٤ ص ٢٧٦.

(٩) المصدر السابق ص ٣٠٢.

ثانياً : الصكوك :

لما كانت المعاملات الضخمة تستدعي وسائل للدفع مأمونة من الضياع خفيفة الحمل بعيدة عن متناول اللصوص[١] ظهرت الحاجة إلى استعمال الصك ، وقد استخدمه التجار في مصر والحجاز ، وأقطار أخرى من العالم الإسلامي .

ويعرف الخوارزمي الصك بأنه يجمع فيه أسماء المستحقين وعدتهم ومبلغ ما لهم ويوقع السلطان في آخره بإطلاق الرزق لهم[٢] وقد تطور حتى صار من وسائل التعامل التجاري ، إذ يعتبر في الأصل سند الدين[٣] وهو أشبه بالشيك في الوقت الحاضر[٤] .

ويخبرنا ناصر خسرو أنه استعمل الصك في تعاملاته أثناء وجوده في مصر قيروي أنه لما خرج من أسوان متجهاً من عيذاب أخذ خطاباً من صديق له كتب إلى وكيله في عيذاب بأن يعطي ناصراً كل ما يريد ، ويأخذ منه صكاً قبل سفره إلى الحجاز[٥] .

ويرى آدم متز أن التعامل بالصك هو أرقى ما وصل إليه التعامل المالي بين التجار المسلمين[٦] .

ثالثاً : الموازين :

كانت الموازين المستخدمة في مصر هي : القنطار – الرطل – الأوقية – الدرهم – المن – وكان القنطار المتعارف عليه مائة رطل ، والرطل المصري يقدر بأثنتى عشرة أوقية ، والأوقية تقدر باثنى عشر درهماً ، لذا يقدر الرطل المصري بمائة وأربعة وأربعين درهما ، ويقدر المن بمائتين وستين درهماً[٧] .

---

(١) آدم متز: تاريخ الحضارة الإسلامية ج٢ ص ٢٧٨.

(٢) الخوارزمى : مفاتيح العلوم ص ٨٣.

(٣) آدم متز: تاريخ الحضارة الإسلامية ج٢ ص ٢٧٩.

(٤) حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام ج٤ ص ٤١٨.

(٥) ناصر خسرو : سفر نامة ص ١١٩ – ١٢٠.

(٦) آدم متز: تاريخ الحضارة الإسلامية ج٢ ص ٢٨٠.

(٧) الشيزرى : نهاية الرتبة فى طلب الحسبة ص ١٥-١٦، العمرى : مسالك الأبصار ص ٨١.

ولقد اختلف وزن الرطل في جميع مدن مصر ، فكان لكل مدينة ومنطقة رطلها الخاص بها ومن النادر أن تجد مدينة يوافق وزن رطلها مدينة أخرى[١] .

أما بلاد الحجاز فوحدة الوزن عندهم هي المن المعروف في جميع بلاد العالم الإسلامي ويسمونه رطلاً[٢] .

ويختلف المؤرخون في وزن الرطل عند الحجازيين فيذكر المقريزي أن وزن الرطل يصل إلى مائتي درهم[٣] ويذكر ابن المجاور أن الرطل يصل إلى مائة وثلاثين درهماً وهو ستة أواقٍ ، وكل أوقية واحد وعشرون درهماً وثلث[٤] .

ويرى ابن الأخوة أن الرطل الحجازي يزن مائة وعشرين درهماً[٥] ، بينما يذكر القلقشندي أن المن (الرطل) يساوي مائتين وستين درهماً ، وأواقيه عشرة وكل أوقية عشرة دراهم[٦].

ويظهر أن اختلاف المؤرخين في تحديد وزن الرطل الحجازي ناشئ عن اختلاف وزنه في المدن الحجازية كما كان يحدث في المدن المصرية .

رابعاً : المكاييل :

كانت المكاييل المستخدمة في مصر هي :

الأردب – الويبة – القدح – ويعتبر الأردب أكبر وحدة للمكيال بمصر ويساوى ست ويبات[٧] وتليه الويبة وتساوي ستة عشر قدحاً[٨] ، والقدح وتقديره بالوزن من الحب مائتان واثنان وثلاثون درهماً[٩] .

---

(١) انظر ابن الأخوة: معالم القربة ص ١٣٩ – ١٤٠.
(٢) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ٩٩.
(٣) المصدر السابق .
(٤) ابن المجاور . تاريخ المستبصر ص ١٢.
(٥) ابن الأخوة : معالم القربة ص ١٣٨.
(٦) القلقشندى : صبح الأعشى ج٤ ص ٢٧٥، ٣٠٢.
(٧) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ٢٠٤.
(٨) القلقشندى : صبح الأعشى ج٣ ص ٤٤١.
(٩) العمرى : مسالك الأبصار ص ٨١.

أما المكاييل في الحجاز فكانت الصاع – المد[١] ويساوي الصاع أربعة أمداد ، وكل مد يساوي رطلاً ، ويباع بالصاع والمد الحنطة وسائر الحبوب[٢] .

ونظراً لاعتماد الحجاز على ما تنتجه مصر من الغلال والحبوب فإن الأردب المصري يساوي أربعة وعشرين صاعاً حجازياً ، والويبة تساوي أربعة وعشرين مداً[٣] .

خامساً : المكوس :

المكوس هي عبارة عن الرسوم التي فرضها الفاطميون[٤] على كل عمليات البيع والشراء حيث كانت تحصل على السلع الصادرة والواردة مهما كان نوعها ، فقد فرضت الرسوم على البضائع التي يجلبها التجارُ الكارمية في البحر الأحمر من جهة الحجاز واليمن وما والاهما ويجري تحصيلها في أربع جهات : عيذاب وكانت تعج بالنشاط لكثرة السفن العابرة من جدة إليها ، ومن عيذاب يتم نقل البضائع إلى قوص ، ومن قوص تحمل البضائع عن طريق النيل إلى فندق الكارم بالفسطاط[٥] .

أما الجهة الثانية فهي القصير وترد إليها بعض السفن لقربها من قوص وبعد عيذاب منها ، ويجري حمل البضائع إلى قوص ، ثم إلى فندق الكارم بالفسطاط إلا أن القصير لم تكن في نشاط عيذاب، ويضاف إلى هذين الموضعين الطور والسويس غير أنهما لم ينالا الأهمية المطلوبة في زمن الأيوبيين بسبب تعرضهما لأخطار الصليبيين[٦] .

وقد اختلفت قيمة الرسوم فكان يؤخذ من تجار الروم الواردين على الثغر الخمس ومن أجناس الروم من يؤخذ منهم العشر ، ولم تكن هناك نسبة ثابتة فأحياناً تصل إلى ٣٥٪ من

(١) ابن المجاور : تاريخ المستبصر ص ١٢.

(٢) المصدر السابق.

(٣)على بن الحسين: النشاط التجارى ص ٢٦٧.

(٤) المقريزى : الخطط ج١ ص ١٠٤.

(٥) السيد العرينى : مصر فى عصر الأيوبيين ص ١٩٤.

(٦) المرجع السابق.

قيمة البضائع ، وقد تهبط إلى ٢٠٪[١]، وكانت الرسوم المفروضة على تجار المسلمين أقل بطبيعة الحال من التي يدفعها التجار المسيحيون وكانت حاجة الحكومة إلى الأموال سبباً فى رفع المكوس، وخاصة خلال الشدائد والأزمات، كما أنها قد تزاد على سلع الترف[٢].

وحين زالت الدولة الفاطمية واستقر الأمر لصلاح الدين أمر بإلغاء هذه المكوس برغم ما كان يتحصل منها كل سنة من الأموال، وأبقى الضرائب على التجار الأجانب وتنقسم إلى نوعين ضريبة الصادر، وضريبة الوارد ، ويتولى الديوان تحصيل هاتين الضريبتين فتؤخذ ضريبة الوارد على البضائع التى تباع فعلاً، أما التى لم تجد لها سوقاً فى البلاد، فلا يدفع عنها أربابها ضريبة وارد، أما ضريبة الصادر فيجرى تحصيلها عن جميع السلع التى يشتريها التجار الأجانب من مصر، وعن الأموال التى تخرج من البلاد[٣].

أما من ناحية المكوس فى بلاد الحجاز فيصفها المقدسى بقوله: «والضرائب والمكوس يؤخذ بجدة عن كل حمل حنطة نصف دينار، وكيل من فرد الزاملة، وعلى سقط ثياب الشطوىّ ثلاث دنانير، ومن سفط الديبقى ديناران، وحمل الصوف دينار، وعلى سُلة الزعفران دينـــار»[٤].

ويبدو أن هذه الرسوم كانت ضمن رسوم أخرى كانت تفرض على بقية السلع الأخرى الواردة إلى الحجاز ، إذ يذكر الإدريسى أن الموظفين المكلفين من قبل والى جدة كانوا يفحصون البضائع الموجودة فى الثغر ثم يقررون المكوس اللازمة عليها ويأخذونها من أصحابها[٥] ولأن جدة كانت تتبع أمير مكة فقد كانت تلك المكوس والعشور جميعاً تحصل تحت إشرافه.

وكان هناك نوع من المكوس يفرض على الحجاج القادمين إلى الحجاز بطريق عيذاب[٦]

(١) راشد البراوى : حالة مصر الاقتصادية ص ٢٦٨.

(٢) المرجع السابق .

(٣) السيد العرينى : مصر فى عصر الأيوبيين ص ٢٠٧ - ٢٠٨.

(٤) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ١٠٤.

(٥) الادريسى : نزهة المشتاق ج١ ص ١٣٥.

(٦) الجزيرى: درر الفرائد ج١ ص ٥٧٢.

مقداره سبعة دنانير ونصف من الدنانير المصرية[١] وكانت تلك المكوس تؤدى أحياناً فى عيذاب أو فى جدة[٢] .

ويذكر ابن جبير أن هذا المكس قرر فى عهد الفاطميين وكان الحجاج يلاقون عنتاً شديداً حتى يؤدوا هذا المكس، ومن يعجز عن أدائه يتعرض لأنواع شديدة من القهر والتعذيب فى مدينة عيذاب[٣] .

وكان بجدة أمثال هذا التنكيل وأضعافه لمن لم يؤد مكسه بعيذاب، ووصل اسمه غير معلم عليه علامة الأداء[٤] ، بل قد يحبس ويمنع من تأدية الفريضة[٥] .

وكانت هذه المكوس تعود إلى صاحب مكة لأن جباياته لاتكفى ولا تفى بلوازمه وأرزاق من معه من الجند[٦] وكان لأمير المدينة أيضاً جزء من هذه المكوس[٧] .

ويروى المؤرخون حادثة تبين سبب إلغاء هذه المكوس فيذكرون أن الشيخ أبا عبد الله علوان بن علوان الأسدى الحلبى، وكان على صلة بصلاح الدين قرر الحج سنة ٥٧٢هـ/١١٧٦م فلما طلب منه دفع المكس، رفض وهم بالعودة دون أن يؤدى فريضة الحج فطلب منه الأشراف أن يتروى وينتظر حتى يخبروا أمير مكة، فأمر الأمير باطلاق سراحه واعفائه من المكس وأرسل فى طلبه، وأخذ يشكو إليه الضيق الذى يعانون منه مما اضطره إلى فرض هذه المكوس على الحجاج ، فأرسل الشيخ إلى صلاح الدين يخبره فأمر صلاح الدين بإلغاء هذه المكوس[٨] .

---

(١) ابن جبير: الرحلة ص ٣٠.

(٢) عمر بن فهد: اتحاف الورى ج٢ ص ٥٣٩.

(٣) ابن جبير : الرحلة ص ٣٠-٣١.

(٤) الفاسى : العقد الثمين ج٧ ص ٢٧٧.

(٥) الصباع: تحصيل المرام لوحة (٢٣٤).

(٦) الحميرى : الروض المعطار ص ٤٢٤.

(٧) الفاسى: العقد الثمين ج٧ ص ٢٧٧.

(٨) عمر بن فهد: اتحاف الورى ج٢ ص ٥٤٠، الجزيرى : درر الفرائد ج١ ص ٥٧٢، الصباغ: تحصيل المرام لوحة (٢٣٤) .

وبرغم هذه الرواية فإننا نرى أن سبب رفع المكوس هو سياسة صلاح الدين الرشيدة فى إلغاء كل ما فرضه الفاطميون من ضرائب جائرة وغير شرعية لذا فإنه أبطل هذا المكس وعوض أمير مكة عنه ألفى دينار وألفى أردب قمح سوى اقطاعات بصعيد مصر واليمن[١] يبلغ مجموع انتاجها ثمانية آلاف أردب قمح تحمل إلى ساحل جدة كل عام[٢] وقرر أيضاً إرسال الغلال إلى المجاورين والفقراء بمكة والمدينة[٣] .

وكانت هذه الأموال والغلال تتأخر فى بعض الأحيان نظراً لظروف مصر السياسية مما حعل أمير مكة يعود إلى ترويع الحجاج وطلب المكس منهم، فلما علم صلاح الدين بذلك كتب إليه ينهاه عن ظلمه للحجاج ويهدده ويتوعده إن لم يرفع الظلم عنهم[٤] فلما وصل كتاب صلاح الدين أمر أمير مكة بدخول الحجاج إلى بيت الله الحرام على أن يضمن بعضهم بعضاً إلى أن يأتيه الرسم المقرر من قبل صلاح الدين[٥] .

د- الصادرات والواردات :

لم يجهل العرب ثروة مصر فقد جاءها كثير منهم للاتجار فى أيام الجاهلية ولابد أن كثيراً من الأعراب والتجار العرب كانوا يفدون إلى الصعيد بطريق البحر الأحمر، ووديان الصحراء الشرقية[٦] .

وقد كان من الطبيعى أن تكون لبلاد الحجاز علاقات تجارية مع مصر أقرب الجارات إليها فلو لم يكن البحر الأحمر لكانت بلاد الحجاز ومصر رقعة واحدة من الأرض[٧] .

---

(١) المقريزى : السلوك ج١ ق١ ص ٦٤، الفاسى : العقد الثمين ج١ ص ١٨٩، ج٧ ص ٢٧٧، الجزيرى : درر الفرائد ج١ ص ٥٧٢.

(٢) الصباغ. تحصيل المرام لوحة ٢٣٤.

(٣) الأصفهانى : سنا البرق ص ١٥٤.

(٤) الفاسى : العقد الثمين ح٧ ص ٢٧٨.

(٥) ابن حبير: الرحلة ص ٥٤.

(٦) سيدة كاشف: مصر فى فجر الإسلام ص ٩.

(٧) على بن الحسين: النشاط التجارى ص ٢٠٤.

ومما لاشك فيه أن العلاقات السياسية الطيبة بين مصر والحجاز لعبت دوراً كبيراً فى تنشيط الحركة التجارة الخارجية بينهما فقد عمل الحكام على توفير سبل الأمن والحماية للتجار حتى يستطيعوا ممارسة أعمالهم في أمن واطمئنان .

ويخبرنا القلقشندى «أنه كان للفاطميين أسطول بعيذاب يتلقى الكارم فيما بين عيذاب وسواكن وما حولها خوفاً على مراكب الكارم من قوم كانوا بجزائر بحر القلزم هناك، يعترضون المراكب فيحميهم الأسطول منهم»(١) .

ولقد قام الأيوبيون بمثل ما قام به الفاطميون من العمل على صد خطر القراصنة فى مياه البحر الأحمر فرصدوا سفناً من أسطولهم خصيصاً لهذه الغاية(٢) .

تنوعت صادرات مصر إلى بلاد الحجاز، وبالعكس، واستقبلت المراسى - هنا وهناك - كثيراً من السفن التجارية المليئة بالبضائع، فقد كانت مصر تصدر إلى جدة أنواعاً من المواد الغذائية والحبوب والمصنوعات الجلدية والمنسوجات(٣) .

أما الثغر الحجازى بينبع فكانت ترد عليه المراكب بالغلال من سواحل الطور وعيذاب وقد انتقلت إلى ذلك الميناء بعض الأسر المصرية من صعيد مصر بغرض التجارة وهو ما حدث فى جدة أيضاً حين قامت بها تجارة الحبوب على يد نفر من تجار مصر(٤) وساهمت مصر فى جلب السلع الأوربية إلى بلاد الحجاز والتى كانت يحملها التجار القادمون من مقاطعة «بروفانس» بفرنسا ويسمون عند المسلمين «تجار البحر» تحملهم السفن حتى مدينة الفرما، ثم يستخدمون الدواب فى قوافل تجارية لنقل متاجرهم إلى القلزم ويحملون معهم من الصين المسك والعود والكافور والدارصينى (القرفة)(٥) كما كانوا يجلبون معهم من سلع الغرب الديباج والخز الفائق والجلود والفراء.

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج٣ ص ٥٢٠.

(٢) عطية القوصى : تجارة مصر فى البحر الأحمر ص ١٧٦.

(٣) عبد الفتاح وهبة. دراسات فى جغرافية مصر التاريخية ص ١٠٠.

(٤) على بن الحسين: النشاط التجارى ص ١٠٨.

(٥) آدم متز: تاريخ الحضارة الإسلامية ج٢ ص ٢٧٣.

وقد تركت مصر لهؤلاء التجار الحرية فى أن يجلبوا هذه السلع من الغرب ويمرون بها داخل البلاد من الفرما[١] إلى القلزم[٢] ثم يعبرون البحر الأحمر فيقصدون الجار أو جدة، ولابد أن هذين الثغرين استفادا كثيراً من قدوم أولئك التجار بما يجلبون من سلع أوربية[٣] .

ولعل أهم العوامل التى جعلت مكة تقوم على تجارة عريضة موقعها على مسافة أربعين ميلاً من حدة، إذ كانت المراكب القادمة من مصر ما تكاد تنتهى إلى جدة حتى تسير منها المتاجر إلى مكة فتنشط الحركة التجارية بها[٤] ومن عيذاب المصرية كانت جمال البجة الشهيرة المسماة بالنجيبة تصدر إلى الحجاز فتنتقل بواسطة السفن إلى جدة، ومنها إلى مكة المكرمة[٥] .

ويذكر المقدسى أن الحجاز يأخذ من مصر الدقيق والكعك[٦] كما كانت الخيول ترد إلى أمير مكة من مصر[٧] .

ولقد كانت قافلة الحاج المصرية تقوم بدور كبير فى النشاط التجارى إذ كان التجار والحجاج يسيرون ومعهم بضائعهم إلى الحجاز، ويعودون ببضائع الشرق النفيسة[٨] .

---

(١) الفرما . أول مدن مصر من جهة الشمال، وكانت أقرب إلى البحر الأبيض المتوسط ، وموضعها الآن تل يعرف فى خرط مصلحة المساحة المصرية باسم تل الفرامة ويقع جنوب شرق مدينة بور سعيد الحالية، وشمال مدينة السويس على مسافة نحو ثلاثة وثلاثين كيلو متراً (الحميرى : الروض المعطار ص ٤٣٩، أحمد خيرى . السويس ليست الفرما مقال بمجلة المجمع العلمى العراقى ص ٣٥٦)

(٢) القلزم · مدينة من أعمال مصر وإليها ينسب بحر القلزم وهو الذى يعرف اليوم بالبحر الأحمر، وقد خربت هذه المدينة، وبنى موضعها مدينة السويس ولايزال تل القلزم موجوداً فى شمال مدينة السويس حيث كانت المدينة القديمة (المقريزي : الخطط ج١ ص ٢١٣ ،أحمد خيرى : السويس ليست الفرما - مقال بمجلة المجمع العلمى العراقى ص ٣٥٦-٣٥٧- المجلد ١٥، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م).

(٣) على بن الحسين: النشاط التجارى ص ٢٠٩.

(٤) المرجع السابق ص ٨٧.

(٥) ناصر خسرو: سفر نامة ص ١١٩.

(٦) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ١٩٥.

(٧) ناصر خسرو : سفرنامه ص ١١٢.

(٨) إبراهيم بن حمود المشيقح : تاريخ أم القرى ص ٣٢.

وكانت القلزم من أهم الموانئ المصرية ذات الصلة التجارية بموانئ الحجاز إذ عن طريقها يفد التجار الأوربيون من الفرما ثم يبحرون إلى جدة للتجارة والتموين ومنها يتجهون إلى عدن فى طريقهم إلى الهند[١] كما كانت قوافل الغلال الصادرة من مشتول تسافر إلى الحجاز عن هذا الطريق[٢] .

أما بلاد الحجاز فعبر ثغورها على البحر الأحمر كانت المراكب تأخذ طريقها إلى مصر واليمن[٣] فعن طريق عدن وجده كانت تنقل إلى مصر غلات الهند وشرقى آسيا بالإضافة إلى البخور من اليمن[٤] .

وكان تجار الهند واليمن والحبشة يردون فى البحر من جدة إلى عيذاب ثم يسلكون هذه الصحراء إلى قوص ومنها يردون مدينة الفسطاط فكانت هذه الصحراء لاتزال عامرة آهلة بما يصدر ويرد من قوافل التجار والحجاج حتى كانت أحمال البهار كالقرفة والفلفل ونحو ذلك توجد ملقاة بها إلى أن يأخذها أصحابها[٥] .

وكانت مواسم الحج مواسم اقتصادية مزدهرة بالنسبة للحجاج والتجار معاً ويقصد الحجاز فى تلك المواسم تجار الهند والصين بطريق جدة أو عدن فيبيعون ويشترون ثم تسير القوافل بعد انتهاء الحج إلى القلزم[٦] .

وقد استفاد الفاطميون من خبرة التجار الحجازيين وصلاتهم بعدن والهند والصين فى تأمين بعض ما يحتاجون فيخبرنا المقريزى : «أن المعز أنفذ إلى ابن السوادكى فقال: من لك بالحجاز من التجار تكاتبه، اكتب إلى من تراه منهم بأن يكتب إلى عدن بحمل ما يقدر عليه

---

(١) الزيلعى : مكة وعلاقاتها الخارجية ص ١٧٨.

(٢) راشد البراوى : حالة مصر الاقتصادية ص ٢٨٨.

(٣) على بن الحسين : النشاط التجارى ص ٨٣.

(٤) راشد البراوى : حالة مصر الاقتصادية ص ٢٣٥.

(٥) عبد القادر الجزيرى : درر الفرائد ج٢ ص ٤٠٠.

(٦) إبراهيم بن حمود المشيقح : تاريخ أم القرى ص ٣١.

من خشب الأبنوس الحسن التلميع التام الطول الغليظ مما لاغاية وراءه، فكتب إلى تاجر بمكة، وأكد عليه ، فما كان إلا نحو شهرين حتى عاد جوابه أنه وجد منه ما ليس له فى الدنيا نظير وحمله فى مركب فسر بذلك، وبكر إلى المعز فأخبره الخبر وأنه فى القلزم»[١] .

وهكذا كانت التجارة والتبادل التجارى بين مصر والحجاز وسيلة من وسائل الارتباط الوثيق بينهما .

ويتضح مما سبق مدى اعتماد الحجاز على مصر اقتصادياً لدرجة أن توقف الحج من مصر إلى الحجاز كان يسبب ركوداً وكساداً للتجارة فى الحجاز ويؤكد ذلك ابن فهد المؤرخ المكى الذى يقول فى حوادث سنة ٥٦٢هـ/١١٦٦م «فيها لم يبع التجار فى مكة شيئاً على عادتهم لأن حاج مصر لم يأتوا لانشغالهم بما حدث عندهم من القتال بين نور الدين وشيركوه وبين الفرنج والمصريين»[٢] .

---

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفا ج١ ص ٢٢٧.

(٢) عمر بن فهد : اتحاف الورى ج٢ ص ٥٢٩.

المعونات الإقتصادية المصرية للحجاز

إن الدارس لتاريخ العلاقات بين مصر والحجاز فى العصرين الفاطمى والأيوبى يجد أن مصادر الدخل المصرى لسكان الحجاز كانت متعددة الجوانب فقد كرست مصر قسطاً كبيراً من أموالها لمساعدة أهل مكة والمدينة، هذا إلى جانب ما كانت توفره قافلة الحاج المصرية سنوياً لهؤلاء السكان من مصادر رزق ثابته فى مقابل الخدمات التى يؤدونها للحجاج المصريين[١] .

وكان أمير الحاج يأخذ مبالغ سنوية من الخزانة المصرية لاعطاء الراتب السنوى لأمير مكة بالإضافة إلى أموال أخرى لسد نفقات المهام المكلف بها[٢] .

وقد خصص حكام مصر ثلاثة أبواب لتمويل دخل أمراء الحجاز هى : المعونات المالية والمعونات التجارية، والأوقاف[٣] وسنعرض لها كما يلى :

أ - المعونات المالية:[٤]

سنعرض للمعونات المالية من خلال هذا البيان :

العــــام	المبلـــــغ
٣٦٤هـ / ٩٧٤م	٤٠٠٠٠٠ درهم[٥]
٣٦٩هـ / ٩٧٩م	١٠٠٠٠٠ دينار[٦]
٣٨٢هـ / ٩٩٢م	٣٠٠٠٠٠ دينار[٧]

(١) فؤاد الماوى : الحجاز - مقال بمجلة كلية الآداب بفاس ص ١٨٠ - ١٨١.

(٢) المرجع السابق.

(٣) أحمد جلبى : أوضح الاشارات حاشية ص ٨٢٩ للمحقق .

(٤) هذه المعونات قدر قيمتها المؤرخون وهناك معونات أخرى ذكرها المؤرخون ولم يقدروا قيمتها .

(٥) هذا المبلغ قيمة صلات وفد الحجاز من الأشراف فى عهدا لمعز لدين الله (ابن ميسر : المنتقى فى أخبار مصر ص ١٦٦) .

(٦) هذا المبلغ قيمة صلات الأشراف والطيب والشمع والزيت (المقريزى : اتعاظ الحنفا ج١ ص ٢٥٢) .

(٧) هذا المبلغ قيمة صلات الأشراف وكسوة الكعبة (ابن ميسر : المنتقى فى أخبار مصر ص ١٧١) .

العـــام	المبلـــغ
٣٨٣هـ / ٩٩٣م	٣٠٠٠٠٠ دينار[١]
٤٠٢هـ / ١٠١١م	٥٠٠٠٠ دينار[٢]
٤١٥هـ / ١٠٢٤م	٢٠٠٠ دينار[٣]
٤١٧هـ / ١٠٢٦م	٤٠٠٠٠ دينار[٤]
٤٤٠هـ / ١٠٤٨م	٣٠٠٠ دينار[٥]
فى العصر الفاطمى الثانى	١٢٠٠٠٠ دينار[٦]
فى وزارة اليـــــازورى	٢٠٠٠٠٠ دينار[٧]
٥٥١هـ / ١١٥٦م	١٥٠٠٠ دينار[٨]
٥٧٢هـ / ١١٧٦م	٢٠٠٠ دينار[٩]
٦١١هـ / ١٢١٤م	٣٠٠٠ دينار[١٠]

(١) هذا المبلغ قيمة صلات الأشراف وكسرة الكعبة (المقريزى : اتعاظ الحنفا ج١ ص ٢٧٩) .

(٢) هذا المبلغ مساعدة من الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله لأمير الحجاز أبى الطيب ابن عم أبى الفتوح الحسن بن جعفر الحسنى كى يوطد سلطانه بالبلاد عقب خروج أبى الفتوح على الحاكم (ابن كثير . البداية والنهاية ج١١ ص ٣٠٩).

(٣) مساعدة من الخليفة الظاهر ومظفر الصقلبى صاحب المظلة لأشراف الحجاز حين أتوا لمصر لطلب العون المالى (المسبحى : أخبار مصر ص ١٩٩ – المقريزى : اتعاظ الحنفا ج٢ ص ١٦٤).

(٤) صدقة من الخليفة الظاهر لأهل الحجاز بعد شفائه من المرض (المقريزى : اتعاظ الحنفا ج٢ ص ١٧٥) .

(٥) الصلة الشهرية لأمير مكة (ناصر خسرو: سفر نامة ص ١١٢) .

(٦) نفقة الحاج فى العصر الفاطمى الثانى (المقريزى : اتعاظ الحنفا ج٢ ص ٣٠٣).

(٧) نفقة الحاج فى عهد الوزير الفاطمى اليازورى (المصدر السابق).

(٨) هذا المبلغ أخرجه الخليفة الفاطمى برسم إطلاق الحاج (الفاسى. العقد الثمين ج٧ ص ٣٤، عمر بن فهد: اتحاف الورى ج٢ ص ٥١٧).

(٩) حينما أبطل صلاح الدين المكوس المفروضة على الحجاج فى البحر إلى مكة عن طريق عيذاب عوض أمير مكة هذا المبلغ سنوياً بالإضافة إلى الغلال (المقريزى : السلوك ج١ ق١ ص٦٤) .

(١٠) حينما حج الملك المسعود بن الملك الكامل نثر على الناس ألف دينار، وأعطى أمير مكة ألف دينار، وقماشاً بألف دينار (عمر بن فهد: اتحاف الورى ج٣ ص ١٩).

ب - *المعونات التجارية :*

لم تقتصر المساعدات المصرية لبلاد الحجاز على المعونات المالية فحسب وإنما كانت هناك بعض المعونات التجارية وفيما يلي بيان لها :

العــــام	المعونـــــــات
٣٦٨هـ / ٩٧٨م	قمح وشعير ودقيق وزيت ومحراب من الذهب للكعبة(١)
سنوياً	قمح وشعير ودقيق وزيت وطيب وبخور(٢)
سنوياً	الدقيق والكعك من مشتول(٣)
سنوياً	الجمال النجيبة تحمل من عيذاب لأمير مكة فى السفن(٤)
مرتان فى السنة	الخيول والخلع لأمير مكة(٥)
٥١٦ هـ / ١١٢٢ م	٨٩٤٠ أردباً من الغلال(٦)
٥٥٠ هـ / ١١٥٥ م	١٠٠ أردب من القمح(٧)
٥٦٧ هـ / ١١٧١ م	جلبتان مشحونتان بالغلال(٨)
٥٧٢ هـ / ١١٧٦ م	٨٠٠٠ أردب قمح وتقرر أن يكون سنوياً(٩)
سنوياً	٢٧قنطاراًمن الزيت الحار لإضاءة قناديل المسجد النبوى(١٠)
سنوياً	١٦٠ شمعة ما بين كبيرة وصغيرة(١١)
سنوياً	١٠٠ مثقال من الند (الطيب)(١٢)
سنوياً	١٠٠٠ أردب قمح لأمير مكة(١٣)

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفا ج١ ص ٢٤٦.

(٢) المصدر السابق ص ٢٥٢.

(٣) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ١٩٥.

(٤) ناصر خسرو : سفر نامه ص ١١٩.

(٥) المصدر السابق ص ١١٢.

(٦) المقريزى : اتعاظ الحنفا ج٣ ص ٨٠.

(٧) المصدر السابق ص ٢٢٨.

(٨) الفاسى : شفاء الغرام ج٢ ص ٢٧٠.

(٩) العماد الأصفهانى : سنا البرق ص ١٥٤ ، المقريزى : السلوك ج١ ق١ ص ٦٤.

(١٠) القلقشندى: صبح الأعشى ج٤ ص ٣٠٤.

(١١) المصدر السابق .

(١٢) المصدر السابق .

(١٣) المقريزى : السلوك ج١ ق ١ ص٦٤، ابن جبير: الرحلة ص ٥٥، الفاسى : العقد الثمين ج١ ص١٨٩، ج٧ ص ٢٧٧ ، الجزيرى : درر القرائد ج١ ص ٥٧٢.

جـ - الأوقاف :

وقف الفاطميون ثم الأيوبيون الأوقاف الآتية على الحرمين :

- وقف الوزير الفاطمى طلائع بن رزيك بركة الحبش[١] ، وبلقس[٢] على أشراف الحجاز بمكة والمدينة واستمر هذا الوقف طوال العصرين الفاطمى والأيوبى .

- وقف صلاح الدين الأيوبى ناحية نقادة من عمل قوص[٣] وقبالة بالصعيد[٤] وثلث ناحية سندبيس بالقليوبية على أربعة وعشرين خادماً لخدمة الضريح الشريف[٥] وضمن ذلك كتاباً ثابتاً تاريخه ١٨ ربيع الآخر سنة ٥٦٩هـ[٦] .

- وقف صلاح الدين متحصلات مدينة بلبيس لفك أسرى المدينة المنورة الذين أسرهم الصليبيون سنة ٥٦٤هـ[٧] .

- كسوة الكعبة يذكر ابن عبد القادر الطبرى أنها تأتى من وقف بالديار المصرية ولم يذكر اسمه[٨] .

- وقف صلاح الدين على قاضى مكة عز الدين أبو المعالى الشيبانى الطبرى بلدة بمصر لم يذكر الفاسى اسم هذه البلدة[٩] .

---

(١) المقريزى : الخطط ج٢ ص ١٥٢.
(٢) المصدر السابق ص ٢٩٤.
(٣) المقريزى : السلوك ج١ ق١ ص٥٧ ، ابن دقماق: الانتصار لواسطة عقد الأمصار ج٥ ص٣٣.
(٤) ابن إياس: بدائع الزهور ج١ ق١ ص ٢٤٣.
(٥) المقريزى : السلوك ح١ ق ١ ص٥٧ ، ابن دقماق : الانتصار لواسطة عقد الأمصار ج٥ ص ٣٣.
(٦) المصدران السابقان
(٧) محمد أمين: الأوقاف والحياة الاجتماعية فى مصر ص ٦٦.
(٨) ابن عبد القادر الطبرى: الأرج المسكى لوحة (٦٧) .
(٩) الفاسى : العقد الثمين ج٧ ص ٤٣٩.

الأزمات الإقتصادية فى مصر والحجاز
وأثرها على العلاقات بين البلدين

برغم الاهتمام الذى وجهه الفاطميون ثم الأيوبيون إلى الرى والزراعة ووفرة الحبوب فى العهدين فإن البلاد قد تعرضت لكثير من الأزمات الأقتصادية التى كان بعضها نتيجة لانخفاض ماء النيل وكان معظمها يرجع إلى إهمال العناية بالترع والجسور وإقامة السدود، كما أن بعضها نشأ نتيجة لانتشار الفتن والثورات واضطراب الأمن.

وقد أثرت الأزمات الاقتصادية التى تعرضت لها مصر على بلاد الحجاز التى كانت تعتمد اعتماداً كاملاً على مصر مما أحدث بها ضيقاً اقتصادياً أدى فى بعض الأحيان إلى الخروج على السياسة المصرية وعدم الدعوة لمصر على منابر الحرمين الشريفين. وأحياناً كانت بلاد الحجاز تتعرض لأزمات اقتصادية نتيجة القحط والجفاف لعدم سقوط الأمطار فكانت مصر تسرع بإرسال الامدادات والمعونات واستضافة من يرحل إليها فراراً من هذه الأزمات وهذا ما سوف نبينه عند عرضنا لهذه الأزمات.

- فى سنة ٣٦٥هـ/ ٩٧٥م ارتفعت الأسعار بمكة ارتفاعاً شديداً لانقطاع الميرة عنها من مصر[١] نظراً لانقطاع الدعوة للفاطميين من على منابر الحجاز والدعوة للخليفة العباسى مما جعل الخليفة الفاطمى العزيز يقطع المعونات التى كان يرسلها لهم فاشتدت الأحوال فى الحجاز فعادوا يخطبون للعزيز على منابرهم مرة أخرى فأعاد المعونات لهم فانخفضت الأسعار[٢].

- فى سنة ٤٣٩هـ / ١٠٤٧م كان بمكة قحط شديد وارتفعت الأسعار فكانت الأربعة أمنان من الخبز بدينار وهاجر كثير من المجاورين، وخرج من الحجاز خلق كثير ممن أصابهم الجوع والفقر وتفرقوا فى البلاد[٣] ورحل إلى مصر خمسة وثلاثون ألف شخص استقبلتهم مصر

---

(١) عمر بن فهد: اتحاف الورى ج٢ ص ٤١٣.

(٢) ابن الأثير : الكامل ج٧ ص ٣٦٢، المقريزى : اتعاظ الحنفا ج١ ص٢٣٨، العصامى : سمط النجوم ج٤ ص ١٩٥، دحلان: خلاصة الكلام ص ١٦، عمر بن فهد: اتحاف الورى ج٢ ص ٤١٤.

(٣) ناصر خسرو: سفر نامه ص ١١١.

وكساهم الخليفة الفاطمى وأجرى عليهم الرزق سنة كاملة، ولما أمطرت السماء فى بلادهم، وكثر فيها الطعام كساهم السلطان وأغدق عليهم الصلات ثم أعادهم إلى بلادهم[١] .

- وفى سنة ٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م وقع بمصر غلاء نتيجة لنقص النيل وعدم وجود شيء من الغلال فى المخازن السلطانية واشتد الأمر على الناس[٢] ، ولم يحمل الطعام من مصر إلى مكة وانقطعت المعونات فوقع الغلاء بها نتيجة لذلك فبلغ الخبز عشرة أرطال بدينار مغربى وتعذر وجوده فأشرف الناس والحجاج على الهلاك فأرسل الله تعالى عليهم الجراد ما ملأ الأرض فتقوت الناس به[٣] .

- وفى سنة ٤٥٧هـ/ ١٠٦٤م وقع بمصر الغلاء الشديد الذى استمر لمدة سبع سنين[٤] وقد سميت هذه النكبة بالشدة العظمى[٥] ونتيجة لهذه الشدة انقطعت الإمدادات والمعونات التى كانت ترسل من مصر إلى الحجاز فارتفعت الأسعار بها، وضاقت يد شريف مكة فأخذ الذهب من على أستار الكعبة والميزاب والباب وضربه دراهم ودنانير وفعل مثله صاحب المدينة بالقناديل التى فى الحجرة النبوية الشريفة[٦] وترتب على ذلك أن قطعت خطبة الفاطميين من بلاد الحجاز سنة ٤٦٢هـ/ ١٠٦٩م وأعيدت الخطبة للعباسيين بعد انقطاعها نحو مائة سنة[٧] .

- وفى سنة ٥١٤هـ/ ١١٢٠م قطع الأفضل بن بدر الجمالى المعونات عن الحجاز نتيجة لاعتداء بعض جنود أمير مكة على التجار المصريين بثغر عيذاب[٨] فارتفعت الأسعار بالحجاز

(١) ناصر خسرو : سفرنامة ص ١١٢.
(٢) المقريزى · إغاثة الأمة ص ٢٠.
(٣) ابن الأثير : الكامل ج٨ ص ٣٢٥، الفاسى : شفاء الغرام ج٢ ص ٢٧٠، العقد الثمين ج١ ص٢٠٩، عمر بن فهد: اتحاف الورى ج٢ ص٤٦٤، الجزيرى: درر الفرائد ج١ ص٥٤٧.
(٤) المقريزى : إغاثة الأمة ص ٢٤-٢٦.
(٥) المصدر السابق حاشية ص ٢٧.
(٦) العصامى : سمط النجوم العوالى ج٣ ص ٤٣٢.
(٧) المقريزى : اتعاظ الحنفا ج٢ ص ٣٠٣، عمر بن فهد: اتحاف الورى ج٢ ص ٤٧٢.
(٨) الفاسى: العقد الثمين ج٧ ص ٢٩، الجزيرى : درر الفرائد ج١ ص ٥٥٨.

ارتفاعاً شديداً[١] حتى تم التصالح وأعيدت العلاقات بين البلدين فانخفضت الأسعار.

- وفى سنة ٥٦٢هـ/ ١١٦٦م حدث كساد وركود وتوقفت الحركة التجارية بمكة لانقطاع الحج المصرى فى هذا العام[٢] .

- وفى سنة ٥٦٧هـ/ ١١٧١م وقع غلاء بمكة حيث بلغ الحب خمسة أمداد بدينار[٣] وانخفضت الأسعار فور وصول الإعانات من مصر والتى تمثلت فى جلبتين مشحونتين بالحبوب[٤] .

- وفى سنة ٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م توقف النيل فى مصر عن الزيادة، وانتهى إلى اثنتى عشرة ذراعاً واصبعاً، ثم هبط، ولم يزد بعد ذلك شيئاً فاضطربت الأحوال بمصر[٥] وأقحطت البلاد وارتفعت الأسعار بها[٦] واستمر النيل على ذلك لمدة ثلاث سنين متوالية[٧] وترتب على وقوع الغلاء بمصر اشتداد الأحوال ببلاد الحجاز ووقوع الغلاء بها أيضاً لمدة سنتين[٨] .

ونستنتج مما سبق أن الحجاز كانت يعتمد اعتماداً كاملاً فى الناحية الاقتصادية على مصر وأن الأزمات الاقتصادية فى مصر كان أثرها يظهر واضحاً وجلياً فى الحجاز فيشتد الكرب والضيق بالناس هناك.

* * *

(١) عمر بن فهد: اتحاف الورى ج٢ ص ٤٩٧.
(٢) المصدر السابق ص ٥٢٩.
(٣) الفاسى: شفاء الغرام ح٢ ص ٢٧٠.
(٤) عمر بن فهد: اتحاف الورى ج٢ ص ٥٣٣، الجزيرى : درر الفرائد ح١ ص ٥٦٩.
(٥) ابن إياس : بدائع الزهور ج١ ق١ ص ٢٥٤.
(٦) البغدادى : الإفادة والاعتبار ص ٨٥.
(٧) ابن إياس : بدائع الزهور ج١ ق ١ ص ٢٥٤.
(٨) الفاسى : شفاء الغرام ج٢ ص ٢٧١.

الفصل الثالث

الناحية الفكرية والثقافية

الفصل الثالث

الناحية الفكرية والثقافية

مدخل :

في هذا الفصل نتحدث عن العلاقات الفكرية بين البلدين ومدى قوة هذه العلاقات وتأثيرها عليهما من خلال دراسة المذاهب الفقهية في كل منهما ومدى التشابه والاختلاف ثم ندرس العلماء وانتقالهم بين البلدين للتحصيل العلمي والتدريس ، وما قامت به مصر من إنشاء بعض المدارس والأربطة بالحجاز لنبين مدى التأثير والتأثر في الناحية الفكرية .

* * *

المذاهب الفقهية فى مصر والحجاز

نشأة المذاهب الفقهية :

يعرف ابن خلدون الفقه بأنه «معرفة أحكام الله تعالى فى أفعال المكلفين بالوجوب والحذر والندب والكراهة، والإباحة، وهى متلقاة من الكتاب والسنة وما نصبه الشارع لمعرفتها من الأدلة، فإذا استخرجت الأحكام من تلك الأدلة قيل لها فقه»(١) .

على أن اختلاف أئمة الفقه فى فهم بعض النصوص الفقهية واستنباط الأحكام منها قد أدى إلى تعدد المذاهب، واشتهر من هذه المذاهب أربعة هى :

مذهب مالك بن أنس إمام أهل الحجاز وزعيم الفقهاء الذين يأخذون بطريقة أهل الحديث.

ومذهب أبى حنيفة إمام أهل العراق، وزعيم الفقهاء الذين يأخذون بطريقة الرأى والقياس.

ومذهب الشافعى وكان يسير أولاً على طريقة أهل الحجاز ثم جعل مذهبه وسطاً بين الطريقتين.

ومذهب أحمد بن حنبل، وسمى بالمذهب الحنبلى وكان يبعد عن الاجتهاد مما أدى إلى قلة عدد أنصاره(٢) .

ومن ثم ظهرت فى ميدان الفقه مدرستان : مدرسة أهل الحديث فى المدينة وعلى رأسها الإمام مالك بن أنس الذى كان يأخذ بمبدأ التوسع فى النقل عن السنة، ومدرسة أهل الرأى فى العراق وعلى رأسها الإمام أبو حنيفة النعمان الذى كان يدين بالرأى(٣) .

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ٥٦٣.

(٢) حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام ج٢ ص ٣٣١.

(٣) المرجع السابق.

وقد ولد الإمام مالك بالمدينة سنة ٩٣هـ / ٧١١م، والمدينة المنورة كانت مركز الخلافة منذ بداية الإسلام، وبعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم فهى منشأ الأخيار من الأمة، وأفق شمس المعارف الدينية، منها انتشر النور فى المعمورة، وأهلها يروون السنة عن آبائهم وأجدادهم، خلفاً عن سلف، وجيلاً بعد جيل، وكانوا متوافرين فيها إلى عصر مالك، فورث مالك علم هؤلاء العلماء، ونشأ مجداً فى التحصيل والرواية[١] .

وروى عن نافع مولى عبد الله بن عمر، وابن شهاب الزهرى وأبى الزناد، وعبد الرحمن بن القاسم، وأيوب السختيانى، ويحيى بن سعيد الأنصارى وعائشة بنت سعد بن أبى وقاص وغيرهم وقد توفى الإمام مالك سنة ١٧٩هـ - ٧٩٥م بالمدينة المنورة ودفن بالبقيع[٢] .

وكان مالك أول من كتب فى العلوم الدينية فى العصر العباسى، ويعتبر كتابه «الموطأ» أول كتاب ظهر فى الفقه الإسلامى، ومن كتبه «المدونة» وهى مجموعة رسائل من فقه مالك، جمعها تلميذه أسد بن الفرات النيسابورى، وتشتمل على نحو ست وثلاثين ألف مسألة وكان مالك يعتمد على الحديث كثيراً لأن بيئته الحجازية كانت تزخر بالعلماء والمحدثين الذين تلقوا الحديث عن الصحابة - رضوان الله عليهم - وورثوا من السنة ما لم يتح لغيرهم من أهل الأمصار الإسلامية الأخرى[٣] .

ومن تلاميذ مالك بمصر ابن القاسم، وأشهب، وابن عبد الحكم، والحارث بن مسكين[٤] واستمرت الطريقة المالكية فى مصر من لدن الحارث بن مسكين، وابن المبشر، وابن اللهيث وابن الرشيق، وابن شاس، وكانت بالاسكندرية فى بنى عوف وبنى سند وابن عطاء الله[٥] .

أما أبو حنيفة النعمان بن ثابت فقد ولد بالكوفة سنة ٨٠هـ/ ٦٩٩ م[٦] وتوفى سنة

---

(١) مالك بن أنس : الموطأ برواية الشيبانى ص ١٠.

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج٤ ص ١٣٥ - ١٣٨.

(٣) حسن إبراهيم. تاريخ الإسلام ج٢ ص ٣٣٢-٣٣٣.

(٤) ابن خلدون : المقدمة ص ٥٦٨-٥٦٩.

(٥) المصدر السابق ص ٥٧٠.

(٦) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج٥ ص ٤١٣.

١٥٠هـ/٧٦٧م ببغداد[١] وقد روى أنه رأى أنس بن مالك - رضى الله عنه - وأخذ الفقه عن حماد بن أبى سليمان، وسمع عطاء بن أبى رباح وأبا إسحاق السبيعى،ومحارب بن دثار،والهيثم ابن حبيب الصواف،ومحمد بن المنكدر ونافعاً مولى عبد الله بن عمر - رضى الله عنهما - وهشام بن عروة، وسماك بن حرب وروى عنه عبد الله بن المبارك، ووكيع بن الجراح، والقاضى أبو يوسف ومحمد بن الحسن الشيبانى وغيرهم، وكان عالماً عاملاً زاهداً عابداً ورعاً تقياً كثير الخشوع دائم التضرع إلى الله[٢] وكان إماماً في القياس[٣] .

ومن تلاميذ أبى حنيفة الليث بن سعد الذى تولى قضاء مصر، وقد ولد ببلدة قلقشندة بمصر فى محافظة القليوبية، واشتهر بالكرم والثراء، وبلغ دخله خمسة آلاف دينار فى السنة كان يفرقها على أهل العلم من أصحابه وقد أشاد العلماء بعمله وعلمه فقد روى عن الشافعى أنه قال: «إن الليث أفقه من مالك إلا أن أصحابه لم يقوموا به»[٤] .

ومن أشهر تلاميذ أبى حنيفة القاضى أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم الذى ولد سنة ١١٣هـ/ ٧٣١م وتوفى سنة ١٨٢هـ/ ٧٩٨م[٥] ، وقد نشأ فقيراً، وكان أستاذه أبا حنيفة يمده بالمال، وقد تولى أبو يوسف القضاء للمهدى والهادى والرشيد ومن مؤلفات أبى يوسف «كتاب الخراج» الذى ألفه لهارون الرشيد، وقد أخذ أبو يوسف الفقه عن أبى حنيفة، وعمل على نشر مذهبه ومبادئه بعد أن تقلد قضاء بغداد[٦] .

ومن أصحاب المذاهب الفقهية أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعى الذى جمع بين مدرستى النقل والعقل بما أوتيه من سعة العقل والقدرة على الابتكار ، وهو أول من تكلم فى

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج٥ ص ٤١٤.
(٢) المصدر السابق ص ٤٠٦.
(٣) المصدر السابق ص ٤٠٩.
(٤) حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام ج٢ ص ٣٣٤.
(٥) أبو يوسف يعقوب. كتاب الخراج ص ١، كارل بروكلمان: تاريخ الأدب العربى ج٣ ص ٢٤٥.
(٦) حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام ج٢ ص ٣٣٤-٣٣٥.

أصول الفقه، وأول من أخذ فى وضع مبادئه، وقد ترك العراق سنة ٢٠٠هـ/٨١٥م وقصد مصر حيث مات بها سنة ٢٠٤هـ / ٨١٩م وله كتب كثيرة فى الفقه منها كتاب « المبسوط فى الفقه»، وكتاب « الأم » ، وقد أملاه على تلاميذه فى مصر، وروى عن كثير من الفقهاء كأبى ثور، وابن الجنيد، والبويطى، وابن سريج وغيرهم[١] .

ومن أصحاب المذاهب الإمام أحمد بن حنبل الذى ولد فى بغداد سنة ١٦٤هـ/ ٧٨٠م وكان إمام المحدثين وقد صنف كتابه « المسند »، وجمع فيه من الحديث ما لم يتفق لغيره، وكان من أصحاب الإمام الشافعى وخواصه،ولم يزل مصاحباً له إلى أن ارتحل الشافعى إلى مصر، وقد قال الشافعى عنه: «خرجت من بغداد وما خلفت بها أتقى ولا أفقه من ابن حنبل »[٢] وقد توفى سنة ٢٤١هـ/ ٨٥٥م ببغداد[٣] .

المذاهب الدينية التى سادت مصر والحجاز

انتشرت هذه المذاهب وغيرها فى مصر والحجاز، لكنا نتساءل كيف انتشرت فى مصر والحجاز، وما مدى انتشارها هنا وهناك ؟ وهذا ما سوف نجيب عليه من خلال عرضنا للمذاهب الدينية فى مصر والحجاز.

أولاً : فى مصر :

كان مذهب الإمام مالك أول ما عرفته مصر من المذاهب الأربعة، وقد قدم به إليها عبد الرحيم بن خالد بن يزيد بن يحيى وكان فقيهاً وقد توفى بالاسكندرية سنة ١٦٣هـ/ ٧٧٩م، واشتهر مذهب مالك منذ ذلك الحين.

ولم يكن مذهب أبى حنيفة معروفاً فى مصر من قبل حتى قدم إسماعيل بن إليسع الكوفى قاضياً، وكان يذهب إلى قول أبى حنيفة، فعرفت مصر ذلك المذهب، وإن لم تقبل

(١) ابن خلكان. وفيات الأعيان ج٤ ص ١٦٣ - ١٦٦.
(٢) المصدر السابق ج١ ص ٦٤.
(٣) المصدر السابق .

عليه[١] .

ولم يزل مذهب مالك منتشراً بمصر حتى قدم محمد بن إدريس الشافعي إلى مصر سنة ١٩٨هـ/٨١٣م فصحبه من أهل مصر جماعة من أعيانها، وكتبوا عنه ما ألفه وعملوا بما ذهب إليه، ولم يزل أمر مذهبه يقوى بمصر، وذكره ينتشر .

واستمر مذهب مالك ومذهب الشافعي يعمل بهما أهل مصر ويولى القضاء من كان يذهب إليهما أو إلى مذهب أبى حنيفة حتى قدم جوهر الصقلى إلى مصر سنة ٣٥٨هـ/٩٦٨م ومن حينئذ فشا بديار مصر مذهب الشيعة وعمل به فى القضاء والفتيا، وأنكر ما خالفه[٢] وبدت مظاهره واضحة جليه فكانوا ينادون فى الآذان بجميع المساجد «حي على خير العمل» ويفضلون على بن أبى طالب على غيره من الصحابة[٣] ويجهرون بالصلاة عليه، وعلى الحسن والحسين وفاطمة الزهراء - رضوان الله عليهم - ويجهرون بالبسملة فى الصلاة، وفى صلاة الجمعة يزيدون القنوت فى الركعة الثانية وفى الميراث يردون على ذوى الأرحام، وأن لايرث مع البنت أخ ولا أخت، ولا عم ولا جد ولا ابن أخ ولا ابن عم، ولايرث مع الولد الذكر أو الأنثى إلا الزوج أو الزوجة والأبوان، والجدة، ولايرث مع الأم إلا من يرث مع الولد[٤] .

ويخبرنا المقريزى أن «أبا الطاهر محمد بن أحمد قاضى مصر خاطب القائد جوهراً فى بنت وأخ، وأنه كان قد حكم قديماً للبنت بالنصف وللأخ بالباقى، فقال: لاأفعل فلما ألح عليه، قال : ياقاضى هذه عداوة لفاطمة عليها السلام فأمسك أبو الطاهر ولم يراجعه بعد ذلك»[٥] .

---

(١) المقريزى : الخطط ج٢ ص ٣٣٤.

(٢) المصدر السابق .

(٣) يذكر المقريزى أن المعز لدين الله حين دخل مصر فى رمضان سنة ٣٦٢هـ كتب على سائر الأماكن بمدينة مصر خير الناس بعد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أمير المؤمنين على بن أبى طالب (المقريزى · الخطط ج٢ ص ٣٤٠).

(٤) المصدر السابق .

(٥) المصدر السابق.

وفى الصيام يصومون شهر رمضان ويفطرون على حساب لهم،وقد صام القاضى وغيره من المصريين مع جوهر الصقلى كما يصوم وأفطروا كما يفطر(١) .

ولقد عمل الفاطميون على نشر مذهبهم بالترغيب حيناً وبالقوة حيناً آخر فيذكر المقريزى أنه فى سنة ٣٨١هـ ضرب رجل بمصر وطيف به المدينة لأنهم عثروا عنده على كتاب « الموطأ » للإمام مالك بن أنس(٢) .

ورغم ما كان يلاقيه أهل السنة من العسف والظلم أحياناً على يد الفاطميين لم تنقطع دراسة المذاهب الثلاثة فى مصر، فلما قتل الخليفة الآمر بأحكام الله، وتولى الوزارة أبو على أحمد بن الأفضل سنة ٥٢٤هـ/ ١١٢٩م أعلن مذهب الإمامية(٣) ، والدعوة للإمام المنتظر، وضرب دراهم كتب عليها الله الصمد الإمام محمد، ورتب فى سنة ٥٢٥هـ/ ١١٣٠م أربعة قضاة اثنان أحدهما إمامى والآخر إسماعيلى، واثنان أحدهما مالكى والآخر شافعى وحكم كل منهم بمذهبه وورث بمقتضاه، واسقط ذكر إسماعيل بن جعفر الصادق، وأبطل من الأذان «حى على

---

(١) المقريزى : الخطط ج٢ ص ٣٤٠ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) الفرقة الإمامية هم القائلون بإمامة على - رضى الله عنه - بعد النبى - صلى الله عليه وسلم - وساقوا الإمامة من بعده إلى ابنه الحسن بالوصية ثم إلى أخيه الحسين ثم إلى ابنه على زين العابدين ثم إلى ابنه محمد الباقر ثم إلى ابنه جعفر الصادق فهم يرون أن الإمامة وراثية من على بن أبى طالب - رضى الله عنه - يرثها ابناؤه من فاطمه - رضى الله عنها - ويغلب أن يكون أكبر الأبناء سناً وقد انقسموا إلى فرقتين هما :

* الفرقة الموسوية أو الاثنا عشرية: وهم القائلون بإمامة موسى الكاظم الابن الأصغر لجعفر الصادق ويسمون بالموسوية نسبة إليه، وقد سموا بالاثنى عشرية لوقوفهم عند الثانى عشر من الأئمة وهم يقولون بغيبته إلى آخر الزمان.

* الفرقة الإسماعيلية: وتتميز بإثبات الإمامة لإسماعيل بن جعفر الصادق وتنسب إليه فتسمى بالإسماعيلية وتسمى بالسبعية لأن إسماعيل يعد الإمام السابع حسب ترتيبهم وتعرف بالباطنية نسبة إلى قولهم بالظاهر والباطن (انظر . الشهرستانى : الملل والنحل ج١ ص ١٦٢-١٦٩، ١٩١ - ١٩٢، ابن خلدون : المقدمة ص ٢٥١ عبد القاهر : الفرق بين الفرق ص ٣٩، المقريزى : المقفى الكبير ص ٥٥، كلود كاهن: تاريخ العرب والشعوب الإسلامية ص ٧٧).

خير العمل» وقولهم محمد وعلى خير البشر فلما قتل سنة ٥٢٦هـ/١١٣١م عاد الأمر إلى ما كان عليه من مذهب الإسماعيلية[١] .

ولما قدم صلاح الدين الأيوبى إلى مصر وتولى الوزارة للعاضد سنة ٥٦٤هـ/١١٦٨م شرع فى تغيير الدولة ولم يلبث أن أسقط الدعوة للفاطميين ودعا للعباسيين وأنشأ بمصر مدرسة للفقهاء الشافعية،ومدرسة للفقهاء المالكية، وصرف قضاة مصر الشيعة كلهم، وفوض القضاء لصدر الدين عبد الملك بن درباس المارانىّ الشافعى فلم يستنب عنه فى إقليم مصر إلا من كان شافعي المذهب ، فانتشر مذهب مالك والشافعى واختفى مذهب الشيعة الإساعيلية والإمامية من أرض مصر كلها[٢] .

وكان نور الدين محمود حنفياً فنشر مذهب أبى حنيفة ببلاد الشام ، ومنه كثرت الحنفية بمصر، وقدم إليها أيضاً عدة من بلاد الشرق، وبنى لهم السلطان صلاح الدين الأيوبى المدرسة السيوفية بالقاهرة، واستمر مذهبهم ينتشر ويقوى وفقهاؤهم يكثرون بمصر والشام[٣] وقد اشتهر مذهب أحمد بن حنبل فى أواخر الدولة الأيوبية[٤] .

ثانياً في الحجاز :

فى صدر الإسلام كان للعلوم الدينية بمكة والمدينة شأن كبير ، فأما مكة فلأنها كانت منبع الإسلام، وبها نشأ النبى الكريم - صلى الله عليه وسلم - ودعا أهلها إلى الإسلام، وتعرض لمناهضتهم له، ومقاومتهم للدعوة، وبها كان التشريع المكى.

أما المدينة المنورة فدار هجرة الرسول - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه وبها كان التشريع الإسلامى وبها حدث النبى صلى الله عليه وسلم أكثر حديثه وكانت مركز الخلافة أيام أبى بكر الصديق وعمر وعثمان، وبها كان كثير من كبار الصحابة قد شاهدوا ما فعل النبى

(١) المقريزى : الخطط ج٢ ص ٣٤٣.

(٢) المصدر السابق

(٣) المصدر السابق.

(٤) المصدر السابق.

صلى الله عليه وسلم وسمعوا ما قال، وكانوا شركاء في بعض ما وقع من أحداث كغزوات وفتوح، فهم يحدثون بما سمعوا وشاهدوا فلا غرو إذن أن كانت مكة والمدينة مركزين من أهم مراكز الحياة العلمية في صدر الإسلام لقصدهما طلاب الحديث والفقه والتاريخ[١] .

ففي مكة كان معاذ بن جبل يفقه أهلها ويقرئهم القرآن، وكذلك علم بمكة عبد الله بن عباس في أخريات أيامه، فكان يجلس في البيت الحرام يعلم التفسير والحديث والفقه، وإلى عبد الله بن عباس وأصحابه يرجع الفضل فيما كان لمدرسة مكة من شهرة علمية، وأشهر من تخرج في هذه المدرسة من التابعين مجاهد بن جبر، وعطاء بن أبي رباح وطاووس بن كيسان، واستمرت هذه المدرسة قائمة تتلقى العلم فيها طبقة عن طبقة[٢] .

أما مدرسة المدينة فكانت أكثر علماً وأوفر شهرة حيث اشتهر فيها كثير من الصحابة كعمر وعلي، وامتاز بالعلم فيها زيد بن ثابت الأنصاري، وعبد الله بن عمر بن الخطاب، وعلى أمثال هؤلاء العلماء تخرج كثير من علماء التابعين من أشهرهم سعيد بن المسيب وعروة بن الزبير بن العوام، وعن هذه الطبقة أخذ ابن شهاب الزهري القرشي[٣] .

وقد ظلت الحركة العلمية في مكة والمدينة في العصر العباسي سائرة سيرها في عصر صدر الإسلام والعصر الأموي، وكان أكثر ما عرف عن مدرستي مكة والمدينة الحديث والفقه[٤].

وفي المدينة نشأ الإمام مالك بن أنس إمام أهل المدينة فاعتنق بعض الحجازيين المذهب المالكي[٥] كما انتشر بينهم أيضاً المذهب الشافعي[٦] .

---

(١) عمر كحالة: مقدمات ومباحث في حضارة العرب والإسلام ص ١٣٦.

(٢) المرجع السابق.

(٣) المرجع السابق ص ١٣٧.

(٤) أحمد أمين: ضحى الإسلام ص ٧٣.

(٥) السيد عبيد مدني: رسائل في تاريخ المدينة ص ٦١.

(٦) آدم متز: الحضارة الإسلامية ج١ ص ٢٩٦.

أما فى العهد الفاطمى فقد كان حكام مكة من الأشراف الحسنيين يعتنقون المذهب الزيدى[١] .

فقد ذكر ابن جبير عند رحلته للحجاز أن «للحرم أربعة أئمة سنية، وإمام خامس لفرقة تسمى الزيدية، وأشراف هذه البلدة - يقصد مكة - على مذهبهم، وهم يزيدون فى الآذان «حي على خير العمل» إثر قول المؤذن «حى على الفلاح» وهم روافض سبابون »[٢] .

كما ذكر ابن تغرى بردى فى حوادث سنة ٤٧٢هـ أن صاحب مكة كان رافضياً خبيثاً[٣] ويبدو أنهم كانوا من احدى فرق الزيدية الذين طعنوا فى الصحابة طعن الإمامية [٤] مما جعل بعض المصادر تصفهم بأنهم روافض.

ومما يدل على ذلك معاملتهم الشديدة لأهل السنة ، بل وقتل بعض أئمتهم فقد ذكر ابن فهد فى حوادث سنة ٤٧٢هـ أنه جرى بين أهل السنة والروافض بمكة نزاع فبادر الروافض بالشكوى إلى أبى هاشم محمد بن جعفر الحسنى أمير مكة فأخذ فقيه الحرم هياج الحطينى وجماعة من أصحابه مثل أبى محمد الأنماطى، وأبى الفضل بن قوام فضربهم ضرباً شديداً فمات

---

(١) اعتنق المذهب الزيدى بعض الأشراف العلويين منهم الإمام الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين بن القاسم ابن إبراهيم طباطبا بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب وقداستطاع إقامة دولة زيدية فى صعدة باليمن سنة ٢٨٠هـ/٨٩٣م والداعي إلى الله الإمام الناصر للحق الحسن بن على ابن الحسن بن زيد بن عمر بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب والذى كان يلقب بالأطروش واستطاع هو الأخر أن يقيم دولة فى بلاد الديلم والجبل سنة ٣٠١هـ/٩١٣م وفى نفس العام قام محمد بن سليمان بن داود بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن على بن أبى طالب بالاستقلال بمكة عن العباسيين ويذكر ابن خلدون أنه كان يعتنق المذهب الزيدى (انظر : ابن حزم: جمهرة أنساب العرب ص ٤٣-٤٤. ابن النديم: الفهرست ص ٢٧٣ - ٢٧٤، الشهرستانى: الملل والنحل ج١ ص ١٥٤-١٥٧. ابن الأثير: الكامل فى التاريخ ج٦ ص ٤٨١، ابن خلدون : العبر ج٣ ص ٤٥٧ - ٤٥٨، ج٤ ص ١٢٨، ١٤٢. أحمد السعيد سليمان: تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة ج١ ص ٢١١، ٢٦٨.

(٢) ابن جبير: الرحلة ص ٧٨.

(٣) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة ج٥ ص ١٠٩.

(٤) الشهرستانى : الملل والنحل ج١ ص ١٥٧

الاثنان فى الحال، وحمل فقيه الحرم هياج الحطينى إلى زاويته حيث مـات هو الآخر[١] ، وفى سنة ٦٠٧هـ قام شريف مكة قتادة بن إدريس الحسنى بقتل إمام الحنفية وإمام الشافعية بمـكة[٢] .

وكان أشراف المدينة الحسينيون من الشيعة الإثنى عشرية[٣] ويروى السمهودى أن المدينة لم يكن لها من يعرف مذهب الإمامية حتى جاءها القيشانيون[٤] من العراق وكانوا أصحاب ثروة ومال كثير فصاروا يؤلفون ضعفة الناس بالمال، ويعلمونهم قواعد مذهبهم، ولم يزالوا على ذلك حتى ظهر مذهبهم وكثر المشتغلون به[٥] وتأخر أهل العلم والسنة ولم يكن لهم آنذاك بالمدينة الشريفة كلمة، وكانت الأمور كلها بيد الشيعة الإمامية فكان القضاء والخطابة لسنان الحسينى وأهل بيته توارثوا ذلك من زمن الفاطميين وحتى نهاية الدولة الأيوبية[٦] .

ولقد بدأ مذهب الشيعة يمد ظله فى مكة والمدينة بتأثير الفاطميين الذين كانوا يساعدون أشراف الحجاز، ويشدون من أزرهم، خاصة أنهم يعتنقون المذهب الشيعى.

ولقد تأثر الحجازيون بالفاطميين فى مصر بإضافة قولهم «حى على خير العمل» إلى الأذان فى منائر المسجد الحرام، وهو تقليد شيعى كان الفاطميون يعملون به[٧] .

---

(١) عمر بن فهد اتحاف الورى ج٢ ص ٤٨٠.

(٢) الفاسى : العقد الثمين ج٧ ص ٤٧.

(٣) ابن خلدون : العبر ج٤ ص ١٤٢.

السيد محسن الأمين: مستدركات أعيان الشيعة ج١ ص ٢٠٠ دار التعارف للمطبوعات - بيروت ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

(٤) الأسرة القاشانية (الكاشانية) جاءت من مدينة قاشان (كاشان) الفارسية التى تقع بين قم وأصفهان وأهلها كلهم شيعة إمامية،وقد استقرت هذه الأسرة بالنجف فى العراق ثم انتقلت إلى المدينة المنورة ونشرت مذاهب الشيعة الأثنى عشرية هناك . (انظر : القرمانى : أخبار الدول ص ٣٧١، الحميرى: معجم الأقطار ص ٤٤٧، السمهودى الوفا بما يجب لحضرة المصطفى ص ١٤٩، أغابزرك الطهرانى: طبقات أعلام الشيعة ج٢ ص ٤٧ المطبعة العلمية بالنجف ١٣٧٤هـ/١٩٥٤م - السيد محسن الأمين : مستدركات أعيان الشيعة ج١ ص ٢٠٦).

(٥) السمهودى. الوفا بما يجب لحضرة المصطفى ص ١٤٩.

(٦) المصدر السابق ص ١٤١.

(٧) أحمد السباعى : تاريخ مكة ج١ ص ٢١٦.

فلما زالت الدولة الفاطمية وجاء الأيوبيون إلى الحكم خضعت مكة فى بعض الأحيان للأيوبيين خضوعاً مباشراً بينما لم يحدث أن خضعت لهم المدينة مباشرة، وكان من نتائج ذلك الوضع فى مكة أن أصبح للمذاهب السنية أهمية كبيرة بها . وصار كبير أئمة الحرم شافعياً[١].

وكان للحرم المكي خمسة أئمة أربعة سنين وخامس زيدي[٢] .

يتقدمهم إمام الشافعية وكان مقدماً من العباسيين والأيوبيين .

ومما ساعد على انتشار المذهب الشافعى بمكة آنذاك أن الأيوبيين كانوا يعتنقون هذا المذهب وقد عملوا منذ قيام دولتهم فى مصر على انتشاره فى كافة أنحاء مملكتهم وبالإضافة إلى أن كبير أئمة الحرم كان شافعياً فقد وجد بمكة عدد كبير من الفقهاء والقضاة والعلماء الذين يعتنقون هذا المذهب ويعملون على نشره[٣] .

وكان إمام الشافعية أول من يصلى فى الحرم خلف مقام إبراهيم عليه السلام[٤] ويليه الإمام المالكى ويصلى قبالة الركن اليمانى[٥] .

أما الإمام الحنفى فيصلى قبالة الميزاب[٦] والحنبلى يصلى فى موضع يقابل ما بين الحجر الأسود والركن اليمانى، وتتم صلاته فى وقت واحد مع صلاة الإمام المالكى[٧] .

وكان الأئمة الأربعة يصلون المغرب فى وقت واحد مجتمعين بسبب ضيق وقتها، وكيفية صلاتها أن يبدأ مؤذن الشافعى بالإقامة ثم يقيم من بعده مؤذنو سائر الأئمة[٨] .

---

(١) ابن جبير: الرحلة ص ٧٨.

(٢) المصدر السابق.

(٣) جميل حرب : الحجاز واليمن ص ١٦٣.

(٤) ابن جبير: الرحلة ص ٧٨.

(٥) المصدر السابق ص ٧٩.

(٦) يخرج الميزاب من أعلى منتصف الحائط الشمالي الغربي للكعبة ويقال له ميزاب الرحمة وهو من عمل الحجاج حتى لا يقف المطر على سطح الكعبة (الخربوطلي : تاريخ الكعبة ص١٨٦).

(٧) ابن جبير : الرحلة ص٧٩.

(٨) المصدر السابق .

ونتيجة لذلك كان المصلون يصابون بالسهو والغفلة أحيانًا للتكبير فى الحرم من كل جهة، فربما ركع المالكى بركوع الشافعى، أو الحنفى بركوع المالكى أو يسلم أحدهم بغير سلام إمامه، لذا كان المصلون ينصتون باهتمام شديد لصوت إمامهم أو مؤذنهم خوفاً من السهو[١] .

ولم تشر المصادر إلى المكان الذى كان يصلى فيه إمام الزيدية، وإنما اكتفت بالقول بأنهم لايصلون الجمعة مع الناس، وإنما يصلون الظهر أربعاً ويصلون المغرب بعد فراغ الأئمة السنية من صلاتهم[٢] .

وبعد فراغ المصلين من صلاة المغرب يقف المؤذن فى سطح قبة زمزم رافعاً صوته بالدعاء للخليفة العباسى ولأمير مكة، ثم لصلاح الدين الأيوبى، ويصل ذلك بالدعاء لأمراء اليمن الأيوبيين، ثم سائر المسلمين والحجاج والمسافرين[٣] .

أما خطبة الجمعة فكان يتولاها الخطيب الشافعى[٤] .

وفى شهر رمضان كان أهل مكة يصومون ويفطرون بأمر أمير مكة على حساب لهم كما كان الفاطميون يفعلون فى مصر، واستمر ذلك طوال العصرين الفاطمى والأيوبى.

ويخبرنا ابن جبير عند زيارته للحجاز سنة ٥٧٩هـ - ١١٨٣م أن صيام أهل مكة لشهر رمضان كان يوم الأحد بدعوى فى رؤية الهلال لم تصح، لكن الأمير أمضى ذلك، ووقع الإذن بالصوم بضرب الدبادب ليلة الأحد المذكور لموافقته مذهبه ومذهب شيعته العلويين لأنهم يرون صيام يوم الشك فرضاً حسبما يذكر[٥] .

وأثناء صلاة التراويح كان الأئمة يتفرقون فرقاً فالشافعية تتقدم وقد نصب لها إماماً فى ناحية من نواحى المسجد، ثم الحنبلية، والحنفية، وكذلك الزيدية[٦] .

---

(١) ابن حبير : الرحلة ص٧٩ .
(٢) جميل حرب : الحجاز واليمن ص ١٦٤.
(٣) ابن جبير: الرحلة ص ٨٠.
(٤) جميل حرب: الحجاز واليمن ص ١٦٥.
(٥) ابن جبير: الرحلة ص ١٢٢.
(٦) المصدر السابق.

أما المالكية فكانوا يجتمعون على ثلاثة قراء يتناوبون القراءة، وكان إمام الشافعية فى التراويح أكثر الأئمة اجتهاداً لأنه يصليها لهم عشرون، ثم يصلون الشفع والوتر وينصرفون، بينما سائر الأئمة لايزيدون فى صلاتهم عن عشر ركعات[١] .

وقد كان أهل السنة يتعرضون أحياناً للعداء من أشراف مكة ففى سنة ٤٧٢هـ / ١٠٧٩م توفى هياج بن عبيد مفتى أهل مكة وفقيه الحرم، وكان سبب موته أن بعض الشيعة شكو إلى أمير مكة محمد بن جعفر الحسني أن أهل السنة يستطيلون عليهم بهياج بن عبيد فأخذه الأمير وضربه ضرباً شديداً حتى مات[٢] .

وفى المدينة المنورة كان الوضع مختلفاً عن مكة فالإمامة والخطابة والقضاء بها للشيعة، وخاصة سنان الحسينى، وأهل بيته من الأشراف الحسينيين يتوارثها الأبناء عن الآباء منذ العصر الفاطمى وطوال العصر الأيوبى[٣] .

وكان لأهل السنة إمام شافعى يصلى بالناس الصلوات الخمس[٤] فحسب لأن الأمر بيد الشيعة، وأهل السنة فى ضعف عظيم معهم بالمدينة ولايستطيعون قراءة كتبهم أو سماع الأحاديث النبوية إلا خفية[٥] .

ومما ساعد على تمادى أنصار الشيعة بالمدينة فى أفعالهم اشتراك أمرائهم مع صلاح الدين فى حروبه ضد الصليبيين فكان يتبرك بهم ويستشيرهم فى كثير من الأمور[٦] ولايعرف ما يفعلونه بأهل السنة .

---

(١) ابن جبير : الرحلة ص ١٢٣.

(٢) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة ج٥ ص ١٠٩، الذهبى: العبر ج٢ ص ٣٣١.

(٣) السمهودى : الوفا بما يجب لحضرة المصطفى ص ١٤١.

(٤) المصدر السابق ص ١٤٢.

(٥) المصدر السابق.

(٦) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ ج١٠ ص ١٧٤ - ١٧٥.

ويبدو أن صلاح الدين أراد أن يجعل لأهل السنة مكانة في المدينة فاستمال أشرافها وأغدق عليهم الأموال والهدايا حتى سمحوا له بأن يعين جماعة من قبله لإدارة المسجد النبوى فأرسل إليهم فى عام ٥٦٩هـ/١١٧٣م أربعة وعشرين خادماً يرأسهم شيخ الخدام بدر الدين الأسدى، وأوقف عليهم ناحية نقادة من عمل قوص وقبالة بالصعيد وثلثى ناحية سندبيس بالقليوبيه[١] .

ورغم ذلك لم يصبح لأهل السنة نفوذ قوى بالمدينة، بل بقوا على ما كانوا عليه من ضعف وظلت السيادة لأصحاب مذهب الشيعة وصار إمامهم على بن سنان الحسنى يخطب ويصلى ويتولى كافة الأمور الدينية بالمدينة[٢] وكان إذا عقد فى البلد عقد نكاح بغير إذن على بن سنان وأمره طلب من فعلوا ذلك، وعزرهم ودفع شرفاء المدينة لمعاقبتهم[٣] .

ولم يكن أهل السنة والمجاورون يستطيعون عقد نكاح أو الفصل فى أي قضية بين المتخاصمين إلا بعد الرجوع إلى على بن سنان الحسينى إمام الشيعة الذى كان يصدر أوامره إلى إمام السنة فى كتاب يقول فيه اعقد نكاح فلانة على فلان أو أصلح بين فلان وفلانة[٤]

ولقد توارث الشيعة الخطابة بالمدينة منذ عهد الفاطميين وطوال عصر الأيوبيين حتى أخذت منهم فى العصر المملوكى[٥] .

وكان من عادتهم أن يجمع للخطيب فى الموسم المال الجزيل، والهدايا الكثيرة ولايتم الخطيب خطبتة حتى يحصل على ما يريد[٦] وقد وصف ابن جبير ذلك حين ذكر فى رحلته أنه شاهد عند دخوله المدينة الشريفة بعد رجوعه من مكة صحبة الحاج العراقى فى يوم الجمعة

---

(١) المقريزى : السلوك ج١ ق ١ ص ٥٧، ابن إياس : بدائع الزهور ج١ ق ١ ص ٢٤٣.

(٢) السمهودى : الوفا بما يجب لحضرة المصطفى ص ١٤٩.

(٣) المصدر السابق.

(٤) المصدر السابق.

(٥) المصدر السابق ص ١٤٨.

(٦) المصدر السابق ص ١٤٩.

السابع من المحرم سنة ٥٨٠هـ/١١٨٤م أمراً يندى له الإسلام فقد وصل الخطيب وصعد منبر النبى صلى الله عليه وسلم وهو كما يذكر على مذهب غير مرضى، فلما فرغ من الخطبة الأولى جلس جلسة خالف فيها جلسة الخطباء المضروب بها المثل فى السرعة حتى قام الخدام التابعون له باختراق الصفوف وتخطى الرقاب يجمعون ما يتبرع به الحاضرون لهذا الخطيب الذى لايهمه سوى جمع المال والذهب والثياب، ولو كان ذلك على حساب الدين[١] .

فقد كان منهم من يقدم له الثوب النفيس الغالى ومنهم من يأتى بالقطعة الثمينة من الحرير فيعطيها له ومنهم من يخلع العمامة ويلقيها إليه ومنهم من يخلع بردته ويقدمها له ومنهم من يدفع القراضة من الذهب ومنهم من يمد يده بالدينار أو الدينارين وهو جالس يراقب ذلك بنظرات كلها طمع ورغبة فى الاستزادة حتى كاد الوقت أن ينقضى وتضيع الصلاة، وضج أصحاب الدين، وصاحوا فى وجه الخطيب وهو جالس ينتظر دون خجل أو حياء حتى تجمع أمامه كومة كبيرة من هذه الأشياء وحينئذ شعر بالرضا فقام وأكمل الخطبة[٢] .

العلماء بين مصر والحجاز - تأثير وتأثر :

كانت النهضة العلمية بمصر فى بدء عهدها نهضة دينية إسلامية فمع الفتح الإسلامى جاء إلى مصر عدد من الصحابة أشهرهم عبد الله بن عمرو بن العاص، وكان يحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ويدون ما يسمع، وكان يحج ويعتمر ويأتى الشام ثم يرجع إلى مصر وقد مات بها ويعد مؤسس المدرسة المصرية، وأخذ عنه كثيرمن أهل مصر واشتهر من بعده يزيد بن أبى حبيب من دنقلة، وقد أخذ العلم عن بعض الصحابة المقيمين بمصر، وكان أول من نشر الفقه بمصر وكان من أشهر تلاميذ يزيد بن أبى حبيب عبد الله بن لهيعة والليث بن سعد[٣] .

ولقد قامت فى مصر حركة دينية واسعة النطاق مركزها جامع عمرو بن العاص بالفسطاط وكانت نواة هذه الحركة الصحابة الذين جاءوا لفتح مصر، واستوطنوها، وكان يدرس فى مصر

(١) ابن جبير . الرحلة ص ١٧٩.

(٢) المصدر السابق ص ١٨٠.

(٣) عمر كحالة : مقدمات ومباحث فى حضارة العرب والإسلام ص ١٤٧.

القرآن والحديث والفقه والقراءات[١] .

ثم جاءت مرحلة الاستقلال والعطاء وتشمل العصرين الفاطمى والأيوبى، وفى هذه المرحلة نجد أن مصر بعد تلقيها للعلوم وتمكنها منها بدأت تعطى غيرها من البلاد الأخرى، وهذا ما تؤكده كتب الطبقات التى تتحدث عن العلماء المصريين الذاهبين إلى الأمصار الإسلامية مشاركة فى النهضة بها فقد رحل بعضهم إلى القيروان أو المغرب أو الحجاز ونقلوا إلى المسلمين ما تلقوه وما هضموه وفى نفس الوقت بدأ كثيرون من طلاب المشرق والمغرب يأتون هذه البلاد للاستزادة من علمها[٢] .

وكانت القاهرة مأوى لكثير من العلماء وطلاب العلم من مختلف أقطار العالم الإسلامى وكان بعض العلماء يأتون إليها ليستقروا فيها وبعضهم يقيم فيها فترة ثم يعود إلى بلده وقد ذهب كثير من العلماء المصريين إلى الحجاز، فمنهم من أقام هناك، ومنهم من عاد مرة أخرى إلى بلاده، وكان لهم دور في تنشيط الحركة العلمية هناك.

وكما أسس الفاطميون والأيوبيون عدة مدارس فى مصر شاركوا فى إنشاء المدارس فى الحجاز أيضاً وصار التأثير والتأثر بين مصر والحجاز صفة واضحة فى هذه الفترة، وفى الصفحات التالية تبيان لهذا التأثير.

* * *

---

(١) عمر كحالة : مقدمات ومباحث فى حضارة العرب والإسلام ص ١٤٧.

(٢) حسن محمود: دراسات فى تاريخ مصر ص ١١.

التأثير الثقافى لمصر فى الحجاز

يبدو التأثير الثقافى لمصر فى الحجاز واضحاً من خلال طلاب العلم الحجازيين الذين كانوا يأتون إلى مصر زرافات ووحداناً لطلب العلم والإفادة من علمائها ومن خلال العلماء المصريين الذين كانوا يذهبون إلى الحجاز للحج أو المجاورة للحرمين الشريفين ويقيمون هناك يعلمون الحجازيين بالإضافة إلى المدارس التى أقامها المصريون فى بلاد الحجاز لينهل الحجازيون من منابع علمها الغزير.

أ - طلاب علم من الحجاز فى مصر :

أوردت كتب التراجم أسماء كثير من علماء الحجاز الذين حرصوا على العلم والاستزادة منه فشدوا الرحال إلى مصر لتلقى العلم على أيدى علمائها ومن هؤلاء العلماء :

أولاً : فى العصر الفاطمى :

* هياج بن عبيد بن الحسن الحطينى، أبو محمد الفقيه الزاهد فقيه الحرم ومفتى أهل مكة سمع الحديث بمصر وبغداد ودمشق، فقد سمع أبا الحسن بن موسى السمسار وعبد الرحمن بن عبد العزيز ابن الطير ومحمد بن عوف المدنى، وجماعة بدمشق، وعلى بن حميصة بمصر، وقد حدث وروى عنه جماعة منهم هبة الله الشيرازى، ومحمد ابن طاهر المقدسى، وقد قتل على يد أمير مكة سنة ٤٧٢هـ لشكوى الشيعة منه[١] .

* شميلة بن محمد بن جعفر بن محمد بن عبد الله بن أبى هاشم الحسنى المكى، ويلقب بالزين جاء إلى مصر طلباً للعلم حين أرسله أبوه أبو هاشم محمد بن جعفر الحسنى أمير مكة فنزل مصر فى شهر رمضان سنة ٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م وسمع من القضاعى كتابه «الشهاب»[٢] .

---

(١) الفاسى · العقد الثمين ج٧ ص ٣٨٠ - ٣٨١.

(٢) المصدر السابق ج٥ ص ١٧-١٨.

* عبيد الله بن سعيد بن حاتم بن أحمد الوائلي البكرى (الحافظ أبو نصر السجزّى) حدث عن أبى أحمد الحاكم، وأبى عمر بن مهدى، وأبى عبد الرحمن السلمى وأحمد بن فراس العبقسى وحمزة بن عبد العزيز المهلبى، وقد رحل إلى مصر طلباً للعلم، وله كتاب «الإبانة الكبرى فى مسألة القرآن» وقد توفى سنة ٤٤٤هـ/١٠٥٢م[١] .

* أبو معشر الطبرى المقرىء (عبد الكريم بن عبد الصمد بن محمد بن على) شيخ القراء بمكة قرأ بمكة على أبى عبد الله الكازرينى، وبمصر على أبى العباس بن نفيس، وإسماعيل بن راشد الحداد، وله من المؤلفات: «التلخيص» ، «وسوق العروس فى القراءات المشهورة والعربية» وكتاب «طبقات القراء»، وكتاب «الدرر فى التفسير» وقد توفى بمكة سنة ٤٧٨هـ/١٠٨٥م[٢] .

* أبو عبد الله المكى (محمد بن الحسن الفهرى) الشاعر المنجم قدم مصر طلباً للعلم وأراده أهل مصر أن يحدث فرفض قائلاً : شاعر منجم لايصلح لى هذا وقد توفى سنة ٤٦٤هـ/١٠٧١م[٣] .

ثانياً : فى العصر الأيوبى :

* الشيخ قطب الدين القسطلانى المكى الشافعى، نشأ بمكة وأجاز له الشيخ أبو الفتوح الحصرى المدرس المصرى بمدرسة ابن الأرسوفى بمكة، وقرأ عليه وسمع منه[٤] ثم رحل إلـى مصر لتلقى العلم وعاد إلى مكة مرة أخرى وفي سنة ٦٤٥هـ/١٢٤٧م عين لقضاء مكة ثم طلب من مكة للتدريس بمشيخه دار الحديث الكاملية فوليها حتى مـات[٥] .

---

(١) المصدر السابق ص ٣٠٧-٣٠٨.

(٢) المصدر السابق ص ٤٧٥ - ٤٧٦.

(٣)المصدر السابق ج١ ص ٤٧٣.

(٤) المصدر السابق ص ٣٢١.

(٥) الكتبى : فوات الوفيات ج٣ ص ٣١٠.

* أبو الفتح محمد بن عبد الله بن الحسين بن على بن أبى طلحة من كبار الحنابلة بمكة، وقد جاء إلى مصر، وسمع من أبى الطاهر الزيات، وبالإسكندرية من الحافظ السلفى ، وحدّث بمكة ومصر والاسكندرية وأقام بمكة إماماً للحنابلة حتى توفى سنة ٥٩٠هـ/١١٩٣م[١] .

* تقى الدين أبو حفص المعروف بالميانشى (عمر بن عبد المجيد بن عمر بن حسين القرشى) شيخ مكة وخطيبها جاء إلى مصر، ولقى بالاسكندرية أبا عبد الله محمد بن أحمد الرازى وأخذ عنه سداسياته، وسمع من أبى عبد الله محمد بن على بن عمر المازرى كتابه «المعلم بفوائد مسلم» ومن مؤلفاته «المجالس المكية»، و«إيضاح ما لا يسع المحدث جهله» وكتاب «الروضة فى الرقائق» وقد حدث بمصر ومكة وكان عالماً ورعاً ثقة وتوفى بمكة سنة ٥٨١هـ/١١٨٥م[٢] .

* عبد الرحمن بن محمد بن على بن الحسين بن على بن عبد الملك بن أبى النضر الطبرى، ويلقب بالعماد الشافعى مفتى مكة، سمع من أبى الحسن على بن المقير ومن على بن أبى الفضل المرسى صحيح مسلم،وصحيح ابن حبّان،وغير ذلك عليهما،وأجاز له من مصر ابن الحباب والساوى وكان فقيهاً ويعرف طرفاً من الحديث والعربية[٣] .

* صديق بن يوسف بن قريش (الفقيه أبو الوفاء الحنفى) ولد سنة ٥٣٧هـ/١١٤٢م وذهب إلى مصر فسمع بالاسكندرية من الحافظ أبى طاهر السلفى، ومن أبى القاسم البوصيرى وقد استوطن الديار المصرية مدة، وولى الحسبة بها ثم عاد إلى مكة، وتولى التدريس بمدرسة ابن الزنجبيلى[٤] .

---

(١) ابن العماد الحنبلى: شذرات الذهب ج٤ ص ٣٠٤ - ٣٠٥.

(٢) الفاسى : العقد الثمين ج٦ ص ٣٣٤.

(٣) المصدر السابق ج٥ ص ٤٠٣ - ٤٠٤.

(٤) المصدر السابق ص ٣٩.

* ابن الحباب المالكى (محمد بن عبد العزيز بن الحسين بن عبد الله التميمى السعدى الأنصارى) قدم من مكة إلى مصر طلباً للعلم فسمع من الحافظ السلفى وأبى طاهر ابن عوف بالاسكندرية وسمع بمصر من جماعة منهم الشريف أبو الفتوح ناصر بن الحسين الزيدى، وقرأ عليه القرآن بالروايات، وقرأ الأدب على العلامة أبى محمد بن برى، وأجاز له وحدثه، وُلِّىَ القضاء بمكة، وتوفى بها سنة ٦٠٥هـ(١) .

ب - علماء مصريون يُدرِّسون بالحجاز :

لم يتوقف دور العلماء المصريين عند تعليم عرب الحجاز الوافدين إلى مصر وإنما انتقل كثير من العلماء المصريين إلى بلاد الحجاز، وقد أتوا للمجاورة فى مكة والمدينة ومنهم من قضى فترة زمنية ثم عاد إلى مصر، وربما أقام بعضهم بقية عمرهم الزمنى فى مكة أو المدينة .

وكان لهؤلاء العلماء دور كبير فى تعليم أبناء الحجاز، ولايكاد يخلو مصدر من الحديث عن هؤلاء العلماء الذين جاوروا وبرزوا حتى أصبحت أهميتهم بالغة فى الحرمين الشريفين، ومن هؤلاء العلماء :

أولاً : فى العصر الفاطمى :

* مسعود بن على بن أحمد بن عبد المعطى، ولد بمصر ونشأ بها ، وقرأ على ابن الخير الفاسى ولازمه وتخرج على يديه، وسمع منه ومن عثمان بن الصفى وغيرهم وكان فاضلاً في القراءات والفقه والحديث والعربية، وقد ذهب إلى مكة وأقام بها حتى توفى سنة ٥٥١هـ/١١٥٦م(٢) .

* عبد الله بن محمد بن اسماعيل بن صدقة المصرى (أبومحمد المعروف بابن الغزال) سمع بمصر أبا عبد الله القضاعى، وعبد العزيز بن الحسن الضرّاب، وأبا محمد المحاملى وغيرهم وقد ذهب إلى مكة فسمع منه جماعة منهم الحافظ أبو القاسم بن عساكر وقد

---

(١) الفاسى : العقد الثمين ج٢ ص١٢٢ - ١٢٣.

(٢) المصدر السابق ج٧ ص ١٨٣.

جاور ابن الغزال بمكة عدة سنين وتوفى بها سنة ٥٢٤هـ(١) .

* القضاعى، القاضى أبو عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر بن على بن حكمون المصرى الفقيه الشافعى مصنف كتاب الشهاب وكتاب مناقب الإمام الشافعى وأخباره وكتاب الأنباء عن الأنبياء وتواريخ الخلفاء وكتاب خطط مصر وقد ذهب إلى الحجاز سنة ٤٤٥هـ وحدث فسمع منه جماعة ثم عاد إلى مصر حيث توفى بها سنة ٤٥٤هـ(٢) .

ثانياً : فى العصر الأيوبى :

* عبد المعطى بن محمود بن عبد المعطى بن عبد الخالق الأسكندرى كان من أعيان مشايخ الاسكندرية وقد اشتهر بالزهد والصلاح وله معرفة بأصول الدين، ومذهب مالك، وصنف كتاباً فى الرقائق وعلم الباطن، وشرح «الرعاية» للمحاسبى ورسالة القشيرى، وقد ولد سنة ٥٦٣هـ/١١٦٧م بالاسكندرية وانتقل فى آخر عمره إلى مكة وجاور بها حتى توفى سنة ٦٣٨هـ/١٢٤٠م، ويذكر الفاسى أنه «كان من كبار العلماء الأئمة الصلحاء»(٣) .

* عبد الله بن يوسف بن عبد الرحمن بن عبد العزيز بن عبد الغنى التميمى، تفقه بالاسكندرية على مذهب الامام مالك، وسمع بها من الحافظ أبي طاهر السلفى، وحدّث وجاور بمكة عدة سنين ثم عاد إلى مصر حيث توفى سنة ٦٢٣هـ بالاسكندرية(٤) .

* شعيب بن يحيى بن أحمد بن محفوظ بن عطية التميمى الاسكندري، يكنى أبا مدين، ويعرف بالزعفرانى التاجر، ولد سنة ٥٦٥هـ/١١٦٩م بالاسكندرية وسمع بها من الحافظ أبى طاهر السلفى، ثم ذهب إلى مكة وجاور بها سنين إلى أن توفى بها وقد

---

(١) ابن الجوزي : مرآة الز[مان] ج٨ ورقة ٨١، ٢١٣.

(٢) ابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب ج٣ ص ٢٩٣.

(٣) الفاسى : العقد الثمين ج٥ ص ٤٩٧ - ٤٩٩.

(٤) المصدر السابق ص ٣٠٢.

سمع منه جماعة من الأعيان منهم ابن الحاجب الأمينى والرشيد العطار، وقد سمع منه الدمياطى بالحرمين، وقد توفى آخر سنة ٦٤٥هـ/١٢٤٧م[١] .

* ناصر بن عبد الله بن عبد الرحمن بن حاتم المصرى العطار (أبو الفتح المكى الفقيه المفتى الشافعى) يقول الفاسى : «شيخ مصرى استوطن مكة وجاور بها أكثر عمره وكان رجلاً صالحًا، شافعى المذهب، وكان يعيد فى المدرسة التى أنشأها ابن الأرسوفى بمكة خارج باب العمرة، وقد استقر بمكة منذ سنة ٥٧٠هـ/١١٧٤م إلى أن توفى بها سنة ٦٣٤هـ/١٢٣٦م[٢].

* مكى بن أبى حفص عمر بن أبى الخير نعمة بن يوسف بن سيف بن عساكر، سمع من والده القاضى أبى حفص ومن أبى محمد عبد الله بن برى، ومن أبى القاسم البوصيرى وكان شيخاً صالحاً ذهب إلى مكة وجاور بها عدة سنين ثم عاد إلى مصر حيث توفى سنة ٦٣٤هـ/١٢٣٦م[٣] .

* الشيخ تاج الدين أبو الحسن بن الشيخ أبى العباس القسطلانى المصرى، ولد فى سنة ٥٨٨هـ/ ١١٩٢م وسمع من الشريف يونس بن يحيى الهاشمى صحيح البخارى، ومن زاهر بن رستم جامع الترمذى، ومن أبى الفتح المصرى مسند الشافعى، وسنن أبى داود والنسائى، وسمع من أبى الصيف وأبى عبد الله بن البناء بمكة، وبمصر من أبى الحسن بن جبير كتاب الشفاء للقاضى عياض عن التميمى إجازة عنه وغيره بمصر وحدث بها وبمكة، وسمع وأفتى ودرس بمدرسة المالكية المجاورة لجامع عمرو بن العاص بالفسطاط وقد توفى ودفن بسفح المقطم[٤] .

---

(١) الفاسى : العقد الثمين ج٥ ص ١٢-١٣.

(٢) المصدر السابق ج٧ ص ٣١٦-٣١٧

(٣) المصدر السابق ص ٢٧٩ - ٢٨٠.

(٤) المصدر السابق ج٦ ص ١٣٦ - ١٣٧.

* علي بن عبد الوهاب بن محمد بن أبي الفرج (أبو القاسم الاسكندري) صاحب الرباط بأسفل مكة ، وقد وقفه وحبسه وتصدق به على فقراء العرب الغرباء المتعبدين وقد سمع منه السلفي وغيره، وحدث بمكة وتوفي سنة ٦٢٤هـ/١٢٢٦م[١] .

* الشيخ الصالح المحدث مصطفى بن محمود بن موسى بن محمود بن علي بن أبي الثناء المصري ولد بالفسطاط بعد سنة ٥٦٠هـ/١١٦٤م وجاور بالحرم الشريف حتى توفي سنة ٦٤٥هـ/١٢٤٧م بمكة[٢] .

* القاضي عماد الدين أبو عمرو الكردي الحميدي الشافعي تفقه على مذهب الشافعي بالموصل على عمه ثم قدم مصر واستوطنها وتولى القضاء بثغر دمياط ثم عاد إلى القاهرة وناب بها عن قاضي القضاة أبي القاسم عبد الملك بن عيسى الماراني، كما ناب عنه بقليوب وأعمالها ودرس بالجامع الأقمر وبالمدرسة السيفية بالقاهرة مدة، وسمع بها من الحافظ أبي الحسن علي بن المفضل المقدسي ثم توجه إلى مكة ولم يزل مجاوراً بها إلى أن مات سنة ٦٢٠هـ/١٢٢٣م ودفن بالمعلاة[٣] .

جـ- دور العلم التي انشأها المصريون بالحجاز :

كان التدريس قائماً في المساجد منذ صدر الإسلام، وكان للعلماء فيها حلقات ، وكانت هذه الحلقات مأهولة بالطلاب، وكانت منتشرة في جميع عواصم العالم الإسلامي، ففي مصر كانت تلقى الدروس في مسجد عمروبن العاص والمسجد الطولوني والمسجد الأزهر،ومسجد الحاكم بأمر الله، وتعددت الحلقات في المسجد الواحد ولم تكن هذه الحلقات مقصورة على علوم الدين فكان يجلس للتدريس بها علماء كذلك في اللغة والنحو والتاريخ[٤] .

---

(١) الفاسي : العقد الثمين ج٦ ص ٢٠٤ - ٢٠٥.

(٢) المصدر السابق ج٧ ص ٢٠٤.

(٣) المصدر السابق ج٦ ص ٤٨ ، عمر بن فهد: اتحاف الورى ج٣ ص ٣٨.

(٤) أحمد فكري : مساجد القاهرة ومدارسها ج٢ ص ١٤٥.

وفى الحجاز أدت حلقات العلم فى المسجد الحرام دوراً واضحاً فى ازدهار الحياة الفكرية فقد كان العلماء يفدون إليه من شتى البلدان وتعقد فيه الحلقات العلمية فى مختلف العلوم الدينية وكان هؤلاء العلماء ومنهم المصريون يزاولون التدريس والإفتاء لأهل مكة والقادمين إليها[١] .

وإلى جانب المساجد نشأت المدارس فيذكر المقريزى أن «المدارس مما أحدث فى الإسلام، ولم تكن تعرف فى زمن الصحابة ولا التابعين، وإنما حدث عملها بعد الأربعمائة سنة من سنى الهجرة»[٢] .

ويعلل آدم متز سبب نشأة المدارس بأن المساجد لم يكن يحسن تخصيصها للتدريس بما يتبعه من مناظرة وجدل، قد يخرج بأصحابه أحياناً عن حد الأدب الذى يجب مراعاته للمسجد[٣] .

لذا فكر العلماء فى إنشاء المدارس، وأول مدرسة أحدثت بمصر كانت فى عصر الفاطميين وهى المدرسة التى بناها الوزير رضوان بن ولخشى فى الاسكندرية سنة ٥٣٢هـ/١١٣٧م وقرر فى تدريسها الفقيه أبا طاهر بن عوف[٤] ثم بنى الوزير ابن السلار الكردى مدرسة أخرى بالاسكندرية للحافظ السلفى سنة ٥٤٦هـ/١١٥١م[٥] .

ومع قدوم الأيوبيين إلى مصر بدأ إنشاء المدارس فيها يزداد فيخبرنا المقريزى أن أول مدرسة أحدثت فى عهد الأيوبيين هى المدرسة الناصرية بجوار جامع عمرو بن العاص، ثم المدرسة القمحية المجاورة للجامع أيضاً، وقد اقتدى بالسلطان صلاح الدين أبناؤه وأمراؤه فقاموا ببناء المدارس فى القاهرة والفسطاط وغيرهما من أعمال مصر[٦] حتى بلغ عدد المدارس المنشأة

---

(١) إبراهيم المشيقح: تاريخ أم القرى ص ٤٦.
(٢) المقريزى : الخطط ج٢ ص ٣٦٣.
(٣) آدم متز: تاريخ الحضارة الإسلامية ج١ ص ٢٥٤.
(٤) ابن ميسر: المنتقى من أخبار مصر ص ١٣٠، المقريزى: اتعاظ الحنفا ج٣ ص ١٦٧.
(٥) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج١ ص ١٠٥.
(٦) المقريزى : الخطط ج٢ ص ٣٦٣.

فى العصر الأيوبى أربعاً وعشرين مدرسة فى الفسطاط والقاهرة ومدرستين بالفيوم[١] .

وكما أنشئت المدارس بمصر فقد أنشئت بعض المدارس والأربطة بالحجاز فى عهد الأيوبيين كما يلى :

مدرسة الزنجبيلى :

وقف هذه المدرسة الأمير عـز الدين المعروف بالزنجبيلى، وكان نائباً للسلطان صلاح الدين الأيوبى بعدن وقد وقفها سنة ٥٧٩هـ/١١٨٣م وتقع عند باب العمرة، وبنى بجوارها رباطاً خاصاً يسكنه الدارسون فيها، وكانت الدراسة فى هذه المدرسة على مذهب الإمام أبى حنيفة النعمان[٢] وقد ذكر ابن فهد أن هذه المدرسة تعرف بدار السلسلة، ويشرف عليها بعض أشراف مكة[٣] وقد تولى التدريس بهذه المدرسة الفقيه أبو الوفاء الحنفى صديق بن يوسف بن قريش وقد تلقى تعليمه بمصر، وأقام بها فترة طويلة[٤] .

مدرسة الأرسوفى :

وقف هذه المدرسة العفيف عبد الله بن محمد الأرسوفى، وتقع بالقرب من باب العمرة، ويذكر الفاسى أنه لايعرف متى وقفت ويرجح أن يكون تاريخ وقفها هو نفس التاريخ الذى وقف فيه رباطاً بمكة سنة ٥٩١هـ/١١٩٤م[٥] وكانت الدراسة فى هذه المدرسة على مذهب الإمام الشافعى[٦] .

وكان يدرس بهذه المدرسة علماء من مصر أيضاً نذكر منهم الشيخ أبو الفتوح الحصرى[٧]

---

(١) أحمد فكرى: مساجد القاهرة ومدارسها ج٢ ص ١٥٣.

(٢) الفاسى :العقد الثمين ج١ ص ١١٧، ج٦ ص ٣٤ - ٣٥، شفاء الغرام ج١ ص ٣٣١.

(٣) عمر بن فهد: اتحاف الورى ج٢ ص ٥٤٩.

(٤) الفاسى : العقد الثمين ج٥ ص ٣٩.

(٥) الفاسى : شفاء الغرام ج١ ص ٣٣٠، ٣٣٦، العقد الثمين ج٥ ص ٤٢٢ - ٤٢٣، عمر بن فهد. اتحاف الورى ج٢ ص ٥٦٢.

(٦) ناجى معروف : المدارس الشرابية ص ٣٤٨ ط٢ سنة ١٣٩٧هـ.

(٧) الفاسى .العقد الثمين ج٧ ص ٣١٦ - ٣١٧.

والشيخ أبى الفتوح ناصر بن عبد الله العطار، وقد ذكر الفاسى أنه كان معيداً بهذه المدرسة[١].

ومن الجدير بالذكر أن الأرسوفى كانت له مدرسة بمصر أيضاً تعرف باسم مدرسة ابن الأرسوفى، ويذكر المقريزى أن هذه المدرسة كانت بالبزازين التى تجاور خط التخالين بمصر وكان بناؤها فى سنة ٥٧٠هـ/١١٧٤م[٢].

المدرسة الشهابية بالمدينة المنورة :

تقع هذه المدرسة فى الناحية الجنوبية الشرقية للمسجد النبوى ، وكانت داراً لأبى أيوب الأنصارى – رضى الله عنه – وقد اشتراها الملك شهاب الدين غازى بن الملك العادل وبناها مدرسة سميت باسمه وهى موقوفه على المذاهب الأربعة، ووضع بها كثيراً من الكتب الدينية[٣].

والحقيقة أنه يرجع الفضل للأيوبيين فى إنشاء المدارس بالحجاز، إذ تعتبر المدارس التى أنشأها الأيوبيون بالحجاز من أقدم المدارس التى أنشئت هناك ويبدو أن الهدف الرئيسى من إنشاء هذه المدارس بالإضافة إلى التدريس ونشر العلم والمعرفة هو محاربة المذهب الشيعى الذى كان سائداً آنذاك.

وبعد إنشاء هذه المدارس كثرت المدارس بالحجاز كثرة واضحة ويظهر ذلك من المدارس التى ذكرها الفاسى فى كتابه كما يلى:

- مدرسة طاب الزمان الحبشية وقفت على فقهاء الشافعية سنة ٥٨٠هـ/١١٨٤م.
- مدرسة أبى على بن أبى زكرى وتاريخ وقفها سنة ٦٣٥هـ/١٢٣٧م.

---

(١) المصدر السابق .

(٢) المقريزى : الخطط ج٢ ص ٣٦٤.

(٣) عبد القدوس الأنصارى : آثار المدينة المنورة ص ٢١.

- مدرسة ابن الحداد المهدوى وقفت على فقهاء المالكية بقرب باب الشبيكة وتعرف بمدرسة الأدارسة وتاريخ وقفها سنة ٦٣٨هـ/ ١٢٤٠م.
- مدرسة الملك المنصور عمر بن على بن رسول صاحب اليمن وقفها على فقهاء الشافعية سنة ٦٤١هـ/١٢٤٣م.
- مدرسة بدار العجلة القديمة على يسار الداخل للمسجد الحرام وتاريخ وقفها قبل العشرين وسبعمائة.
- مدرسة الملك المجاهد صاحب اليمن بالجانب الجنوبى من المسجد الحرام وقفها على فقهاء الشافعية سنة ٧٣٩هـ.
- مدرسة ابن النهاوندى، ويذكر الفاسى أن لها نحو مائتى سنة.
- مدرسة الملك المنصور غياث الدين بن المظفر أعظم شاه صاحب بنجاله من بلاد الهند وقفها على المذاهب الأربعة سنة ٨١٤هـ[١] .

والحقيقة أن المدارس فى بلاد الحجاز اهتمت بتدريس العلوم الدينية على مذهب من المذاهب الشهيرة أو أكثر كما اتضح عند عرضنا لهذه المدارس فكانت هناك مدارس للشافعية وأخرى للمالكية وأخرى للأحناف، هذا إلى جانب علوم القرآن والحديث وبعض هذه المدارس كان يدرس المذاهب الأربعة .

وكان المدرسون فى هذه المدارس على طبقتين : مدرسين ومعيدين، فالمدرس هو من يتولى التدريس الفعلى، والمعيد هو من يتولى إعادة الدرس الذى ألقاه المدرس على الطلاب ليفهموه ويتقنوه،وقد ذكر الفاسى أن مدرسة الأرسوفى بمكة كان المدرس بها الشيخ أبا الفتوح الحصرى، والمعيد الشيخ أبا الفتوح ناصر بن عبد الله العطار[٢] .

---

(١) الفاسى : العقد الثمين ج١ ص ١١٧– ١١٨.

(٢) المصدر السابق ج٧ ص ٣١٧.

الأربطة :

بالإضافة إلى المدارس التى أنشأها المصريون بالحجاز فقد كانت هناك الأربطة وكان لها علاقة وثيقة بالحجاج الوافدين إلى مكة المكرمة لأداء مناسك الحج وكذلك لطلاب العلم المجاورين أيضاً فى مكة،وكان لإنشاء هذه الأربطة نتيجة حتمية لابد منها، إذ أنها توفر جميع سبل الراحة لطلاب العلم وللحجاج المقيمين فيها أثناء موسم الحج من مسكن ومأكل ومشرب ووجود هذه الأربطة فى مكة المكرمة دفع المجاورين إلى الإقبال على طلب العلم والتفقه فى الدين حيث توفر لهم ما يرفع عنهم الفقر والحاجة.

وكان واقف الرباط يقف عليه أحياناً بعض الدور أو الضياع أو الأماكن للإنفاق عليه، كما كان يوقف به بعض الكتب ليتلقى المجاورون فيها بعض العلوم لأن الأربطة كانت تشبه المدرسة وتقوم مقامها أحياناً ولهذا أقبل كثير من طلبة العلم والمجاورين على هذه الأربطة وتسابقوا على سكنها وكثرت الأربطة فى مكة والمدينة وساهم المصريون فى إنشاء بعض هذه الأربطة فى كل من مكة والمدينة نشير إليها كما يلى :

رباط الزنجبيلى :

بنى عثمان بن على الزنجبيلى نائب السلطان صلاح الدين الأيوبى بعدن رباطاً سنة ٥٧٩هـ/١١٨٣م يقع أمام مدرسته فى مكة عند باب العمرة، وقد وقفه على طلاب المدرسة وعلى أصحاب المذهب الحنفى المقيمين بمكة[١] .

رباط العفيف :

ينسب إلى العفيف عبد الله بن محمد الأرسوفى ويسمى رباط أبا رقيبة وقد وقفه عنه وعن موكله القاضى الفاضل عبد الرحيم بن على البيسانى مناصفة فى سنة ٥٩١هـ/١١٩٤م[٢] ويقع الرباط عند مدرسة الأرسوفى جنوب مكة بالقرب من باب العمرة كما

---

(١) عمر بن فهد: اتحاف الورى ج٢ ص ٥٤٩، الفاسى : شفاء الغرام ج١ ص ٣٣١، العقد الثمين ج١ ص ١١٧، ١١٩.

(٢) الفاسى : العقد الثمين ج١ ص ١٢٢.

هو مثبت فى الحجر الذى على باب الرباط فقد نقش على حجر تأسيسه بأن الرباط المذكور وقف على الفقراء والمساكين العرب والعجم من الرجال دون النساء القادمين إلى مكة المكرمة والمجاورين بها على أن لايزيد سكن المقيم فيه على ثلاث سنوات(١) .

رباط ربيع :

وقفه ربيع بن عبد الله محمد الماردينى عن موكله الملك الأفضل نور الدين على ابن السلطان صلاح الدين الأيوبى سنة ٥٩٤هـ/١١٩٧م ويقع بأجياد، وقد وقفه على الغرباء من فقراء المسلمين، كما وقف فيه الملك الأفضل مجموعة من الكتب من بينها المجمل فى اللغة لابن فارس والاستيعاب لابن عبد البر،واشترط فى وقفيته أن يكون وقفاً على الفقراء والغرباء من المسلمين(٢) .

رباط الموفق :

وقفه القاضى الموفق أبو الحسن على بن عبد الوهاب بن محمد بن أبى الفرج الاسكندرى بأسفل مكة، وقد حبسه وتصدق به على فقراء العرب المتعبدين ذوى الحاجات، وجعل عليه وقفاً بمكة سنة ٦٠٤هـ/١٢٠٧م(٣) وقد نقش على لوحته التأسيسية بالخط النسخ ما يلى :

- بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على رسوله سيدنا محمد وعلى آله

- هذا ما وقف وحبس وسبل وتصدق به القاضى الموفق المكين الأمين جمال الدين

- ولى أمير المؤمنين أبو الحسن على بن القاضى السعيد الأمين أبى القاسم عبد الوهاب ابن الشيخ أبى عبد الله محمد.

- ابن أبي الفرج العدل بالأعمال المصرية - رضى الله عنه - وقف وحبس وسبل وتصدق بجميع هذا الرباط(٤) .

---

(١) الفاسى : شفاء الغرام ج١ ص ٣٣٦.

(٢) المصدر السابق ص ٣٣٥، العقد الثمين ج١ ص ١١، عمر بن فهد : اتحاف الورى ج٢ ص ٥٦٤.

(٣) عمر بن فهد: اتحاف الورى ج٣ ص ٦١، الفاسى : العقد الثمين ج١ ص ١٢٢.

(٤) نفسه.

رباط غزى:

وقفه على بن محمد المصرى على الرجال المجاورين الفقراء والمساكين من مختلف أجناس المسلمين سنة ٦٤٢هـ/١٢٤٤م ويقع بأجياد[١] .

وقد أنشئت بعض الأربطة فى المدينة المنورة، وكان لها أثرها أيضاً فكانت سكناً لطلاب العلم والغرباء والمجاورين والفقراء والزهاد وغيرهم من القادمين إلى المدينة المنورة والمقيمين فيها ومن هذه الأربطة :

رباط الزنجبيلى :

وقف هذا الرباط سنة ٥٧٩هـ/١١٨٣م عثمان بن على الزنجبيلى نائب السلطان صلاح الدين الأيوبى بعدن، وكان موقع هذا الرباط عند باب النساء،وقد وقفه على الأحناف المقيمين بالمدينة المنورة كما فعل برباطه الذى أقامه بمكة،وقد ضم هذا الرباط مكتبة كبيرة تضم كتباً عديدة فى الفقه الحنفى، وجعل قسماً من هذا الرباط زاوية تقام فيها حلقات الدرس[٢] .

رباط القاضى الفاضل:

وقفه القاضى الفاضل محى الدين عبد الرحيم البيسانى على الرجال ويبدو أنه وقفه فى نفس العام الذى وقف فيه رباطاً بمكة سنة ٥٩١هـ/ ١١٩٤م وكان موضع هذا الرباط هو دار موسى بن إبراهيم المخزومى[٣] .

التأثير الثقافى للحجاز فى مصر:

كان الحجاز مركزاً هاماً من مراكز الثقافة الإسلامية، وكان لمكة بصفة خاصة دور كبير فى الحفاظ على تراث العالم الإسلامى،وخاصة فى عقيدتهم الإسلامية منذ عهد الرسول

---

(١) الفاسى . العقد الثمين ج١ ص ١٢١، عمر بن فهد: اتحاف الورى ج٣ ص ٦١.

(٢) أبو شامة : الروضتين ج٢ ص ٢٦ القاهرة ١٢٨٧هـ/ ١٨٧م، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج٦ ص٩ القاهرة ١٩٧٢.

(٣) المراغى : تحقيق النصرة ص ٧٨.

صلى الله عليه وسلم فقد كانت مقصداً لكثيرمن العلماء الذين يقدمون إليها لأداء فريضة الحج، ولطلب العلم، وكان الحرص على طلب العلم يدفع بعضهم للإقامة بجوار الحرم مدة طويلة، وقد ازدحم المسجد الحرام بهؤلاء المجاورين من رجال التفسير والحديث الذين عادوا إلىَ بلادهم حيث ساهموا فى نشر الحركة العلمية بها، ولقد ذهب إلى الحجاز كثير من العلماء المصريين للإستفادة من علمائها كما قدم إلى مصر بعض علماء الحجاز، وأقاموا فيها يدرسون لأبنائها .

أ - طلاب علم من مصر فى الحجاز :

ازدحم المسجد الحرام والمسجد النبوى الشريف برجال الحديث والقراء،و ظل العلماء يؤدون رسالتهم جيلاً بعد جيل، وكان كل عالم يلقى على طلبته العلوم التى برع فيها وكانت حلقات التدريس تعقد يومياً من قبل الشيخ فى المسجد.

وكان لكل مذهب ركن خاص به فى الحرم المكى والحرم النبوى يجتمع فيه رجال كل مذهب على حدة للصلاة والدراسة.

وفى الحرم المكى لايحصل طلاب العلم على شهادات دراسية، بل كانوا يحصلون على إجازات علمية من أساتذتهم[١] .

ولم يكن العلماء يتقاضون راتباً معيناً لقاء الدروس التى يقومون بتدريسها ، وكذلك فإنهم لايأخذون من الطلبة صدقة أو زكاة لأن تعليمهم كله لله وفى سبيل الله[٢] .

ولم تقتصر فائدة الدروس التى كانت تلقى بالحرم على المكيين أنفسهم، بل نهل من هذه المدرسة علماء شتى من ديار المسلمين الذين كانوا يفدون إلى مكة المكرمة لتلقى العلم فى الحرم المكى، وقد كان كل من الحرمين المكى والمدنى منهلاً لطلاب العلم يقصدونهما من جميع البلاد، وتعقد فيهما حلقات العلم[٣] .

---

(١) محمد عبد الرحمن الشامخ: التعليم فى مكة والمدينة ص ١٨-١٩ ط أ سنة ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م.

(٢) عبد الرحمن صالح عبد الله : تاريخ التعليم فى مكة المكومة ص ٤١ ط ١٩٧٣ مكة المكرمة.

(٣) المرجع السابق ص ١٤.

وقد ذهب كثير من طلاب العلم المصريين إلى الحجاز، وكانوا يهدفون من وراء ذلك إلى التعلم والمجاورة، وقضاء فترة من عمرهم الزمنى للراحة والصفاء الروحى والشوق للتقرب إلى الله - سبحانه وتعالى - ومن هؤلاء العلماء :

* أبو محمد النحاس عبد الرحمن بن عمر المصرى البزاز كان مسند الديار المصرية ومحدثها عاش بضعاً وتسعين سنة، ذهب للحجاز لتلقى العلم وسمع بمكة من ابن الأعرابى، وبمصر من أبى الطاهر المدينى، وعلى بن عبد الله بن أبى مطر وطبقتهما، وقد توفى سنة ٤١٦هـ/١٠٢٥م[١] .

* الحافظ زكى الدين المنذرى المصرى الشافعى ولد سنة ٥٨١هـ/١١٨٥م بمصر وقرأ القرآن على الأرتاحى، وتفقه على أبى القاسم عبد الرحمن بن محمد القرشى، وتأدب على أبى الحسين بن يحيى النحوى، وسمع بمكة من يونس الهاشمى، وأبى عبد الله بن البناء، ومن تلاميذه عبد المؤمن الدمياطى، وإسماعيل بن عساكر، وتقى الدين بن دقيق العيد، وابن خلكان وقد درس المنذرى بالجامع الظافرى بالقاهرة مدة،ثم ولى مشيخة دار الحديث الكاملية وانقطع بها نحواً من عشرين سنة[٢] .

* شرف الدين الدمياطى الشافعى (عبد المؤمن بن خلف بن أبى الحسن بن شرف) ولد بتونة قرية من عمل تنيس، وكان منشؤه بدمياط،وتميز فى المذهب وقرأ القرآن وطلب الحديث، فسمع بالاسكندرية فى سنة ٦٣٦هـ/١٢٣٨م من أصحاب السلفى ثم قدم القاهرة، وعنى بهذا الشأن رواية ودراية ولازم الحافظ زكى الدين المنذرى حتى صار معيده،وقد ذهب لتأدية فريضة الحج سنة ٦٤٣هـ/١٢٤٥م وسمع بالحرمين ومن تصانيفه «كتاب الصلاة الوسطى» ، «الإسناد فى حديث أهل بغداد»، و«مختصر السيرة النبوية»[٣] .

---

(١) ابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب ح٣ ص ٢٠٤.

(٢) الكتبى : فوات الوفيات ج٢ ص ٣٦٦ - ٣٦٧.

(٣) المصدر السابق ص ٤١٠ - ٤١١.

* ابن دقيق العيد (تقى الدين أبو الفتح محمد بن مجد الدين أبى الحسن على بن وهب بن مطيع العشيرى) نشأ بقوص فحفظ القرآن الكريم، ثم درس فقه مالك على والده الذى كان من أئمة المالكية كما أخذ عنه الحديث والأصول وقد أخذ فقه الشافعية عن تلميذ والده بهاء الدين القفطى ودرس الأصول على شمس الدين الأصبهانى والنحو على شرف الدين المرسى ثم رحل فى طلب العلم إلى القاهرة والاسكندرية، وسافر إلى الحجاز وأخذ عن كبار علماء عصره، واتقن مذهب الشافعى ومالك ودرس الفقه على المذهبين وقد أسند له التدريس فى دار الحديث بقوص وفى أواخر أيامه ولى قضاء الشافعية فى الديار المصرية[١] .

ب - علماء حجازيون يُدرّسون بمصر:

نظراً للعلاقات الطيبة بين مصر والحجاز وقرب البلدين من بعضهما حدث اتصال دائم وكما كان العلماء المصريون يذهبون للتدريس فى الحجاز فقد جاء بعض علماء الحجاز إلى مصر وكان لهم أثر واضح، ومن هؤلاء العلماء.

* أبو الحسن بن أبى الكرم المكى المعروف بابن البنا (على بن نصر بن المبارك بن محمد ابن أبى السيد الواسطى) سمع من أبى الفتح الكروخى جامع الترمذى مع كتاب العلل فى مجالس آخرها سنة ٥٤٨هـ/١١٥٣م بمكة وحدث به فيها وحينما جاء إلى مصر سمع منه كثيرون فى مصر والاسكندرية ودمياط وقد توفى سنة ٦٢٢هـ/ ١١٢٥م[٢] .

* عبد الله بن محمد بن عبد الله بن عمر التكزاوى (معين الدين أبو محمد) من أهل المدينة كان عالماً ومقرئاً ولد سنة ٦١٤هـ/١٢١٧م وقد رحل إلى الاسكندرية وسكنها وبها توفى سنة ٦٨٣هـ/ ومن كتبه «الشامل فى القراءات السبع» و «الاقتضاء فى معرفة الوقت والابتداء»[٣] .

---

(١) أحمد بدوى : الحياة العقلية فى عصر الحروب الصليبية ص ١٦٧ - ١٦٩.

(٢) المرجع السابق .

(٣) عبد السلام هاشم حافظ: المدينة المنورة فى التاريخ ص ١٥٤.

* عبد الرحيم القناوى(عبد الرحيم بن أحمد بن حجون بن أحمد بن حمزة بن جعفر بن إسماعيل بن جعفر بن محمد بن المأمون بن على بن الحسين بن على بن محمد بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن زين العابدين على بن الحسين بن على بن أبى طالب) كان من الزهاد المشهورين والعباد المذكورين، وقد تخرج عليه جماعة من أعيان الصالحين وقد توفى بقنا سنة ٥٩٢هـ/١١٩٥م[١] .

ومما سبق فى هذا الفصل يتضح مدى التأثير والتأثر بين الحجاز ومصر ثقافياً ونجمله فيما يلى :

* أخذ العلماء وطلاب العلم يتنقلون بين مصر والحجاز بعضهم يعلم والآخر يتعلم وامتلأت حلقات الدرس والعلم فى البلدين بالعديد من هؤلاء العلماء والطلاب.

* كان لمصر دور بارز وواضح فى هذه الفترة فقد خرج منها الكثير من العلماء الذين استمروا يؤدون رسالتهم جيلاً بعد جيل ومنهم من ذهب إلى الحجاز للمجاورة والدرس والتحصيل ومنهم من ساهم فى نشر العلم وتنشيط الحركة العلمية بالحرمين الشريفين ثم عاد إلى مصر مرة أخرى.

* أقامت مصر المدارس فى الحجاز وخاصة فى العصر الأيوبى للقضاء على الحركة الشيعية بها كما حدث فى مصر .

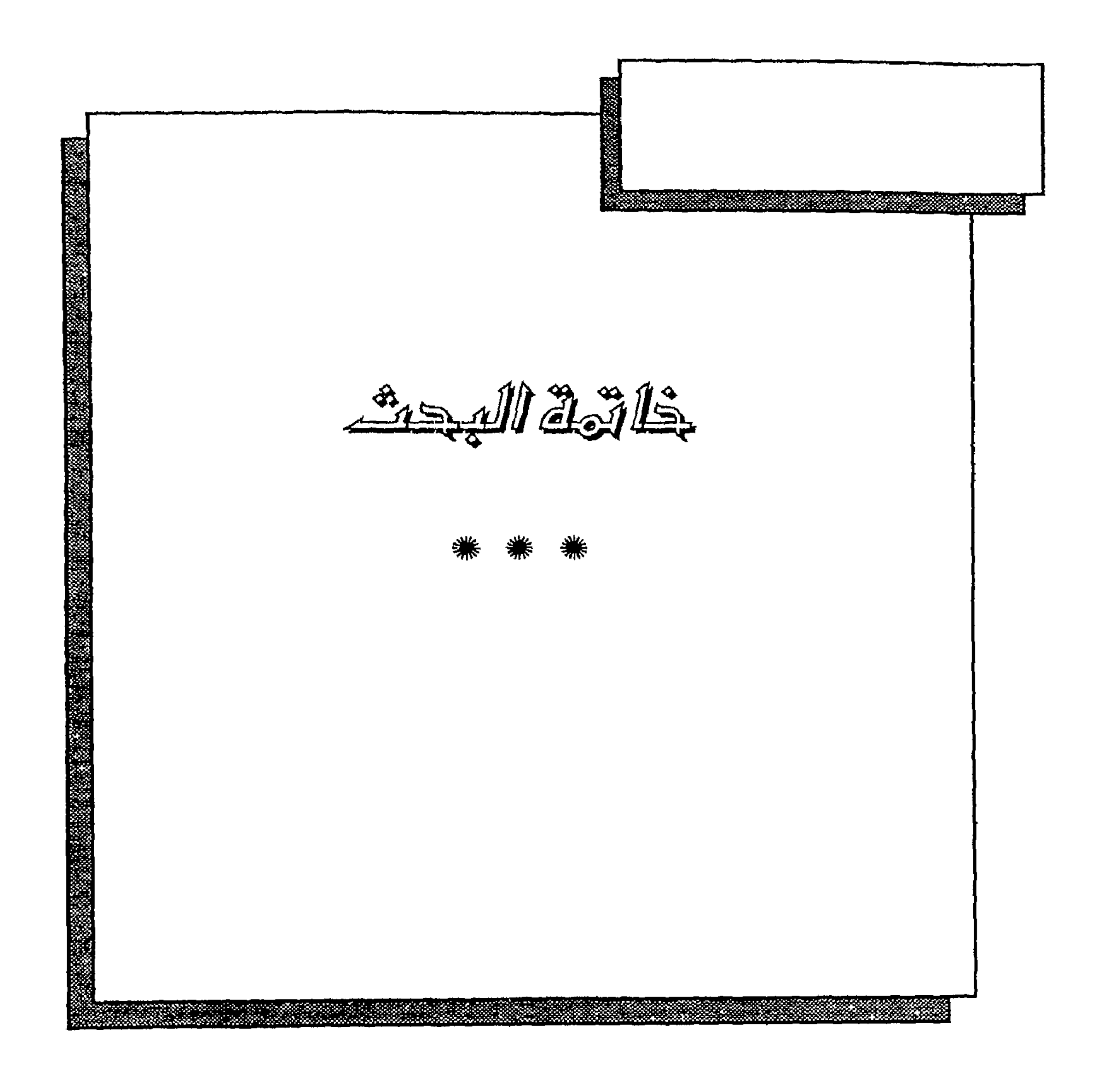
* انتشر المذهب الشافعى فى الحجاز نتيجة لانتشاره فى مصر ولتشجيع الأيوبيين له لاعتناقهم هذا المذهب .

* شهدت العلاقات الفكرية بين البلدين تفاعلاً مستمراً وارتباطاً وطيداً وأخذاً وعطاءً.

❋ ❋ ❋

---

(١) الفاسى : العقد الثمين ج٥ ص ٤٢٠.



خاتمة البحث

* * *

خاتمة البحث

دار هذا البحث حول العلاقات بين مصر والحجاز فى عهد الفاطميين والأيوبيين فقدم أولاً دراسة عن هذه العلاقات قبيل الفاطميين، وانتهى إلى أن العلاقات بين مصر والحجاز تضرب بجذورها فى أعماق التاريخ نظراً للقرب الجغرافى بينهما وأن الصلات لم تنقطع بينهما على مدى التاريخ .

وأوضح البحث أن الدولة العباسية حين ضعفت فى العصر العباسى الثانى كان الحجاز بالنسبة لهم آنذاك بلداً بعيداً ثقيل التكاليف، ثم إن إصلاح أحواله يتطلب مالاً، ورعاية الحجاج تتطلب عناية ونفقة، لذا بدا لهم أن الحل المناسب لمشكلة الحجاز هو أن تتولى مصر أموره، وعهدوا فى إدارة أموره إلى محمد بن طغج الإخشيد الذى كان قد أقام دولته الإخشيدية فى مصر، وصار الرجل القوى الذى يعتمد عليه فأسندوا له ولاية مكة والمدينة، وخطب للإخشيد على منابر الحجاز مع الخليفة العباسى، وبذلك صارت الدولة المصرية فى عهد الإخشيديين تشمل مصر والشام والحجاز، ومنذ ذلك بدأ ارتباط مصر بالحجاز قوياً، وهو ارتباط استمر لفترة طويلة، فقد أصبحت مصر تعتبر نفسها مسئولة عن الحرمين الشريفين، وصار صاحب مصر مكلفاً بأن يعنى بأمر الحاج ويقوم على المسجد الحرام والمسجد النبوى ومزارات المسلمين.

ثم تحدث البحث عن الدعوة الفاطمية فى بلاد الحجاز فأوضح أن الفاطميين استطاعوا فرض سيادتهم على بلاد الحجاز بطرق عديدة مهدوا لها بمهارة سياسية شديدة دون اللجوء إلى القوة العسكرية إلا نادراً فقد استنكر الخليفة الفاطمى المهدى ما فعله القرامطة فى مكة سنة ٣١٧هـ/٩٢٩م حين أعملوا السلب والنهب وخلعوا الحجر الأسود من مكانه،وتعدوا على حرمة البيت الحرام، بل ورفض المهدى دعوة أبى طاهر القرمطى له فى رسالة شديدة اللهجة أرسلها له وطالبه فيها بإعادة الحجر الأسود إلى مكة، فأعاده القرامطة تلبية لرغبة الفاطميين،وإن اختلفوا معهم بعد ذلك .

وبين البحث أن الخليفة الفاطمى المعز لدين الله أثناء وجوده بالمغرب سعى إلى عقد الصلح بين الأسرات العلوية المقيمة بالحجاز بعد تقاتلهم وتحمل ديات القتلى عن طريق سفارة أرسلها لهذا الغرض فصارت هذه الفعلة يداً له عند الأشراف، وتمكن الدعاة الفاطميون من دخول الحجاز فلما فتح جوهر الصقلى مصر بادر أشراف مكة بالاستقلال عن العباسيين وقطع الخطبة لهم والدعوة للمعز فى مكة.

وأوضح البحث أن الفاطميين قاموا بإمداد أشراف الحجاز بالكثير من المؤن والأموال والهدايا لضمان استمرار نفوذهم على الحجاز.

وبين البحث أن كل هذه الطرق نجحت فى مد النفوذ الفاطمى إلى الحجاز، وضمان تبعية حكام هذه البلاد من الأشراف العلويين للخلافة الفاطمية، وأن حكام الحجاز تعاونوا مع الخلفاء الفاطميين وكانوا يعتبرونهم أبناء عمومة واحدة بالرغم من المحاولات العديدة التى حاولها العباسيون لاستعادة الحجاز إلى نفوذهم مرة أخرى.

ومن النتائج التى توصل إليها البحث أن اهتمام الفاطميين بالحجاز يرجع لاعتبارات استراتيجية هى أن الحجاز من الناحية الدفاعية أو الهجومية على مصر يعتبر منطقة حيوية فمن الثابت أن كل سياسة دفاعية أو هجومية للدول القائمة فى مصر تتخذ مجالها فى شمال البحر الأحمر وجنوب الشام، وقد تطلب تحقيق هذاالهدف السياسى هدفاً تجارياً هو حماية مصالح الفاطميين التجارية فى البحر الأحمر الذى تقع بلاد الحجاز على ساحله الشرقى.

وبين هذا البحث أن الفاطميين سعوا فى سبيل تحقيق أهدافهم إلى القضاء على نفوذ كل من العباسيين والقرامطة فى الحجاز، وأنهم استطاعوا تأمين هذه البلاد ، وحماية الحجاج بعد أن صدوا القرامطة عن مكة ووجهوا اهتمامهم إلى العمل على حماية الأراضى المقدسة وتأمين الوافدين إليها من المسلمين على أرواحهم وأموالهم.

وأوضح البحث أنه لم يكن لدى أمراء مكة والمدينة القوة التى تمكنهم من درء الأخطار عن الحجاز ، كما أن موارد البلاد لم تكن تكفى لسد حاجة أهلها فأمدهم الفاطميون بما يحتاجون إليه من الأموال والغلال.

ومن النتائج التى توصل إليها البحث أن الفاطميين استخدموا نفراً من أهل لحجاز فى الجيش الفاطمى فكانت هناك «فرقة البدو» وهى إحدى فرق الجيش الفاطمى وكانت تتكون من خمسين ألف فارس يقال لهم الرماة كلهم من أبناء الحجاز.

وبين البحث أن عدم استقرار الأمور فى مصر فى العصر الفاطمى الثانى الذى تميز بازدياد نفوذ الوزراء العظام واستئثارهم بالسلطة دون الخلفاء شجع العباسيين آنذاك على نشر نفوذهم فى كل من مكة والمدينة، مما جعل ولاة مكة والمدينة يقيمون الدعوة لبنى العباس فى فترات مختلفة إلا أن هؤلاء الولاة لم ينحازوا للعباسيين تماماً فى مناهضة الخلافة الفاطمية، بل حرصوا على إظهار ولائهم للفاطميين كلما أمكنتهم الفرص، ويرجع ذلك إلى انتماء أمراء مكة والمدينة إلى البيت العلوى الذى كان يبغض العباسيين لسيطرتهم على الخلافة دونهم.

وأوضح البحث أن صلاح الدين الأيوبى لما تولى الأمور بمصر اهتم بتوطيد العلاقات بين مصر والحجاز تحقيقاً لأمن البحر الأحمر فالعدو الصليبى كان يتطلع لامتلاك الضفة الأخرى للبحر الأحمر فضم الحجاز إلى مصر والشام كان أمراً ضرورياً حتمته ظروف صلاح الدين الأيـوبى.

وقد أوضح البحث أن صلاح الدين الأيوبى عمل على تأمين حدود الحجاز وحمايته من الصليبيين فتصدى لمحاولات أرناط أمير الكرك فى الهجوم على المدينة المنورة وقام الأيوبيون بواجبهم فى حماية الأراضى المقدسة.

ومن النتائج التى توصل إليها البحث أن لقب خادم الحرمين الشريفين قد أطلق لأول مرة على صلاح الدين الأيوبى ثم صار بعد ذلك من جملة الألقاب التى استخدمها السلاطين فى مصر .

وأوضح البحث أن النفوذ الأيوبى بلغ ذروته بالحجاز عن طريق الفرع الأيوبى الذى حكم اليمن وأتيحت له فرصة التدخل فى النزاع بين الأخوة من أشراف مكة على منصب الإمارة ، وأوجد له نائباً مقيماً لحكم مكة وصار هذا النائب هو القوة المسيطرة وله إمرة الحرمين وقيادة الجند وإدارة المال.

وبين البحث أن انشغال الأيوبيين بالمنازعات القائمة فيما بينهم والتى وصلت إلى حد استعانة بعضهم بالصليبيين ضد بعضهم الآخر قد مهد لنور الدين عمر بن رسول السبيل للاستقلال بشئون اليمن عن الأيوبيين.

وأوضح البحث أن نور الدين عمر بن رسول بعد أن استقر له حكم اليمن بدأ يفكر فى فرض نفوذه على الحجاز حتى يضمن سلامة حكمه فى اليمن ويؤمنه من المخاطر الخارجية إذا ما تعرض لانتقام الأيوبيين فعمل على نقل المعارك خارج قاعدة ملكة باليمن إلى أملاك الدولة الأيوبية بالحجاز ونتيجة لهذا أخذ يرسل الحملات العسكرية على مكة الحملة تلو الحملة خوفاً من اتخاذها قاعدة للانطلاق نحو قواته فى اليمن لمحاربته وأنه لم ينجح فى إبعاد الأيوبيين عن اليمن فحسب، بل نجح فى إبعادهم عن الحجاز وفرض نفوذه عليه بعد عدة حملات.

وبين البحث أن أحوال الدولة الأيوبية فى عهد الملك الصالح تردت إلى مرحلة من الضعف شديدة سببها انشغال الصالح فى الصراع مع أمراء البيت الأيوبى وتزايد الخطر الصليبى، وإغارة الخوارزمية على بلاد الشام مماأتاح الفرصة لنور الدين عمر بن رسول أن يستقر فى الحجاز ويتولى أموره ويترك نواباً تابعين له فيه حتى قتل.

وعند الحديث عن المجتمع الحجازى فى عهد الفاطميين والأيوبيين، أوضح البحث فى الناحية الاجتماعية أن المجتمع الحجازى كان يتكون فى تلك الفترة من طبقة الأشراف، أرباب الوظائف الدينية، المجاورون، طبقة العبيد، طبقة العامة.

وبين البحث أن لقب الأشراف كان يطلق على آل البيت من العلويين والعباسيين فلما استقل أبناء الحسن والحسين ابنى على بن أبى طالب بمكة والمدينة وتولوا الأمر بالحجاز أطلق عليهم لقب الأشراف، وصار هذا اللقب منذ تلك الفترة يطلق على أمراء الحرمين الشريفين وأفراد عائلتهم الذين كانوا يعتمدون عليهم فى إدارة شئون الإمارة ولم يكن هذااللقب معروفاً من قبل فى الحجاز.

وأوضح البحث أن الحجاز تأثر بالفاطميين كثيراً فى عدة أشياء نجملها فيما يلى :

* كما كان الفاطميون يرون فى إمامهم شخصاً مقدساً تحيطه هالة من الجلال والتنزيه أثر

هذا فى نظر أهل الحجاز إلى حكامهم من الأشراف، إذ يعد أن كان الأمراء فى مكة لايمتازون فى نظر رعاياهم بغير الإمارة التى لاتستحق التنزيه استطاع الأشراف أن يحيطوا مراكزهم بشيء من الجلال، وأن يطبعوا العامة على تقديسهم، وبالغوا فى هذا حتى عمّ الغلو فى تقديس كل شريف ينتسب إلى بيت الحاكمين.

* كما كان الفاطميون يميلون إلى مظاهر الترف والأبهة أثر هذا في حكام مكة من الأشراف وبدأت الأبهة تأخذ طريقها إلى مجالسهم ومواكبهم وحفلاتهم مما لاعهد لمكة به من قبل فشرعوا يحتجبون عن الرعية كما رتبوا لهم فرقة موسيقية تصدح بأنغامها أمام قصورهم وابتدعوا المواكب التى تمشى بين أيديهم كلما غدوا أو راحوا.

* كان فى الدولة الفاطمية عدد من الموظفين لوظائفهم صبغة دينية وكان أولئك الناس يعرفون بأرباب العمائم ومن أهم هذه الوظائف القضاة والدعاة والشهود العدول وقراء الحضرة والخطباء والقراء والمؤذنون فى الجوامع فوجدت بالحجاز وظائف القضاة والخطباء والأئمة والقراء والمؤذنين.

* كما كان فى مصر طبقة العبيد السودان الذين ظهر أمرهم فى أيام الخليفة الحاكم بأمر الله وأحرقوا القاهرة فى عهده حنقاً على المصريين الذين لم يرضوا عن سياسته، ونشط العبيد فى أيام الظاهر وتفاقم خطرهم فى عهد ابنة المستنصر ظهرت طبقة العبيد فى الحجاز وكانت كبيرة ولها دور فى الأحداث وأسهموا فى إثارة الشغب والفوضى بمكة.

* كان الفاطميون يحتفلون برأس السنة الهجرية احتفالاً كبيراً فتأثر الحجازيون بهم.

* كان الاحتفال بليالى الوقود الأربع من الاحتفالات الشهيرة فى الدولة الفاطمية ويحتفل بها أول شهر رجب ونصفه، وأول شهر شعبان ونصفه، وكان أهم مظاهر هذا الاحتفال إضاءة الجوامع والمساجد من الداخل والخارج فتتلألأ بالأضواء الساطعة وتصبح وكأنها شعلة من نور ويحتشد فيها الناس على مختلف طبقاتهم للتعبد ولقد تأثر الحجازيون بالفاطميين فى الاحتفال بهذه الليالى فكانوا يحتفلون بليلة أول رجب وليلة نصفه، بالإضافة إلى ليلة السابع والعشرين منه، وليلة أول شعبان وليلة نصفه.

* كان من عادة الفاطميين فى مصر الإعلان عن بداية شهر رمضان بخروج الخليفة فى موكب رسمى كبير على غرار موكب أول العام وفى الحجاز يتم الاحتفال بحلول شهر رمضان بموكب تضرب فيه الدبادب معلنة قيام هذا الشهر الكريم.

* كان الفاطميون يحتلفون بالمولد النبوى احتفالاً كبيراً وتأثر الحجازيون بهم فى ذلك وصار يومًا مشهوداً بمكة حيث تفتح المواضع المقدسة كلها فى هذا اليوم.

ومن النتائج التى توصل إليها البحث أن بلاد الحجاز لم تتأثر بالأيوبيين كما تأثرت بالفاطميين من قبل لضيق المدى الذى تمتع فيه الأيوبيون بنفوذهم هناك، بالإضافة إلى انشغال الأيوبيين بالجهاد وقتال الصليبيين، ولذا بقى حكام مكة على عاداتهم التى تأثروا فيها بالفاطميين واستمرت هذه العادات طوال العصرين الفاطمى والأيوبى.

وأوضح البحث أن الفاطميين قاموا بإرسال الكسوة للكعبة الشريفة منذ بداية عهد المعز لدين الله واستمرت مصر ترسل الكسوة أيضاً طوال العصر الأيوبى.

وبين البحث فى الناحية الاقتصادية أن العلاقات بين مصر والحجاز فى هذا الجانب كانت تمثل وضعاً مميزاً نظراً لما قام به حكام مصر فى العصرين الفاطمى والأيوبى من رعاية مالية واقتصادية لسكان الحجاز وأشرافه، فقد كانت قافلة الحاج المصرية تخرج كل عام من مصر إلى الحجاز تحمل الأموال والمؤن والغلال لأهل الحجاز.

وأوضح البحث أن الفاطميين كانوا يرسلون إلى الحجاز ثمانية آلاف وتسعمائة وأربعين إردباً من القمح فلما زالت الدولة الفاطمية وتولى الأيوبيون الحكم أمر صلاح الدين أن يرسل للحجاز ثمانية آلاف إردب من القمح كل عام، ونتيجة لهذا صارت أسعار القمح فى الحجاز مرتبطة بما ترسله مصر، فإن توقفت إمدادات مصر لهم ارتفعت أسعاره ارتفاعاً شديداً .

وبين البحث أن الصناعات فى الحجاز كانت تنحصر داخل حدود بالغة الضيق فاقتصرت على الحرف التى تفى بالضرورات الأولى وفى الأعمال اليدوية التى تتناول بعض المنتجات الزراعية التى تفى باشباع حاجات الاستهلاك اليومى مما جعلها تعتمد كثيراً على الصناعات المصرية .

وأوضح البحث أنه قد ترتب على التعاون الزراعى والصناعى بين مصر والحجاز ازدهار فى حركة التجارة ومما ساعد على نمو هذا الازدهار وجود الطرق البحرية، وكثرة المراسى التى ترسو فيها السفن المحملة بالبضائع مما ساعد على عملية التصدير والاستيراد.

وبين البحث أن التعامل فى عصر الفاطميين كان يعتمد على دينار الذهب ودرهم الفضة وأن الحجازيين تعاملوا بالدنانير والدراهم المصرية فكان هناك الدينار المعزى والدينار المغربى وفى عهد الحاكم بأمر الله ضربت السكة فى الحجاز باسمه، وفى عهد الأيوبيين ضربت الدراهم والدنانير باسم صلاح الدين الأيوبى، كما شاع فى مكة نوعان من الدراهم هما : الدراهم النقرة أو الكاملية وتنسب إلى الملك الكامل ، والدراهم المسعودية وتنسب إلى الملك المسعود.

وأوضح البحث أن مصادر الدخل المصرى لسكان الحجاز كانت متعددة الجوانب فقد كرست مصر قسطاً كبيراً من أموالها لمساعدة أهل مكة والمدينة هذا إلى جانب ما كانت توفرة قافلة الحاج المصرى السنوية لهؤلاء السكان من مصادر رزق سنوية ثابتة فى مقابل الخدمات التى يؤدونها للحجاج المصريين، وكان أمير الحاج يأخذ مبالغ سنوية من الخزانة المصرية لإعطاء الراتب السنوى لأمير الحجاز بالإضافة إلى أموال أخرى لسد نفقات المهام المكلف بها.

وبين البحث أن حكام مصر فى العصرين الفاطمى والأيوبى خصصوا ثلاثة أبواب لتمويل دخل أمراء الحجاز تتمثل فى المعونات المالية والمعونات التجارية والأوقاف .

وفى الناحية الفكرية توصل البحث إلى النتائج الآتية :

* انتشر مذهب الشيعة فى الحجاز عقب تولى الأشراف العلويين للحكم فى عهد الفاطميين فكانوا ينادون فى الآذان «حى على خير العمل» وظلوا بعد زوال الدولة الفاطمية يصومون شهر رمضان ويفطرون على حساب لهم ولم يلتزموا بالهلال.

* صار للحرم للحرم المكى خمسة أئمة أربعة سنيين وخامس زيدى.

* وفى العصر الأيوبى أصبح الإمام الشافعى مقدماً فى الحرم على أصحابه الآخرين نظراً لأن الأيوبيين كانوا يعتنقون المذهب الشافعى.

* استمر الشيعة يحكمون الحجاز فى عهد الأيوبيين وتعرض أهل السنة لبعض المتاعب معهم ويرجع ذلك لانشغال صلاح الدين بالجهاد ضد الصليبيين.

* أخذ العلماء وطلاب العلم ينتقلون بين مصر والحجاز بعضهم يعلم والبعض الآخر يتعلم وامتلأت حلقات العلم والدرس فى البلدين بالعديد من هؤلاء العلماء والطلاب .

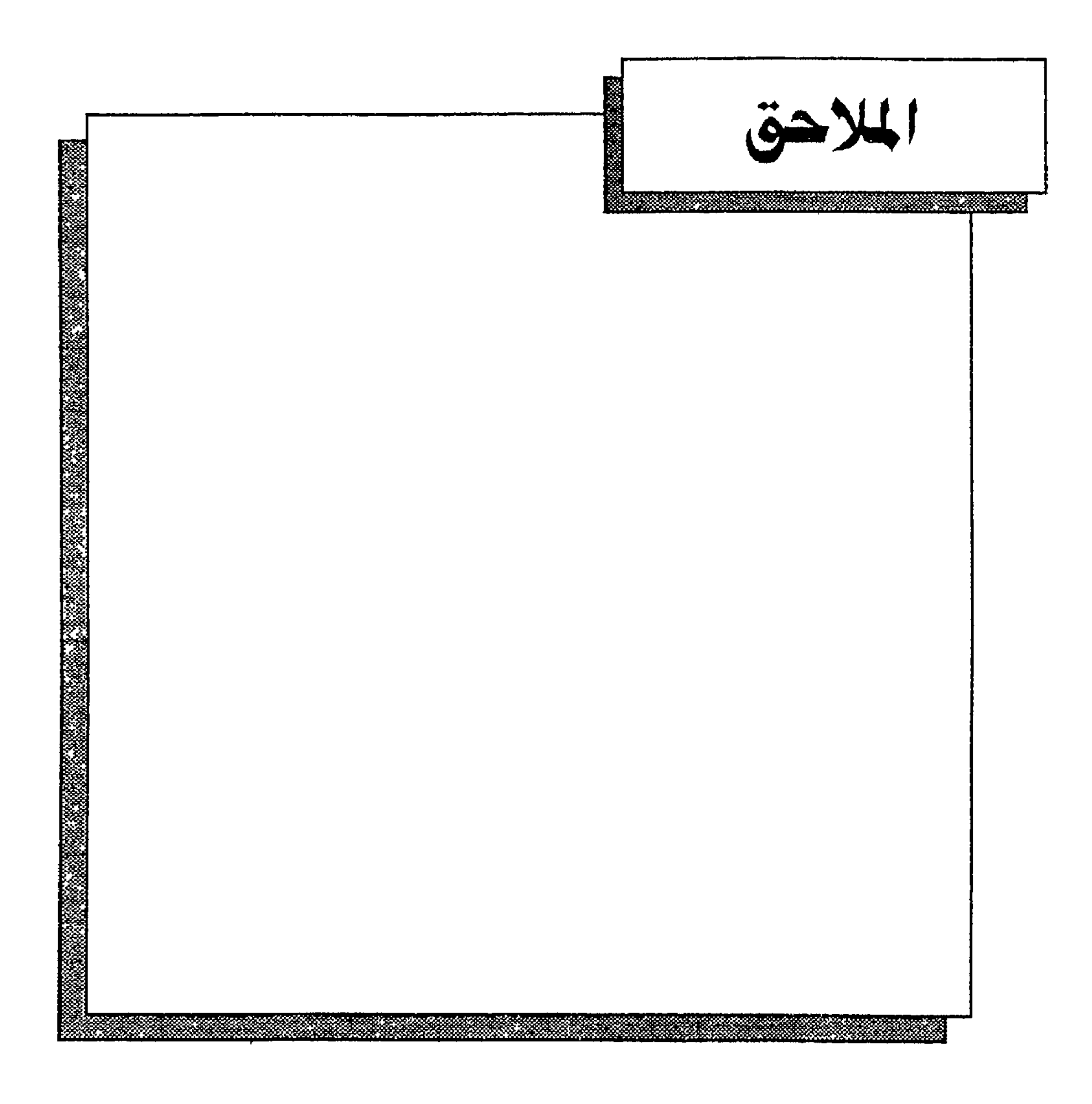
* كان لمصر دور بارز وواضح فى هذه الفترة فقد خرج منها الكثيرمن العلماء الذين استمروا يؤدون رسالاتهم جيلاً بعد جيل، ومنهم من ذهب إلى بلاد الحجاز للمجاورة والدرس والتحصيل ومنهم من ساهم فى نشر العلم وتنشيط الحركة العلمية بالحرمين الشريفين ثم عاد إلى مصر مرة أخرى.

* أقامت مصر المدارس فى بلاد الحجاز وخاصة فى العصر الأيوبى للقضاء على الحركة الشيعية بها كما حدث فى مصر وقام بالتدريس فيها علماء مصريون .

* خصصت مدارس فى مكة لتدريس المذهب الشافعى مثل مدرسة الأرسوفى .

* شهدت العلاقات الفكرية بين مصر والحجاز تفاعلاً مستمراً وارتباطاً وطيداً وأخذاً وعطاءً وكان هذا التفاعل المستمر ثمرة جهود طويلة بذلها علماء البلدين الذين قطعوا البلاد عرضاً وطولاً يعلمون ويتعلمون .

* * *


الملاحق

ملحق رقم (١)

الخلفاء الفاطميون بالمغرب ومصر

١- عبيد الله المهدي	٢٩٧هـ - ٩٠٩م
٢- القائم (محمد أبو القاسم)	٣٢٢هـ - ٩٣٤م
٣- المنصور (إسماعيل أبو طاهر)	٣٣٤هـ - ٩٤٥م
٤- المعز لدين الله (معد أبو تميم)	٣٤١هـ - ٩٥٢م
٥- العزيز بالله (نزار أبو منصور)	٣٦٥هـ - ٩٧٥م
٦- الحاكم بأمر الله (المنصور أبو علي)	٣٨٦هـ - ٩٩٦م
٧- الظاهر لإعزاز دين الله (علي أبو الحسن)	٤١١هـ - ١٠٢٠م
٨- المستنصر بالله (معد أبو تميم)	٤٢٧هـ - ١٠٣٥م
٩- المستعلي (أحمد أبو القاسم)	٤٨٧هـ - ١٠٩٤م
١٠- الآمر (المنصور أبو علي)	٤٩٥هـ - ١١٠١م
١١- الحافظ (عبد المجيد أبو الميمون)	٥٢٤هـ - ١١٣٠م
١٢- الظافر (اسماعيل أبو المنصور)	٥٤٤هـ - ١١٤٩م
١٣- الفائز (عيسى أبو القاسم)	٥٤٩هـ - ١١٥٤م
١٤- العاضد (عبد الله أبو محمد)	٥٥٥هـ - ١١٦٠م
	٥٦٧هـ / ١١٧١م[١]

(١) د/ جمال سرور . الدولة الفاطمية في مصر ص ١٨٣.

، د/ أحمد السعيد سليمان : تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة ج١ ص ١٣٣.

ملحق رقم (٢)

الأيوبيون في مصر

-الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب (زمن الوزارة للفاطميين) ٥٦٤هـ-١١٦٩م

-الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب (زمن إسقاط الفاطميين) ٥٦٩هـ-١١٧٤م

- العزيز عماد الدين عثمان ٥٨٩هـ-١١٩٣م

- المنصور محمد ٥٩٥هـ-١١٩٨م

- العادل الأول سيف الدين أبو بكر ٥٩٦هـ-١١٩٩م

- الكامل ناصر الدين محمد ٦١٥هـ-١٢١٨م

- العادل الثاني سيف الدين أبو بكر ٦٣٥هـ-١٢٣٨م

- الصالح نجم الدين أيوب ٦٣٧هـ-١٢٤٠م

- المعظم توران شاه ٦٤٧هـ-١٢٤٩م

- شجرة الدر (زوجة الملك الصالح نجم الدين أيوب) ٦٤٨هـ-١٢٥٠م

- الأشرف مظفر الدين موسى ٦٤٨-٦٥٠هـ

١٢٥٠-١٢٥٢م[١]

---

(١) د/ أحمد السعيد سليمان : تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة ج١ ص١٤٢ .

ملحق رقم (٣)

أشراف[1] بنو جعفر بمكة

- جعفر بن محمد ٣٥٨هـ[2]
- عيسى بن جعفر ٣٦٦هـ[3]
- أبو الفتوح حسن بن جعفر ٣٨٤هـ[4]
- تاج المعالى شكر بن أبي الفتوح ٤٣٠هـ[5]

(عقب وفاة شكر تولى أحد عبيده ويدعى طراد بن أحمد الحكم سنة ٤٥٣هـ ثم قاتله أشراف بني أبي الطيب السليمانيين واستولوا على الحكم إلى سنة ٤٥٤هـ وولوا محمد بن أبي الطيب بن عبد الرحمن)[6]

---

(١) يطلق الشريف في اللغة على الرجل الماجد ، أو من كان كريم الآباء ، ثم أطلق لقب الشريف على من كان من آل بيت الرسول - صلى الله عليه وسلم - شاملاً العلويين والجعفريين ومن الناس من قصره على ذرية الحسن والحسين ولعل الضعف الذي انتاب الدولة العباسية وظهور الدولة الفاطمية وقتها هو الذي جرأ على إطلاق لقب الشريف على من ينتمون إلى نسل علي من السيدة فاطمة بنت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - (البلاذري . أنساب الأشراف ج١ ص٢٠ تحقيق د/ محمد حميد الله - دار المعارف)

(٢) ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ص٤٧ ، الفاسي : شفاء الغرام ج٢ ص١٩٣ ، أحمد السباعي : تاريخ مكة ج١ ص١٩١

(٣) ابن خلدون : العبر ج٤ ص٦٥ ، الفاسي : العقد الثمين ج٦ ص٤٥٨ ، عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج١ ص٤٨٢ ، ويذكر زامباور أنه تولى سنة ٣٧٠هـ ولاندري علام استند في ذلك (انظر : زامباور : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة ص٣٠)

(٤) ابن خلدون : العبر ج٣ ص١٣٠ ، الفاسي : شفاء الغرام ج٢ ص١٩٤ ، ، العقد الثمين ج٦ ص٤٥٨ ، عمر بن فهد : إتحاف الورى ج٢ ص٤٢٣ ، عبد العزيز بن فهد . غاية المرام ج١ ص٤٨٢ ، دحلان : تاريخ الدول الإسلامية بالجداول المرضية ورقة ١٤٠ .

(٥) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج٨ ص٢٣١ ، دحلان : خلاصة الكلام ص١٧ .

(٦) ابن خلدون : العبر ج٤ ص١٣٢ ، ابن فضل الطبري : إتحاف فضلاء الزمن لوحة (١٢) ، دحلان : خلاصة الكلام ص١٧ - ١٨ .

ملحق رقم (٤)

أشراف بنو هاشم

- أبو هاشم محمد بن جعفر (زمن الولاية الأولى) ٤٥٤هـ - ٦ من ذى الحجة سنة ٤٥٥هـ[١]
- أبو هاشم محمد بن جعفر (زمن الولاية الثانية) ٤٥٦هـ[٢]
- قاسم بن أبي هاشم محمد بن جعفر ٤٨٧هـ[٣]
- فليتة بن قاسم ٥١٨هـ[٤]
- هاشم بن فليتة ٥٢٧هـ[٥]
- قاسم بن هاشم ٥٤٩هـ[٦]
- عيسى بن فليتة ٥٥٦هـ[٧]
- داود بن عيسى بن فليتة ٥٧٠هـ[٨]
- مكثر بن عيسى بن فليتة ٥٧١هـ[٩]
- داود بن عيسى (زمن الولاية الثانية) ٥٧٢هـ[١٠]
- مكثر بن عيسى (زمن الولاية الثانية) ٥٨٤هـ[١١]-٥٩٧هـ[١٢]

---

(١) الفاسي : العقد الثمين ج١ ص٤٣٩ ، شفاء الغرام ج٢ ص١٩٦ ، ابن عنبة : عمدة الطالب ص١٣٦ ، ابن فضل الطبري· إتحاف فضلاء الزمن لوحة (١٢) .

(٢) استولى علي بن محمد بن الصليحي صاحب اليمن على مكة في السادس من ذي الحجة سنة ٤٥٥هـ لضبط الأمور بها ثم أعاد تولية أبا هاشم محمد بن جعفر في ربيع الأول سنة ٤٥٦ هـ (انظر : ابن فضل الطبري : إتحاف فضلاء الزمن لوحة « ١٢ »).

(٣) ابن الوردي : تاريخ ابن الوردي ج٢ ص ١ ، الصباغ : تحصيل المرام لوحة (٢١٨) .

(٤) الفاسي . شفاء الغرام ج٢ ص١٩٧ ، ابن ظهيرة : الجامع اللطيف ص٣٠٧ ، عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج١ ص٥١٧ .

(٥) عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج١ ص٥٢٠ .

(٦) الفاسي : العقد الثمين ج٧ ص٣٦١ ، عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج١ ص٥٢٣ .

(٧) المصدر السابق ج٦ ص٤٦٥ .

(٨) زامباور : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة ص٣١ .

(٩) المصدر السابق .

(١٠) المصدر السابق .

(١١) المصدر السابق .

(١٢) عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج١ ص٥٥١ .

ملحق رقم (٥)

أشراف بنو قتادة

قتادة بن إدريس بن مطاعن	٥٩٧هـ[١]
الحسن بن قتادة	٦١٧هـ[٢] - ٦٢٠هـ[٣]
راجح بن قتادة (الولاية الأولى)	من ربيع الآخر ٦٢٩هـ -رمضان سنة ٦٣٢هـ[٤]
راجح بن قتادة (الولاية الثانية)	٦٣٥هـ-٦٣٧هـ[٥]
أبو سعد حسن بن علي بن قتادة	٦٤٧هـ-٦٥١هـ[٦]

(١) الصباغ : تحصيل المرام لوحة (٢١٩) ، ابن عنبة : عمدة الطالب ص١٤١ ، الجزيري : درر الفرائد ج١ ص٥٧٧ ، ابن ظهيرة : الجامع اللطيف ص٣٠٩ .

(٢) الفاسي : العقد الثمين ج٧ ص٥٨ ، زامباور : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة ص٣١ .

(٣) ابن ظهيرة : الجامع اللطيف ص ٣١ ، الطبري : إتحاف فضلاء الزمن لوحة (١٦)

(٤) الفاسي : العقد الثمين ج٤ ص٣٧٤ - ٣٧٥ .

(٥) المصدر السابق ص٣٧٧ .

(٦) عبد العزيز بن فهد : غاية المرام ج١ ص٦٣٣ .

ملحق رقم (٦)

السجل رقم (٣) من السجلات المستنصرية

للخليفة المستنصر بالله إلى علي بن محمد الصليحي صاحب اليمن يشكره فيه على مساندته لأمير مكة الشريف أبي هاشم محمد بن جعفر(١)

« وورد إلى حضرة أمير المؤمنين كتاب صاحب مكة - حرسها الله - يذكر أنك شددت معه حيازيم الجد ، بالتقوية من أمره والشد ، وشهرت في نصرته حساماً ماضي الحد ، حتى عاد جموع مراكب مراده ذلولاً ، وغرب من انتصر لعناده مغلولاً . فاستقامت أحوال الحرم الشريف بمقارنة هجرتك لنصره ، وامتيار سحابه من بحرك ، وأفاض في ثناء جميل ، وشكر جزيل ، أعجب أمير المؤمنين بهما ، فاهتز طرباً لهما ، فلقد كان على قلبه لأجل الحرم الشريف من الفكر ، ما يوفى على الذكر ، ولقد فعلت فعل الموفقين في المقال والفعال ، وحللت بما أتيت عقدة الإشكال ، وتعين عليك أن تكون أنت وإياه يداً واحدة ببذل المجهود ، فيما يرد ذلك المقام الشريف بالأمن والعمارة إلى أحسن العهود ، ويقضى على ما أوقد فيها على مر الأيام من نار الظلم بالخمود فيعود إلى ما قاله الله سبحانه : ﴿ وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود ﴾ وعهد إلى صاحب مكة أن يتخذك رداً في صلاح ما هو له ملابس ، وعهد إليك بأن لا تنزع عنك لباس إيالته الذي أنت لابس ، لينبدي تبعاً لكما - على البر والتقوى - عود من جرم الله سبحانه مائس ويقتبس أنوار بركاته في حمى الأمنة من هو لها قابس ، وأمير المؤمنين يسأل الله تعالى أن يجعلكما من عمار حرمه ، والمتعلقين من الهدي في طاعة وليه بأقوى عصمة ، ورسلك فقد بلا أمير المؤمنين أخبارهم ، فرضي آثارهم ، وبلغهم من التقرب إيثارهم وردهم نحوك معمورةً بالرضا أرجاء صدورهم ، ملاقية وجوههم بشر نجاح السعي في أمورهم ، غير أنه قد استأثر الله من جملتهم محمد بن عصية ، والله تعالى يرحمه ، فإنه واسع المغفرة لمن أدركه دعاء أمير المؤمنين وترحمه ، وما يعلمك أمير المؤمنين به

---

(١) د. عبد المنعم ماجد : السجلات المستنصرية ص٣٧ - ٣٨ .

أنه ندب لعمال دولته ووزراء مملكته أقدم أهلها في الخبرة بصلاحها قدما وأطلقهم بالخطابة لساناً وبالكتابة قلماً ، والندب الذي هو جالينوس طبها ، والحال محل الحبة من قلبها : الوزير الأجل أبا الفرج عبد الله بن محمد أدام الله عزه وأسعده وأحسن به الامتناع ، وتولى عنه الدفاع وعضده والله تعالى يبارك لأمير المؤمنين في حسن اختياره ويحسن المعونة لوزيره في إيراده وإصداره ، فاجعله وجهتك التي توليها في طلباتك والغرض الذي ترميه بمخاطبتك ومكاتباتك بإذن الله تعالى ، وقد صدر إليك من مجلسه ثبت بما حمل على أيدي رسلك وجددت النعمة فيه عليك

فاعلم ذلك من رأي أمير المؤمنين ورسمه ، واعمل عليه وبحكمه ، إن شاء الله

والسلام عليكم.

الحمد لله وصلواته على رسوله سيدنا محمد خاتم النبيين ، وعلى أبرار عترته الأئمة الطاهرين ، وسلامه ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ».

ملحق رقم (٧)

ما كتب به العاضد الخليفة الفاطمي في طرة العهد المكتتب عنه بالوزارة للسلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب قبل استقلاله بالسلطنة[١] .

هذا عهد أمير المؤمنين إليك ، وحجته عند الله تعالى عليك فأوف بعهدك ويمينك ، وخذ كتاب أمير المؤمنين بيمينك ، ولمن مضى بجدنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أحسن أسوة ، ولمن بقي بقربنا سلوه ﴿ تلك الدار الأخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ، ولا فساداً ، والعاقبة للمتقين ﴾ [٢] .

(١) د. جمال الدين الشيال : مجموعة الوثائق الفاطمية - المجلد الأول ص٤١٩ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٨٥م .

(٢) سورة القصص : اية ٨٣ .

ملحق رقم (٨)

من كتاب صلاح الدين إلى الأمير مكثر أمير مكة ينهاه فيه عن الجور

بسم الله الرحمن الرحيم

أعلم أيها الأمير الشريف أنه ما أزال نعمة عن أماكنها ، وأبرز الهمم عن مكامنها ، وأثار سهم النوائب عن كنانتها ، كالظلم الذي لا يعفو الله عن فاعله ، والجور الذي لايفرق في الإثم بين قائله وقابله ، فإما رهبت ذلك الحرم الشريف ، وأجللت ذلك المقام المنيف ، وإلا قوينا العزائم وأطلقنا الشكائم ، وكان الجواب ما تراه لا ما تقرأه ، وغير ذلك فإنا نهضنا إلى ثغر مكة المحروسة في شهر جمادي الآخرى طالبين الأولى والأخرى ، في جيش قد ملأ السهل والجبل ، وكظم على أنفاس الرياح فلم يتسلسل بين الأسل وذلك لكثرة الجيوش وسعادة الجموع ، وقد صارت عوامل الرماح تعطى في بحار الدر[1] .

---

(١) تقي الدين الفاسي : العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين ج٧ ص ٢٧٨ ، عمر بن فهد : إتحاف الورى بأخبار أم القرى ج٢ ص٥٦٧ - ٥٦٨ ، عبد العزيز بن فهد : غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام ج١ ص٥٤٣ .

المصادر والمراجع

فهرس المصادر والمراجع

أولاً: المخطوطات:

ابن أبى الهيجاء

(المؤلف كان معاصراً للسلطان صلاح الدين الأيوبى[١]، وقد يكون من نسل الأمراء الأكراد بنى الهيجاء[٢]، ولم نعثر له على ترجمة فى أى مصدر أو مرجع سوى ذلك)

١ – الأول فى تاريخ ابن أبى الهيجاء[٣].
مخطوط مصور بمعهد المخطوطات العربية بالميكروفيلم تحت رقم ٩٤٥.

ابن بسام

(محمد بن أحمد المحتسب التنيسى)

٢ – أنيس الجليس فى أخبار تنيس
مخطوط مصور بالميكروفيلم برقم ٣٠١٨٧ بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٠٠ بلدان تيمور

الحسينى

(رضى الدين بن محمد بن حيدر الحسينى الموسوى العاملى المكى، ت ١١٦٣هـ)

٣ – تنضيد العقود السنية بتمهيد الدولة الحسنية
مخطوط مصور بالميكروفيلم بمعهد المخطوطات العربية تحت رقم ١٥٣٠.

(١) فؤاد سيد : فهرس المخطوطات المصورة بمعه المخطوطات العربية ج٢ تاريخ قسم ٣ ط ١٩٥٩ برقم ٩٤٥.

(٢) شاكر مصطفى : التاريخ العربى والمؤرخون ج٢ ص ٢٩٥.

(٣) هذا المخطوط مرتب على السنوات من أول الهجرة فبدأ بسيرة النبى – صلى الله عليه وسلم – ثم بمن بعده من الخلفاء وينتهى حتى سنة ٥٨٩هـ فى عصر السلطان صلاح الدين الأيوبى وحروبه مع الصليبيين وقد كتب بقلم معتاد قديم فى ٢٠٦ ورقة ومسطرتها ٢٣ سطراً .

دحلان		(أحمد بن زينى ت ١٢٠٤هـ)
	٤	- تاريخ الدول الإسلامية بالجداول المرضية مخطوط مصور تصويراً شمسياً بمكتبة مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية.
سبط ابن الجوزى		(أبو محمد يوسف سبط أبى الفرج عبد الرحمن بن الجوزى ت ٦٥٤هـ).
	-٥	- الجزء الثامن من مرآة الزمان (٤٩٥هـ - ٦٤٥هـ) نسخة مصورة تصويراً شمسياً بمكتبة الجامعة الأمريكية بالقاهرة تحت رقم D. 152. 55 .
الصباغ المكى		(محمد بن أحمد بن سالم بن محمد) من أعلام ق ١٣هـ
	٦	- تحصيل المرام فى أخبار البيت الحرام والمشاعر العظام مخطوط مصور بالميكروفيلم برقم ٤٣٢٣١ بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢١٦٣ تاريخ .
الطبرى		(محمد بن على بن فضل بن عبد الله بن المحب الطبرى الحسينى الشافعى ت ١١٧٣هـ)
	٧	- اتحاف فضلاء الزمن بتاريخ ولاية بنى الحسن مخطوط مصور بدار الكتب المصرية بالميكروفيلم رقم ١٤٣٣٣ تاريخ تيمور برقم ٢٢٠٦.
الطبرى		(محى الدين على بن عبد القادر الشافعى الحسينى ت ١٠٧٠هـ).
	٨	- الأرج المسكى فى التاريخ المكى مخطوط مصور بدار الكتب المصرية بالميكروفيلم رقم ٢٣١٩ تاريخ تيمور برقم ٢٢٠٥.

ابن العاقولى (غياث الدين محمد بن محمد بن عبد الله بن محمد بن على بن حماد بن ثابت ت ٧٩٧هـ).

٩ - عرف الطيب من أخبار مكة ومدينة الحبيب.
مخطوط مصور بدار الكتب المصرية بالميكروفيلم رقم ١٠٩٤٦ تحت رقم ٥٢٧٤٠ تاريخ.

القاضى النعمان (أبو حنيفة النعمان بن أبى عبد الله محمد بن منصور ابن أحمد بن حيون ت ٣٦٣هـ).

١٠ - المجالس والمسايرات
مخطوط مصور بالتصوير الشمسى بمكتبة جامعة القاهرة برقم ٢٦٤٠٨.

المصادر العربية المطبوعة :

ابن الآبار (أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبى بكر القضاعى، ت ٦٥٨هـ)

١١ - الحلة السيراء
ج١ تحقيق د/ حسين مؤنس، الطبعة الأولى ١٩٦٣م.

ابن الأثير (على بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيبانى ت٦٣٠هـ)

١٢ - الكامل فى التاريخ
راجعه وصححه /د. محمد يوسف الدقاق، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م دار الكتب العلمية / بيروت .

ابن الأخوة (محمد بن محمد بن أحمد القرشى ٦٤٨هـ - ٧٢٩هـ)

١٣ - كتاب معالم القربة فى أحكام الحسبة
تحقيق : محمد محمود شعبان وصديق المطيعى - الهيئة. المصرية العامة للكتاب ١٩٧٦م.

الإدريسى (أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن إدريس الحمودى الحسنى من أعلام ق ٦ هـ).

١٤ - كتاب نزهة المشتاق فى إختراق الآفاق
عالم الكتب - ط ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م ونسخة أخرى نشر مكتبة الثقافة الدينية بالظاهر

ابن إياس (محمد بن أحمد ٩٣٠هـ - ١٥٢٤م)

١٥ - بدائع الزهور فى وقائع الدهور
ج١ ق١ تحقيق محمد مصطفى - القاهرة ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م

بامخرمة (أبو محمد الطيب بن عبد الله بن أحمد بن على ت٩٤٧هـ)

١٦ - تاريخ ثغر عدن وتراجم علمائها
الطبعة الثانية ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م دار الجيل / بيروت ، دار عمار / عمان

ابن بطوطة (أبو عبد الله محمد بن عبد الله اللواتى ٧٠٣هـ)

١٧ - رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار.
تحقيق د. على المنتصر الكتانى - الطبعة الرابعة ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م - مؤسسة الرسالة.

البلاذري (أبو العباس أحمد بن يحيى بن جابر بن داود البغدادى ت ٢٧٩هـ - ٨٩٢م).

١٨ - فتوح البلدان
تعليق رضوان محمدرضوان - دار الكتب العلمية - بيروت ١٣٩٨هـ- ١٩٧٨م.

١٩ - أنساب الأشراف
ج١ تحقيق د/ محمد حميد الله - أخرجه معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية بالاشتراك مع دار المعارف بمصر.

البلوي (أبو محمد عبد الله بن محمد المديني)
٢٠ - سيرة أحمد بن طولون
تحقيق محمد كرد علي - الناشر مكتبة الثقافة الدينية بالقاهرة.

ابن تغري بردي (جمال الدين أبو المحاسن يوسف ٨١٣-٨٧٤هـ)
٢١ - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة
مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة ١٣٥٢هـ - ١٩٣٣م

ابن جبير (أبو الحسين محمد بن أحمد ٥٣٩-٦١٤هـ).
٢٢ - رحلة ابن جبير
دار بيروت للطباعة والنشر ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.

الجزيري (عبد القادر بن محمد بن عبد القادر بن إبراهيم الأنصاري ت ٩١١هـ)
٢٣ - الدرر الفرائد المنظمه في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة
الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م أعده للنشر حمد الجاسر - دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر بالرياض .

ابن الجوزي (أبو الفرج عبد الرحمن بن علي ت ٥٩٧هـ)
٢٤ - المنتظم في تاريخ الملوك والأمم
الطبعة الأولى - مطبعة دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد سنة ١٣٥٨هـ.

ابن الحاج (أبو عبد الله محمد بن محمد العبدرى ت ٧٣٧هـ - ١٣٣٦م).
٢٥ - المدخل (أربعة أجزاء)
دار الفكر ١٤٠١هـ - ١٩٨١م

ابن حجر العسقلاني (شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن على ٧٧٣هـ - ٨٥٢هـ)
٢٦ - كتاب الإصابة فى تمييز الصحابة
ج٣ المطبعة الشرفية ١٣٢٥هـ - ١٩٠٧م

الحريري (أحمد بن علي بن أحمد)
٢٧ - الإعلام والتبيين في خروج الفرنج الملاعين على بلاد المسلمين
تحقيق د/ مهدي رزق الله أحمد - دار الدعوة للطباعة والنشر والتوزيع ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤م

ابن حزم (أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد ٣٨٤ - ٤٥٦ هـ)
٢٨ - جمهرة أنساب العرب
تحقيق د/ عبد السلام محمد هارون - الطبعة الثالثة - دار المعارف بمصر ١٣٩١ هـ - ١٩٧١م

ابن حماد (أبو عبد الله محمد بن علي ت ٦٢٨ هـ - ١٢٣١م)
٢٩ - أخبار ملوك بنيْ عبيد وسيرتهم
تحقيق ودراسة : د/ التهامي نقرة ، د/ عبد الحليم عويس - دار الصحوة للنشر والتوزيع

الحميري (محمد عبد المنعم الصنهاجي ت ٩٠٠ هـ)
٣٠ - الروض المعطار في خبر الأقطار - معجم جغرافي
تحقيق د/ إحسان عباس - مكتبة لبنان - الطبعة الثانية - ١٩٨٤م

ابن حوقل
(محمد بن علي بن حوقل البغدادي الموصلي أبو القاسم ت ٣٥٠ هـ - ٩٦١م)
٣١ - كتاب صورة الأرض
القسم الأول - الطبعة الثانية - ليدن ١٩٦٧م

الخزرجي
(أبو الحسن علي بن الحسن ، ٨١٢ هـ - ١٤٠٩م)
٣٢ - العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية
تصحيح الشيخ محمد بسيوني عسل ج١ مطبعة الهلال بالفجالة بمصر ١٣٢٩ هـ - ١٩١١م

ابن خلدون
(ولي الدين أبو زيد عبد الرحمن بن محمد ٧٣٢ هـ ٨٠٨م)
٣٣ - تاريخ ابن خلدون المسمى العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر - تحقيق خليل شحادة ، مراجعة د/ سهيل زكار دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع - الطبعة الأولى ١٤٠١ هـ - ١٩٨١م

ابن خلكان
(أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر ٦٠٨ هـ - ٦٨١ هـ)
٣٤ - وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان
نسخة تحقيق د/ إحسان عباس دار الثقافة - بيروت ١٩٧٠م ، دار صادر بيروت ١٩٧٧م ونسخة أخرى تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد - مكتبة النهضة المصرية ط أ ١٣٦٧ هـ - ١٩٤٨م

الخوارزمي
(محمد بن أحمد بن يوسف ت ٣٨٧ هـ)
٣٥ - مفاتيح العلوم
تحقيق إبراهيم الإبياري
الطبعة الأولى ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ بيروت

دحلان

(أحمد بن زيني ت ١٢٠٤ هـ)

٣٦ - خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام
الناشر/ مكتبة الكليات الأزهرية ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧م

ابن دقماق

(صارم الدين ، إبراهيم بن محمد بن أيدمر العلائي ت ٨٠٩ هـ)

٣٧ - الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين
تحقيق محمد كمال الدين عز الدين علي - عالم الكتب- بيروت - الطبعة الأولى ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥م

٣٨ - الانتصار لواسطة عقد الأمصار
- مشورات دار الآفاق الجديدة - بيروت

الذهبي

(الحافظ شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز بن عبد الله التركماني ت ٧٤٨ هـ)

٣٩ - العبر في خبر من غبر
تحقيق أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول - دار الكتب العلمية - بيروت ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥م

ابن رستة

(أبو علي أحمد بن عمر)

٤٠ - كتاب الأعلاق النفيسة
ليدن ١٩٨١م .

الرشيدي

(الشيخ أحمد)

٤١ - حسن الصفا والابتهاج بذكر من ولي إمارة الحاج
تحقيق د/ ليلي عبد اللطيف أحمد - مكتبة الخانجي بمصر ١٩٨٠م

ابن زولاق
(الحسن بن إبراهيم ت ٣٨٧ هـ)
٤٢ - كتاب أخبار سيبويه المصري
نشر/ محمد إبراهيم أسعد ، حسين الديب - الطبعة الثانية ١٤١٠ هـ

ابن الساعي الخازن
(أبو طالب علي بن أنجب تاج الدين ت ٦٧٤ هـ)
٤٣ - ج٩ من الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير
تحقيق مصطفى جواد - المطبعة السريانية الكاثوليكية ببغداد ١٣٥٣ هـ - ١٩٣٤م

ابن سعيد
(علي بن موسى بن محمد بن عبد الملك ت ٦٧٣ هـ)
٤٤ - المغرب في حلي المغرب والمشرق في حلي المشرق
(ليدن ١٨٩٨ - ١٨٩٩م)
٤٥ - النجوم الزاهرة في حلي حضرة القاهرة
(القسم الخاص بالقاهرة من كتاب المغرب في حلي المغرب) تحقيق د/ حسين نصار - مطبعة دار الكتب ١٩٧٠م

السمهودي
(علي بن عبد الله بن أحمد الحسني ت٩١١/١٥٠٦م)
٤٦ - الوفا بما يجب لحضرة المصطفى
من كتاب رسائل في تاريخ المدينة - إشراف حمد الجاسر
منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر - الرياض

السيوطي
(جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن بن أبي بكر ت ٩١١ هـ - ١٥٠٦م)
٤٧ - تاريخ الخلفاء
تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد - دار الفكر - بيروت

أبو شامة
(شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن بن إسماعيل ت ٦٦٥ هـ)
٤٨ – الروضتين في أخبار الدولتين
ج٢ القاهرة ١٢٨٧ هـ - ١٨٧٠م
٤٩ – الذيل على الروضتين – القاهرة ١٩٤٧م

ابن شاهنشاه
(محمد بن تقى الدين عمر ٥٦٧ – ٦١٧هـ)
٥٠ – مضمار الحقائق وسر الخلائق
تحقيق د/ حسن حبشى
عالم الكتب سنة ١٩٦٨م

ابن شداد
(القاضي بهاء الدين ت ٦٣٢ هـ - ١٢٣٤م)
٥١ – النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية
تحقيق د/ جمال الدين الشيال – الطبعة الأولى ١٩٦٤م- الدار المصرية للترجمة والتأليف والنشر

الشهرستاني
(أبو الفتح محمد بن عبد الكريم ت ٥٤٨ هـ – ١١٥٣م)
٥٢ – الملل والنحل
تحقيق محمد سيد كيلاني – مطبعة مصطفى الحلبي ١٣٩٦ هـ ١٩٧٦م

الشيزري
(عبد الرحمن بن نصر بن عبد الله ت حوالي ٥٨٩ هـ – ١١٩٣م)
٥٣ – نهاية الرتبة في طلب الحسبة
تحقيق السيد الباز العريني – مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٦٥ هـ - ١٩٤٦م

الاصطخري
(أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي الكرخي)
٥٤ - مسالك الممالك - ليدن ١٩٦٧م

ابن الصيرفي
(أبو القاسم علي بن منجب بن سليمان)
٥٥ - الإشارة إلى من نال الوزارة
تحقيق عبد الله مخلص (عن النسخة الوحيدة المحفوظة في خزانة الكتب الخالدية ببيت المقدس) طبع المعهد العلمي الفرنسي بالقاهرة ١٩٢٣م

الطبري
(أبو جعفر محمد بن جرير ٢٢٥ هـ - ٣١٠ هـ)
٥٦ - تاريخ الرسل والملوك
تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - الطبعة الرابعة - دار المعارف بمصر

ابن الطقطقي
(محمد بن علي)
٥٧ - الفخري في الآداب السلطانية
تحقيق محمد عوض إبراهيم - علي الجارم - الطبعة الثانية - دار المعارف

ابن ظافر
(جمال الدين علي)
٥٨ - أخبار الدول المنقطعة
دراسة تحليلية للقسم الخاص بالفاطميين مع مقدمة وتعقيب أندريه فرية
مطبوعات المعهد العلمي الفرنسي بالقاهرة ١٩٧٢م

ابن ظهيرة
(جمال الدين محمد جاد الله بن محمد نور الدين بن أبي بكر بن علي)
٥٩ - الجامع اللطيف في فضل مكة وأهلها وبناء البيت الشريف
الطبعة الثانية ١٣٥٧ هـ ١٩٣٨م مطبعة عيسى البابي الحلبي بمصر .

العباسي
(أحمد بن عبد الحميد ، من أعلام ق١٠ هـ)
٦٠ - عمدة الأخبار في مدينة المختار
الطبعة الخامسة - مكة ١٣٥٩ هـ

ابن عبد البر
(أبو عمر بن يوسف بن عبد الله بن محمد ت ٤٦٣ هـ)
٦١ - الاستيعاب في معرفة الأصحاب
ج٢ تحقيق علي البجاوي - الطبعة الأولى - مكتبة نهضة مصر

ابن عبد الحق
(صفي الدين عبد المؤمن ت ٧٣٩ هـ)
٦٢ - مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع
تحقيق عليّ البجاوي - الطبعة الأولى ١٣٧٣ هـ / ١٩٥٤م دار إحياء الكتب العربية

ابن عبد الحكم
(أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله ت ٢٥٧ هـ / ٨٧١م)
٦٣ - فتوح مصر والمغرب
تحقيق عبد المنعم عامر - لجنة البيان العربي

ابن عبد الغني
(أحمد جلبي ت حوالي ١١٥٠ هـ)
٦٤ - أوضح الإشارات فيمن ولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات
تحقيق د/ فؤاد الماوي - دار الأنصار بالقاهرة ١٩٧٧م

ابن العربي
(القاضي أبو بكر ٤٦٨ - ٥٤٣ هـ)
٦٥ - العواصم من القواصم في تحقيق مواقف الصحابة بعد وفاة النبي - ﷺ -
تحقيق محب الدين الخطيب ١٣٨٩ هـ

عبد القاهر

(أبو منصور عبد القاهر بن طاهر البغدادي ت ٤٢٩ هـ)

٦٦ - الفَرْق بين الفِرَق

تحقيق طه عبد الرءوف - الناشر مؤسسة الحلبي بالقاهرة

عبد اللطيف

(عبد اللطيف البغدادي بن يوسف بن محمد بن علي بن موفق الدين ٥٥٧ . ٦٢٩ هـ)

٦٧ - كتاب الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر

الطبعة الأولى ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣م دار قتيبة - دمشق

ابن عبد الحميد

(تاج الدين عبد الباقي ت ٧٤٣ هـ - ١٣٤٣م)

٦٨ - بهجة الزمن في تاريخ اليمن

تحقيق مصطفى حجازي - القاهرة ١٩٦٥م

العصامي

(عبد الملك بن حسين بن عبد الملك ١٠٤٩هـ - ١١١١هـ)

٦٩ - سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي

المطبعة السلفية - بدون تاريخ

العماد الأصفهاني

(عماد الدين محمد بن محمد بن حامد ٥١٩ هـ - ٥٩٧ هـ)

٧٠ - سنا البرق الشامي

اختصار الفتح بن علي البنداري من كتاب البرق الشامي ٥٥٢ - ٥٨٣ هـ

تحقيق د/ فتحية النبراوي - مكتبة الخانجي بمصر ١٩٧٩م

٧١ - تاريخ دولة آل سلجوق

الطبعة الثانية - دار الآفاق الجديدة - بيروت ١٩٧٨م

ابن العماد الحنبلي
(أبو الفلاح عبد الحي ت ١٠٨٩ هـ)
٧٢ - شذرات الذهب في أخبار من ذهب
الطبعة الأولى ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩م دار الفكر للطباعة والنشر ونسخة أخرى من منشورات دار الآفاق الجديدة - بيروت

العمري
(شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله ٧٠١ - ٧٤٩ هـ)
٧٣ - مسالك الأبصار في ممالك الأمصار
نسخة تحقيق أيمن فؤاد سيد - المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية ١٩٨٥م ونسخة أخري تحقيق دوروتيا كرافوتسكي - المركز الإسلامي للبحوث - بيروت
ط أ ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٦م

ابن عنبة
.(جمال الدين أحمد بن علي الحسني ت ٨٢٨ هـ)
٧٤ - عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب
الطبعة الثانية ١٣٨٠ هـ - ١٩٦١م - النجف

العوتبي
(سلمة بن مسلم العوتبي الصحاري)
٧٥ - الأنساب
سلطنة عمان - وزارة التراث القومي والثقافي ١٤٠٢ هـ - ١٩٨١م

الفاسي
(تقي الدين محمد بن أحمد بن علي الفاسي المكي ٧٧٥-٨٣٢م)
٧٦ - شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام (جزءان)
دار الكتب العلمية - بيروت
٧٧ - العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين (ثمانية أجزاء)
ج١ تحقيق محمد حامد الفقي ط٢ (١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦م) مؤسسة الرسالة

ج٢ - ج٧ تحقيق فؤاد سيد ط٢ (١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦م) مؤسسة الرسالة
ج٨ تحقيق محمود محمد الطناحي ط٣ (١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦م مؤسسة الرسالة

ابو الفدا
(عماد الدين إسماعيل ت ٧٣٢ هـ)
٧٨ - المختصر في أخبار البشر ج١ ط أ المطبعة الحسينية المصرية
٧٩ - كتاب تقويم البلدان - طبع باريس ١٨٤٠ هـ

ابن فرج الجُدّي
(عبد القادر بن أحمد بن محمد ت ١٠١٠ هـ)
٨٠ - السلاح والعُدّة في تاريخ جُدّة
تحقيق مصطفى الحدري - الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨م دار ابن كثير - دمشق

ابن الفقيه
(أبو بكر أحمد بن محمد الهمداني)
٨١ - مختصر كتاب البلدان
طبع بمدينة ليدن ١٩٦٧م

ابن فهد
(محمد بن محمد بن محمد بن فهد القرشي الهاشمي الشهير بعمر ت ٨٨٥ هـ)
٨٢ - إتحاف الورى بأخبار أم القرى
(ثلاثة أجزاء) تحقيق فهيم محمد شلتوت - جامعة أم القرى بمكة المكرمة ١٩٨٣م

ابن فهد
(عز الدين عبد العزيز بن عمر بن محمد بن فهد الهاشمي القرشي ت ٩٢٢ هـ)
٨٣ - غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام
ج١ تحقيق فهيم محمد شلتوت - جامعة أم القرى بمكة المكرمة ط أ ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦م

ابن الفوطي
(كمال الدين أبو الفضل عبد الرازق ٦٤٢ هـ - ٧٢٣هـ)
٨٤ - الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة
المكتبة العربية ببغداد ١٣١٥ هـ - ١٩٣٢م

ابن القاسم
(يحيى بن الحسين ت ١١٠٠ هـ - ١٦٨٩م)
٨٥ - غاية الأماني في أخبار القطر اليماني (جزءان)
تحقيق د/ سعيد عاشور - القاهرة ١٩٦٨م

ابن قتيبة
(أبو محمد عبد الله بن مسلم ت ٢٧٦ هـ)
٨٦ - الإمامة والسياسة
الطبعة الأخيرة ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٩م شركة مصطفى البابي الحلبي

ابن قدامة
(أبو الفرج قدامة بن جعفر بن قدامة - ت لبضع وثلثمائة)
٨٧ - الخراج وصنعة الكتابة
شرح وتعليق د/ محمد حسين الزبيدي - العراق - دار الرشيد للنشر ١٩٨١م

القرطبي
(عريب بن سعد)
٨٨ - صلة تاريخ الطبري
ذخائر العرب (١١) تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم
دار المعارف بمصر

القرماني
(أبو العباس أحمد بن يوسف بن أحمد الدمشقي)
٨٩ - أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ
عالم الكتب بيروت - مكتبة المتنبي بالقاهرة - مكتبة سعد الدين بدمشق

القزويني
(زكريا بن محمد بن محمود ت ١٢٨٣م)
٩٠ - آثار البلاد وأخبار العباد
دار صادر بيروت - ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩م

ابن القلانسي
(أبو يعلي حمزة بن أسد بن علي بن محمد التميمي ٤٧٠ - ٥٥٥ هـ)
٩١ - ذيل تاريخ دمشق (٣٦٠ - ٥٥٥ هـ)
ط أ ١٩٨٣م - ١٤٠٣ هـ تحقيق د/ سهيل زكار - دار حسان للطباعة والنشر - دمشق

القلقشندي
(أبو العباس أحمد بن علي ت ٨٢١ هـ - ١٤١٨م)
٩٢ - صبح الأعشى في صناعة الانشا
المطبعة الأميرية بالقاهرة ١٣٣٢ هـ - ١٩١٤م
٩٣ - مآثر الإنافة في معالم الخلافة
تحقيق عبد الستار أحمد فراج - عالم الكتب - بيروت ط أ ١٩٦٤م

الكتبي
(محمد بن شاكر ٧٦٤ هـ)
٩٤ - فوات الوفيات والذيل عليها
تحقيق د/ إحسان عباس - دار صادر - بيروت

ابن كثير
(عماد الدين أبو الفدا إسماعيل بن عمر ت ٧٧٤ هـ)
٩٥ - البداية والنهاية في التاريخ
ط٢ ١٩٧٧م مكتبة المعارف - بيروت ونسخة أخرى لمطبعة السعادة بمصر

الكندي
(أبو عمر محمد بن يوسف ت ٣٥٠ هـ)
٩٦ - تاريخ ولاة مصر ، ويليه كتاب تسمية قضاتها
ط أ ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧م مؤسسة الكتب الثقافية - بيروت

مالك
(مالك بن أنس ت ١٧٩ هـ)
٩٧ - الموطأ
رواية محمد بن الحسن الشيباني ط٢ تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف - المكتبة العلمية

الماوردي
(أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري ٣٧٠ هـ - ٤٥٠ هـ)
٩٨ - الأحكام السلطانية والولايات الدينية
ط أ دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٣م

ابن المجاور
(جمال الدين أبو الفتح يوسف بن يعقوب بن محمد)
٩٩ - صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز المسماة تاريخ المستبصر
تحقيق أوسكر لوفغرين - ليدن ١٩٥١م

المراغي
(أبو بكر بن الحسين بن عمر ٧٢٧ هـ - ٨١٦هـ)
١٠٠ - تحقيق النصرة بتلخيص معالم دار الهجرة
تحقيق محمد عبد الجواد الأصمعي - المكتبة العلمية بالمدينة المنورة
ط٢ ١٤٠١ هـ - ١٩٨١م

المسبحي
(الأمير المختار عز الملك محمد بن عبيد الله بن أحمد ٣٦٦-٤٢٠هـ)
١٠١ - الجزء الأربعون من أخبار مصر
تحقيق أيمن فؤاد سيد وتياري بيانكي - المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة - القسم التاريخي

المسعودي
(أبو الحسن علي بن الحسين ت ٣٤٦ هـ)
١٠٢ - التنبيه والإشراف
تصحيح ومراجعة عبد الله إسماعيل الصاوي - المكتبة العصرية - بغداد ١٣٥٧ هـ - ١٩٣٨ م
١٠٣- مروج الذهب ومعادن الجوهر
تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد
المكتبة العصرية - بيروت - ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م

مسلم
(الإمام)
١٠٤ - صحيح مسلم
ج١ ، ٢ - مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر

المقدسي
(شمس الدين أبو عبد الله بن محمد بن أحمد بن أبي بكر البناء الشامي ٣٨٠ هـ)
١٠٥ أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم
ط٢ ليدن ١٩٠٩ م وطبعة أخرى ١٩٦٧م

المقريزي
(تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي ت ٨٤٥هـ)
١٠٦ - كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية - دار صادر بيروت
١٠٧- السلوك لمعرفة دول الملوك
ج١ ق ١ تحقيق د/ محمد مصطفى زيادة دار الكتب المصرية ١٩٣٤م
١٠٨- اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا
ج ١ تحقيق د. جمال الدين الشيال - القاهرة ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧ م
ج ٢ تحقيق د/ محمد حلمي محمد أحمد - القاهرة ١٣٩٠ هـ - ١٩٧١م
ج ٣ تحقيق د/ محمد حلمي محمد أحمد - القاهرة ١١٣٩هـ - ١٩٧٣م

١٠٩ - الذهب المسبوك فيمن حج من الخلفاء والملوك
تحقيق د/ جمال الدين الشيال - مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٥م

١١٠ - كتاب المقفي الكبير (تراجم مغربية ومشرقية من الفترة العبيدية)
اختيار وتحقيق محمد اليعلاوي - دار الغرب الإسلامي بيروت - ط أ ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧م

١١١ - إغاثة الأمة بكشف الغمة
نشر/ محمد مصطفى زيادة - جمال الشيال - القاهرة ١٣٥٩ هـ - ١٩٤٠م لجنة التأليف والترجمة والنشر

١١٢ - شذور العقود في ذكر النقود
تحقيق د/ محمد عبد الستار عثمان - ط أ ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠م مطبعة الأمانة - بالقاهرة

ابن ميسر (تاج الدين محمد بن علي بن يوسف بن جلب راغب ت ٦٧٧ هـ)

١١٣ - المنتقى من أخبار مصر
تحقيق أيمن فؤاد سيد - المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة

ابن النديم (أبو الفرج محمد بن إسحق ت ٣٨٥ هـ)

١١٤ - الفهرست
نشر دار المعرفة للطباعة والنشر - بيروت ١٣٩٨ - ١٩٧٨م

القاضي النعمان (أبو حنيفة النعمان بن أبي عبد الله محمد بن منصور ابن أحمد بن حيون ت ٣٦٣ هـ)

١١٥ - رسالة افتتاح الدعوة
تحقيق وداد القاضي - دار الثقافة - بيروت - ط أ ١٩٧٠م

الهمداني
(الحسن بن أحمد بن يعقوب ٢٨٠ هـ - ٣٣٤ هـ)
١١٦ - صفة جزيرة العرب
تحقيق محمد بن علي الأكوع - منشورات دار اليمامة بالرياض ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م

ابن واصل
(جمال الدين محمد بن سالم ت ٦٩٧ هـ)
١١٧ - مفرج الكروب في أخبار بني أيوب
ج٢ تحقيق د/ جمال الدين الشيال - المطبعة الأميرية بالقاهرة ١٩٥٧م

ابن الوردي
(زين الدين عمر بن مظفر ت ٧٤٩ هـ)
١١٨ - تاريخ ابن الوردي
ج١ ، ٢ منشورات المطبعة الحيدرية بالنجف ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩م ط٢

اليافعي
(أبو محمد عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان ت ٧٦٨هـ)
١١٩ - مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان
ج٢ الطبعة الأولى ١٣٣٨ هـ مطبعة دائرة المعارف النظامية بحيدر آباد ونسخة أخرى ط٢ ١٣٩٠ هـ ١٩٧٠م مؤسسة الأعلى - بيروت

ياقوت
(شهاب الدين أبو عبد الله بن عبد الله الحموي)
١٢٠ - معجم البلدان
دار صادر - بيروت

اليعقوبي (أحمد بن يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح ت ٢٨٤هـ)
١٢١ - تاريخ اليعقوبي
بيروت ١٣٧٩ هـ - ١٩٦٠م
١٢٢ - كتاب البلدان
ط ليدن ١٨٩١م ونسخة أخرى ط٣ النجف ١٣٧٧ هـ - ١٩٥٧م

اليماسي (محمد بن مالك بن أبي الفضائل الحمادي ت نحو ٤٧٠هـ)
١٢٣ - كتاب كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة
تحقيق محمد عثمان - مكتبة ابن سينا للنشر والتوزيع

أبو يوسف (القاضي أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم ١١٣ هـ - ١٨٢ هـ)
١٢٤ - كتاب الخراج
الطبعة الخامسة - المطبعة السلفية ١٣٩٦ هـ

ثالثاً المراجع العربية الحديثة :

إبراهيم أحمد العدوي (دكتور)
١٢٥ - تاريخ العالم الإسلامي
مطبعة جامعة القاهرة ١٩٨٣م
١٢٦ - حركات التسلل ضد القومية العربية
المكتبة الثقافية - ديسمبر ١٩٦١م
١٢٧ - المجتمع المغربي - مقوماته الإسلامية والعربية مكتبة الأنجلو المصرية

إبراهيم حلمي
١٢٨ - كسوة الكعبة المشرفة وفنون الحجاج
كتاب اليوم - العدد ٣٢٠ - مؤسسة أخبار اليوم

إبراهيم بن حمود المشيقح	١٢٩	- تاريخ أم القرى ومكانة المرأة العلمية فيها من خلال الدر الكمين لابن فهد ط أ ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧م
إبراهيم رفعت	١٣٠	- مرآة الحرمين ج١ مطبعة دار الكتب ١٣٤٤ هـ - ١٩٢٥م
أحمد إبراهيم الشريف (دكتور)	١٣١	- دور الحجاز في الحياة السياسية العامة في القرنين الأول والثاني للهجرة - ط٢ - ١٩٧٧م دار الفكر العربي
أحمد أحمد بدوي	١٣٢	- الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام دار نهضة مصر للطبع والنشر ١٩٧٢م
أحمد السباعي	١٣٣	- تأريخ مكة (دراسات في السياسة والعلم والاجتماع والعمران) ج١ ط٥ ١٤٠٤ هـ - ١٩٤٨م وزارة المعارف بالمملكة العربية السعودية
أحمد السعيد سليمان (دكتور)	١٣٤	- تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة مطبعة دار المعارف بمصر
أحمد شلبي (دكتور)	١٣٥	- موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية ج٣ ط٤ ١٩٧٠م مكتبة النهضة المصرية ج٥ ط٢ ١٩٧٢م مكتبة النهضة المصرية
أحمد عبد الله الحسيني البوادعي	١٣٦	- الدرة السنية فى أنساب الحسنية والحسينية مكة ١٣٧٥هـ

أحمد عمر الزيلعي ١٣٧ - مكة وعلاقتها الخارجية
ط أ - الرياض - ١٤٠١ هـ - ١٩٨١م

أحمد فكري ١٣٨ - مساجد القاهرة ومدارسها
طبعة دار المعارف بمصر ١٩٦٩م

جميل حرب محمود حسين (دكتور) ١٣٩ - الحجاز واليمن في العصر الأيوبي
الطبعة الأولى ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥م جدة

حسن إبراهيم حسن (دكتور) ١٤٠ - تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر وسورية وبلاد العرب
الطبعة الثانية من كتاب « الفاطميون في مصر »
١٩٥٨م مكتبة النهضة المصرية

١٤١ - تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي (أربعة أجزاء)
مكتبة النهضة المصرية - القاهرة ١٩٨٢م

- المعز لدين الله
١٤٢ بالاشتراك مع د/ طه أحمد شرف ط٢ ١٩٦٤م
مكتبة النهضة المصرية - القاهرة

حسن أحمد محمود (دكتور) ١٤٣ - دراسات في تاريخ مصر في العصور الوسطى والحديثة
بالاشتراك مع د/ محمد أنيس ، د/ السيد رجب حراز
دار النهضة العربية ١٩٧٣م

١٤٤ - مصر في عصر الطولونيين والاخشيديين
بالاشتراك مع د/ سيدة إسماعيل كاشف - سلسلة الألف كتاب رقم ٢٨٥

حسن علي حسن (دكتور) ١٤٥ - دراسات في التاريخ العباسي - الجزء الثالث - مكتبة الشباب - ١٩٨٨ / ١٩٨٩م

١٤٦ - دراسات في تاريخ مصر الإسلامية بالاشتراك مع د/ عبد الله جمال الدين - دار الهاني للطباعة ١٤١١ هـ - ١٩٩٠م

حسين مؤنس (دكتور) ١٤٧ - مصر ورسالتها الطبعة الخامسة ١٩٧٦م مطبوعات الشعب

حمد الجاسر ١٤٨ - بلاد ينبع (لمحات تاريخية جغرافية وانطباعات خاصة) منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر - الرياض

راشد البراوي (دكتور) ١٤٩ - حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين الطبعة الأولى - مكتبة النهضة المصرية ١٣٦٨ هـ - ١٩٤٨م

سعيد عاشور (دكتور) ١٥٠ - الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب أعلام العرب (٤١) المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر

١٥١ - الأيوبيون والمماليك في مصر والشام دار النهضة العربية ١٩٧٠م

سليمان عبد الغني مالكي (دكتور) ١٥٢ - بلاد الحجاز منذ بداية عهد الأشراف حتى سقوط الخلافة العباسية في بغداد - الرياض ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣م مطبوعات دارة الملك عبد العزيز

السيد الباز العريني (دكتور) ١٥٣ - مصر في عصر الأيوبيين سلسلة الألف كتاب رقم ٢٦٩ الناشر مطبعة الكيلاني الصغير

١٥٤ - الحروب الصليبية
سيد علي الحريري — ط أ ١٩٨٨م تحقيق د/ عصام شبارو - دار التضامن - بيروت

السيد محمد الدقن (دكتور) — ١٥٥ - كسوة الكعبة المعظمة عبر التاريخ
ط أ ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦م

سيدة إسماعيل كاشف (دكتورة) — ١٥٦ - مصر في فجر الإسلام من الفتح العربي إلى قيام الدولة الطولونية
دار الفكر العربي - ١٩٤٧م
١٥٧ - مصر في عصر الإخشيديين
طبعة أولى ١٩٥٠م وطبعة ثانية ١٩٧٠م دار النهضة العربية

عائشة بنت عبدالله باقاسي — ١٥٨ - بلاد الحجاز في العصر الأيوبي (٥٦٧ - ٦٤٨ هـ)
دار مكة للطباعة والنشر - الطبعة الأولى ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠م

عبد الرحمن صالح عبد الله — ١٥٩ - تاريخ التعليم في مكة المكرمة
طبعة ١٩٧٣م - مكة المكرمة

عبد السلام هاشم حافظ — ١٦٠ - المدينة المنورة في التاريخ
الطبعة الثالثة ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢م منشورات نادي المدينة المنورة الأدبي

عبد العال سالم مكرم (دكتور) — ١٦١ - المدرسة النحوية في مصر والشام في القرنين السابع والثامن من الهجرة
ط أ ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠م دار الشروق

عبد الفتاح محمد وهبة (دكتور) ١٦٢ - دراسات في جغرافية مصر التاريخية
مؤسسة الثقافة الجامعية - ١٩٦٢م

عبد القدوس الأنصاري ١٦٣ - آثار المدينة المنورة
المكتبة العلمية بالمدينة المنورة ١٣٥٣ هـ - ١٩٣٥م

عبدالمجيد أبو الفتوح بدوي (دكتور) ١٦٤ - العلاقات المصرية الحجازية
في العصرين الفاطمي والأيوبي - مطبعة أورفو بالمنصورة

عبد المنعم ماجد (دكتور) ١٦٥ - السجلات المستنصرية
دار الفكر العربي - القاهرة - بدون تاريخ
١٦٦ - الحاكم بأمر الله الخليفة المفترى عليه
القاهرة ١٩٥٩م
١٦٧ - الناصر صلاح الدين يوسف
مكتبة الأنجلو المصرية - ١٩٥٨م

عبد المنعم سلطان (دكتور) ١٦٨ - المجتمع المصري في العصر الفاطمي
دار المعارف ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥م

عزيز سوريال عطية (دكتور) ١٦٩ - الحروب الصليبية وتأثيرها على العلاقات بين الشرق والغرب
الطبعة الثانية - دار الثقافة

عطية القوصي (دكتور) ١٧ - تجارة مصر في البحر الأحمر منذ فجر الإسلام حتى سقوط الخلافة العباسية - القاهرة ١٩٧٦م

علي حسني الخربوطلي (دكتور) ١٧١ - تاريخ الكعبة
دار الجيل - بيروت - ط٢ ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧م

١٧٢ - الحضارة العربية الإسلامية
مكتبة الأنجلو المصرية - بدون تاريخ

عمر الفاروق السيد رجب (دكتور)
١٧٣ - الحجاز - أرضه وسكانه - دراسة أيكولوجية
الطبعة الأولى ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩م دار الشروق - جدة
١٧٤ - المدن الحجازية - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨١م

عمر رضا كحالة
١٧٥ - مقدمات ومباحث في حضارة العرب والإسلام
مطبعة الحجاز بدمشق ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤م

فائق بكر الصواف (دكتور)
١٧٦ - العلاقات بين الدولة العثمانية وإقليم الحجاز في الفترة ما بين ١٢٩٣ هـ ١٣٣٤ هـ
مطابع سجل العرب ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨م

فؤاد حمزة
١٧٧ - قلب جزيرة العرب
الطبعة الثانية ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨م مكتبة النصر الحديثة - الرياض

قاسم عبده قاسم (دكتور)
١٧٨ - ما هية الحروب الصليبية
عالم المعرفة (١٤٩) ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠م

كمال الدين سامح (دكتور)
١٧٩ - العمارة الإسلامية في مصر
مطبعة جامعة القاهرة ١٩٧٠م

محمد بن أحمد العقيلي
١٨٠ - تاريخ المخلاف السليماني
ج١ ط٢ ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢م الرياض - منشورات دار اليمامة

محمد جمال الدين سرور (دكتور)

١٨١ - الحياة السياسية في الدولة العربية الإسلامية خلال القرنين الأول والثاني بعد الهجرة
دار الفكر العربي - القاهرة - ١٩٦٠م

١٨٢ - قيام الدولة العربية الإسلامية في حياة محمد - ﷺ -
دار الفكر العربي - القاهرة ١٩٥٢م

١٨٣ - سياسة الفاطميين الخارجية
ط٤ دار الفكر العربي ١٣٩٣ هـ / ١٩٧٣م

١٨٤ - النفوذ الفاطمي في جزيرة العرب
ط٤ دار الفكر العربي ١٩٦٤م

١٨٥ - الدولة الفاطمية في مصر
دار الفكر العربي ١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠م ونسخة أخرى ١٩٧٩م

١٨٦ - النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق
دار الفكر العربي - ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧م

محمد حلمي محمد أحمد (دكتور)

١٨٧ - مصر والشام والصليبيون
ط أ ١٤٠١ هـ - ١٩٨١م ، ط٢ ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢م

١٨٨ - الخلافة والدولة في العصر الأموي
القاهرة ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤م

١٨٩ - الخلافة والدولة في العصر العباسي
الطبعة الثانية ١٣٩٨ هـ ١٩٧٨م - مكتبة الشباب

محمد الخضري (الشيخ)

١٩٠ - محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية (الدولة الأموية)
دار القلم - بيروت - ط أ ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦م

١٩١ - محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية (الدولة العباسية)
المكتبة التجارية الكبرى بمصر (بدون تاريخ)

محمد ضياء الدين الريس (دكتور)

١٩٢ - النظريات السياسية الإسلامية
الطبعة السادسة ١٩٧٦م دار التراث

محمد عبد الرحمن الشامخ ١٩٣ - التعليم في مكة المكرمة والمدينة
ط أ ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣م

محمد كرد علي - الإسلام والحضارة العربية
١٩٤ ج٢ دار الكتب المصرية بالقاهرة ١٣٥٥ هـ / ١٩٣٦م

محمد لبيب البتانوني - الرحلة الحجازية
١٩٥ الناشر مكتبة المعارف - الطائف بدون تاريخ

محمد محمد أمين (دكتور) ١٩٦ - الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر (٦٤٨ هـ - ٩٢٣ هـ)
ط أ دار النهضة العربية بالقاهرة ١٩٨٠م

ناجي معروف ١٩٧ - المدارس الشرابية ببغداد وواسط ومكة
بغداد ١٩٦٥

نعيم زكي فهمي (دكتور) ١٩٨ - طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب أواخر العصور الوسطى
الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣م

رابعاً الرسائل العلمية :

أحمد كامل محمد صالح ١٩٩ - الحاكم بأمر الله في عصره
رسالة ماجستير - كلية دار العلوم - جامعة القاهرة ١٤٠١ هـ - ١٩٨١م
٢٠٠ - مصر بين المذهب السني والمذهب الاسماعيلي في العصر الفاطمي
رسالة دكتوراه - كلية دار العلوم - جامعة القاهرة ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧م

عبد المرضي محمد عطوة
٢٠١ - العلاقات بين المغرب والأندلس من الفتح الإسلامي للأندلس إلى قيام الدولة الفاطمية بالمغرب
رسالة دكتوراه - كلية دار العلوم - جامعة القاهرة
١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩م

علي بن الحسين السليمان
٢٠٢ - علاقة مصر بالحجاز زمن سلاطين المماليك
رسالة ماجستير - آداب القاهرة
١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠م
٢٠٣ - النشاط التجاري في شبه الجزيرة العربية أواخر العصور الوسطى ١٢٥٠ - ١٥١٧م
رسالة دكتوراه - آداب القاهرة - ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م

محمد عبد الفتاح عليان
٢٠٤ - الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في عهد دولة بني رسول باليمن
رسالة دكتوراه - آداب القاهرة ١٩٧٣م

نوبال محمود عباس قطان
٢٠٥ - الحجاز في ظل الدولة الأيوبية
رسالة دكتوراه - آداب الاسكندرية
١٩٩٠ - ١٩٩١م

خامسا مصادر افرنجية مترجمة إلى اللغة العربية :

بروكلمان (كارل)
٢٠٦ - تاريخ الشعوب الإسلامية
ترجمة نبيه أمين فارس - منير البعلبكي - دار العلم - للملايين - بيروت - الطبعة التاسعة ١٩٨١م
٢٠٧ - تاريخ الأدب العربي
ترجمة د/ عبد الحليم النجار - الطبعة الرابعة - دار المعارف

برنار (صاموبل) ٢٠٨ - الحياة الاقتصادية في مصر في القرن الثامن عشر
ج٣ الموازين والنقود - مكتبة مدبولي - ١٩٨٠م
الكتاب السادس من وصف مصر - ترجمة زهير الشايب

جب (هاملتون) ٢٠٩ - التاريخ الإسلامي في العصور الوسطى
المركز العربي للكتاب - دمشق - بدون تاريخ

جروبنباوم (جوستاف) ٢١٠ - حضارة الإسلام
ترجمة عبد العزيز جاويد - سلسلة الألف كتاب رقم(٥)

جيرار (ب . س) ٢١١ - الحياة الاقتصادية في مصر في القرن الثامن عشر
ج١ (الزراعة - الصناعات والحرف - التجارة) ١٩٧٨م
ترجمة زهير الشايب - مكتبة مدبولي - الكتاب الرابع
من وصف مصر

حتي (فليب) ٢١٢ - تاريخ العرب
المجلد الأول - ترجمة محمد مبروك نافع - ط٣ ١٩٥٢م
٢١٣ - تاريخ سورية ولبنان وفلسطين
ترجمة د/ كمال اليازجي - دار الثقافة - بيروت ط٢
١٩٧٢م

زامباور ٢١٤ - معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ
الإسلامي
ترجمة د/ زكي محمد حسن وآخرون - دار الرائد العربي
بيروت ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠م

سيديو (ل . ا) ٢١٥ - تاريخ العرب العام
ترجمة عادل زعيتر - ط٢ ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩م -
مكتبة عيسى البابي الحلبي

شاندور (ألبير)	٢١٦	- صلاح الدين الأيوبي - البطل الأنقى في الإسلام ترجمة سعيد أبو الحسن - مراجعة نديم مرعشلي - ط أ ١٩٨٨م دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر - دمشق
صبري باشا (أيوب)	٢١٧	- مرآة جزيرة العرب ج١ ، ٢ ترجمة د/ أحمد فؤاد متولى . د/ الصفصافي أحمد المرسي دار الرياض للنشر والتوزيع - ط أ ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣م
علوي (ناصر خسرو)	٢١٨	- سَفَرنامة ترجمة د/ يحيى الخشاب ط٣ دار الكتاب الجديد - بيروت ١٩٨٣م
علي (سيد أمير)	٢١٩	- مختصر تاريخ العرب ترجمة عفيف البعلبكي - دار العلم للملايين - بيروت ط٤ ١٩٨١م
فييت (جاستون)	٢٢٠	- دليل موجز لمعروضات دار الآثار العربية ترجمة د/ زكي محمد حسن - القاهرة ١٩٣٩م
	٢٢١	- القاهرة مدينة الفن والتجارة مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر بيروت - ١٩٦٨م
كاهن (كلود)	٢٢٢	- تاريخ العرب والشعوب الإسلامية ترجمة د/ بدر الدين القاسم ط٣ دار الحقيقة بيروت ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣م
لوبون (جوستاف)	٢٢٣	- حضارة العرب ط٤ القاهرة ١٩٦٤م

لويس (بونارد) ٢٢٤ - الدعوة الاسماعيلية الجديدة (الحشيشية)
ترجمة د/ سهيل زكار- ط أ - ١٣٩١ هـ - ١٩٧١م
دار الفكر

متز (آدم) ٢٢٥ - الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري
ط٢ ترجمة / محمد عبد الهادي أبو ريدة ١٣٦٦ هـ - ١٩٤٧م لجنة التأليف والترجمة والنشر

سورتيل (ريتشارد) ٢٢٦ - الأحوال السياسية والاقتصادية بمكة في العصر المملوكي
الرياض ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥م

سادساً: الدوريات:

أحمد خيرى ٢٢٧ - السويس ليست الفرما
مقالة بمجلة المجمع العلمي العراقي
المجلد الخامس عشر ١٣٨٧م- ١٩٦٧م

أحمد دراج (دكتور) ٢٢٨ - عَيْذَاب
مقال بمجلة نهضة إفريقية - السنة الأولى - العددان التاسع والعاشر يوليو - أغسطس ١٩٥٨م

جمال الدين الشيال (دكتور) ٢٢٩ - العلاقات بين مصر واليمن في العصر الفاطمي
مقال بمجلة الكتاب - عدد إبريل ١٩٤٨م
٢٣٠ - أنيس الجليس في أخبار تنيس لابن بسام
مقال (نشر وتحقيق) بمجلة المجمع العلمي العراقي
المجلد الرابع عشر ١٩٦٧م

صالح أحمد العلي (دكتور)	٢٣١	- المؤلفات العربية عن المدينة والحجاز مقالة بمجلة المجمع العلمي العراقي المجلد الحادي عشر ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م
صبحي لبيب (دكتور)	٢٣٢	- التجارة الكارمية وتجارة مصر في العصور الوسطى مقال بالمجلة المصرية للدراسات التاريخية - العدد الثاني المجلد الرابع - مايو ١٩٥٢م
عبد المنعم ماجد (دكتور)	٢٣٣	- النقود الفاطمية في مصر مقال بمجلة كلية الآداب - جامعة إبراهيم (عين شمس) المجلد الثاني - مايو ١٩٥٣م
فؤاد الماوي (دكتور)	٢٣٤	- العلاقات الاقتصادية والمالية بين مصر والحجاز من الفتح العثماني حتى الاحتلال الفرنسي ١٥١٧ - ١٧٩٨م مقال بمجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس العددان الرابع والخامس لسنتي ١٩٨٠ - ١٩٨١م

سابعا: المراجع الأجنبية :

1- Cahen: La Syrie du Nord. Paris 1940.

2- Esin Emel ;Mecca the Blessed Madinah the Radiant. Italy 1976.

3- De, Gaury, Gerald: Rulers of Mecca (First published. 1951)

4- Hogarth (D. G.) A History of Arabia. ClarendonPress. Oxford 1922.

5- Nicholson, Prof. Reynold A: Literary History of the Arabs London, 1914, Cambridge 1930).

6- O.Leary, Delacy, AShort History of the Fatimid Khalifate, London (1923).

7- Stanly Lane Poole: A History of Egypt in the Mıddle Ages. London. 1901.

الفهارس الفنية

فهرس الأعلام

فهرس الأمكنة والبقاع

فهرس الآيات القرآنية

فهرس القوافى

* * *

فهرس الأعلام

فهرس الأمكنة والبقاع

فهرس الآيات القرآنية

الآية	السورة	رقم الآية	الصفحة
(وإِذْ جَعَلْنَا البيتَ مَثَابةً للنَّاسِ وَأَمْنًا)	البقرة	١٢٥	٢١٦
(إِنَّ أَوَّلَ بيتٍ وُضِعَ للنَّاسِ للَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكاً)	آل عمران	٩٦	٨
(وممَّنْ حَولَكُم مِنَ الأَعرابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهلِ المدينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ)	التوبة	١٠١	١١
(وإِذْ قَالَت طَائِفَةٌ مِنْهُم يَاأَهْلَ يَثْرِبَ لامُقَامَ لكم فارجِعُوا)	الأحزاب	١٣	١٠
(وَقَالوا لَوْلاَ نُزِّلَ هَذَا القُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ القَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ)	الزخرف	٣١	١٢

فهرس القوافي

قافية الألف

ص ١٦٣

بني عمنا من آل موسى وجعفر — وآل حسين كيف صبركم عنا
بنـــي عمنا إنا كأفنتان دوحـة — فلا تتركونا يتخذنا الفنا فنا
إذا ما أخ خـلى أخـاه لآكل — بدأ بأخيه الأكل ثم بذا ثنى

قافية الراء

ص ١١٤، ١٣١

ما لمـن فارق الأحـــبة عذر — إن نهي دمعة عن الفيض صبر
إن سيف الإمام كالبحر ذي الموج — لـــــه في البلاد مد وجذر
ولئـن سـاءنا فـراق عـلى — فلنا في أبنه إذا مــا يسر
ذاك بحر سـقى به مـكة — الله وهذا لوفد صنـعاء بحر

***

من لي بأن ترد الحجاز وغيرها — أخبار طيب مواردي ومصادري
زارت بــي الآمال أكرم ساحة — فوق الثرى فغـدوت أكرم زائر
ووفدت ألتمس الكرامة والغنى — فرجــعت من كل بحظ وافـر

قافية العين

ص ١٦٢

بلادي وإن هانت علي عـزيزة — ولو أنني أعرى بها وأجوع
ولي كف ضرغام أصول ببطشها — وأشري بها بين الورى وأبيع
تظل ملوك الأرض تلثم ظـهرها — وفي بطنها للمجدبين ربيع
أأجعلها تحت الثرى ثم أبتـغي — خلاصاً لها إني إذاً لرقــيع
وما أنـا إلا المسك في كل بلدة — يضوع وأما عندكم فأضيع

قافية اللام

ص ٩٢

فإني أتيت ابن الـــكريم مفرج فأطـلق من أسر الهموم عقالي

قافية الميم

ص ١٣١

الحمد للعيس بعد العزم والهـــمم حمداً يـقوم بما أولت من النـعم
لا أجحد الحق ، عندي للركاب يد تمنــت اللجم فيها رؤية الخــطم
قربن بعد قرار العـــز من نظري حتى رأيت إمام العصر مــن أمم
ورحن من كعبة البطحاء والحـرم وفداً إلى كعبة المعـروف والنـعم
فهل دري البيت أني بعد فرقــته ما سرت من حـرم إلى حـــرم
حيث الخلافة مضروب سرادقـــها بين النقيضين من عفو ومن نــقم
وللإمامةأنـــوار مقـــــدسة تجلو البغيضين من ظلم ومن ظلم

قافية النون

ص ١٨١

لكم أينما كنتم مكان وإمـــكان ومـــلك له تعنوا الملوك وسلطان
ضربتم من العز المنيع ســرادقـاً وأنـــتم له بين السماكين ســكان
قدمت قدوم الليث والليث باسل وجئت مجيء الغيث والغيث هتان
وما برحت مصر إليـك مشــوقة ومــثلك من يشتاق لقياه بلدان
فحسبك قد وافاك يا مصر يوسف وحسبك قد وافاك يا نيل طوفان

ملخص البحث

عنوان هذا البحث « **مصر والحجاز - رباط وثيق وتاريخ عريق - أضواء جديدة على العلاقات بينهما زمن الفاطميين والأيوبيين** »

وقد اخترت هذا الموضوع لأنه يتناول العلاقات بين مصر والحجاز زمن الفاطميين الشيعيين والأيوبيين السنيين باعتبار أن تلك العلاقة وحدة واحدة وإن تغيرت القوى السياسية فى مصر ، كما أنه يلقى الضوء على ما كان لمصر من دور هام وكبير فى التاريخ السياسى والتكوين البشرى والاقتصادى والثقافى للحجاز .

وقد اقتضت الدراسة أن يتكون البحث من تمهيد وثلاثة أبواب تسبقها مقدمة وتعقبها خاتمة .

تناولت المقدمة أهمية الموضوع وسبب اختياره ، والمنهج الذى اتبع فى دراسته وأهم المصادر التى أفادت منها الدراسة .

وقد تناول التمهيد العلاقات بين مصر والحجاز قبيل الفاطميين وعنى بإبراز أمرين :

الأول : البيئة الجغرافية للحجاز وأثر هذه البيئة على السكان ، وأهم المدن الحجازية التى كان لها ارتباط واضح بمصر فى عهد الفاطميين والأيوبيين .

الثانى : العلاقات بين مصر والحجاز قبيل الفاطميين وخلصت الدراسة إلى أن الحجاز قد ارتبط بمصر منذ أقدم العصور نتيجة التقارب الجغرافى بينهما ، وأن العلاقات بين مصر والحجاز تضرب بجذورها فى أعماق التاريخ ، كما أن الصلات بينهما بعد الفتح الإسلامى لم تنقطع أبداً حتى قيام الدولة الفاطمية .

أما **الباب الأول** : وعنوانه « الدعوة الفاطمية فى الحجاز بين القوة والضعف » فيتضمن ثلاثة فصول :

الفصل الأول وعنوانه «حالة الحجاز قبيل السيادة الفاطمية» وينوه بالأحداث المتلاحقة على الحجاز منذ قيام الدولة الأموية ثم العباسية والمحاولات المتكررة لخلفاء الدولتين فى القضاء على معارضيهم بالحجاز وخاصة العلويين وخلص إلى أن الحجاز قد ضعف فى العصر العباسى الثانى نتيجة لضعف الدولة العباسية مما شجع القرامطة على غزو الحجاز دون أن تحرك الخلافة العباسية ساكناً وتبع ذلك قيام الأشراف العلويين فى مكة والمدينة بخلع طاعة العباسيين والدعوة للفاطميين.

الفصل الثانى ، وعنوانه «السيادة الفاطمية فى الحجاز» ويعرض لمظاهر السيادة الفاطمية فى الحجاز والتى تتمثل فى خضوع الحجاز للنفوذ الفاطمى المباشر، ومحاولات بعض القوى الخارجية دفع الحجاز للتحرر من السيطرة الفاطمية، ثم الجهود الفاطمية لإخضاع الحجاز لنفوذهم، ونجاحهم فى ذلك.

الفصل الثالث، وعنوانه «ضعف النفوذ الفاطمى بالحجاز» ويدرس هذا الفصل قيام دولة الهواشم بمكة، وعلاقات الهواشم بالفاطميين عقب الشدة العظمى التى تعرضت لها مصر وأثر هذه الشدة فى ضعف النفوذ الفاطمى بالحجاز، وبالمقابل ازدياد النفوذ العباسى تدريجياً ثم التنافس بين الخلافتين العباسية والفاطمية من أجل السيطرة على الحجاز .

الباب الثانى : وعنوانه «الحجاز والدولة الأيوبية» وينقسم إلى ثلاثة فصول:

الفصل الأول: وعنوانه «الوضع السياسى بالحجاز فى ظل الأيوبيين» ويعرض لسياسة صلاح الدين الأيوبى تجاه الحجاز الذى كان يحكمه آنذاك أسرة الهواشم من آل الحسن فى مكة بالإضافة إلى بنى مهنا من آل الحسين فى المدينة المنورة، وأنه لم يسع لاسقاطهما لأنه كان يعمل من أجل توحيد القوى الإسلامية لاتشتيتها .

الفصل الثانى، وعنوانه «مظاهر السيادة الأيوبية فى الحجاز» ويعرض للأحداث التى أدت إلى سيطرة الأيوبيين على الحجاز وخاصة مكة ماجعلها تكاد تكون تابعة إدارياً لمصر، فقد كان ولاتها يعينون ويعزلون من قبل السلطان الأيوبى.

الفصل الثالث ، وعنوانه «القوى الخارجية المعادية للحجاز وموقف الأيوبيين منها» ويعرض هذا الفصل لدور الأيوبيين فى حماية الأراضى المقدسة من الصليبيين ثم مرحلة الصراع على فرض النفوذ بالحجاز بين الأيوبيين وبنى رسول.

الباب الثالث ، وعنوانه «المجتمع الحجازى فى عهدى الفاطميين والأيوبيين» وينقسم إلى ثلاثة فصول :

الفصل الأول : وعنوانه «الناحية الاجتماعية» ويدرس العادات والتقاليد المتبادلة بين مصر والحجاز ويبرز التأثير والتأثر فى هذه العادات فى عهدى الفاطميين والأيوبيين.

الفصل الثانى : وعنوانه «الناحية الاقتصادية» وينوه هذا الفصل بما تمثله هذه الناحية من وضع مميز نظراً لما قام به حكام مصر فى عهدى الفاطميين والأيوبيين من رعاية مالية واقتصادية لسكان الحجاز وأشرافه .

الفصل الثالث : وعنوانه «الناحية الفكرية» ويعرض للمذاهب الفقهية فى كل من مصر والحجاز ومدى التشابه والاختلاف بينهما ثم يدرس العلماء وانتقالهم بين البلدين للتحصيل العلمى والتدريس ثم المدارس التى أنشأها الأيوبيون بالحجاز.

ثم كانت الخاتمة وفيها يسجل البحث أهم النتائج التى توصل إليها والقضايا التى اشتمل عليها .

* * *

The Summary of the thesis

The title of this thesis is "Egyptian Hijazian relations at Fatimids and Ayyubids epoches and their diplomatic and civilian effects".

I Chose this subject of studies to Show the relation between Egypt and El-Hijaz during times of Fatimids (Shiah) and Ayyubids (Sonna) as this relation is a unit in spite of change the diplomatic forces in Egypt.

This study inidicate also the great important role of Egypt on diphomatic history and human, economic and cultural formation of El-Hijaz.

Studies led to this thesis which consists of preface, introduction, three parts and conclusion.

The preface showed the importance of the subject, why it was shosen, followed program in this study and the most important references.

The introduction was approached to the relationship between Egypt and El-Hijaz preceeding Fatimids aimed to indicate two views :

First : The geographical environment of El-Hijaz and its effects on habitants and the most important Hijazian cities which

had been confirmed correlated with Egypt during Fatimids and Ayyubids time.

Second: Relations between Egypt and El-Hijaz preceding Fatimids. This study concluded that El-Hijaz was correlated to Egypt since earlier centuries for nearly geographical sites of them.

Egypt and El-Hijaz had historical correlated even after Islamic conquest until Fatimides.

The first part titled "Calling of Fatimids in El-Hijaz as its strength and feeble " consisted of three chapters.

The first chapter titled "El-Hijaz .state before predomenant of Fatimids. reviewed the successive events wich happened in El-Hijaz since Umayyads fallowed by Abbassids and the successive attempts of their Caliphate to finished thier enemies specially Alids. It is concluded that El-Hijaz become weak as weakness of Abbassids in Second Abbassids epoch.

This promise Qarmatians to attack El-Hijaz without any defence of Abbassids Caliphate.

This led Ashraf Alids to calling to Fatimids in Mecca and Medina.

The second Chapter titled "Fatimids domenant in El-Hijaz" and reviewed the domenant properties of Fatimids in El-Hijaz which was presented submission of El-Hijaz under the direct Fa-

timids influence and the tries of some external forces to call El-Hijaz to freedom of Fatimids demonenant and the Fatimids activeties to subntt El-Hijaz to their influence and how they succeeded.

The Third chapter titled "Feeble of Fatimids in El-Hijaz" which study the appearance of El-Hawashem government Mecca and their relation to Fatimids after the most strength wich affected Egypt and its effect on feebling Fatimids. On the hand increasing of Abbassids in fluence gradually and then the competition between Abbassids and Fattinids in domenance on El-Hijaz.

The second Part titled "El-Hijaz and Ayyobids nation" divided into three chapters:

The first chapter titled "Diplomatic state in El-Hijaz in Ayyobids epoch". reviewed the politics of Saladin in El-Hijaz which was ruled at that time by Hawashem family belonging to Al-Hassan in Mecca in addition to Bani Muhanna belonging to Al-Haussin in Medina he did not try to down with them but he was made for Islamic forces to be together not for to seperate it.

The second chapter titled "Symptoms of Ayyubids domenante in El-Hijaz" showed events wich led to domination of Ayyubids in El-Hijaz specially in Mecca and thus it was nearly Egyptian government, so sultans of Ayyubids were appointing and removing El-Wali.

The third chapter titled "External forces against El-Hijaz

and Ayyubids possition" showed Ayyubids action to prevent crosaders from submitting the Holy lands and then the fight stage between Ayyubids and Bani-Rassol for dominance in El-Hijaz .

The third Part titled "Hijazian society in Fatimids and Ayyubids epoches". It consisted three chapters:

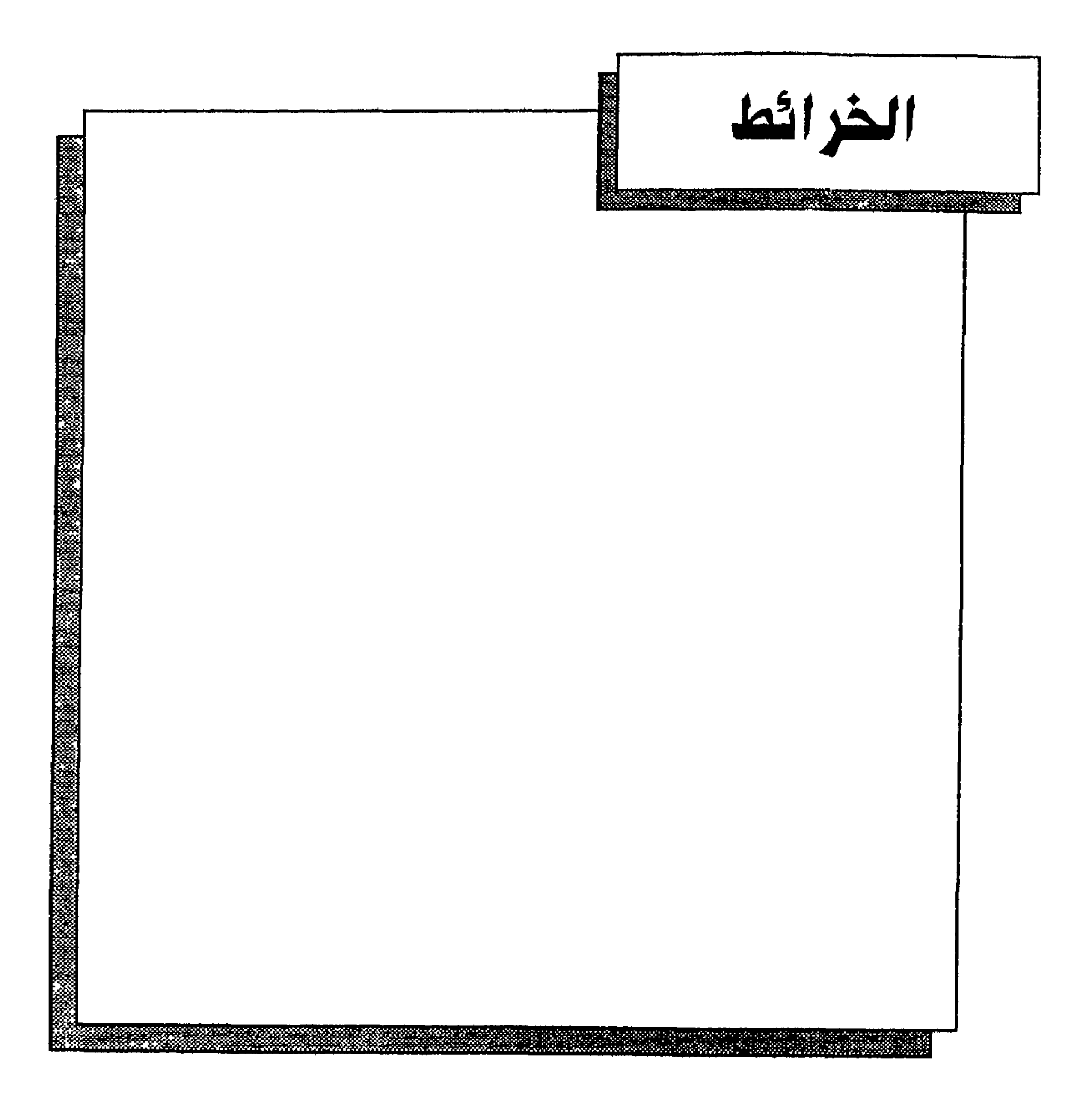
The first chapter titled "Social aspects" dealing of customs and imitations interchanged between Egypt and El-Hijaz and magnified effects and affects of these customs in Fatimids and Ayyubids periods.

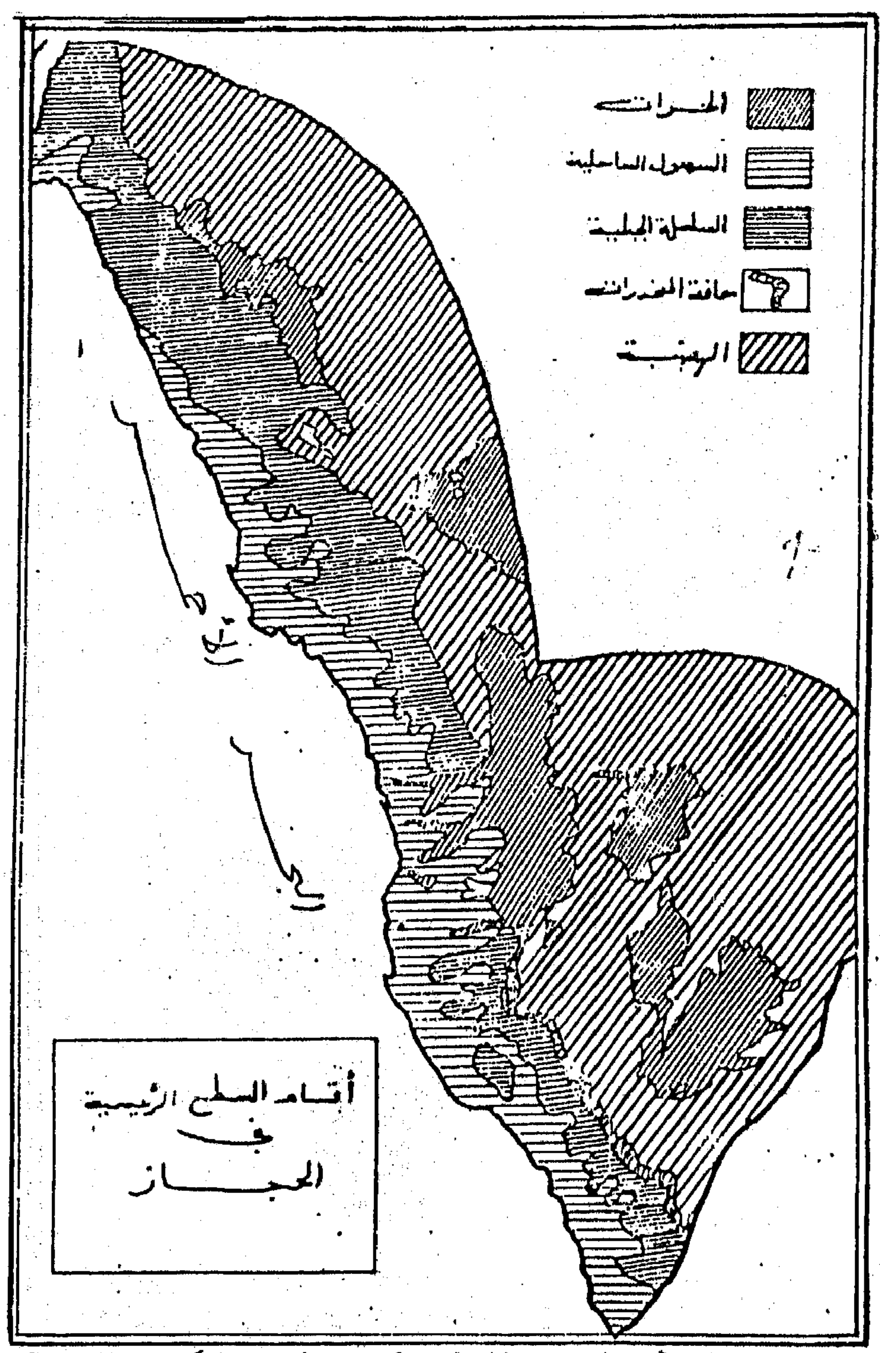
The second chapter titled "Economic aspects" deals with the important position of this aspect and haw the rulers of Egypt in Fatimids and Ayyubids epoches patroned economically El-Hijaz population and Ashraf.

The Third chapter titled "Ideological aspects" showing the ideologies of Fecche in Egypt and El-Hijaz as similar and difference symptoms.

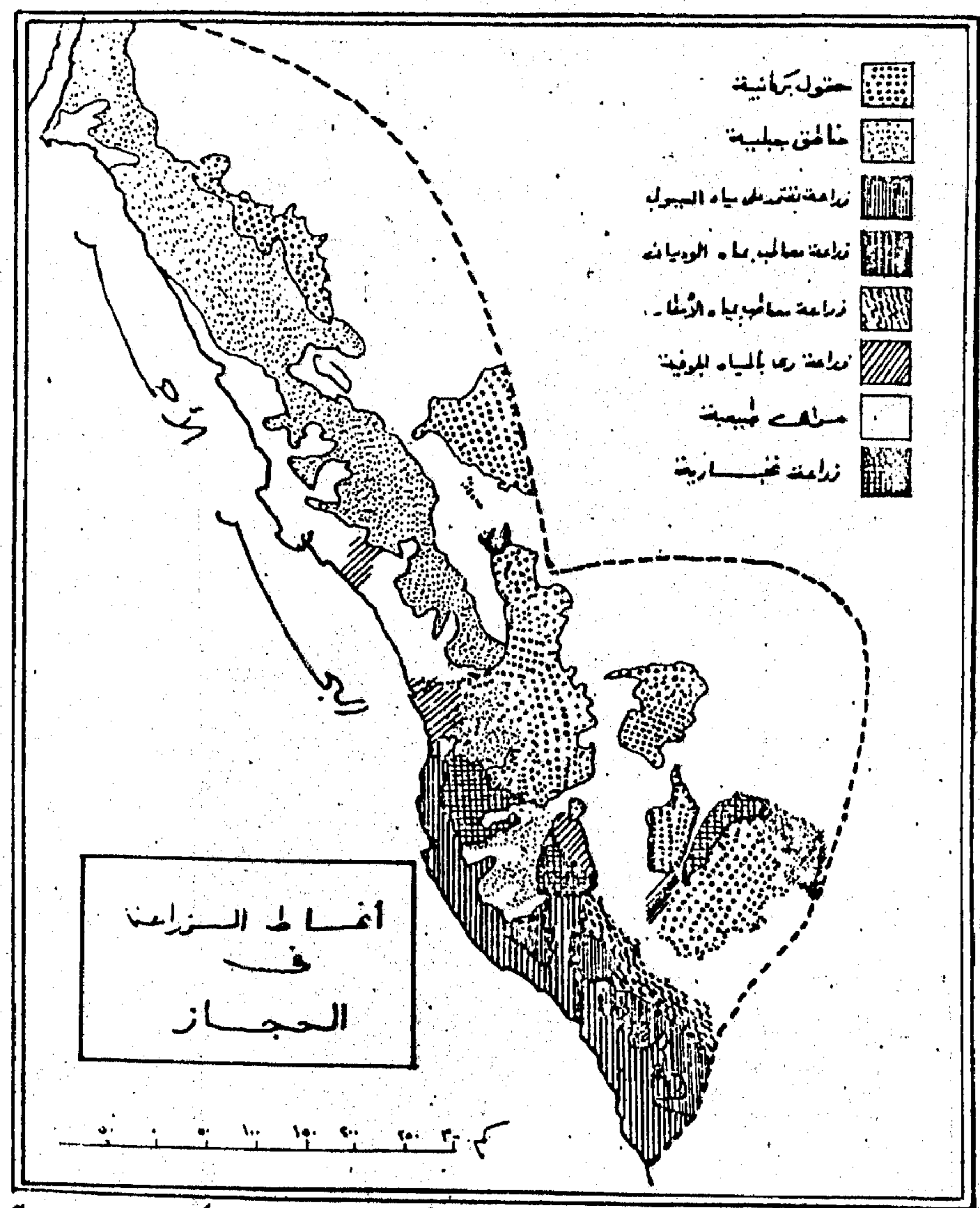
Then, it study scientists and their travels across the two countries for scientific knowledge and teaching and schools wich had been built by Ayyubids in El-Hijaz.

Finaly, this study reported the most important results wich had concluded and the subjects including.

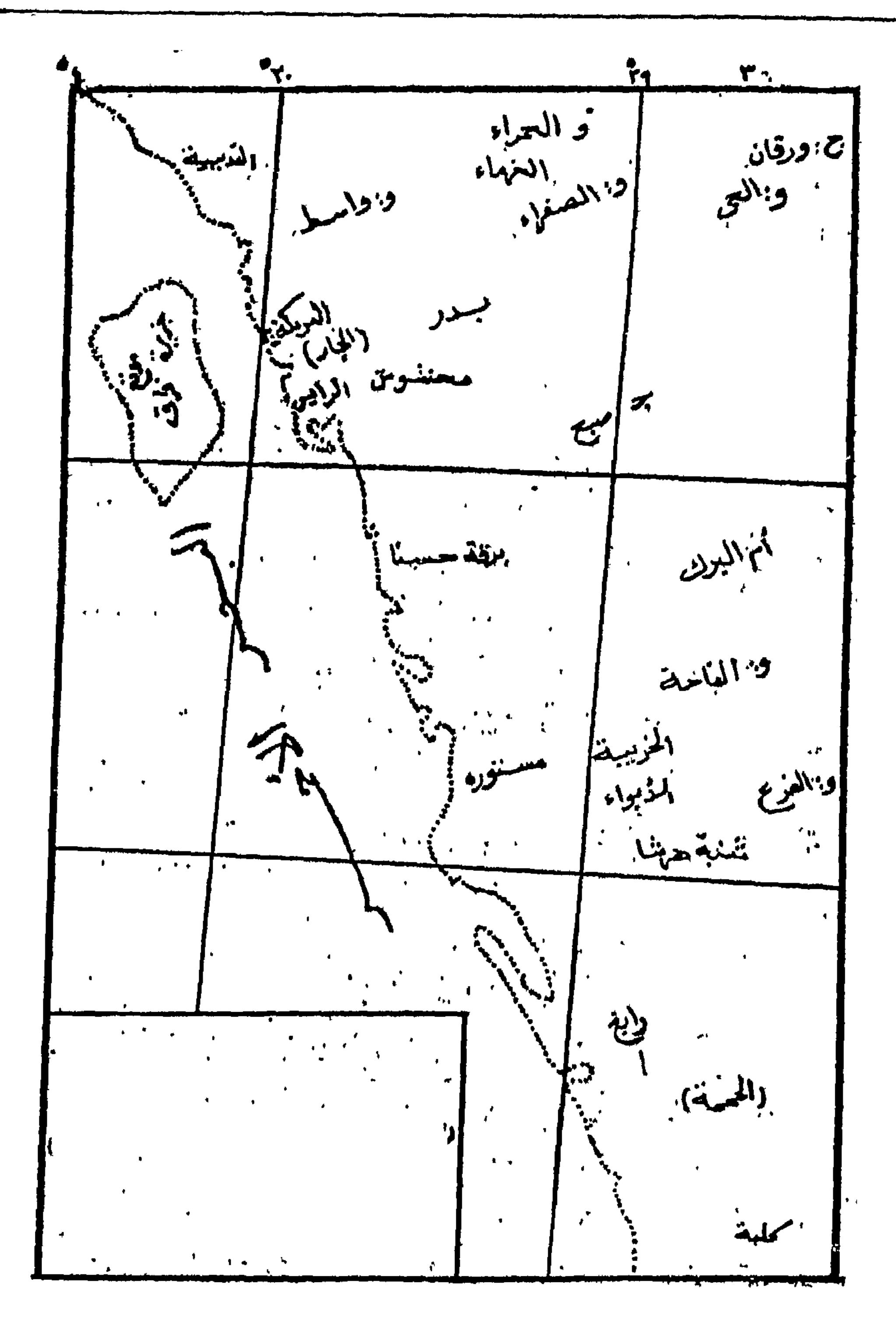

الخرائط



نقلت هذه الخريطة من كتاب « الحجاز - أرضه وسكانه » للدكتور عمر الفاروق



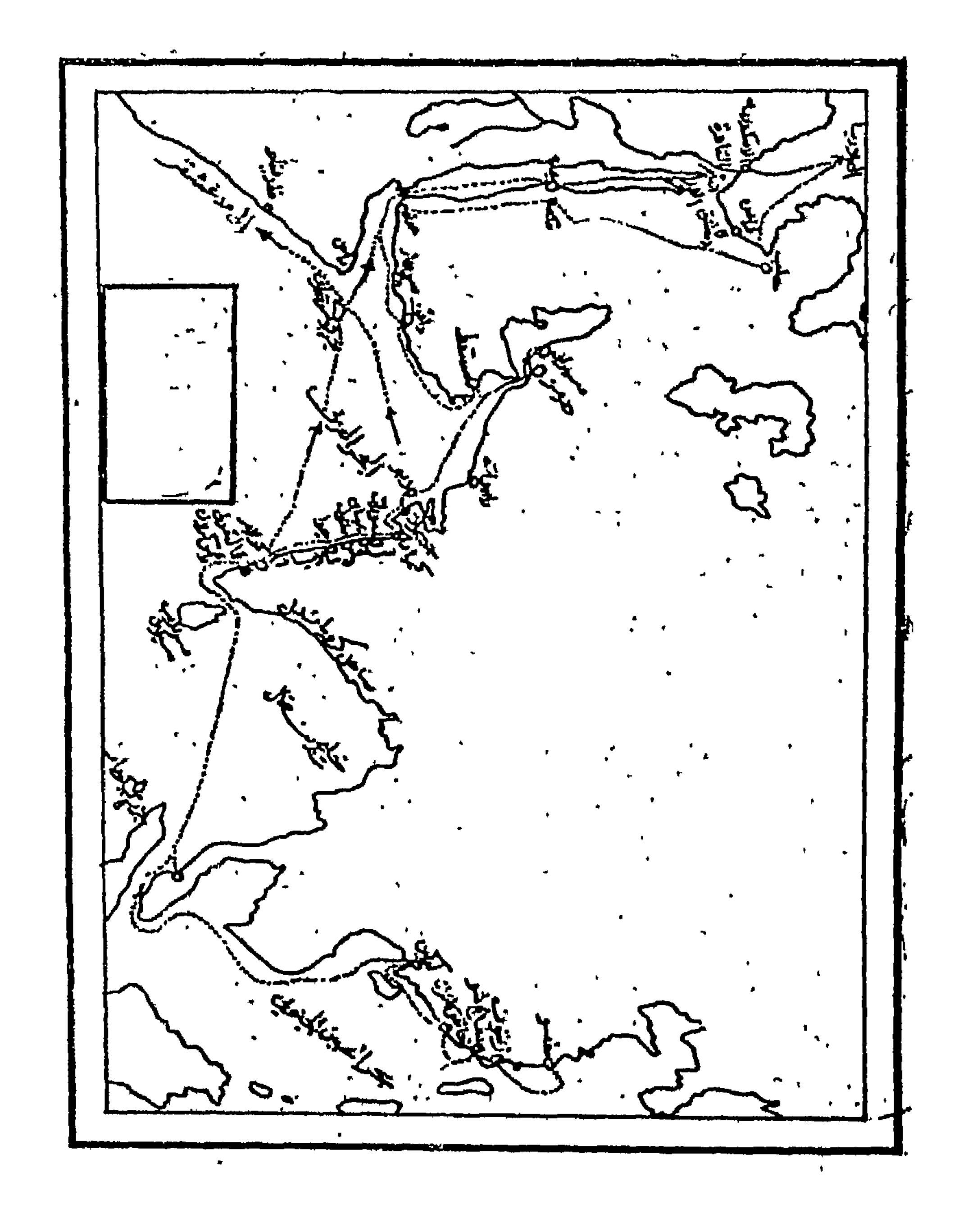
نقلت هذه الخريطة من كتاب «الحجاز - أرضه وسكانه» للدكتور عمر الفاروق



رسم تقريبي لموقع الجار (ميناء المدينة القديم)

و = وادي - ج = جبل

نقلت هذه الخريطة من كتاب « المدن الحجازية » للدكتور/ عمر الفاروق

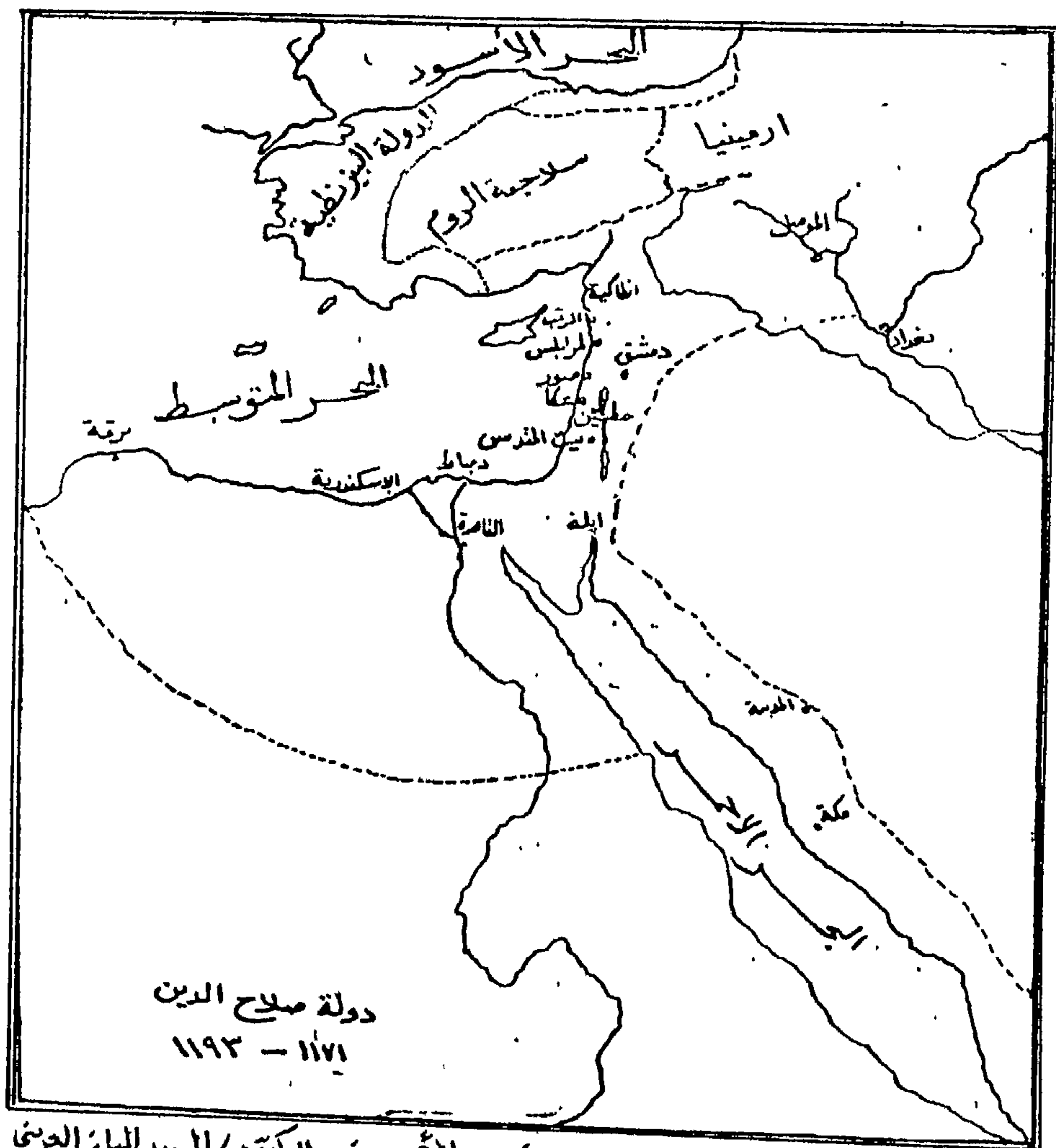


الحجاز على طريق التجارة القديم

نقلت هذه الخريطة من كتاب « المدن الحجازية » للدكتور / عمر الفاروق السيد رجب



نقلت هذه الخريطة من كتاب « تاريخ العالم الإسلامى » للدكتور / إبراهيم العدوى



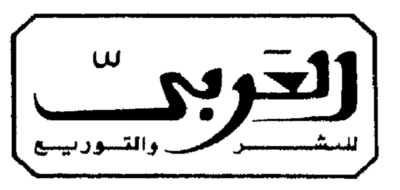
نقلت هذه الخريطة من كتاب « مصر في عصر الأيوبيين » للدكتور / السيد الباز العريني

محتويات البحث

محتويات البحث

رقم الايداع ٤٨٧٤ / ٩٣

I.S.B.N. 977-5040-15-9



٦٠ شارع القصر العينى أمام روزاليوسف

(١١٤٥١) القاهره

ت ٣٥٥٤٥٢٩ فاكس ٣٥٤٧٥٦٦